مذكرات

محمد الرايس

ذهاب وإياب الى الجحيم

ترجمة :

عبد الحميد جماهري

تأليف: محمد الرايس
ترجمة: عبد الحميد جماهري
الايداع القانوني والدولي : 2000/1672
الطبعة: الاولى ـ نونبر 2000
مطبعة: دار النشر المغربية
تصميم الغلاف: عبد اللطيف الراوي
منشورات: «الاتحاد الاشتراكي»

تقديم

«قررت اليوم، بعد تفكير طويل أن أكتب هذه الشهادات الحقيقية» بهذه العبارة يبدأ محمد الرايس الذي كان ضمن الانقلابيين في حادثة الصخيرات قبل أن يصبح من الأشباح الحية لمعتقل تازمامارت، وهو يبدأ في الواقع من قبل هذه العبارة، أي منذ السبعينات باعتباره أحد الشهود الأحياء على ما فعله طلبة مدرسة أهرمومو (رباط الخير حاليا)، ذات يوم من يوليوز 71 الساخن، إن السيد محمد الرايس يريد حسب ما كتب في مقدمة مذكراته - أن يروي الوقائع كما حدثت وكما توالت حوله وأمام عينيه، ولايريد «أن يفتح السجال» حول ما قيل وكتب عن هذه الوقائع، إن الهدف من وراء كل ما كتبه، وربما الهدف من نشره أيضا «تسليط الضوء على كل النقط التي ظلت تلفها العتمة الى يومنا هذا».

إن الرايس يتساءل - هل عليَّ أن أحكي فعلا كل شيء؟ ويجيب «إن عدم فعل ذلك يعني عدم الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي قبل خروجي، وخيانة ضميري ولاسيما خيانة رفاقي في المعتقل - السجن الذين ماتوا في ظروف وحشية بعد أن عانوا بشكل فظيع ومضى على انقضاء عقوبتهم زمن طويل»، ويضيف السيد محمد الرايس «إنني أريد أن اتخلص من هذا الكابوس الذي يسكنني والصراخات الحادة لرفاقي الذين جُنوا بفعل العزلة والظلمة»، وربما نقول من جهتنا إن الطابع العلاجي للشهادة على المستوى الفردي يمكن أن يسحب على الذات الجماعية على المستوى العام.

بمعنى آخر إن الجسد الاجتماعي المترامي لبلادنا لايمكنه أن يعيش

بكل أشباحه حياة سليمة، إن منطق الفرد قد يصدق أيضا على الجماعة في مثل هذه الحالات، لابد من الحسم يقول التحليل النفسي ولابد من الحسم أيضا يقول المنطق التاريخي، ذلك، لأن من لم يحسم مع ماضيه قد يضطر الى اعادته، إن كابوس كل رفاقه في المعتقل، كان كابوسا عاما والعقل الباطن لكل من دخل الى تازمامارت، لهذا الفعل أو ذاك الرأي، يظل العقل الظاهر للسياسة إذا ما تعمد أصحابها أن يضربوا صفحا عن مكر المغيب، كما قد يكون العقل الباطني للجماعة إذا ما ظلت كل العناصر التي تشكل الوعي العام مغيبة في أسرار الدولة والمجتمع.

إن وفاء الرايس لمن عاشوا معه محنة تازمامارت كان وراء قراره في الكتابة ولاشك، لكنه أراد أيضا أن يحرر عقله الباطني والواعي أيضا من «أنين المحتضرين العاجزين أمام الموت الحتمي ومن صرخات كل الذين طالبوا بالانصاف قبل وفاتهم».

«من أجل العدالة أيضا جاء هذا الكتاب»، يقول محمد الرايس «ذلك لأنه في معتقل الموت، لم يتم خرق القوانين فقط، بل إن الإنسانية جمعاء اهينت ومرغت في التراب».

لابد من الشجاعة لقول كل الألم الذي تراكم ولقول بعض التفاصيل والتفاصيل نفسها ناطقة بما فيها ولقد سردها كاملة في 90 صفحة فيما يخص انقلاب الصخيرات وما يزيد عن 300 صفحة فيما يتعلق بتازمامارت. إنها شهادة لابد من أن يحيى المرء صاحبها، لاعتمادها مكتوبة أولا، وذلك ما لايفعله ساستنا جميعا ومعتقلونا السابقون، للأسف، ولأنه رسم فيها صور الشخصيات بدقة تنم بالفعل إلى انتباه خاص ربما شحذته الظلمة والعزلة في سراديب الموت «هنا حيث لايتم الاكتفاء بالتعذيب بل يتم القتل ببطء»، ولهذا السبب أيضا قرر الرايس حسب ما كتبه في مقدمة الكتاب، وصف التفاصيل الدقيقة لهذه المأساة بكل آلامها وبؤسها واحباطاتها ورعبها، «لقد حررت هذه الشهادة بإخلاص ودقة - يقول محمد الرايس - مست الأحداث والمشاهد التي عشتها سواء في الصخيرات أو تازمامارت والله وحده شاهد على ما أقول في هذا المخطوط»، وقد أهدى كتابه الى رفاقه (32 الذين ماتوا في المعتقل)، وكل الزوجات والأمهات والى «أمي التي قضت حياتها كلها في الانتظار، في البدء انتظرت المرحوم والدي الذي كان سجينا لدى النازيين ولم يعد أبدا، ثم ابنها الوحيد الذي ظلت منذ اختطافي

وتكفيني، تنتظر رغم اليأس عودتي الى أخر رمق من حياتها ووفاتها سنة ١٩٨٩، وإلى زوجتي خديجة الشاوي التي استطاعت بفضل شجاعتها وثباتها ان تربي أبنائي الستة رغم قلة ذات اليد وصعوبة العيش من جهة، وناضلت بصلابة وصمود رغم قمع المخزن ضد ترحيلي غير القانوني، من جهة ثانية، والى ابنتي إلهام التي بذلت كل ما في وسعها، دفاعا عن اطلاق سراحي قبل ان تكشف فيما بعد عن وجود معتقل الموت بتازمامارت الذي كتم سره المسؤولون وظل يشكل «طابو» لدى البعض وانكره البعض الآخر ..».

ولكل اولئك ولغيرهم من ضحايا تازمامارت يهدي الرايس كتابه وهو يعلم بانه قد يعاني بسبب شهادته وربما يجد من يتهمه بالسب والقذف والكذب والمساس بامن الدولة وغير ذلك من الاتهامات.

لكن نعتقد أن قمة المعاناة قد عيشت، ولعل من حسن المرحلة ان الناس يتحدثون ويعبرون ويقولون اخطاءهم علانية وربما من ذلك ايضا عناصر لتاسيس الزمن القادم.

اعبابو
يلمح للمجد

اهرمومو، هوالاسم المتواضع عليه الذي أطلق تعسفيا علي قرية «العدين» من طرف قبطان فرنسي مكلف بالشؤون الاهلية خلال بداية الغزو. (حرب الهدنة)، واهرمومو الواقعة في قلب الاطلس المتوسط علي بعد 70 كلم جنوب شرق مدينة فاس علي علو 1134 متر، يطل على وادي زلول والنواحي، التي تعبر منطقة امازيغية لقبائل بني وراين الذين قاتلوا بضراوة قوات الاحتلال وكافحوا ببسالة من أجل حريتهم. وسعيا إلى فرض سلطتها على هذه المجموعات المقاتلة زرعت فرنسا وحداتها في كل النقط الحساسة للرد كل الاحتمالات. وقد جندت فيما بعد سكان هذه القبائل المتمردة من خلال تجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال لتكوين ميليشيات «الكوم» من أجل محاربة الالمان ثم الهند الصينيين. وقد استطاع هؤلاء المحاربون، بفضل شجاعتهم العالية وصمودهم أن يقدموا خدمات كبرى لفرنسا. وفي سنة 1953 وضع الجنرال غيوم، المقيم العام بالمغرب، الحجر الاساس لبناء ثانوية عسكرية مماثلة لثانوية لافليش (السهم) بفرنسا، هذه المدرسة التي لم تكن قد استكملت بعد بناءها غداة استقلال المغرب سنة 1956، أصبحت المدرسة العسكرية للضباط. وهنا تلقيت تكويني العسكري تحت إدارة ضباط فرنسيين لامعين وضباط صف مقاتلين شاركوا في الحرب، الكلاسيكية منها والتمردية... لقد كان التكوين قاسيا، لكنه مفيد لتعلم فنون الحربية... في سنة 1958 اصبح اسم المدرسة «المدرسة العسكرية الملكية» بقيادة ادريس بن عمر (الذي تقاعد برتبة جنرال دوديفزيون). وقد خلفه ضباط ساموون آخرون الى حدود شهر ماي 1968 عندما اسندت الادارة المدرسية الي واحد من اصغر القادة العسكريين في القوات الملكية، الا وهو امحمد عبابو، عمره 33 سنة من أصل ريفي، ولد ببوريد، دائرة اكنول منطقة تازة. كان فاتح البشرة. اشقرها، صغير القامة، عصبي المزاج صوته حاد ونفاذ، حيويا، سلطويا إن لم يكن قاسيا، واسع الخيال والمبادرة وجد طموح. بمجرد وصوله غير كليا البنية التحتية للمدرسة علي كل المستويات، سواء على المستوى الهندسي أو المادي أو بتغيير البرامج ومضاعفة العدد من اطر وطلبة، وفي ظرف أربعة أشهر نجح في اعطاء المدرسة طابعا جديدا، بالهدم والتعديل والبناء. لقد كان اعبابو حاصلا على دبلوم مدرسة

القيادة العامة بباريس (ليطامارجو) بميزة حسن، وبمجرد عودته عين من بين الاستراتيجيين المكلفين للمناورات الكبرى للجيش وإدارتها. كان اصدقاؤه يلقبونه «نابليون الصغير» بسبب قامته وهيائه التي كانت تشبه قليلا هياة الامبراطور، وخاصة بسبب طريقته في إدخال يده بين اصداف بذلته. وقد قاد وحدات أخرى قبل أن يعين علي راس المدرسة. لقد كان يدير رجاله ب «العصا»، وهو نفس المسلك الذي سلكه في اهرمومو أيضا حيث أخضع رجاله لسطوته. لقد كان موضع خوف وحب معا من طرف الجميع ومحترما حتى من طرف رؤسائه، غير أن منافسيه كانوا يكرهونه، وبما أنه كان يتمتع بشعبية كبرى في أوساط الجيش بفضل ذكائه وشخصيته وحزمه فقد خلق له، لاشعوريا، العديد من الاعداء علي المستوى العالي.

لقد بنيت المدرسة علي أطراف سفح حاد لسهل شاسع، وتعطي البنايتان الكبيرتان المشيدتان بالاجور الاحمر، الانطباع بانهما باخرتان غارقتان وسط الطبيعة. والمدرسة موضع مثالي للتدريب علي القتال بفضل تنوع التضاريس والغطاء النباتي والادغال التي تغطي الضفة الجنوبية لواد زلول، كما أن المناظر المتنوعة والجبلية لمنطقة جبل بويبلان الذي تغطيه الثلوج حتى في الصيف تثير الانتباه مجبرة كل عابر على الوقوف من أجل التملي بالجمال المتوحش للطبيعة. ومن سوء الحظ أن الارض أقل خصوبة من المناطق المحيطة بها والتجارة أقل رواجا مما فرض علي السكان المحليين حياة متقشفة والالتحاق بالجيش.

لقد قضيت هناك سنين طويلة دون أن تصدر عني أدنى شكوى من قساوة المناخ أو انعدام الترفيه، بل كنت أجد المكان رائقا ولم أفكر في الذهاب الي مكان آخر لأنني كنت أجد راحة كبرى في الهدوء والطمانينة السائدين، في حين أن اعبابو لم يكن يحب اطلاقا البقاء في أهرمومو، كان يضجر كثيرا لهذا كان يرتاد فاس كثيرا، ومكناس أيضا من أجل الترفيه والبحث عن ملذات الحياة الجميلة، ورغم أنه كان متزوجا وأبا لاربعة أطفال فقد كانت له أربع عشيقات رسميات كن ياتين بالتناوب، للترفيه عنه ومنادمته وقضاء الليل معه عندما يكون مجبرا علي ملازمة المدرسة. لم يكن هذا ليمنعه، مع ذلك، من الاستيقاظ باكرا والاشراف بنفسه علي الاعمال الجارية أو مراقبة برنامج التداريب.

كان دقيقا في عمله، لايرفث، وجد صارم في مايخص المردودية ومن

انصار الطريقة الصلبة حتى أنه كان أحيانا ينتهك القوانين العسكرية . لقد كان يبعث على الخوف بسبب عدم تسامحه وعلي الاحترام بفعل كفاءته. وسرعان ما داع صيته، في أوساط الجيش وقد كان الجميع يتحدث عن التقدير الدييكنه له رؤساؤه، وكثيرا ماكان الجنرال ما جور يعطي به المثل ويشجعه بتسهيل ما موريته، وقد منحه كل الوسائل الضرورية (المادية والبشرية) لمساعدته علي إنجاح مهمته، لقدكان اعبابو دائما راضيا أكثر من الآخرين على تلبية حاجياته. وفي الواقع لقد دلله الجنرال ماجور للقوات المسلحة الملكية كثيرا، لقد طبق قائدنا احدى المقولات التي تحث على مايلي: «اعملوا أولا، صححوا فيما بعد ولا تظلوا مكتوفي الأيدي في انتظار الكمال». لقد قام في البداية بالعمل بتعديل كل شيء حتى يظهر لرؤسائه قدرته على مستوى الابتكار، وبما انه حصل على الوسائل الضرورية والمرضية عمد بعدها على مستوى التصحيح بالتعديل التدريجي لعمله، وهكذا لم يكف طيلة 3 سنوات على إتقان عمله أكثر فأكثر بالرجوع إلى ما رآه أو تعلمه في الخارج. فاقام قاعات «متاحف» وقاعات للتكوين وساحات لتصويب الليلي مستوحاة من فرنسا. واقام أيضا مسالك وعرة وأخرى شبيهة بالتي يتدرب عليها المارينز و«الراجرز» ومكتب للتصويب بأهداف متحركة مستوحاة من امريكا . وبمجرد عودته من سفر تكويني بالخارج طبق علينا جدول حصص أمريكيا محضا وفرض علينا تلقين الطلبة الضباط طريقة تسديد كندية وعلمنا الاستعراض على الطريقة الايرانية، وبما انه كان من انصار الابتكار فقد كان انشغاله الدائم هو عصرنة وتحديث وحدته كي تصبح نخبة الجيش. وإذا كان اعبابو قائدا كفوءا واستراتيجيا (لأنه كان الذي يهيء ويدير بمعية الكومندان البرنيشي - العمليات الكبرى للجيش في بيررامررام بمنطقة مراكش) ، فإنه كان ايضا «نذلا» حقيقيا بما في الكلمة من معنى، فكل الوسائل في نظره صالحة ما دامت توصله إلى هدفه، وفي هذا السياق، وبما أن القروض الممنوحة من طرف الدفاع الوطني لتغطية حاجيات المدرسة كانت غير كافية لتحقيق طموحاته العالية وسد ثغرات نفقاته التبذيرية فقد لجأ إلى الطريقة العنيفة (سيستيم دي SYSTEM D). للقيام بهذه العملية غير الشريفة شكل فريقا مكونا من جنود أقوياء وضباط متحمسين يقودهم «عقة» بمساعدة لاجودان فرخاتس (وكلاهما خريج الجيش الفرنسي، الأول سنة 1956 وللثاني 1965) للقيام بعمليات ليلية (أي سرقات ليلية) كانوا يركبون

السيارات ويتسلحون بالرصاص غير القاتل (ABLANC) لترهيب حراس الليل أو الفضوليين، ثم يعيثون فسادا في المنطقة بسرقة عتاد الدولة مثل مواد البناء من لدن الاشغال العمومية وأعمد الهواتف لبريد والخشب من المياه والغابات، بل تجرأوا ذات يوم سرقة آلة خلاطة وآلة حفر من أجل استعمالهما في إقامته مسبحا لأن الأرض كانت صخرية كما كانوا يسرقون الآجور والرمل من عند الخواص وأشياء أخرى إذا احتاجوها.

وقام اعبابو أيضا، ضدا على إدارة السكا نالمحليين، بتغيير مجرى ماء عين حيوية وجد مهمة بالنسبة للمنطقة لفائدة المدرسة. وقد ذهب العديد من الشكاوي سدى لأن اعبابو كان له وزنه وسلطته حيث نال تعاطف الجنرالات بدعوتهم عنده وإحياء حفلات ساهرة بالمشوي والشيخات. وهكذا فتحت أمامه كل الأبواب ولبيت كل طلباته. واعبابو الذي كان صاحب فراسة وصبورا صبر القط، كانت له الفطنة والطريقة الشيطانية والفنية لارشاء أي كان وإفساده، ولقد كان بإمكانه إرشاء الشيطان نفسه! وبهذا بدأ يخلق لنفسه اعداء، لاسيما بين رفاق فوجه، هذا الضابط الشاب المنحدر من عائلة متوسطة والكثيرة الاعداد كان أبوه الشيخ مسعود رئيس قرية بودير بالريف، المنطقة الفقيرة والمتمردة التي قصفتها الطائرات وهاجمته الذبابات وسحقتها عشر كتيبات من الجيش سنة 1959 إبان تمرد أخمد بالقوة: وهو مالم ينسه اعبابو ابدا. لقد تابع دروسه الابتدائية بتازة بإحدى المدارس الفرنسية قبل أن يلتحق بالدار البيضا (مكناس) لمتابعة الدراسات الثانوية، وفي 1956 انخرط في الجيش كطالب ضابط وبعد تدريب (سطاج) دام سنة عين سوليوتنات SOUS - LIEUTENANT

لقد امتاز في بداية حياته المهنية بالحيوية والتبصر والارادة والكفاءة لكن توالى الأيام وتأثير المحيط ورفاق السوء والحياة الباذخة كل هذا بدأ، شيئا فشيئا يلطخ سمعته والمس بنزاهته ولا شعوريا بدأ يفقد ميزاته لما نسي الفضيلة ولطخ يده بالرشوة والفساد والتبذير والنفقات المجانية والتزوير الاداري والغش. ما لم يتغير فيه كان ذلك الطموح الغامر والملتهب الذي كان ينخر دائما روحه، ولما وصل بسرعة إلى الدوائر العليا كان هذا الطموح هو تقريبا بسبب وجوده لقد كان نابليون الصغير، مثل بونابرت، يرى إلى البعيد. أكثر تغيباته واحترنا لتنقلاته المبالغ فيها إلى الرباط.

وفوجئنا أيضا بإهماله للأنشطة اليومية لوحدته وبعد أن كان معروفا بملاحظاته ودقته واهتمامه بأدنى التفاصيل أصبح فجأة غير مبال ولا يعير أدنى الاهتمام للعمل. لقد بدا مشغولا بشيء أهم من التكوين، وقد راجت الشائعات وقتها، بعضها يقول بأنه يستعد لاجتياز الدخول إلى المدرسة الحربية العليا والبعض الآخر خمن بأنه سيعين من طرف الملك إما عاملا على تازة أو مديرا عاما للأمن الوطني. وقد صدقت شخصيا ذلك لأنني طلبت انتقالي إلى الرباط فطلب مني الانتظار قليلا لأنه كان ينوي اصطحابي معه بمجرد أن يحصل على منصبه الجديد. وعلى كل ، كان الجميع، ولاسيما المتهاونين، ينتظرون رحيله، لكنه ظل هناك.

هيىء حفل عيد العرش (3 مارس 1971) بطريقة هائلة في المدرسة وجرى في أجواء الفرحة والصداقة. لقد نصبت خيام كبيرة وزينت كل أركان المدرسة بالأعلام والمصابيح الملونة. وشارك اعبابو وكل أطره إلى جانب المتدربين. نظمت ألعاب ومسابقات رياضية وعمت الأغاني الفلكلورية والرقصات الأمازيغية. كما أقيمت مأدبة كبيرة للجميع..

حضر اعبابو احتفال ذكرى عيد العرش لسنة 1971. كان رائق المزاج، يداعب الضباط الشبان ويطلب النكت. كان مرحا لانه كان قد حصل على رتبة ليوتنان - كولونيل في ذلك اليوم وعمره آنذاك 36 سنة.

ورغم انه ريفي ينحدر من عائلة تنتمي الى القبائل التي قمعت وسحقت من طرف المخزن ابان التمرد القروي لسنة 1959. فقد كان شديد التعلق بالملكية، هذا على الاقل ما كنا نعتقده من خلال كلامه وموقفه، والحال ان المظاهر غالبا ما تكون خداعة. لقد كان يعطي الانطباع بانه ملكي اكثر من الملك. وهذا الظاهر المخادع غالبا ما ضللنا. لقد كان قائدنا ممثلا بارعا، يحسن تمثيل دوره لاخفاء احاسيسه الحقيقية. عندما رقي الى رتبة اعلى، نظم اعبابو حفلا بادخا في المدرسة. وجاء بشيخات يجدن الرقص والغناء بالامازيغية والعربية معا. لان اغلب الاطر والطلبة كانوا من الامازيغ، وامر بذبح 50 خروفا اضافة الى مئات الدجاجات وعدد مهم من الطواجين من مختلف الانواع. والمشروبات الكحولية والعصير والموناذا والفواكه والحلويات. بعد مرور اسبوع نظم الضباط حفلا بمطعم الجنود واستدعوا اليوتنان كولونيل امحمد اعبابو واهدوه نياشين وقبعة ذهبية (18 قراطا) انشرح منتشيا لهذه الهدية وخطب في الحاضرين شاكرا وختم كلمته بالعبارات

التالية: «لقد اهديتموني هدية ذهبية، و اتمنى لكم صادقا، مسار مهنيا ذهبيا ولامعا مثل الهدية، واتمنى ايضا ان تتحقق امانيكم حتى تكلل مجهوداتنا، في يوم من الايام، بالنجاح والمجد».

في صفرو ايضا نظم مركز التدريب الملحق بالمدرسة حفلا صغيرا على شرف اعبابو الذي القى خطبة وعد فيها الحاضرين «بمستقبل زاهر» هذه العبارة اثارت حيرة السرجان «عربية» فقصد مجموعة من الملازمين الشبان لاستطلاع رأيهم حول المعنى الحقيقي لهذا «المستقبل الزاهر» قيل له بانها عبارة اطلقت على عواهنها ونصحوه بعدم ايلاء أهمية للخطب في مقصف المدرسة التي تكاد تشبه كلام البارات. لما لاحظ الملازم سعودي بان الضابط لم يقتنع بهذا الكلام ساله.

بما أنك غير مقتنع قل لنا رأيك؟

انا ايها الملازم، لدي تفكير آخر. لان الكولونيل بعث برسالة «خطيرة في كلامه...» وعلق الملازم «عزمي» الذي فضل الممازحة ساخرا: «كلمة زاهر تشبه في معناها كنز علي بابا، وعليه سنصبح جميعا اغنياء».

لا. اظن شخصيا، بانه يلمح ربما الى انقلاب...

سخر الجميع من الكلام، بل وهزأوه لانه فكر في شيء لا يصدق ولا يخطر على بال. احس السرجان بانه عرضة للسخرية فاعتذر وانسحب.

اما انا فقد خطر على بالي ما وقع قبل ذلك التاريخ بسنة عندما باح لي القبطان سعيد الملقب بالعنبوري بما يلي: «اسمع الرايس، قريبا سنفترق ايها الصديق العزيز، وقد طلبت نقلي الى مكان آخر» قلت له:

لكن ايها القبطان انت تعرف بأن قائدنا لايحب ان يطلب مرؤوسوه الانتقال لان ذلك اهانة وسبه له.

ليكن، افضل الذهاب الى الصحراء عوض الائتمار بإمرة شخص من هذه الطينة».

لماذا ألست راضيا عن هذا المكان؟

- لا يا عزيزي الرايس. اعبابو شخص خطير مع انسان طموح لابد من توقع كل شيء، ولا سيما الاشياء الفظيعة. هل تبقى هنا في حين ان حياتك عرضة للخطر باستمرار؟ ان العمل مع اعبابو يشبه لعبة «بوكر» فاما الصعود الى القمة واما السقوط في الهاوية.

والحال انني لا أود المخاطرة ولا اريد ان افاجأ لهذا قررت الرحيل» شخصيا كنت متفقا معه والفرق الوحيد بيننا انني كنت احب المخاطرة والمفاجأة. وهكذا نقل الكومندان سعيد الى الراشيدية اما انا فقد اقبرت

بعد 3 سنوات على بعد 60 كلم منه في معتقل سري.

ابتداء من شهر مارس، سرع اعبابو من وتيرة برنامج التداريب حتى ينتهي التدريب قبل متم شهر ماي. وهنا اتذكر تفصيل لم نعره اهتماما في حينها. فقد اخبرنا في اليوم الثاني لشهر ماي بان المدرسة ستشارك في المناورات المنظمة على صعيد القوات المسلحة الملكية في مدينة الحاجب بمناسبة ذكرى انشاء القوات المسلحة (14 ماي 1956) وخاطبنا اعبابو بالقول: «بما ان المدرسة لا يمكنها ان تتوقف عن التدريب لتتمرن وحداتها طيلة شهرين في الاماكن المخصصة، فقد طلبت بان يكون دورها محددا وجزئيا. اذن سيكون دورنا دورا ثانويا والمهم هو المشاركة كما هو الحال بالضبط في الالعاب الاولمبية.

مع ذلك لابد من الاستعداد الجدي للعمليات القادمة لاعطاء انطباع جيد. ولأجل ذلك سنتدرب هنا في عين المكان في انتظار اللحظة المقررة».

ومباشرة بعد ذلك بدأت تمارين القتال والتسديد. فوزع علينا (البرنامج) الموضوع العام والموضوع الخاص للمناورة الكبرى. واستدعاني اعبابو الى مكتبه ليسند الي مهمة خاصة وخاطبني بقوله:

- انت قناص ماهر وقديم وانا اعول على تجربتك لفحص واخباري بعمل صغير اود اسناده اليك (اخذ روكيت، كانت موضوعة فوق مكتبه).

لقد توصلت ب 300 روكيت لاتحمل اية اشارة او اي تعريف، لهذا ساضع رهن اشارتك 10 روكيتات حتى تجرب قذيفتها، شريطة ان تكون وحيدا ويتم ذلك في مكان آخر غير حقل الرماية. ثم ستعد لي تقريرا مفصلا حول فعاليتها وطبيعتها ونقط ضعفها اذا وجدت» في اليوم الموالي التقيته مجددا لتقديم التقرير وقد اشرت الى انها قذائف روكيت امريكية، الصنع مجهزة براسين صاروخيين شبيهة بالنظام المدفعي 75 ملم SRوان شوكتها اقل حجما من شوكة القذائف الفرنسية 73 ملم. واخبرته ايضا بان رؤوس القذائف على شكل «ناقوس» وليست ممنشرة مما يجعل الرماية بها صعبة اذا كانت زاوية القذف تامة» طرحت عليه سؤالا قائلا:

كولونيل سنطلقها على ذبابات قديمة او على «كركوك» (ركام من الحجارة)؟»

فأجابني غير مبال: «ساخبرك فيما بعد من سنرمي وماذا. في الوقت الحالي تدربوا اذا تكرر الخطأ في اصابة الهدف سالغيها تماما واعوضها باشياء أخرى».

يوم 13 ماي تشكلت فرق الكوماندو وكان عددها 15 كوموندا يضم كل واحد منها 43 شخصا مجهزين باسلحة فردية. برمج انتقالهم الى «عين الشكاك» للقيام بمهمة تقرر اخبارهم بها في عين المكان، كما تكون فريق اخر (بلاستون) يضم سيارات جيب عديدة جهزت باسلحة ثقيلة (رشاشات 12.7 ملم و 7,62ملم و AA52). وقد كان هذا الفريق مكونا فقط من الضباط وضباط الصف المدربين على الرماية.

في الرابع عشر من ماي كان الجميع مستعدا للانطلاق في الساعة الثانية صباحا. فجأة دخل القبطان بلكبير، مدير التداريب، الى مقصف الضباط للاعلان عن إلغاء العملية المبرمجة في عين شكاك وذهاب فرقة (بلاستون) الى الحاجب، مع تعديل طفيف للكوماندوهات: اذ عوض التوجه الى «عين شكاك» تقرر التوجه الى صفرو من اجل التمرس على ميدان يختلف عن اهرمومو والعودة في نفس اليوم للحصول على عطلة.

وقال: ان الكولونيل يود مكافأتكم على مجهوداتكم وليسمح لكم بالراحة. والآن التحقوا بالمبيت وناموا الى الصباح. الرحلة ستكون في الساعة السادسة. وكذلك كان فتمتعنا في الغد ب 3 ايام عطلة واستعادت المدرسة، بعد كل الصخب والحركة والعمل ليل نهار هدوءها وطمانينتها، وكان ذلك مؤقتا طبعا. بعد هذه الهدنة والاستراحة المستحقة عادت الامور الى مجاريها وسقط كل شيء في النسيان.

وفي الواقع كان نسيانا لم ينسه الكولونيل اعبابو الذي كانت روحه مسكونة به. لم نعد نتذكر تلك العملية الملغاة في الساعة الثانية صباحا والحال انه كان وراء الأكمة ما وراءها. فلقد كنا على وشك القيام بانقلاب عسكري دون دراية، ودون ادنى شك في مصداقية افعال قائدنا الذي كان مدللا من طرف المخزن والجنرالات. ولم نكشف الحقيقة الا بعد مضي وقت طويل اثناء مداولات المحكمة العسكرية في القنيطرة. وياله من يقين حزين واحباط مر، اذ ليس هناك ماهو افظع من التلاعب باحاسيس الآخرين. ان الخداع بالتحايل على ثقة المرؤوسين والشطط في استعمال السلطة للوصول الى الاهداف الخاصة، كان بالفعل وضيعا ومذلا. لقد كان الامر بالفعل مؤآمرة خطط لها الجنرال مذبوح رئيس الاركان ورجل ثقة الملك وقائدنا الذي يتمتع بالثقة والتقدير الملكيين. يقضي بنصب كمين للموكب الملكي على طريق فاس / الحاجب مرورا بعين شكاك، كمكان مثالي للقيام بالعملية، اختاره الاخوان اعبابو نظرا لموقعه التكتيكي. اما فرقة الشاحنات (بلاستون) فقد كانت مهمتها هي

محاصرة المنصة الرسمية بالحاجب والقضاء على اية مقاومة محتملة. والحال ان تغيرا طارئا في اللحظة الأخيرة اجبر المتآمرين على تعديل الخطة. فهذا التعديل المفاجئ في البروتوكول. لاسيما ما يتعلق منه بامن الموكب دفع المتآمرين الى إلغاء العملية.

عموما كان الجنرال (مذبوح) هو الذي ينظم ويسهر على الاستعدادات الامنية وهو الوحيد الذي كان يتكلف به كلما كانت هناك زيارة ما. لكن هذه المرة طلب جلالة الملك من المذبوح بإلحاح بارسال طائرتين مروحيتين في مقدمة الموكب لرصد اي تحرك غير عاد على طول مسار الموكب، والح ايضا على مراقبة الطريق وجنباتها على الاخص. خضع المذبوح للامر الملكي. وما من شك انه حدث نفسه بالقول: «تبا، الى المرة القادمة فالفرص موجودة».

هكذا هاتف اعبابو لالغاء العملية، فعمد هذا الاخير، حتى لا يثير شكوكنا ويعطينا الفرصة للتفكير في الامر المضاد قبل الانطلاق، ارسلنا الى صفرو، للتداريب ام للتلهية؟؟ لقد كان اعبابو يملك القوة والسلطة ليفعل ما يحلو له. اما نحن فقد كان واجبنا هو التنفيذ دون تردد او همس. والويل لمن تجرأ وابدى ملاحظة ما او اتخذ المبادرة حتى ولو كانت مبادرة جيدة. اذ يتحطم امله ومساره المهني.

وكما يقال من يقول «للسبع فمك خانز».

على كل، بعد هذه العملية الفاشلة ارتدى اعبابو بذلة الاستعراض والتحق بالحاجب ليشارك على رأس الفرقة الممثلة للمدرسة في الاستعراض الذي اقيم لاختتام المناورات. مرت الوحدات الاستعراضية امام جلالة الملك ولما وصل امام لواء المدرسة العسكرية الملكية ادى اعبابو التحية ورد جلالته التحية تصحبها ابتسامة الرضى والتقدير لهذا الضابط الشاب واللامع والمخلص للملكية «ايها الانسان من ذا الذي يختبر افكارك الدفينة!

الاستعداد لانقلاب الصخيرات

بعد فشل المحاولة الاولى وجد اعبابو، الحالم بالمصير الزاهر تغذيه الاهداف البعيدة، نفسه أمام مشكلة أخرى: الجمود.

كان لزاما عليه شغل مرؤوسيه بأي ثمن، والحال أن التدريب انتهى قبل أجله العادي. وكان المدربون في عطالة وأصبح من الضروري إيجاد حل لشغل الأذهان. إذاك، فكر في حفلة الليلة التي تنظم سنويا في شهر يوليوز مزامنة مع عيد الشباب. والحال أن اعبابو كان قد الغى مشاركة المدرسة بفعل كثرة مواد البرنامج: ومع ذلك فقد كانت تلك وسيلة لتجزية الوقت. وهكذا أعطى أوامره للأطر حتى تنظم فقرات متنوعة حرص عليها شخصيا قبل أن يوافق على الشروع في التداريب. شارك الجميع، وكانت الأنشطة مكثفة ليل - نهار ودامت قرابة شهر ونصف بدون فائدة.

مرت الأيام عادية مليئة بالأحلام وقد غمرنا التفكير في العطلة الكبيرة (الصيفية)، كل واحد منا كان يحقق في خياله مشاريعه القادمة، مستغلا هذا الترخيص (المرتقب) إلى أقصى حد.

يوم الجمعة تاسع يوليوز راجت أخبار تفيد بإجراء مناورة عسكرية لمدة 48 ساعة ببن سليمان. وفي منتصف النهار، وزعت لوائح المشاركين فيها. في الساعة الثانية زوالا، بدأ تشكيل 25 كوماندو والفصيلة الواقية (فصيلة المقدمة)، والتي سميت «الفرقة الخاصة»، بعدها تم توزيع العتاد والمؤونة (أكلات جاهزة لمدة يومين). في الساعة السادسة مساء كانت كل السيارات جاهزة في ساحة السلاح في صف بديع، كما اصطفت الكوماندوهات من أجل المراقبة. وقد تطلب الأمر زوال ذلك اليوم كله مما يقتضيه ذلك من صخب واستعدادات للوصول الى هذا الاصطفاف النهائي والهدوء المصاحب له. هذه الحمى غير المعتادة أثارت حيرة الليوتنان فورتاس، الطبيب الفرنسي الذي توجه والسخرية بادية على ابتسامته إلى القبطان غلول متسائلا:

- قل لي أيها القبطان لدي انطباع بأنكم تهيئون انقلابا.

- لا! لا! رد القبطان، بلادنا هادئة ومستقرة.

في الساعة السادسة والنصف، وصل الكولونيل اعبابو قادما من فاس

يرافقه شقيقه الأكبر الليوتنان كولونيل محمد اعبابو مرتديا لباسه المدني، ثم استعرض الوحدات أمامه. بعد أن نالت رضاه طلب القيام بعملية ركوب الشاحنات أمامه. بعد هذا التمرين عقد اجتماعا بالقاعة الشرفية، بحضور شقيقه الأكبر، ضم كل الضباط السامين. وبعد أن هنأنا على مجهوداتنا وأطرى على سلوكنا وجديتنا في العمل، تناول بالحديث موضوع المناورة وبدأ خطابه المهيأ بمكر على الشكل التالي: «أنتم تعرفون الاحترام الذي أكنه لكم جميعا والثقة التي أحملها لكل واحد منكم. لا يمكنني أن أتجاهل الاحترام والتقدير اللذين تكنونهما لشخصي. ستنظم مناورة من 48 ساعة بابن سليمان. عادة تقوم كتيبة (بريغاد) بهذا التمرين، لكنني صارعت كثيرا لكي تتكلف المدرسة بالعملية.

لقد أقنعتهم بأن مدرستنا هي أفضل من يقوم بهذه المهمة. ولهذا أعول عليكم حتى تنجح المناورة. أتمنى أن يكون الجميع على استعداد وإذا ما وجد بينكم من هو على مرض أو عاجز على القيام بالمهمة فما عليه سوى الجهر بذلك وسأعفيه بدون ضغينة. هل لديكم أسئلة؟»

خيم صمت عميق عمد خلاله قائدنا الى مراقبتنا بدقة وتملكني الإحساس وقتها بأنه يستطلع أعماقنا أو يقرأ تفكيرنا. وغضت أبصار كثيرة ممن تقابلت عيونهم مع عينيه. لم يجرؤ أي أحد على السؤال أو الاستفسار، واكتفى العديدون مثل المنومين بالنظر إليه دون تفكير. لقد تسمّروا تقريبا في أماكنهم. فجأة رفعت أصبعي، رآني فسألني ضاحكا:

- ماذا هناك الرايس، هل تود طلب شيء ما؟

نعم، كولونيل وقد وقفت وقفة التحية. أريد الاطلاع بدقة على المهمة من وراء هذه المناورة وإعطائنا موضوعها إذا أمكن ذلك، وسيكون من الأفضل أن نطلع على المهمة والوضعية قبل الشروع فيها» أجابني بدون تردد:

- لا علم لي ولست أعلم أكثر منك وأنا نفسي أجهل الأمر، لأن المسألة بيد الجنرالات. من هنا الى الرباط ستتم الرحلة بدون تاكتيك وبطريقة فوضوية. وفي الرباط ستجدون قيادة (إيطاماجور) متقدمة ستكشف لكم مهمتكم. وانطلاقا من هذه اللحظة ستبدأ العملية. على المتزوجين إخبار زوجاتهم بأنهم سوف يتغيبون لمدة يومين» ثم التفت ناحية مدير التداريب الذي كان يشغل أيضا ضابط الأمن وخاطبه بالقول: «أرسل إليّ ضابط المقتصدية لأرخص له بإعطائكم حصة غذائية إضافية! أيها

السادة سننطلق في الساعة الثانية صباحا. انسحبوا».
غادرنا القاعة وتركناه وحيدا. وقد أثارنا جميعا حضور شقيقه الأكبر اجتماعنا. كان واقفا أمام أكرة الباب ويتابع باهتمام خطبة شقيقه الأصغر. وعند خروجنا كان يبتسم لنا وهو يصافحنا الواحد تلو الآخر. لم يكن يعرف أحدا سواي، عندما رآني مد إلي يده مرحا وقال:
- اه، أنت هنا دائما. أنا سعيد برؤيتك» ، أجبته، بعد التحية الرسمية «وأنا كذلك أيها الكولونيل». بعدها تكالب عليّ الضباط بأسئلتهم حول «من يكون هذا الشخص»، أخبرتهم بسيرته.
فالكولونيل محمد اعبابو يكبر أخاه بأربع سنوات تابع هو أيضا دراسته الابتدائية بالمدرسة الفرنسية بتازة، ثم السلك الثانوي والمرحلة التهييئية قبل أن يلتحق كطالب ضابط بالمدرسة العسكرية « الدار البيضاء» بمكناس حصل على رتبة سوليوتنان سنة 1956 . وهو أكثر معرفة وذكاء من أخيه امحمد اعبابو ولكنه لا يتوفر على الحيوية وروح المبادرة والطموح. وخلافا لشقيقه الأصغر كان محمد اعبابو نزيها ومستقيما ويعيش حياة عادية، وطالما خلقت له نزاهته وروحه النظيفة مشاكل مع رؤسائه، وقد عملت تحت إمرته سنة 1959 ، شارك في احداث الكونغو سنة 1960 قبل أن يعين قائدا ممتازا في قبيلته لتهدئة الأوضاع وضبط الأمن بعد قمع الريف.
بعدها التحق بالمدرسة العسكرية العليا (ليطاماجور) بالقنيطرة وظل بها كمدرب إلى حدود 1971 .
بعد أن أعطى اعبابو مدير المدرسة آخر تعليماته عاد إلى مكناس صحبة شقيقه. وقد أمر عامل الهاتف - سرا - عدم ربط أية مكالمة أو الجواب عنها الى نهار يوم الغد. أما في مقصف الضباط فقد بدأت التعاليق في وقت العشاء. بدأ «ليوتنان» فقال منذ بداية النقاش «حسب تحليلي وانطلاقا من بعض عناصر التحليل التي تدفعني إلى الاعتقاد فإن كل الدلائل تشير بما فيها خطبة الكولونيل بأننا سنقوم غدا بانقلاب عسكري» ضحك كل رفاقه معتقدين بأنه مجرد مزاح. والحال أنه لم يكن يمزح وكان كلامه جديا. وأنا أقول هذا عن دراية، ذلك أنه جاءني ساعتين قبل العشاء لحظة توزيع المؤونة في المطبخ وأخبرني بأنه يريد التحدث إلي رأسا لرأس. عندما أصبحنا في منأى عن الفضوليين قال لي:
- الرايس أنت أقدمنا ولاشك أنك تعرف أشياء أجهلها. قل لي

بصراحة هل عشت طوال مسارك المهني أحداثا مشابهة لما عشناه اليوم؟
- سألته، إلى أين تريد الوصول؟
- قل من فضلك ماهي الظروف وبأي عتاد شاركت.
- لقد شاركت في أحداث طرفاية (1957) ثم في عملية المسح ضد لحسن اليوسي وجماعته في بداية 1958 في ضواحي صفر و بعد ثلاثة أشهر من العملية الاولى. وقد كانت ضد متمردي تاهلة بقيادة ابرشان محمد بن حدو. وقد سلمونا الذخيرة الحية لاستعمالها.
- قل لي هل يجب بالفعل استعمال رصاص حي في مناورة لمدة 48 ساعة؟
- لا. لأن المناورة تتطلب أسابيع من الاستعداد على «ماكيت» (نموذج مصغر) وأكياس رملية وخرائط وصور جوية إلخ.. وأحيانا تتطلب تداريب في الميدان. لكن بخصوص هذه العملية، لاشك ان الامر يتعلق بتمرين شكلي، نزهة الى بن سليمان، جولة لا أقل ولا أكثر.
- وهل تتصور مناورة بذخيرة حية يقوم بها تلاميذ السنة الأولى تدريب لا تجربة لهم؟ إنها الكارثة.
- لاشك في ذلك في أنها عملية مسح.
- قل لي بالنسبة للعمليات التي شاركت فيها. هل كان المتمردون يناهضون الملكية؟
- لا أبدا، بالنسبة لطرفاية كان التمرد ضد الاسبان وفي المرة الثانية ضد حزب الاستقلال الذي احتكر كل المناصب المهمة لفائدة الفاسيين.
ما يحيرني هو الغموض في خطبة الكولونيل. لقد أثار شكوكي، أنا أثق فيه، لكن ارتيابي، منذ الطفولة، يخلق لي إحراجا. أشكرك واغفر لي فضولي».
احتد النقاش في المقصف ورد أحد الضباط: «لا أعتقد بأنه انقلاب، بل هي بالأحرى عملية عسكرية موجهة ضد نقابيين أو معارضين من أنصار العنف» واخذ اخر الكلمة: «أنتم تعرفون بأن محاكمة مراكش ضد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية تدور حاليا وتفاديا للانزلاقات أو أعمال لامشروعة يستعمل المخزن وسائل ترهيب. وهذا ما سنقوم به غدا، سنعبر المدن الكبرى بموكب مدجج بالسلاح لترهيب السكان». رفض الكثيرون هذه الفرضيات غير الموضوعية، معتقدين بأن المسألة فعلا مسألة مناورة بين سليمان وبما أن الكولونيل قالها فلاشك أنه الحق.
يوم السبت 10 يوليوز 1971، في الساعة الرابعة صباحا، غادرت

قافلة الشاحنات أهرمومو صوب الرباط تحت قيادة القبطان شلاط الذي عاد من عطلته بطلب من الكولونيل اعبابو والتحق باهرمومو للمشاركة في المناورة، لقد كان هذا القبطان قد أنهى حديثا تدريبه بمدرسة القيادة العامة بالقنيطرة، كان متكدر المزاج ذلك الصباح، بسبب التأخير الحاصل لأن ساعة الانطلاقة المقررة هي الثانية صباحا في حين أن اخر شاحنة غادرت المدرسة فعلت ذلك في الساعة الرابعة.

في ظل حر الصيف والصمت الليلي للبادية الذي يكسره من حين لآخر عواء الذئاب البعيد وصياح الديكة معلنة قدوم الفجر، كانت القافلة المكونة من أربعين شاحنة تسير بسرعة منخفضة، وتمزق سدف الظلام بأضوائها مواصلة سيرها بصمت عبر المدن حتى لاتثير أدنى شبهة حول مهمتها الحقيقية. عندما طلع النهار، كنا قد غادرنا فاس، سلكت الشاحنات الطريق الرئيسية الأولى نظرا لقصر المسافة وقلة التنقلات.

عندما عبرنا ممر «زاغوطا» كانت الشمس فوق رؤوسنا قد زادت حرارتها، شخصيا بدأت أتصبب عرقا بفعل الحرارة الخانقة، بعد أن مررنا بمحاذاة الضفة الغربية للقنيطرة، وصلت القافلة إلى بوقنادل، وتوقفت غير بعيد من المحطة الأمريكية للاتصالات اللاسلكية على بعد 15 كلم شمال الرباط، وجدنا في انتظارنا الكولونيل مرتديا قميصا صيفيا مزينا بالورود وسروالا رماديا (باطليفان Pattes d'éléphants)، يرافقه أخوه الأكبر والقيادة العامة المتقدمة (كلهم بلباس مدني) مكونة من الكولونيل عبد الله القادري (عضو برلماني حاليا وعضو مهم في الحزب الوطني الديمقراطي)، والكومندان البريغي لمنور - مليس ومالطي وفنتوحي (ضابط شرطة)، حضر معهم أيضا الشقيق الأصغر لقائدنا السارجان شاف عبد العزيز اعبابو المحاسب بالقيادة العامة وأحد أقاربه الذي كان يقود سيارة «دي.إي 21» للكولونيل اعبابو، والضابط مزيرك صهر الجنرال مذبوح وابن القائد مزيرك قائد اجدير، أمرونا بالنزول للاستراحة وتناول الوجبة، بعدها تم استدعاء قادة الفرق من طرف الكولونيل نفسه الذي دعا أيضا أطر الفرقة الخاصة.

كان امحمد اعبابو وحيدا في مقدمة الركب، وسط مجموعة أشجار، على بعد بضعة أمتار وقف شقيقه الأكبر وبعيدا عنهما اجتمع ضباط بوقنادل السامون جنبا الى جنب (ما سمي بالقيادة العامة). بعد أن طلبوا منا تكوين نصف دائرة والاقتراب منه بدأ خطبته بصوت هادئ وسطمئن وببرودة دم لافتة: «إن المهمة الموكولة إليكم تدعوكم الى

محاصرة منشأتين بالصخيرات، احتلتها عناصر انقلابية، لابد من اغلاق كل المنافذ وإخراج الأجانب من الصفوف، ثم أركبوهم في الشاحنات «لاتدعوا أحدا يفلت واطلقوا النار على الفارين» توقف لهنيهة ثم أخذ قضيبا كان بيد الضابط مبطول ثم رسم على الرمل رسما لمستطيلين ثم شرح لنا مواصلا «خربشاته» المسالك والمنافذ «هنا توجد المنشأتان، سأتولى قيادة المجموعة الأولى التي ستعبر من الجهة الجنوبية (جهة البيضاء) ويتولى أخي الكولونيل محمد المجموعة الثانية التي ستدخل من الجهة الشمالية (جهة الرباط)، أذكركم بأن وحدات أخرى من القوات المسلحة تتدخل في نفس الوقت في أماكن مختلفة، أنتم ضباط والمفروض فيكم أن تعرفوا، إذن عروا شاحناتكم وأمروا رجالكم بتهيئ شحانات الرشاشات (الشارجور) وحاملي الأسلحة الثقيلة بتهيئ الملقمات (الباند)، «أيها السادة استعدوا للحرب انصراف»، التحقنا بعناصرنا بخطوات رياضية لإصدار الأوامر بالاستعداد والسهر على شحن الأسلحة. بأمر من الكولونيل قام لاجودان شاف أبو المعقول (صهر اعبابو) بتوزيع البذلات الحربية على كل واحد من الضباط السامين (القيادة الوهمية)، وكانت تضم قميصا وسروالا وقبعة (ك.إف) ورشاشا فرنسيا من نوع «بي.إم ماط 49» وشحانان. مباشرة بعد ذلك سارت القافلة باتجاه الصخيرات، ركب الكولونيل محمد اعبابو في السيارة الاولى للمجموعة الثانية، لبس مدير مدرسة أهرمومو بذلته الحربية ووضع نياشينه الذهبية وتولى القيادة بعد أن تأكد من ركوب الضباط السامين.

في الحقيقة اعتقدت بأن هؤلاء الضباط يشكلون فعلا قيادة عامة متقدمة، والحال أنه قد تبين فيما بعد وأثناء الاستنطاق بأنهم احضروا بالخدعة والتحايل من طرف اعبابو الذي خدعهم بكلام كاذب.

فبعد أن غادرنا في اليوم المنصرم، توجه الى مكناس لقضاء الليل هناك والسهر على استعدادات سفر زوجته خديجة بنونة المعلمة سابقا التي كانت ستسافر صباح يوم 10 يوليوز 71 إلى فرنسا لإجراء عملية جراحية خاصة بالكلية، وقد كلف أخاه عبد العزيز بمرافقتها الى مطار الرباط/سلا والإلتحاق به في بوقنادل. يوم السبت توجه الى الرباط لتسوية بعض الأمور في القيادة العامة وهناك زار هؤلاء الضباط السامين واخبرهم بنجاحه في عقد صفقة خارقة مكنته من شراء ضيعة جميلة ورائعة بثمن بخس، غير بعيد عن بوقنادل، وعرض عليهم مرافقته

لزيارتها فقبلوا دعوته، وكانت تلك هي غلطتهم، لما وصلوا الى بوقنادل وربحا للوقت عرض عليهم «نخبا» وبما أن القافلة تأخرت كثيرا، اضطر اعبابو الى الإسراع في تنفيذ خطته، هكذا دعا ضيوفه الى مرافقته، وبمجرد أن دخل الغابة توقف عند حرش من الأحراش وطلب منهم الترجل عن سياراتهم، وأخبرهم بالحقيقة المرة فذهلوا لهذا، خاطبهم بقوله: «اسمحوا لي أيها الأصدقاء، لأنني كذبت عليكم لكنني اجبرت على فعل ذلك لأنها الوسيلة الوحيدة لاقتيادكم الى هنا، اليوم هو عيد ميلاد الملك وكل الشخصيات المهمة مدعوة للحضور في قصر الصخيرات، ولهذا السبب، واستغلالا لصدمة المفاجأة، قررت أنا والجنرال مذبوح القيام بإنقلاب، أنا انتظر وصول رجالي بين اللحظة والأخرى، على متن 40 شاحنة تقل أزيد من ألف مقاتل مدربين جيدا ومدججين بالسلاح، لقد هيأت كل شيء مع الجنرال والقضية مضمونة»، قاطعه الكولونيل القادري قائلا: «أظن أنك تمزح .. الانقلاب مسألة تتطلب استعدادا فهو يختلف عن جولة صيد وكيف ما كان الحال لست متفقا معك، اذهب وقم بانقلابك أنا سأمكث هنا» ودرءا لرفض جماعي، شهر اعبابو مسدسه وصاح بقوة: «ستصحبونني جميعا الى القصر عنوة والويل لمن رفض»، سأل أحدهم: «لماذا لجأت إلينا ولم تختر آخرين؟» أجاب المتآمر: «لقد فكرت فيكم لأنكم مبعدون ومستثنون من كل مسؤولية، لقد أردت منحكم فرصة، للأسف خيبتم ظني» وجدوا أنفسهم بين المطرقة والسندان، لاحول لهم ولا قوة لمواجهة شخص عازم على المضي في خطته الى النهاية ولاشيء يوقفه، فاضطروا الى مجاراته لأنها الوسيلة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة.

لما وصل الموكب، لفت العدد والقوة نظرهم لما سمعوا «خطبة» اعبابو وحيوية رجاله استسلموا وهم يعلمون أن الجنرال مذبوح المتآمر رقم ١، كل هذا طمأنهم قبل أن تفشل المهمة. اتخذوا أماكنهم في السيارات «الجيب» باستثناء الكولونيل (القادري) الذي ظل يقود سيارته المرسيدس وراء سيارة اعبابو، عبرنا وسط الرباط أمام انظار الجميع وكانت الساعة الواحدة والنصف زوالا تحت شمس قائظة تخنق الأنفاس وتجعل الجسم يتصبب عرقا، كانت الشاحنات المصطفة الواحدة خلف الأخرى تسير بسرعة منخفضة بسبب حركة السير الكثيفة، و المارة ينظرون باندهاش الى هذا الموكب الطويل وهم يتساءلون، «لامحالة» عن وجهة هؤلاء الجنود بنظراتهم وبقسماتهم المتجهمة، واضعين الأسلحة فوق ركبهم وهذه الأسلحة الثقيلة الضخمة الجاهزة لإطلاق النار.

بمجرد ما غادرنا الرباط، اقتفت القافلة العسكرية طريقا جانبية وزادت من سرعتها للوصول بسرعة الى وجهتها، وفي ملتقى الطرق فوق جسر وادي النفيفخ كانت مجموعة من رجال الدرك مكونة من (20 فردا تسهر على سلامة المرور موجهة العديد من السيارات نحو اتجاه اخر، بل أوقفوا حركة السير حتى يتسنى لنا العبور بسهولة، هكذا تحرك موكبنا، وحيدا على طريق ملتهب يعلوه السراب بعيدا، فيما كانت العجلات تترك آثارها على الزفت اللزج بفعل الشمس الحارقة، والرشاشات تلمع بفعل نور الشمس وتتلألأ لمن يراها من بعيد، كنت اتساءل لماذا يتم كشفنا ورصد حركاتنا رغم أنه على جانبي الطريق اصطفت فيلات فاخرة بنوافذ عريضة، وبانغلوات، وخيام ومارة بلباس الاستحمام ومصطافون أجانب إضافة الى متنزهين بمنظارات يتملون المناظر، هل هي اللامبالاة أم اللاوعي؟

على كل لقد مررنا دون أن نثير الانتباه، فجأة لاح أمامنا قصر الصخيرات، دخلت المجموعة الأولى من الباب الجنوبي كما كان مخططا لها، وعبرت ملعب الغولف واقتفت الطريق المؤدية مباشرة الى الباب الرئيسي للقصر. عندما وصلت المجموعة الثانية قبالة الباب الشمالي كي تعرج على اليمين، أوقفها الحراس ومنعوها من الدخول، أمر الكولونيل محمد سائق الشاحنة الأولى بالضغط على مقود السرعة حتى يخترق السلسلة الحديدية ويفتح طريق المرور للموكب، كان الحرس مكونا من أحد أفراد الحرس الملكي ببذلته البيضاء ومظلي ببذلة «الفهود» ودركي ببذلته الرمادية وجزمته العالية ورجل أمن ورجل أمن سري وموطار، وتساءلت لماذا لم يستعمل الحراس أسلحتهم علما بأنهم كانوا كلهم مسلحين وعوض الصراخ والتهديد بإطلاق النار، كان عليهم القيام بواجبهم في الدفاع عن القصر ماداموا هناك لهذا الغرض.

لو كنت مكانهم لقمت بالواجب الذي نذرتني الدولة للقيام به عوض التهديدات غير المجدية التي لم يلتفت إليها أحد على كل حال.

عبر موكبنا أيضا الملعب المعشوشب المترامي الأطراف الى أن وصل «البنغالو» ثم توقف جانبا على مرمى شاطئ جميل برمال تكاد تكون بيضاء لامعة مثل كريستال وعندما رأوا المجموعتين كل واحدة تقترب من جانب لمحاصرة القصر مثل كماشة، سارع المدعوون الأكثر ذكاء أو احترازا الى الفرار قبل اغلاق الدائرة، بدأ الهروب، البعض مرتديا لباس الاستحمام والآخر مرتديا سراويل لكن أقدامه حافية، الكل كان يجري

مرتبكا لايدري أي وجهة يتجه، المهم هو الابتعاد قدر المستطاع. مقابل هذا كان الأخرون ينظرون الى المشهد مستغربين، وقد تملكهم العجب أو استبد بهم الرعب فبدوا مثل الممغنطين، كان منهم أيضا من شُدِهَ ولم يحر تفسيرا لما يحدث، ومنهم من لم ينتبه وواصل لعب الغولف بشغف، متحدثا وهو يرتشف شرابا منعشا أو كأس شاي بالنعناع. توقفت المجموعة الثانية من الشاحنات في نهاية الممر في ساحة رملية انتشرت فيها شجيرات صغيرة هنا وهناك، وقتها انتبه لاعبو الغولف الساهون الى الخطر وهربوا، بعضهم اتجه رأسا الى البحر لعله يصل الى أحد الشواطئ المجاورة، اعتقادا منهم أنها الوسيلة الوحيدة للإفلات بجلودهم والبعض الآخر اتجه نحو الطريق فكان ذلك سببا في هلاكهم، بعضهم رفض الهروب، وكان من بينهم المقدام عبد القادر لوباريس الذي رفض الفرار ومنعته شجاعته وأنفته من ذلك فظل واقفا في مكانه، وعندما ترجل محمد اعبابو عن سيارته «الجيب» توجه الكولونيل لوباريس نحوه وهو يصرخ فيه، وأرغى وأزبد، ثم بدأ يحدثه: «اعبابو ماذا تفعل. هل تعلم أين أنت، دير عقلك وترزن والعن الشيطان، عد الى رشدك وع ما تفعل هذا لن يقودك إلا الى الضياع!».

أجابه اعبابو مهددا إياه برشاشه:

«ابتعد عن طريقي وإلا قتلتك، حذار، أنا لا أمزح».

تقدم المقدام لوباريس، الكولونيل قائد المظليين بضعة أمتار بحذر وقد فرد ذراعيه على شكل صليب، أحسست بأنه أراد من وراء عمله هذا أن يحمي القصر بجسده، بل بكل كيانه، وقد كان قادرا على ذلك، كرجل حازم كان ينتظر أول فرصة وأدناها لينقض على المتآمر وينزع سلاحه، بدا أنه على وشك القيام بذلك، صرخ بكل قواه بصوته النافذ الذي زاد الأجواء كآبة:

«دير عقلك اعبابو .. نحن نعرف بعضنا جيدا، فكر جيدا فيما تفعل، فما تريده لن يوصلك لشيء ..». أوقفه مخاطبه الذي تجاوزته الأحداث.

«ابتعد عني وعن طريقي إذا كنت تريد أن تظل على قيد الحياة» أجابه لوباريس: «تهديداتك لاتخيفني» واصل تقدمه بنفس الحيطة والحذر حتى يمنع اعبابو من التقدم، غضب اعبابو من عناد هذا الشخص، هذا الطارئ الذي سيضيع لامحالة المهمة التي كان اعبابو يستعجل القيام بها، فضغط على الزناد موجها سلاحه الى الجزء السفلي للجسد، دوت رشقات الرشاش وسقط الكولونيل لوباريس أرضا وقد اخترقه

الرصاص، بعدها مباشرة أعطى الرامي (من الرماية) الأمر بالترجل عن الشاحنات واطلاق الرصاص، كانت تلك هي البداية التي جعلت تلامذة الضباط يتحولون الى «انقلابيين» بدون ارادتهم، فنطوا من الشاحنات وبدأوا في اطلاق الرصاص كيفما اتفق دون حتى أن يعرفوا لماذا يفعلون ذلك.

قتل العديدون أو جرحوا بالرصاص الطائش الذي أطلقه مجندون شبان في سنتهم الأولى - تداريب، شبان غير مجربين، بل حتى أولئك الطلبة الضباط الذين بلغوا السنة الثالثة أصابهم الرعب والارتباك من جراء كثافة النار ومن جراء هذه المفاجأة التي لم يكونوا يتوقعونها. فقدوا السيطرة على حركاتهم، لقد اعتقد تلاميذ أهرمومو بأنهم فعلا يقومون بتمرين على القتال، فبدأوا اطلاق الرصاص على الهاربين وعلى كل النقط المشتبه فيها، ساد الهرج والمرج ولم يعودوا يسمعون حتى أوامر رؤسائهم الذين كانوا يصرخون بوقف اطلاق الرصاص، ورجالنا الذين هالهم الرصاص المتواصل وانفجار القنابل من كل جهة والرشاشات التي كانت ترمي بالنيران مثل التنين، لم يجدوا فقط صعوبة في وقف اطلاق النار، بل رفض بعضهم ذلك متظاهرين بأنهم لايفهمون كان منهم أيضا من سارع، بمجرد بداية اطلاق النار، الى الارتماء تحت الشاحنات وظلوا مختبئين في منأى عن الرصاصات الطائشة، خلافا لذلك كان العديد من زملائهم يطاردون الهاربين للقبض عليهم وطرحهم أرضا قبل تقديم تقرير، بعضهم كان يشعر الهاربين قبل اطلاق الرصاص وآخرون لم يفعلوا، كانت الأغلبية الكبرى منهم، إن لم يكونوا جميعهم، يجهلون المكان الذي كانوا فيه و المهمة التي جاؤوا من أجلها. بلداء ومنضبطون: كذلك كان أولئك الانقلابيون الذين ينفذون بدون تفكير.

كنت أصرخ ملء صوتي لمنع الطلبة الضباط من اطلاق النار، وأطلب منهم أن يسدوا المنافذ والمخارج والقبض على الهاربين وطرح الجميع أرضا فجأة، رأيت على بعد مسافة قليلة مني ثلاثة طلبة ضباط، وقد تمنطقوا أسلحتهم ينظرون باندهاش الى البحر، اقتربت منهم فلاحظت أنهم كانوا ساهين إن لم نقل مذهولين، سألتهم عن سبب هذا الموقف، فكان جوابهم:

«مون ليتونو، اسمح لنا هذه أول مرة نشوفوا فيها لبحر .. وقد اعجبنا لدرجة نسينا مهمتنا» ثم انصرفوا للإلتحاق بزملائهم، بعض

الضيوف لم يدركوا ما يقع واعتقدوا أنها مزحة لإفزاعهم فوقفوا يتفرجون في المجزرة التي طالت أصدقاءهم، ولم يشرعوا في الهروب إلا بعد أن رأوا الدم، ارتبكوا فبدأوا الركض في كل اتجاه بحثا عن ملجأ.

توقفت المجموعة الأولى أمام الباب الرئيسي للقصر، وبأمر من امحمد اعبابو، مديرالمدرسة، نزل الطلبة الضباط من شاحناتهم وبدأوا في اطلاق النار عشوائيا، في كل الاتجاهات. عم الارتباك والرعب وسط ضيوف جلالة الملك وبدأت الفوضى في صفوف هؤلاء المتطفلين الذين جاؤوا لتكدير أجواء الحفل .. لقد فكر الجميع في كل الاحتمالات إلا في كون ما يجري انقلابا عسكريا.

تقدم امحمد اعبابو نحو المدخل الرئيسي للقصر شاهرا مسدسا في يده، وأمر رجاله بتجريد رجال الدرك من سلاحهم وطرح الناس أرضا، وسرعان ما وقف في وجهه سوليوتنو دركي قائد المجموعة وقال له «مون كولونيل، ممنوع الدخول بدون رخصة» فكان جواب اعبابو «اغرب عن وجهي وإلا قتلتك مثل كلب»، استل الدركي سلاحه وهو يخاطب اعبابو «لا كولونيل، ما غاديش نخليك تدخل» ثم سدد مسدسه واطلق النار فأصاب الكولونيل اعبابو في ذراعه الأيمن، فرد هذا الأخير بدقة أكبر فقتله برصاصة عن قرب، هذه المبارزة غير المتوقعة أشعلت شرارة تبادل اطلاق النار، وبدأ اطلاق الرصاص على كل من وما يتحرك، ولم تنج حتى السيارات الواقفة التي صب عليها الضباط الطلبة جام غضبهم.

أنت خائن.. وأنت أيضا

أمر امحمد اعبابو الذي كان في الجهة الجنوبية من القصر رجاله بالدخول وطلب شقيقه الأكبر محمد من الجنود محاصرة منافذ القصر و منع الفارين من الخروج، كانت الأوامر قد صدرت في بوقنادل بتصفية كل من سولت له نفسه الهروب. لقد كان المتآمران مصممين العزم ولم يتراجعا أمام أي عرقلة فهذا امحمد قتل ضابط الدرك وهذا أخوه محمد أصاب الكولونيل لوباريس إصابة بليغة.

يومئذ كانت الشمس حارقة وكانت التماعات شظايا الزجاج الأمامي للسيارات الفخمة تعمي أبصار المجندين وتزيد من ارتباكهم وتوترهم. أمام أعينهم انتصبت أماكن الشواء وخيام دخلها المدعوون للانتعاش والدردشة وتناول المرطبات، بعض الطلبة من أوساط محافظة أو تقليدية، ربما، قذفوا الخيام بالقنابل معتبرين أنها مدنسة! فجرح العديد من الضيوف وبعضهم غادر المكان وهم يتوسلون للمهاجمين والمعتدين الذين دخل بعضهم الى المقصف المتحرك الموضوع على سكة حديدية وأخرجوا من فيه ضربا بأعقاب الأسلحة والركل، غضب الكولونيل خرابة، الذي كان مرتديا بذلة عسكرية من هذه المعاملة وثارت ثائرته لسلوك «البَرْ» (BLEU) فصاح بلهجة الآمر: «لاتمسوني فأنا الكولونيل خرابة» فكان أن انهالت على ظهره الضربات لإجباره على الصمت، ودفع عنوة وأطيح به أرضا الى جانب الآخرين.

اعطيت الأوامر بوضع الأجانب في الشاحنات والأقل حظا من بينهم أسيئت معاملتهم وأجلسوا على ركبهم رافعين أياديهم أو طرحوا أرضا مثل الآخرين، موازاة مع ذلك رمى لاعبو الغولف أدوات اللعب بمجرد ما سمعوا رشقات الرصاص وفروا باتجاه البحر، في حين قفز المتحلقون حول المائدة، منهم من اختبأ أسفل الطاولة ومنهم من فر الى الحمام بمجرد أن انفجرت القنابل تحت أقدامهم، وقد بلغت كثافة النيران درجة استحالت معها الحركة، وأصابت الرصاصات كل من غامر أو ارتبك. شخصيا استأت وحزنت عندما رأيت السيد دوبري سفير بلجيكا يخر صريعا تحت رصاص أشخاص لايعرفونه ومتأكد من أنهم ما كانوا يودون قتله.

هؤلاء القتلة بالرغم من انفهم، كانوا يقتلون لأنهم امروا بذلك، لقد اصيب الأمير مولاي عبد الله، شقيق الملك (رحمهما الله) برصاص جنود كانوا يطلقون الرصاص عشوائيا، وسقط مغشيا عليه ولا احد انتبه الى انه مصاب والدم ينزف منه. في ذلك اليوم كان الكل في هم واحد ولم يكن هناك تمييز لا في المرتبة ولا في القرابة ولا في المنصب، يومها كان كل واحد يفكر في نفسه ولا احد يفهم جاره، وكان السفراء يكشفون عن هوياتهم للنجاة من المجزرة وكانوا يركزون على ذكر اسماء بلدانهم لعلهم يحظون بتعاطف الانقلابيين، والحال أن هؤلاء لم تكن لهم اية ميولات ولا نزوعات، فلم يكونوا مناصرين لا للروس ولا للامريكان وللصينيين كما لم يكونوا ناصريين أو كاستريين أو قذافيين. والأنكى من هذا ان هؤلاء المتمردين لم يكونوا، لامن انصار الجمهورية ولاضد الملكية، وكان عملهم قضية عنف محضة لاغير. وباستثناء الرؤوس الثلاثة المدبرة والمتامرين الرئيسيين الذين كانوا على علم بالهدف والمبتغى، كان الكل يساير الموجة على أمل أن يجد في اللحظة المناسبة منفذا للهروب، لقد كانت الصخيرات يومها مثل قطار يسير بسرعة جنونية، يقف كل راكب فيه قرب مصعد الباب في انتظار أول منعطف للقفز، وحدها نقط القفز كانت تختلف من واحد الى آخر.

اما الضباط السامون فقد غضبوا لمعاملتهم على قدم المساواة مع الاخرين، فقد دفعوا دفعا وضربوا ضربا واهينوا من طرف اشخاص وجدوها فرصة للإنتقام من «فراعنة» لم يحترموا الجنود. كنت واقفا وسط الجثث والجرحى المستغيثين، بعضهم كان يئن والبعض الآخر يتوسل الرحمة من جنود صم فقدوا السمع أو بالأحرى لم يريدوا سماع توسلاتهم، لقد كان المجندون يركضون في كل اتجاه وهم يصرخون ويهددون ويشتمون ويلعنون بعد أن تاهوا ولم يحيروا معرفة ذلك لأن الاوضاع تجاوزت مستوى ادراكهم وقدراتهم على التحليل، بعضهم زرع في نفسي الرعب بفعل عدوانيتهم ومواقفهم العدائية، كانوا ينفذون اوامر امحمد اعبابو فقط الذي استغل المناسبة وشحنهم عنفا وزادهم استفزازا.

وسط هذا الصخب المرعب والفوضى العارمة، لاح شخص كما لو كان خارجا من وسط الضباب، توجه للقاء امحمد اعبابو، غاضبا، وسأله بلهجة الامر: «ماذا تفعل اعبابو؟ انت لم تحترم اتفاقنا».

اجابه اعبابو: «لاباس يا جنرال، وعلى كل لقد اتممت المرحلة الأولى وعليك الآن الانتقال الى المرحلة الثانية»، كانت لهجة اعبابو تشي

بالاحترام والهدوء، لكن مخاطبه حافظ على نبرته الغاضبة.
● أوقف هذه الفانطازيا، لقد سبق وأمرتك بألا تطلق أية رصاصة مهما حدث.
■ نْهَارْ كبير هذا، ورجالي ناشطين ومتوترين، أليس اليوم يوم عيد، مون جنرال؟
فرد الجنرال في الحال:
● هذا حمام دم، لقد لطخت يدي
توتر اعبابو وسأل بلهجة غاضبة.
■ اللي كان، كان، ودابا فين هو؟
● إنه في مكان آمن ويريد رؤيتك للحديث معك.
رد اعبابو «هل تنازل يا جنرال؟»
رد مخاطبه بشكل آلي:
- نعم وتنازله في جيبي، والآن لنذهب للقائه.
تردد اعبابو أَوْقُلْ أنه احتار فسأل:
- لكن إذا كان قد استسلم لماذا سأذهب لرؤيته؟ من الأفضل الانتقال الى المرحلة الثالثة.
الح مخاطبه على اللقاء وأن يتم بينهما رأسا لرأس فكان رد اعبابو «سأذهب بمعية رجالي»، هنا رد الجنرال «اطلاقا! سيبقى رجالك في الخارج».
تظاهر اعبابو بالموافقة وتقدم خطوات نحو الداخل، ثم غمزنا وأشار بحركة من رأسه أن اتبعوني، دخلنا القصر، وهنا أصبت بالخيبة، إذ خلافا لما يحكيه الناس لم نجد لا أعمدة من ذهب ولا سقفا منحوتا وأرضية من رخام أسود لامع ولاثريا من الماس ولا أشياء يعمي بريقها الابصار.
لم يكن قصر الصخيرات يحتوي على أي شيء خارق، بل كان يشبه أية إقامة في ملكية برجوازي متوسط، كان بناؤه المستطيل بهندسة شبه عادية وأرضية مزينة بموزاييك أبيض وأسود. وفي الجهة الغربية انتصبت أركان زجاجية عادية يظهر من ورائها المدى البحري، على الجانب الشرقي اصطفت الغرف والحمامات والمطبخ وبعض المخازن، في الوسط انتصبت قبة زرقاء رائعة، حين استدرت جهة الجنوب، ذهلت للعدد الفظيع من الجثث الممددة أرضا بجانبها بعض الجرحى بالكاد يرفعون أياديهم طلبا للإغاثة، أحسست بالاشمئزاز والغثيان أمام هذا المشهد المرعب ولم أصدق أو اتصور مثل هذه المجزرة في فترة وجيزة

من الزمن، وما من شك أن شراسة الإنسان لاتقارن، ذلك لأن الوحوش نفسها لن ترتكب مثل هذه البشاعة، أما توحش الإنسان فلا حدود له. كنا نمشي الى جانب امحمد اعبابو الذي كان يمشي وراء الجنرال، وفجأة استدار هذا الأخير نحونا مباشرة وأمرنا «ابحثوا في كل مكان واخرجوا الجميع ولاتدعوا أحدا في الداخل»، ثم التفت جهة امحمد اعبابو وقال له: «لاشك انه في الداخل (المقصود المغفور له الحسن الثاني) وسنجده بأي ثمن»، شحب وجه امحمد اعبابو لأن سلوك الجنرال صار يثير شكوكه اكثر فاكثر، فرد عليه في الحال. «لكن، مون جنرال، حسب فهمي لم تقم بتقييده، لقد وعدتني بأنني سأجده موثوقا .. إذن هذه المرحلة لم تكتمل وقد خنتني ..».

رد الجنرال: «لقد خنتني انت أيضا، لأنك افسدت خطتي بتغيير الاوامر، كان عليك الا تعطي الأمر بإطلاق الرصاص .. لقد كنت أريد انقلابا أبيض .. وليس حمام دم».

ولوضع حد للمناقشة الحادة، انصرف الجنرال بعد أن اصدر أوامره للطلبة الضباط بتنظيم وضع السجناء، أما اعبابو الذي أحس بالخيانة فقد أمر كلا من «د» و «ب» بقتل الجنرال.

نفذ الضابطان الأمر بدون تردد أو تفكير، إذ ضغطا في نفس اللحظة على الزناد فانطلقت رشقات طويلة وقاتلة من الرشاشات واخترقت جسد الجنرال الذي خر صريعا في الحال، في تلك اللحظة ظهر الدكتور بنعيش فوجد الموت في انتظاره أيضا.

لقد سقط الجنرال مذبوح رجل ثقة الملك بعد أن خانه، كما فعل والده الذي «باع» الزعيم والبطل التاريخي محمد بن عبد الكريم الخطابي للقوات الاستعمارية، لقد كان من عادة الجنرال الخيانة، وربما كان ذلك جزءا من كيانه، إذ سبق له في 1963 أن «أفشى في آخر لحظة سر المتامرين» الذي كان واحدا منهم، من أجل نيل تقدير وثقة الملك والارتقاء السريع، ولما وصل الى قمة السلم سقط منه ليس لأنه خان بل لأنه هو نفسه قد خانه مرؤوسه الذي استهان به لصغر سنه وانعدام تجربته، ورغم أنهما كان ينحدران من نفس القبيلة «غزناية» وكانا شبه «صديقين»، فإن طباعهما كانت تختلف وما كان يربطهما يومئذ هو التآمر وحده. لقد كان اعبابو يعلم أن المذبوح خائن خطير لن يتردد في تسخيره والتضحية به، لكنه (اعبابو) كان في حاجة الى مظلة رسمية لينتقل في سلام من اهرمومو الى الصخيرات والى شخص نافذ

للسيطرة على الجيش في حال طرأ طارئ ما، أما المذبوح فقد كان في حاجة الى القوة والى منفذ طموح ومقدام وقد وجد مبتغاه لدى اعبابو وبالرغم من انه كان يعرف ان هذا الضابط السامي الشاب أناني جدا ولا ضمير له وماكر ومشاغب، فقد جعله شريكه في هذه المهمة.

وفي الواقع لم يخلق الرجلان ليتفاهما، فالجنرال كان رجلا نزيها ومستقيما وصاحب مبادئ إضافة الى أن عمله في وزارة البريد وكعامل إقليم ووظيفته في القصر الملكي جعلوا منه رجل سياسة وإدارة وحوار، في حين أن شريكه كان شخصا غير نزيه، ينتهك القانون وجشعا يحب المال أي «نذلا» بكل ما في الكلمة من معنى، سواء على المستوى المادي أو المعنوي.

فبعد أن وصل الى الصخيرات، تولى القيادة بعد أن ألغى رئيسه وغير مجرى العملية وغير أوامر المذبوح الذي تبين أنه كان مجرد ذريعة للوصول الى الهدف، أما هذا الأخير فقد كان ينتظر محاصرة القصر ووضع رجاله في أماكنهم والقوة في متناوله، ثم يستغني عن خدمات اعبابو بعد أن يدعوه للدخول معه الى القصر ويصفيه جسديا عندما يختلي به، لقد كان كل واحد منهما يبحث عن الوسيلة للتخلص من الاخر. فعندما اراد المذبوح التخلص من شريكه لقي حتفه، أما اعبابو فقد زاد من حدة الوضع بقتل صاحبه.

شخصيا كنت متأكدا أن امحمد اعبابو قد فقد الأمل، ومع ذلك .. اقترب منه الضابط ASPIRANT أحمد مزيرق، صهر المذبوح وهمس في أذنه «مون كولونيل لقد حذرتك من هذا الخائن، فهو صهري ولم ارتح له أبدا، إنه ثعلب». ألقى اعبابو نظرة أخيرة على ضحيته وهو يقول: «تبا له، لقد استحق ما ناله، طيب الآن تقدموا»، تبع كل الحاضرين اعبابو الذي أمرنا بوضع الرهائن كلهم في طابور ثلاثي الصفوف، ثم بدأ يمعن النظر فيهم. ويتفحص وجوههم، عندما رآه الليوتنان كولونيل أحمد الخياري خرج من الصف ليحيي صديق طفولته في الفوج اعبابو وليفلت أساسا من غضب الجنود الذين كانوا يذيقون السجناء مر العذاب لإهانتهم، وبعد أن صافح صديقه عانقه، سدد اعبابو مسدسه الى بطن الخياري ثم ضغط على الزناد مطلقا رصاصة واحدة أردته قتيلا.

لم يكن لهذه الحركة الخسيسة والقاتلة سوى تفسير واحد وهو أن اعبابو فقد الثقة في الجميع، ذلك أن خيانة المذبوح الذي ينتمي الى قبيلته نفسه ماجعلته يرتاب ويحتاط، خاصة وأن الخياري كان ابن

شقيق الجنرال بوغرين الخياري الحاضر في عين المكان، لقد كان بإمكان هذين الأخيرين أن يغيرا مجرى الأوضاع التي أصبحت كارثية في وجه المتامر رقم٢، كان كل الرهائن واقفين وقد رفعوا أياديهم أمام الكولونيل اعبابو الذي كان ينظر إليهم نظرات شزراء مثل حيوان مفترس باحث عن طريدة، وكلما طال بحثه ازداد توتره وحنقه وعدوانيته، كان من بين الحاضرين سفراء معتمدون في الرباط، وزراء، نواب برلمانيون، زعماء أحزاب سياسية ونقابيون، موظفون سامون، جنرالات، رجال أعمال، ضيوف أجانب، فنانون، كلهم وقفوا جنبا الى جنب مع السائقين والطباخين والمدربين ... إلخ، كما في يوم الحساب وقد وقف اعبابو كامر بامر نفسه بيده حياة الناس ومماتهم: كان العرق يتصبب منهم بفعل الحرارة الفارطة وبفعل الخوف من التصفية الجماعية أيضا، أحد المدعوين أخرجه الجنود من خيمة الاستراحة وهم ينهالون عليه بالضرب بأعقاب البنادق فخاطبهم بقوله: «عم تبحثون هنا، فتشوا بالأحرى في داخل القصر، هناك لديكم فرصة كبيرة للعثور عليه (والمقصود المغفور له الحسن الثاني)» اعتقدوا بأنه يصدر إليهم أوامره، فصرخوا فيه دفعة واحدة «تقدم أيها البرجوازي الحقير، اليوم لم يعد لك الحق في الكلام، لقد سئمنا تجارا مثلك يمتصون دمنا»، وقد كنت لاحظت، منذ البداية حقد الجنود على الأثرياء. فالثراء أثار حنقهم ولهذا تكالبوا بعدوانية كبيرة على كل الأشخاص الذين كانوا يحملون أشياء ثمينة، فعمدوا الى الاستيلاء عنوة على العقود، والسلاسل اليدوية والساعات الذهبية والخواتم ويسلبونها من أصحابها ويرمون بها في الساحات!! واصل امحمد اعبابو جولته وكان العديد من الرهائن يحيونه ويبدون علامات التعاطف وبعضهم لم يتورع عن تشجيعه وتأييده، بل كان منهم من أراد إثارة انتباهه استدرارا لرحمته أو طمعا في امتياز!! بعضهم نجح في الحصول على ما أراد ذلك أن اعبابو أمره بنقلهم الى الظل وسقيهم ماء يشربونه، هؤلاء «المحظوظون» الذين نالوا الحماية من الشمس والرصاص وربما القتل الجماعي، كانوا من الحاشية وغيروا ولاءهم مثل الحرباء وأبدوا استعدادهم لخدمة اعبابو للافلات بجلودهم. لقد كرر التاريخ نفسه، ألم يكن هناك من خدموا لويس السادس عشر، لكنهم تحولوا فيما بعد إلى ثوار؟ وأولئك الذين خدموا نابليون قبل أن يحنوا رؤوسهم لمن جاء بعده بعد رحيله؟ هؤلاء الناس لايستحقون الاحترام، أي احترام، لأنهم يغيرون مبادئهم مثل ما

يغـيـر اخـرون مناديلهم، كـانوا ينتظرون إشـارة من اعـبـابو، لكن هذا الاخـيـر كـان مـشـغـولا بأشـيـاء أخـرى مـواصـلا بحثـه وتنقيبه، بقسمات متجهمة ونظرة حاقدة ونافذة وقد ثنى ذراعه لوقف نزيف الجرح أمسك باليد الأخرى مسدسه الغاشم، فجأة توقف وابتسم ابتسامة شامتة وتوجه الى الكولونيل بولحيمص قائد الدرك الملكي وأمره بلهجة متعالية بالخروج عن الصف، تردد هذا الأخير قبل أن يستجيب للأمر مقدرا لاشك ما كان ينتظره: «وأخيرا أيها الكولونيل جيتِ قُدَامي، شْحالْ سْتنِيتْ هذا النهار .. العالم صغير كولونيل أليس كذلك؟».

كان الكولونيل يعرف أنه سيموت، لكنه حاول مع ذلك أن يثني اعبابو عن قراره، فتوسل إليه وترجاه منتحبا، لم ألْحَظْ على ملامح نابليون الصغير في أية لحظة من اللحظات أي علامة على الزهو أو الافتخار، بل كان على العكس جامد القسمات وقد أحبطه سلوك عدوه إن لم يثر ضجره نوعا ما، لقد أراد منه المحافظة على أنفة الضابط وأن يموت كذلك، لقد تمنى أن يقتله هو شخصيا، لكن هذه الرغبة انتفت ليحل محلها إحساس بالخيبة والمرارة، شخصيا كنت أفضل أن أراه يموت واقفا، بأنفة وعزة حتى لايلطخ سمعته كضابط صارم ترتعد له فرائص مرؤوسيه.

أمر امحمد اعبابو أحد الطلبة الضباط بقتله، فأطلق هذا الأخير النار بلا تردد، فخر بولحيمص صريعا، تقدم اعبابو دون التفات، لكن جنديا اخر أخبره بأنه لم يمت وأنه جريح فقط. عاد القهقري ولاحظ بأن الجريح لم يلفظ أنفاسه، فوضع قدمه فوق رأسه وأشار بمقدمة جزمته (برودْكان) الى الصدْغ وقال جندي «اضرب هنا»، وضع هذا الأخير ماسورة بندقيته من نوع غاران 7,24مم في المكان المشار إليه وضغط على الزناد وقد كانت الطلقة عنيفة الى درجة أن جسد الجريح كله انتفض قبل أن يهمد نهائيا.

واصل اعبابو تفقد الصفوف، ذهابا وإيابا، وفي لحظة ما خاطبه المرحوم علال الفاسي، الزعيم الوطني وزعيم حزب الاستقلال، وأحد أبطال تحرير المغرب. اعتذر اعبابو بأدب للزعيم علال الفاسي الذي أراد التحدث إليه وقال: «من بعد أسِّي علال، غادي نشوف من بعْدْ ..» كان المرحوم علال الفاسي مجروح اليد بفعل شظية قنبلة تطايرت، وكان رحمه الله ينزف وفي حاجة لعلاج لوقف النزيف، لكن لا أحد اهتم للأمر، كما هو الشأن مع الجنرال الصفريوي الذي جرح في رجله ولم يقدم له

احد المساعدة في الحال، أما المحجوبي أحرضان زعيم الحركة الشعبية، فقد أسيئت معاملته من طرف الطلبة الضباط الذين تظاهروا بأنهم لم يتعرفوا عليه، وقد أمروه بخلع حذائه ففعل ولكنه ثار وأزبد عندما طلبوا منه خلع ملابسه وصاح فيهم «أوهُو، إلا هذه، انا ماشي قرْد» وسرعان ما وضع تدخل سرجان من نفس منطقة أحرضان حدا لهذه الحكاية.

في الجهة الجنوبية كان حشد كبير من الحاضرين ممددا أرضا يحرسه الحراس حراسة مشددة، إضافة الى فيض العدوانية تجاه هؤلاء المدنيين العنيدين والمباهين بكبريائهم والذين ينفذون الأوامر رغما عنهم بغضب واضح، كان شخصان اثنان، ببذلتهما المدنية، يشكلان الاستثناء الوحيد للأوامر الصارمة المعطاة، هما الجنرال بوغرين خياري والجنرال حمو امحزون، كانا واقفين باحترام لايمسهما أحد بمن في ذلك ضباطنا الغاضبون والعدوانيون، اقتربت من الأول وسألته حرفيا: «سلامي أيها الجنرال، قل لي من فضلك ما الذي يحدث هنا؟ كان من المفروض أن نقوم بمناورة في بنسليمان وإذا بنا في الصخيرات ...» أجابني بأدب وهدوء: «أعتقد أن من الأفضل أن تسأل في ذلك قائدكم فسوف يخبركم لامحالة بالوضعية» أما الثاني - الجنرال حمو - فقد كان هو الذي بادرني بالكلام قائلا: «أريد الخروج من هذه الفوضى، هل يمكنك أن تأتيني بسيارتي التي حبسها ضباطكم؟» أجبته: «أنا أسف، مون جنرال، لايمكنني مغادرة مكاني، وعلى كل حال أنا لا أتقن السياقة» (وتلك كذبة مفضوحة وذريعة غير قائمة)، الآن أنا نادم وساخط على نفسي لأنه كان بإمكاني أن أنقذ هذا الجندي الكبير الذي ذاع صيته في الجيش الفرنسي، وأن أخرجه من هذه الكماشة حتى يذهب بعيدا عن الصخيرات، كان ذلك سيمكنه من الإفلات من المحكمة العسكرية.

ظل الإثنان مسمرين في مكانهما، بلا حراك ولا قوة وأعزلين، يتفرجان ساخطين على المجزرة.

في البداية اعتقد العديد من المشاركين بأن الأمر مجرد مناورة حتى وإن رأوا الموتى والجرحى مفترضين أن مرد ذلك الى الإهمال!! بعضهم ظل يعتقد بأنها عملية عسكرية ضد عناصر انقلابية (!) لاسيما عندما كانوا يسمعون اعبابو، كل مرة، يصيح «عاش الملك، اقبضوا على الخونة واقتلوا الجبناء! عاش الملك تقدموا!» كان هذا كافيا لشحن عواطف رجاله ودفعهم الى ارتكاب الفظاعات وكثيرون نفذوا أوامر اعبابو

معتقدين انهم يخدمون الملك.

عاد الهدوء بعد أن توقف اطلاق الرصاص بشكل فجائي يشبه انقطاع مطر منهمر، وقرر اعبابو الدخول مرة ثانية الى القصر من أجل تفتيش جديد، وزع المهام على رجاله وتجول شخصيا يتفحص وجوه الموتى، استغل الطلبة المناسبة فبدأوا يسلبونهم نفائسهم وأموالهم، في الداخل كانت الموائد والأكلات الباذخة قد تطايرت وتناثرت فوق الارض وقد داسها الجنود بجزماتهم الموحلة. شخصيا وقفت مشدوها أمام المادبات الغنية ولزمني شخص آخر حتى يشرح لي الفرق بين الكافيار والصومون واللانغوست، لم يكن الضباط مخدرين أو مشحونين ايديولوجيا في اعتقادي، ذلك أنهم كانوا يجهلون المهمة التي جاؤوا من أجلها وربما أثارتهم النعمة والأناقة لدى الحاضرين، فهم من أوساط قروية أو مدن الصفيح عاشوا حياة تقشف قوت لديهم حقدا دفينا ومتوارثا ضد البرجوازيين الذين اغتنوا على ظهورهم، وفي هذا اليوم انتقم بعضهم من «الدجاج لبيض» المتعالي والمتكبر ورفضوا وقف اطلاق النار الذي أصدر أمره رؤساؤهم، لقد انفجر البركان داخلهم يومها بسبب النظام الجهنمي الذي اخضعهم له ضباطهم وب سبب الضغط الذي عاشه أهلهم وعاشوه هم أيضا والممارس من طرف رؤسائهم ذوي الأفكار المغامرة .. لم أستطع تفسير سلوكهم، فإلى حدود صباح ذلك النهار كانوا تلامذة مؤدبين هادئين منصاعين وفجأة تحولوا إلى حيوانات بعيون جاحظة وقسمات ابيضت بياضا مرعبا وأفواه مزبدة ونظرات تائهة مثل المخدرين، وما كانوا كذلك واعتقد انهم نابهون، وسط هذه الاجواء توجه السارجان شاف سرور وهو شخص غير متعلم قضى 15 سنة في صفوف الجيش الفرنسي إلى قائد الكوماندو والذي ينتمي إليه وهو سوليوتنان متعلم وعلى علم ودار بينهما الحوار التالي:

● مون ليوتنان آش كال ليكم الكولونيل اعبابو؟

■ خصنا نحاصروا البنايات في الصخيرات فين كاين انقلابيين ونضربوا بالرصاص.

● لا، احنا غادي نديرو انقلاب.

■ وانت احمق؟ اعبابو ملكي وعايش مزيان ..

ولما تبين له أن مرؤوسه كان على حق بدأ يبحث عن أبيه وسط الرهائن ثم ركب سيارته وغادر القصر، فيما بعد حكم عليه بعشر

سنوات سجنا وقضى عشرين سنة في تازمامات قبل أن يغادر السجن في 1991 وقد تقوس ظهره، وأصبح مثل «أحدب روما» أما السارجان شاف فقد قضى 18 شهرا في السجن المركزي بالقنيطرة وعاد الى الحياة ليحيا حياة مدنية بعد أن رأت المحكمة بأنه كان يبحث عن أبيه لأنه تخلى عنه وعن أمه.

ومن جهته سأل السرجان عبد الصادقي الملقب «مانولو» وهو جندي سابق في الجيش الاسباني، الليوتنان حيفي قائلا:«مون ليوتنان قل لي ماذا يقع من فضلك؟» فأجابه هذا الأخير: «الْحْمار، ماعرفش بأن هذا إنقلاب؟ خصك تكون حمار باش ما تفهمش!» ويبدو أن مانولو كان فعلا كذلك، لأنه ردد العبارة حرفيا أمام المحكمة للانتقام من الضابط الذي أهانه، فحكم عليه بـ 5 سنوات سجنا ومات في تزمامارت سنة 1983 من جراء نزيف في الدماغ، أما الضابط فقد توفي بدوره في تازمامارت يوم 26 اكتوبر 1989 بعد أن مضى زمن طويل على جنونه.

إذا كان بعض الجنود قد قلبوا الموائد والطاولات فإن البعض منهم قد استغل اللحظة لملء البطن، وقد وجدت شخصيا ضابطي صف مختبئين في احدى الغرف يلتهمان الكسكس «المخضر بالدجاج،» عندما نبهتهما الى فعلتهما أجاباني بأنها فرصتهما لأكل الكسكس الملكي، أجبتهما بغلظة: «عالله تكونوا عارفين آش كايتسناكم، غادي يكون عندكم الوقت الكافي باش تهضموا».

طأطأ رأسيهما وأجابا بنبرة آسفة: «نحن مجرد منفذين حولنا قادتنا الى وحوش بفرض الطاعة علينا»، وكان كذلك لأن ضباط الصف لم يحضروا خطاب الجمعة في قاعة الشرف ولا «خطبة» بوقنادل، مثلهم في ذلك مثل الطلبة الضباط الذين اقتيدوا الى المجزرة مثل القطيع، وقد أفرج عنهما بعد قضاء عقوبة 18 شهرا في السجن المركزي بالقنيطرة لكونهما كانا نائبي قائد الكوماندو ولربما كانا سيقضيان 5 سنوات سجنا لو أن المدعي العام علم بأنهما كانا داخل قصر الصخيرات، أما فيما يخص الكسكس فكان من الممكن أن تشدد العقوبة، ومن حسن الحظ انني لست من الذين يطنبون في الحديث عن هذا الأمر!! في مكان آخر فاجأت ضابطا شابا يدعى «بييزانو» أمام ثلاجة يسلب ما فيها، قرعته قائلا: «بييزانو كتكل في هاذ الحالة وش ما كتعرفش بأننا في مصيبة؟» أجابني بهدوء وهو يمد لي صَحْنًا به فراولة وقنينة حليب: «البارحة طلبت من اعبابو يقول لنا الهدف من هذه المهمة، لكنه رفض بدعوى أنه

لايعلم سرها وقد ركز بأنها قضية جنرالات، خليهم يديروا شغلهم انا ماشي شغلي، لاانا ولا انت بغينا نجيوا لقصر الصخيرات اسي الرايس، كل هاذ لفْريزْ راهْ زوينْ واشرب الحليب البارد برّا كاينْ الصهْدْ»، اخذت مما عرض عليّ ثم أضاف هو قائلا: «خلّينا نرْتاحوا في الظلّ شْويّة» اه لو كنت تعرف يا «بييزانو» العزيز الحرارة الجهنمية التي كانت تنتظرنا والظل الذي قبعنا فيه حتى أصبحنا رميما لما اكلت تلك الفاكهة التي كانت بالنسبة لنا مثل تفاحة آدم.

لما خرجت من القصر صادفت لادجودان خرخاش يجمع انبوبا مطاطيا طويلا لسقي العشب في ملعب الغولف ليضعه في «الجيب ////» ولما رآني قادما نحوه خاطبني بقوله: «شُوف مُون ليوتنان هاذْ التّيُو مزيان خاصْنا ناخذوه باش نسقيوا الجردة في المدرسة»، قلت له: «حطّ العامْ اللي فات سْرقْتِ الآلة متاع السلك ديال الضو في قصر فاس ودابا جا دوْر قصر الصخيرات»، وجم خرخاش واصْفرّ من الهلع» فسألته: «علاش تخلعت ملي كنت كَا تَخْرُجْ في الليل تسرق ديال الدولة كاع ما كنت تخاف»، فأجابني بعد أن رمى بالأنبوب: «صراحة ما بقيت فاهم والو، البارحة كالو لينا مانوفر (مناورة)، هاذ اصباح ولات قضية عناصر مخربة، مهما نزلت من الكاميو ما عرفتش فين انا، ولما شفت الدم في الغازون (العشب) يحسابلي وزين (معمل) ديال مطيشة، عاود شفت تران في السكة كلت شومينو دايرين اضراب، وها انت دابا كتقول لي راحنا في القصر آش جينا نديرو هنا؟» شرحت له كل شيء لم يصدق المسكين ما راى وسمع فأجابني بنبرة المحبط المنهار: «بعد 25 عام في خدمة الجيش الفرنسي خدعت مثل واحد جديد»، ثم اطرق مليا واجاب: «الخطأ ليس خطئي لقد شاركت في الحرب العالمية الثانية ثم حرب الهند الصينية وقد علمونا الهجوم والحصار والفراسة ونصب الكمائن والمصارعة، لكنهم لم يعلمونا أبدا، وأقول لك ابدا، كيف نقوم بانقلاب !؟» انفجرت ضاحكا وقلت له «في فرنسا لايقام انقلاب».

حول الباب الكبير للقصر كان الرهائن ممددين ارضا، بعضهم بلباس عاد واخرون بلباس الاستحمام، وكانت من بينهم امرأتان شجاعتان وفي كامل وعيهما وقفتا وقفة الند للند في وجه الجنود الذين كانوا يدفعونهما دفعا حتى تدخلان الصف، وكانتا مثل دجاجتين تحضنان صغيريهما وتدافعان عنهم بمنقارهما بكل ما فيهما من قوة حتى لايمسهما الخطر المحدق، لقد بذلتا كل ما في وسعهما حتى لايمس

صغيريهما هؤلاء الأشخاص المتنطعون بسحناتهم العصابية والمتعصبة، كنت متأكدا أن هاتين السيدتين لن تتخليا عن ما في حضنيهما حتى ولو دفعتا الثمن من حياتهما، لقد صارعتا وازغتا وازبدتا ورفضتا رفضا باتا التخلي عن الصغيرين اللذين كانا في حضنيهما، ومن حسن الحظ ان أحد الملازمين تدخل ووضع حدا لهذه الواقعة ومنع سوء معاملة السيدتين الفاضلتين، بعد ان عاد الهدوء شرح احد الخدم للمتمردين بأن السيدتين الأوربيتين هما مربيتا ولي العهد الامير سيدي محمد (٨ سنوات) والأمير مولاي رشيد (سنة واحدة)، ولما سمعوا ذلك خجلوا من فعلتهم وطأطأوا رؤوسهم علامة على الندم! واعتذر الملازم للمربيتين الشجاعتين ثم أمر اثنين من تلامذتنا بمرافقة المربيتين والأميرين الى مكان ظليل بعيدا عن الخطر، هذا الضابط حكم عليه في ما بعد بـ 5 سنوات سجنا نافذا وعانى هو ايضا من محنة تازمامارت، ويعيش اليوم عيشة مدنية، وعاطلا عن العمل. أما الطالبان فقد برأتهما المحكمة، أحدهما يعمل الآن في أسلاك الدولة والثاني يعمل في القطاع الخاص ويعيشان كمواطنين صالحين، وقد سألني الملازم ذات يوم ونحن في تازمامارت ان أشرح له معنى «سمية سيدي» التي سمعها مرارا في القصر وأجبته انه اللقب الأميري لولي العهد، فعلق على ذلك «ها انت ترى انني لم أكن انتبه لشيء، في الصخيرات كنت مثل التائه والآن في تازمامارت أشبه إنسانا ضالا في متاهة الشك واليأس دون أن اعرف مجرد المعرفة لماذا أنا هنا؟» عندما كان امحمد اعبابو يقوم بجولته إياها، كان الطلبة الضباط قد أخرجوا من القصر مجموعة من المدعوين وكان من بينهم الجنرال الغرباوي قائد وحدة المدرعات، وهي الوحدة الأشد قوة وبأسا في القوات المسلحة الملكية وقتها، اخرجه اعبابو من الصف وحدثه بلطف لعله يقنعه بالانضمام الى الانقلاب لأنه كان ورقة رابحة بالنسبة له وكانت وحدته ولاشك حاجزا لايقهر.

لم يأبه الجنرال الغرباوي لعرض الانقلابي الذي كان يحاول ثنيه عن رأيه بأي ثمن، وكان اعبابو طوال الحديث شاهرا مسدسه ، مصوبا إياه تجاه محدثه الذي بدا انه يحاول ربح الوقت، وفي لحظة ما، استدار اعبابو، لاعتقاده ربما انه ممسك بفريسته، ليصدر الأوامر لرجاله، واستغل الجنرال الغرباوي تلك اللحظة الوجيزة وطلب من أحد الطلبة الضباط، وقف بينه وبين اعبابو أن يلقي إليه برشاشه ليصفي الانقلابي الشرس المستعد للمرور على جثث آلاف الناس للوصول الى هدفه، اعتقد

الطالب انه من غير اللائق والمهذب أن يرمي السلاح الى الجنرال، فخطا خطوة باتجاهه ليسلمها له، من سوء الحظ أن اعبابو استدار في تلك اللحظة ليواصل حديثه مع الجنرال لما تيقن من «الخيانة» المزدوجة وراء ظهره اطلق النار على الطالب الضابط أولا فاصابه في ركبته، ثم افرغ رصاصاته العديدة في جسم الجنرال الغرباوي الذي خر ميتا دون ان يحقق عمله الشجاع والجدير برجل شرف وثقة. وقف اعبابو يتامل جثة الجنرال الذي رفض التآمر معه حتى لايخون ولي نعمته، ورفض ايضا ان يجثوا امامه ويتوسل إليه الا يقتله، لقد مات ميتة كريمة مدافعا عن روحه وشرفه وملكه، لقد كان موت الغرباوي مثل موت الفهد، اي ظل على حاله دون شكوى، ولامنازعة في انه كان محبوبا يكن له الجميع الاحترام بسبب طيبوبته وعطفه وأحاسيسه الإنسانية وكذلك سيظل حتى بعد موته، لقد كان الغرباوي وفيا وفاء الجنرال كامبرون لنابوليون بونابارت وبنفس شجاعة واخلاص الفارس بليار لفرانسوا الاول، ولم يكن يطاوله أحد في الجيش أو يعوضه.

اما زين الخير، ذلك الطالب الشجاع الذي تجرا على تحدي قائده لإنقاذه الجنرال فإن هذا الأخير لم يتوجه إليه صدفة، بل لأنه كان يعرفه، وقد سنحت لي الفرصة مساء ذلك اليوم لأن آسال الضابط الجريح عن السبب الذي دفعه الى القيام بما قام به.

وقد اجابني بان امه كانت خادمة في القصر بالرباط وان المرحوم الغرباوي اسدى لها أيادي بيضاء عديدة لتحسين وضعها، وانه هو الذي ضمه الى الجيش وأرسله دون مباراة ليقضي تدريبه كطالب ضابط في اهرمومو وفي ختام حديثه سالني: «كيف يمكنني الا ارد الجميل لمن احسن إليّ؟».

قَتَلْتُ القبطان بوجمعة

واصل امحمد اعبابو طريق الخطأ، يجر خلفه سجلا عدليا حافلا وركاما من الجثث. كنت اتساءل دوما هل هي الصدفة البحتة التي جعلت كل الذين قتلهم اعبابو شخصيا من أبناء القياد السابقين أي «أولاد الخيام الكبيرة» (البرجوازية القروية) وكلهم شلوح باستثناء المذبوح الذي كان ريفيا مثل امحمد. وقد هاجم مرة أخرى إضافية أبناء الخيام لكبيرة الامازيغية ونخبة الضباط الذين خدموا الجيش الفرنسي بتألق، فأخرج من الصف الجنرالات التالية أسماؤهم: حمو امحزون وهو جندي مثالي من خيرة جنود الهند -الصينية وحفيد موحا وحمو الزياني بطل معركة لهري بخنيفرة، وامهارش مصطفى وهو إداري لامع وصاحب قدرة عالية على التنظيم، محمد حبيبي خريج المدرسة الحربية العليا بباريس، كلاهما من الحاجب، متزوج بفرنسية وبوغرين الخياري ابن قائد قبيلة تاهلة المحاربة التي تنتمي الى «بني وارين». بعدها أطلعهم على الأمر وعرض عليهم اتباعه ومساندته في الانقلاب. مد يده، لكن الجنرال حمو رفض مصافحته وأشاح بوجهه عن اعبابو، ثم أشعل سيجاره الضخم وخاطبه قائلا: «كلا يا اعبابو ما تقوله لا معنى له - بل هذا خطير للغاية. أنا غير متفق معك وصراحة هذا لعب الدراري». كظم اعبابو غيظه وأجابه بهدوء وثقة في النفس ظاهرين. ليس فقط لأن جواب الجنرال حمو قد خيب ظنه بل لأن الصمت المطبق للجنرالات الثلاثة الآخرين زاد من غضبه، والواقع أن هذا الصمت كان جوابا قاطعا لكن الجنرالات لم يعبروا عن رفضهم قولا حتى لا يلقوا حتفهم لأن اعبابو لا يحب من يعارضه.

خاطبهم هذا الأخير بقوله: «أؤكد لكم أن الانقلاب نجح بل كان مربوحا منذا البداية. والمذبوح مات من جراء رصاصة طائشة بعد أن انتزع تنازل الملك بالقوة. سنرحل قريبا الي الرباط من أجل تشكيل مجلس الثورة وستشكلون عصبه الحي. هل أنتم راضون الآن؟». لم يتلق أي جواب. ألح عليهم «قولوا لي رأيكم على الأقل!». أعاد حمو علي مسامعه نفس الاقوال تقريبا وساند الآخرون أقوال زميلهم. تبدلت لهجة امحمد اعبابو وأمرهم بركوب الجيب لاندرفر، وقد كانت سيارة إسعاف من المستشفى العسكري

بالرباط سرعان ما تحولت الي سجن متحرك. وقد وضع بنفسه الحراس وامرهم بتجهيز السلاح بالأسنة، ثم توجه إلي قائلا:

«لا تدع أحدا ينزل. من الآن فصاعدا هم سجنائي». مكثت هناك واقفا الي حين عودته وطوال الوقت كان الجنرالات الرهائن شاردين وواجمين غارقين في التفكير في مآلهم.

منذ مجيئه الي الصخيرات الى حين رحيله الي الرباط. ما فتىء اعبابو يصرخ في الجنود «عاش الملك، قْضِيوْا على الخونة» أو يضيف «دافعوا عن ملككم، قتلوا اللي بْغاو يقتلوه»!

وكان الجميع تقريبا يتساءل إن كان قد أصابه مس من الجنون نظرا للتناقض الحاصل بين أقواله وأفعاله وما يفصلهما من أكاذيب. وهناك من ذهب به الحال الي التساؤل بعد رحيله إن كان ضد الملكية أم معها؟

عديدون من بين المدعوين كانوا يطلبون من اعبابو أن يحميهم من عدوانية الطلبة الضباط وكان يجيبهم بابتسامة أو هزة من رأسه ثم يغمز الجنود مشجعا على مواصلة ساديتهم.

احتج السفير المصري السيد فهمي عبد المجيد علي سوء معاملة بعض الجنود له. الى جانبه كان يوجد سينمائى كبير مصحوبا بالممثلة والمغنية شادية بدأ يشرح للانقلابيين: «ان السيد السفير وشادية وانا من جمهورية مصر العربية. نحن اشقاؤكم عرب ومسلمون مثلكم» فاجابه اشدهم غلظة: « انا لا أعرف بلدكم، لم أسمع أبدا بهذا الاسم»، وتساءل طالب ضابط ثاني، أكثر اطلاعا على أحوال العالم، «اه، طيب انا أعرف بلدكم، ماشي انتوما الي غلبناكم ب 3 لصفر في الكرة هاذ العام في اقصائيات الألعاب الأولمبية؟» أجابوا بصوت واحد «نعم صحيح. لقد سحقتونا ب 3 لصفر»!.. وكان أن سقوهم ماء وانتحوا بهم في مكان ظليل.

عاد اعبابو ليرى إن كان الجنرالات الأربعة قد غيروا رأيهم، لكنهم ظلوا علي موقفهم الرافض. فأمرهم بالترجل عن لاندروفير واركبهم في شاحنة صغيرة من نوع 4X4 رونو، وأعطى نفس الأوامر. بعد أن أمر «سرجان» بمراقبتهم طلب مني أن اتبعه، دخلنا للمرة الثالثة الي القصر الذي كان خاليا، فقد كان المدعوون جميعا في الخارج وكل الاثاث عاثوا فيه فسادا، عندما مر اعبابو بالقرب من السماط. قال للجنود: - انظروا الى أين تذهب الضرائب التي يدفعها الآباء الفقراء إنهم يمصون دماء المساكين «ويزيدون الشحمة في الحلاليف البورجوازيين الذين يمصون

دمكم». لقد كان يختلق مثل هذا الخطاب حتى يجيش المشاعر ويحرك السواكن. والحال ان اعبابو لم يكن يطبق هذه «المبادئ»، لأنه كان يسرق الجميع من الدولة والطلبة، الى المدنيين ويسلب الممولين. لقد كان جشعا لايتراجع في الحصول على هدفه غير أن خطابه الصغير أعطى ثماره يومها.

فما إن اتم كلامه حتى أطلق أحد الطلبة رشقات طويلة من رشاشة على حلوى العيد: شخصيا أغراني نهر الشوكلاطة والكريم بفانيلا الذي كان يسيل فوق فواكه البحر وقد سحقها الجنود بأعقاب البنادق. لقد تطلب خلق القمصان السود والشبيبة الهتليرية مئات الخطب وزمنا طويلا، لكن اعبابو استطاع بكلمة واحدة أن يصيب قلوب الطلبة الانقلابيين وعمق روحهم ويفجر هذا الحقد الدفين حتى لدى أهلهم ضد «البورجوازية الفاسية». وقد بدأوا في التنقيب والتفتيش بطريقة جنونية ومتوحشة، فبقرت الأرائك وقلب الاثاث وعاث الجند فسادا في محتويات القبة. في تلك اللحظة كان الجنود مستعدين لذبح اي كان، يكفي أن يشير اعبابو بأصبعه.

كان أوج المسألة بالنسبة لي هو السقوط في الفخ الذي نصبه امحمد اعبابو لكل أولئك الذين كانوا الي جانبه قبلي، فقد اخرج قبطانا مسنا من المساعدين الأقربين للأمير مولاي عبد الله كان واقفا ضمن الرهائن، رافعا يديه ساعات طويلة تحت أنظار الطلبة الضباط الغاضبين. أمره بالتنحي جانبا وانتظاره بمعية الضابط «عقة» الضخم الجثة، أجرى عدة محادثات مع الجنرالات الأربعة ثم عاد للتحدث الي القبطان بوجمعة.

لم انصت الي بداية محادثاتهما بسبب هدير الأمواج، غير أن امحمد اعبابو دعاني الى جانبه وواصل حديثه «أنت تدعي أنك لا تعرف أين سجن هؤلاء الخونة جلالة الملك، إذن أنت شريكهم».

■ اقسم بالله، «مون كولونيل» بأنه لا علم لي.

□ إن خونة الشعب قد قتلوا جلالة الملك ربما وشقيقه. وأنت المساعد الاقرب تتظاهر بأنك لا تعرف شيئا. قل لي ماذا فعلوا بالملك إذا كنت تريد أن تظل حيا، هل قتلوه؟ هل سجنوه فقط؟

كرر القبطان ما قاله من قبل فاستشاط الكولونيل اعبابو غضبا وزادت حدته وفقد السيطرة علي أعصابه فصرخ فيه: «كلكم جبناء، وخونة ساقتلكم جميعا». ثم استدار نحوي ومسدسه مصوب الي صدري ثم اصدر الي الأمر التالي: «الرايس اقتل هذا الخائن Tue ce traitre.

ترددت، حسبت انني أحلم، وأنها مجرد تهيؤات لا اقل ولا اكثر. لكن اعبابو كرر الامر بلهجة تهديد وقد صوب الماسورة نحوي، والتمعت في عينيه شرارة حقد ورعب، كان ينتظر رفضي ليرديني قتيلا دون شفقة او رحمة. نظرت إليه نظرة المتسول الذي ينتظر صدقة وكانت صدقتي التي انتظرها من هذا الانسان البشع والمنعدم الضمير هي تراجعه عن قراره القاسي. والحال انه أصر بإلحاح وهددني بالقول «حذار لا تدفعني لكي اقتلك ايضا» هذا الانذار هز كياني وارتعدت له فرائصي فطفا على السطح جبني الذي طالما اخفته انفتي الزائفة وإحساسي الانساني المزعوم استولى علي جبن رهيب وقاهر وتاهت نفسي في سراديب الخوف من الموت في عز شبابي، اهتز جسدي كله وانا أفكر بانني ساقتل انسانا لاشك انه بريء وأعزل علي الخصوص. لم يكن أمامي اختيار فإذا ما انا رفضت تنفيذ هذا الأمر الوضيع سيقتلني اعبابو لا محالة ويقتل القبطان ايضا، وإذا قتلته ستظل الجريمة عالقة بي الي الأبد، حتى لو كانت فعلتي غير إرادية وإجبارية تحت تهديد اعبابو فستظل جريمة وعملا غير عادل ولا إنساني في حق شخص اتهمه المتامر الرهيب بانه خائن. كلما كنت أفكر في ما سأقدم عليه، اختلطت علي افكاري وتشوشت ذاكرتي مع تسارع الأحداث ورعب الفعلة. لم استطع ان اقاوم طويلا إحساسي الانساني الذي منعني من القيام بما أمرت به وانتصر الجانب المدنس فيَّ ودفعني الي الضغط على الزناد. حتي أن دوي الطلقة فاجأني.

خر القبطان صريعا وسقط معه، ليس فقط كل ماضيّ الذي كان مصدر عزتي وافتخاري تاركا وراءه احساسا بالعار، بل سقط معه ايضا مستقبلي. أصبحت إنسانا محطما، لأن امحمد اعبابو نزع عني في رمشة عين أعز مالدي: شرفي، مكثت مسمرا في مكاني شارد الذهن، انظر في الفراغ الذي اكتسح حياتي منذئذ.

أحسست كما لو أن الموج يأخذني بعيدا، بعيدا عن هذه الجثة الممددة امامي وبعيدا عن امحمد الذي لم يهتم لما يدور حوله وواصل إصدار الاوامر، فزعت لما سمعته يناديني مرة أخرى وكنت اتمنى الهروب والالتحاق بالنسيان:

اسمع الرايس انت من الناس القليلين الذين ما زالوا محل ثقتي، اعلم ان الملك قد اعتقلته عناصر مخربة تريد به سوءا. إن واجبنا هو إنقاذه حتي ولو متنا من اجل ذلك. إن مهمتك هي أن تجده. خذ معك

عشرين طالبا وفتش عنه جيدا في كل الأماكن التي قد يكون فيها».

في الواقع، كان التفتيش وجيزا وشكليا لأن الجميع اكتشف المهمة الحقيقية لاعبابو، الذي تجاوزته الاحداث فتاهت به السبل. لقد سعر الرجل لأنه أحس فجأة بأنه وحيد. في لحظة من اللحظات لاحظت أنه شارد واجم الوجه، تناقصت التماعات نظراته وإن احتفظت برعبها. يده المصابة متنية، والأخرى ممسكة بالمسدس، نظر إلى صفوف الرهائن الطويلة الموجودة تحت رحمته، ولاشك أنه تصور في تلك اللحظة بأنه فرعون، الأمر بأمر نفسه الوحيد الذي له الحق في حسم مصير هؤلاء الناس الذين كان ذنبهم الوحيد يومها هو أنهم كانوا ضيوف الملك. ليست هذه فرضية أو تخمين بل كان غارقا في أفكاره الكئيبة ويفكر في الطريقة التي سيتخلص بها من سجنائه.

جاء من يخبره بوصول قافلة من القوات المساعدة فأجاب بأنهم الي جانبنا وبعدها أخبروه بوصول عشرات السيارات من سيارات الشرطة. فأجاب بنفس الشيء. هل هو التفاؤل المبالغ فيه؟ أم تراه جنون العظمة؟ أم هي الأوهام الضائعة فقط؟ فجأة تذكر بأن أخاه محمد موجود في القصر أيضا فاستدعاه علي الفور. وقد كان الكولونيل محمد اعبابو، بعد أن أطلق النار علي الكولونيل لوباريس، قد قضى حاله في التجول ومراقبة سير العمليات. لم يكن باستطاعته إصدار الأوامر لأن لا أحد كان يعرفه سواي.

والأنكى من كل هذا أن رؤساء الكوماندوهات أنفسهم لم يكونوا يعرفون مرؤوسيهم. فقد شاء مكر الصدفة وسخرية القدر أن تكون المجموعات من عناصر مختلطة من الشبان وغير الشبان.

في الواقع في هذا الانقلاب لم يكن أحد يعرف أحدا، فهل هي حيلة من امحمد اعبابو حتى يزرع الفوضى و حتى لا يسيطر الضباط علي جنودهم بحزم واحكام؟ أم هو اهمال؟ وقد تساءلت يومها كيف أن قائدا عسكريا تخرج من مدرسة القيادة العامة بباريس بنتائج عالية نسي وضع وسائل الاتصال بينه وبين مرؤوسه؟ وكيف أن استراتيجيا مثله خطط مرارا لمناورات كبرى يرتكب مثل هذا الخطأ؟ وقد شرح لي أخوه محمد فيما بعد بأن السبب في هذا التهاون كان ناجما عن الاطمئنان على النجاح الذي ضمنه له المذبوح. وقد قال له« إن مهمتك تقضي فقط بمحاصرة القصر وسد كل الممرات وأنا سأتكفل بالباقي. والقضية مضمونة».

لم يتوقع امحمد اعبابو الطوارئ والانزلاقات، أما المذبوح الذي أخبره بأن «القضية مضمونة» فقد كان هو الذي «ضمن» موته. وللأسف والحسرة دفعنا نحن المرؤوسين الثمن الغالي لأخطائهما وجنون العظمة لديهما.

عندما التحق محمد بشقيقه امحمد كان شاحب الوجه، مرعوبا في أقصى توتره. تحدثا أمامي بالريفية، ولم أفهم من كل منهما سوى كلمتين «المذبوح» و «اللقيط». ولما احتد النقاش بينهما بدأ يتكلمان بلغة بلزاك، لأنهما درسا معا بالفرنسية، ابتداء من الفصل التحضيري.

سأل محمد شقيقه الأصغر: ماذا ستفعل بالرهائن؟

أجابه امحمد بهدوء وهو ينظر نظرة دموية إلى ضحاياه القادمين: سأطلق سراح كل الأجانب وأعدم الآخرين.

● هل أنت أحمق، هل نسيت الرأي العام الدولي، هل تريد أن تخلق هنا كونغو جديد؟

■ لا أنا أريد أن أصَفّي كل الخونة، وأريد أن أسحق كل الأحزاب السياسية، وسأدوس عليهم بالدبابات إذا اقتضى الأمر.

كان محمد يعرف شقيقه معرفة جيدة، ولكي يمنعه من تنفيذ نواياه اقترح عليه الاقتراح التالي.

- «اسمع يا امحمد. أنا أخوك، فأنصت إلى نصائحي. انس الموضوع الآن وسنتناقش غدا في مصير الرهائن. الآن دعهم تحت حراسة رجالك واذهب إلى الرباط لتسوية الأمور.

● سأقبل الاقتراح، شريطة أن تبقى هنا للإشراف على العملية والاستعداد لكل الطوارئ. اتفقنا؟.

- اتفقنا، أجاب محمد رغما عنه، سأصطحب معي الجنرالات الأربعة السجناء، وإذا ما أصروا على رفضهم سأصفيهم.

● لا يا امحمد، فباستثناء الجنرال حبيبي فكلهم أصدقاؤك، لا تعدم أحدا وتأكد بأنهم سيلتحقون في الأخير».

هكذا أعطى امحمد اعبابو الأمر بركوب الشاحنات. وقد تنفس الجميع الصعداء، لأن هذا المشهد الكئيب دام طويلا، وكان كل الجمع ينتظر بصبر فارغ هذا الأمر للتخلص من هذا الجو الجنائزي الذي أثقل أرواحنا وضمائرنا. كان الطلبة لا ينتظرون سوى اللحظة المناسبة للاستسلام، لأنهم وعوا بأنهم خدعوا. وحنقوا أساسا على ضباطهم الذين كان العديد منهم لا «يعلمون» حقيقة الأمر فهم لم يستمعوا إلى

«خطبة» بوقنادل ويفهموا منها العملية. وقد كان الضباط المتبصرون منهم ينتظرون منذ الوهلة الأولى، على أحر من الجمر وصول عناصر التدخل لتكسير هذا الانقلاب. وكان بعض الضباط غير راض على «عدم إخبارهم» بالعملية، وهكذا ظلوا غير مبالين إلى حين رحيلهم، وقد كانوا على حق في قولهم، إن اعبابو لا حق له في «استعمالهم» دون مشورتهم، لاسيما في قضية حساسة وخطيرة مثل هذه. وقد كانوا على حق في القبول والرفض، هكذا فر القبطانان نائبا اعبابو، بلكبير وغلول بعد نصف ساعة من بداية الانقلاب. وقد ظلا مختبئين وسط الشجيرات ينتظران النتيجة. بعد رحيلنا استقلا القطار في محطة الصخيرات باتجاه فاس حيث سيعتقلهما الدرك الملكي.

وأكثر من تنفس الصعداء هم الرهائن الذين ظلوا واقفين منذ الساعة الثانية و 8 دقائق رافعين أياديهم معرضين لإهانات واستفزازات الطلبة الجنود. ولعل الذي أحس بالجرح في روحه أكثر هو الجنرال ادريس بن عمر العلمي الذي كان الماجور العام السابق للقوات المسلحة الملكية ووزير البريد، والذي دُفع وأهين من طرف بعض الطلبة الضباط الذين طرحوه أرضا إلى جانب السائقين، وسرعان ما تعرف عليه شخص يدعى (ع).. وكان وقتها في السنة الثالثة، فتعمد «المشي على ظهره» وهو يتحدث ساخرا الى زملائه. وكرر مرارا هذه الحركة السادية حتى يثير غضب بطل حاسي بيضا، والذي تحمل بكبرياء هذه الإهانة.

وقد جاء في اليوم الموالي يبحث بنفسه عن هذا الطالب وسط الانقلابيين المسجونين في إحدى الثكنات، وهو البحث الذي ذهب سدى، لأن المعني بالأمر اختبأ في المرحاض! وقد قام الجنرال شخصيا بتفحص كل الوجوه السمراء لعله يعثر عليه، لأن الجنرال لم يهضم أن يعتلي أي شخص كان ظهره. آه، لو كان يعلم بأن هذا المسمى (ع) كان قبل انضمامه الى الجيش مجرد مجرم «ووسيط» داعر معروف في مدينة مكناس.

ويا للمشهد الكئيب الذي تهيئه لنا الحياة أحيانا... فهذا الشخص الذي أهين في حياته وحط من قيمته أراد يوما أن يثأر فبدأ يعطي الأوامر ويسبّ الوزراء و «مشى» على ظهر جنرال ودفع السفراء وهدد الأعيان. لقد كان ينتقم بجبن ونذالة من مجتمع اعتقد أنه يحتقره. كيف يقبل المجتمع بمثل هؤلاء الأشخاص. لقد كان (ع) نذلا وسيظل كذلك.

انطلقت سيارة «جيب» التي كان يركبها امحمد اعبابو، فتبعها صف

القافلة الطويل باتجاه الرباط.

قبل أن أركب الشاحنة، التفت ورائي وألقيت نظرة أخيرة فذهلت للمشهد الفظيع خلفنا الذي يهز كيان وغضب كل واحد باستثناء عبابو. مشهد استمر الرعب يحكمه حتى بعد أن رحل الرهيب اعبابو الذي خلف وراءه حمام دم.

من بين مائة جندي خلفوا في عين المكان لحراسة الرهائن، فر العديد منهم أو التحق بالقافلة، ولم يبق في القصر سوى 18 جنديا عفا عنهم جلالة الملك. وقد أضاع لاجودان خرخاش وقت الرحيل، فالتحق بالطريق الوطنية وحجز شاحنة مدنية وأجبر السائق على العودة للوصول إلى الرباط في الوقت المناسب.

وقد احتج السائق الغاضب لكنه ظل رهينة حتى حدود العاشرة ليلا. وقد كانت العودة إلى الرباط كارثية عمت فيها الفوضى والهرج. وبدون مبالغة عشنا فانطازيا ميكانيكية، فقد زاد السائقون من السرعة، كما لو كانوا يهربون من القيامة أو انفجار وشيك.

جنب الطريق الوطنية وقبالة القصر كانت إحدى الأميرات الأميرة للا مليكة شقيقة المرحوم الحسن الثاني، واقفة جنب سيارتها الكاديلاك البيضاء وهي تبكي معتقدة أن شقيقها قد مسه سوء. فأسرع ضابطان يصحبهما رجالهما نحوها وطلبوا منها الابتعاد أبعد ما يمكن لأن اعبابو إذا رآها يمكن أن يقتلها بكل سهولة.

في الساعة الثالثة والربع دخلت الحافلة الأولى الطريق الوطنية وكانت شاحنتي آخر القافلة وآخر شاحنة غادرت المكان. فقد كنت واقفا أنظر بحزن إلى هذه المجزرة التي راح ضحيتها 99 شخصا دون ذكر عدد الجرحى الذين كانوا ينتظرون العلاج.

قبل أن تنطلق شاحنتي، ألقيت نظرة أخيرة على جسد الكولونيل لوباريس بالقرب مني، وقد التف حول نفسه ومن حسن الحظ أنه أنقذ وعاش. وغير بعيد عنه كانت جثتان ملطختان بالدم قتل صاحباها دون أن يعرفا لماذا، الأولى للجنرال انميشي والثانية للجنرال عبد الحي الذي مات وهو أعزب وقد كان بدوره ينحدر من عائلة أطلسية كبيرة. يومها كان الأطلس المتوسط في حداد وزاد حداده صبيحة يوم 13 يوليوز عندما أعدم 7 من أبنائه بسبب جنون اعبابو.

بدت الطريق من الصخيرات الى الرباط طويلة وصارت الأربعين كلمترا الفاصلة بينهما مسافة لا نهائية، طوال هذه المدة فكرت في

مصيرنا ومصيري انا بالضبط، كنت أعلم ان امحمد اعبابو فشل وان جلالة الملك سليم ومعافى، كنت وقتها قد تنبات بمآلي ومن حسن الحظ انني في المغرب، وعليه، لن يرمى بي الى التماسيح أو أوضع في قفص الاسود، ولكن سامثل امام المحكمة وأدان حسب القانون الجنائي. غير ان ما كان يحز في نفسي هو مصير أمي وزوجتي وأبنائي الستة الذين سيغوصون، بدوني، في مستنقع البؤس والخوف واليأس، وبهذا الخصوص أيضا لم أخطىء. هزتني نوبة عصبية فاجهشت بالنحيب وطلب الصفح من عائلتي الصغيرة التي ستتعذب مدة 21 سنة بسبب الخائن اعبابو الذي خرّب جنون العظمة لديه مئات العائلات الآمنة والبريئة. واساني نائبي بآيات بينات من القرآن الكريم وأمثال وحكم عن المكتوب والقدر، وخفف عني يومها، وكان هو نفسه الذي قدم شهادة ضدي للإفلات بجلده، وجاء في شهادته، انني هددته وأجبرته على الدخول الى القصر بمحاولة وضع قنبلة قابلة للاستعمال في جيبه. في الواقع، كان زوال ذلك اليوم في الصخيرات وقتا للأكاذيب والسادية والقتل والحقد والانتقام.

طوال المدة التي دامتها الرحلة أو لنقل الانزلاق، تذكرت هزيمة الجيش البونابارتي والانسحاب المخزي لهتلر من موسكو. عاد اعبابو المهزوم الى العاصمة لكنه رفض وضع سلاحه. لم يقل كلمته الأخيرة بعد، حسب رأيه، وما كان ليقبل أن يكون المستسلم. فهو مثل «اتيلا» لم يكن يحب المفاوضات، فإما الكل أو لاشيء.

دخل اعبابو العاصمة ومسدسه في يده وعصابته وراءه كما كان «اتيلا» سابقا، سيفه في يده وخلفه «الهانس». دخل لينتصر أو يموت. ربما هي مقارنة مبالغ فيها لكن الشبه قائم بينهما، لأن اعبابو كان صاحب طموح كبير لا يتراجع لأي سبب، لا يثق في أي كان وانطوائي نوعا ما حتى مع عائلته. كان لا يؤمن بأي شيء، مادي حتى النخاع، وكان يجذف أحيانا كثيرا. وأتذكر حادثة وقعت قبل شهر من انقلاب الصخيرات، فقد أيقظه الحارس الليلي ومساعداه وأخبروه أنهم رأوا «بغلة المقابرْ» (البغلة السرسارة)تدخل بيته. وقد أكدوا له بأنهم ساهدوهاتجر سلسلة طويلة مشدودة إلى قائمتها الأخيرة. انفجر اعبابو ضاحكا وسألهم «هل كانت بيضاء أم سوداء؟» أجابه المرعوبون الثلاثة بأنها بيضاء فقال لهم: «لا يهم، في المرة القادمة أعقلوها في الإسطبل لنقل المؤونة. أيها الأغبياء لا يوجد شياطين أو جن. إن

شيطانكم هو أنا في المرة القادمة، سأودعكم السجن كلكم». أجابه أشجعهم: «لكن، مون كولونيل، هذا فأل سيء لك. كلنا تحت رحمة الله ونحن بشر ضعفاء.. وكان رد اعبابو «انتوما يمكن، لكني أنا الأ. لا أومن بأي شيء إلا أنا». وقبل ذلك التاريخ، مرت جنازة أمام الثكنة في صفرو. فالتفت نحونا اعبابو وسأل القبطان شَلاَّط: أتساءل لماذا نأتي إلى الحياة إذا كنا سنموت؟» فأجابه شلاط «هذه سنة الحياة وقد شاءها الله على هذه الحال. والحياة فوق الأرض عابرة، لأن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة. وبعد الصراط، هناك من يدخل الجنة وهناك من يدخل النار...».

فرد اعبابو: «في رأيي لا حياة بعد الموت، هناك العدم واللانهائي، لأن عالمنا هو الجحيم للبؤساء والجنة للأغنياء. وعندما نموت يكون ذلك إلى الأبد». ثم التفت نحوي مبتسما وسألني: «ما هو رأيك الرايس، عندما يصبح جسمك ترابا، هل تعتقد أنك ستحيى من جديد؟» أجبته: «بطبيعة الحال، لأن هناك البعث والنشر». فعلق قائلا: «أتمنى ألا أموت.. ولا أعتقد أنني سأموت لأنني أنوي البقاء على قيد الحياة لمدة طويلة وسنرى»

طوال الرحلة الى الرباط، كنت أفكر وأعيد التفكير في الأحداث الدموية التي مرت أمام عيني. وفكرت في هؤلاء الجنود البلداء الذين كانوا يسلبون الناس ويسرقون أشياءهم الثمينة، في حين كان الأولى أن يبدأوا بقائدهم امحمد اعبابو الذي كان يضع نياشين من ذهب وسلسلة من ذهب وساعة «بياجي» من ذهب، كانت شمس يوليوز الحارقة تزيد من التماعاتها، وهو ما دفع السارجان أولعربي إلى تخليص قائده من الأشياء اللامعة حتى يكون في منأى من طلقات العناصر المخرِّبة. هذا السرجان الوفي والصادق نزع كل هذه الأشياء ووضعها في جيب الكولونيل وقال له: «مون كولونيل ما بغيناش نخسروك. أنت غالي علينا وانت بحال الوالد ديالنا» آه لو كان أولعربي يعرف نوع الأب الذي عنده. أب يمضغ اللحم البشري مثل العلك.

مازالت أمام عيني صور الوجوه المرعوبة بنظراتها التائهة، وجوه تبكي وتتوسل وتتضرع للجنود الحاقدين مثل حيوانات مسعورة تلتهم كل ما يعترض طريقها لتطفىء الحقد الدفين في قلبها.

تناءت الصخيرات وراءنا وبدا لي أنني أحلم لأن كل شيء كان هادئا. المارة غير أبهين ينظرون إلى القافلة، كما لو أن شيئا لم يحدث. احسست بأنني أغفو إلى أن توقفت القافلة. فأمر اعبابو القبطان شلاط بإرسال

كوماندو لتدمير محطات البث التلفزيونية، وقع الاختيار على السوليوتنان مجاهد محمد للقيام بهذه المهمة الوسخة، واصلت القافلة طريقها إلى أن وصلت إلى البناية المبتغاة ودخل الكوماندو إلى الداخل وأمر مجاهد رجاله بأخذ مواقعهم في الداخل دون تكسير الأدوات أو الأجهزة وتخريبها. اتصل بالمسؤولين بمحطة البث ووضعهم في الصورة وأخبرهم بطبيعة مهمته، أخذ المبادرة وخاطبهم: «لن أكسر أي شيء، لأن الأضرار ستدفع من ظهر الشعب. ولكن لابد لي من القيام بمهمتي ولهذا أقترح عليكم هذا الحل: لا تشغلوا أجهزتكم هذه الليلة. وهكذا يحصل كل واحد على ما يريد، وعده العاملون بذلك وعرضوا على «الكوماندو» اقتسام «كأس شاي» معهم: بعدها أمر مجاهد رجاله بالركوب ثم توجه عائدا نحو اهرمومو. عندما قطع نصف المسافة قيل له بأن القافلة مازالت في الرباط لكنه فضل مواصلة المسير. وقد أدين بـ 4 سنوات سجنا فيما بعد وأمضى ليال كابوسية في معتقل تازمامارت لمدة عقدين. سمي «مجاهد» نسبة إلى جده الذي كافح إلى جانب المجاهدين بقيادة بن عبد الكريم الخطابي وقتل في معركة قرب زرهون. وقد لقبه أناس القرية بالمجاهد: كما استشهد أبوه أيضا في مقاومة الاحتلال الفرنسي. وعاش هو يتيما منذ أن بلغ سن السابعة، وبعد حصوله على البكالوريا التحق بالأكاديمية العسكرية ليصبح ضابطا. وقد خسر مهنته ودمّر شبابه، إلى أن رأى النور في أكتوبر 1991.

دخلت قافلتنا شارع النصر ثم لفت مقر القيادة العامة من الخلف ووقفت قبالة وزارة الصحة، نزل اعبابو من السيارة ثم استدعى الليوتنان حيفي عبد السلام وسوليوتنان اليقيظي محجوب وأمرهما باحتلال وزارة الداخلية على بعد حوالي 300 متر، فقاد كل واحد منهما كوماندوه وتوجه للقيام بالمهمة.

مقر القيادة العامة للجيش

دعاني اعبابو وأمرني باحتلال مقر القيادة العامة للقوات المسلحة الملكية، وأن أرافق بمعية «الكوماندو» الكولونيلين الشلواطي وبوبري اللذين صحباه من الصخيرات. وكانت الغاية من مرافقتي لهما حمايتهما من أفراد القوات المسلحة في القيادة العامة. وكانت مهمة الشلواطي هي احتلال مركز البث والاتصال (ترانسميسيون) والمركز الهاتفي. أما مهمة بوبري، فقد كانت تقضي بالاستيلاء على مخزن العتاد والذخيرة ومنع أفراد القيادة العامة استغلال مخزونه، وبعد أن يتم ضمان استقرارهما في مراكزهما بدون مكروه كان علي أن أوزع رجالي في كل النقط الحساسة التي حددها اعبابو. وبعد أن نفذ هذا الشطر من المهمة عدت إليه لأقدم تقريرا عن العملية، فوجدته في حديث مع الماريشال مزيان، وقد كان أول مارشال مغربي وأحد كبار جنرالات الجيش الإسباني وأحد رفاق فرانكو في السلاح. وينحدر مزيان من الحسيمة، ترجل هذا الأخير عن سيارته من نوع (دي. إي 21) وقد لبس لباسا مدنيا أنيقا.. توجه إلى اعبابو بالسؤال: «ما الذي يحدث؟». فأجابه اعبابو: «إننا نقضي على أعداء الشعب». فأجابه الماريشال العجوز: «طيب، يا أولادي حسنا فعلتم، الله يعاونكم، أتمنى أن جلالة الملك لم يُصَبْ بأذى؟ أليس كذلك؟»، وضع اعبابو يده على ذراع الماريشال وهو يقوده بلطف وعناية نحو سيارته حتى يركبها وقال له: لا! لا! أيها الماريشال، لم يصب جلالة الملك بسوء، اذهب لترتاح إنك متعب». بمجرد ما رحل الماريشال أعطى اعبابو الأمر بالاستيلاء على القيادة العامة بالهجوم عبر الباب الكبير (الشمال) وسرعان ما لعلع الرصاص وانطلقت المواجهة بين المتآمرين والمدافعين عن النظام، دام تبادل إطلاق النار بضعة دقائق فقط.

كسّر أعضاء الكوماندوهات الباب، بعضهم نط من فوق الجدران وغزوا القيادة العامة من كل جانب وبدأوا في اعتقال الهاربين. وكان العديدون قد وضعوا أسلحتهم وانتحوا جانبا. وكان الجنرالات الأربعة مازالوا رهن الاعتقال تحت الحراسة المشددة في الشاحنة. تملّك الفزع أفراد الجيش الموجودين داخل مقر القيادة العامة بسبب هذا الدخول

المسرحي المثير لامحمد اعبابو، وخلفه عصابته بنظرات أعضائها الغاضبة والسحنة الحازمة والمعادية، هالهم منظر عقة العملاق بأنفه المعقوف مثل عقاب وقد حمل رشاش 52 ٨٨ الذي كان حزام رصاصه يصل الأرض، فيما وضع منطقتين من الرصاص حول كتفيه وصدره على الطريقة المكسيكية. قلّده عشور وعماروش لكنهما كانا قصيري القامة. كان الجميع يضع يده على الزناد لا ينتظر سوى إشارة امحمد. زاباطو يومئذ! لم تكن هناك مجزرة لأن الموجودين داخل القيادة العامة استسلموا في النهاية ولم تبق هناك أية مقاومة.

تم الاستيلاء على مقر القيادة العامة ومركز البث والاتصال والمركز الهاتفي وأخذ طلبتنا الضباط زمام الأمور في القيادة العامة، وقد كان اعبابو قد أسند لي هذه المهمة. وبعد الاستيلاء على مخزن العتاد أصبحت الأمور تحت سيطرتنا. بعدها مباشرة تمّ عقد اجتماع في المكتب الثالث سرد فيها لمحمد اعبابو كل الدقائق لشركائه الجدد وأطلعهم على الوضعية، ولم يكن حاضرا، من بين الضباط الذين شهدوا لقاء بوقنادل، سوى الكومندان المالطي الذي ظل الى جانب اعبابو حتى النهاية. فقد اعتقل الكولونيل البريكي من طرف المظليين منذ بداية الهجوم في الصخيرات، ظل الكومندان منور يتابع تطور الأوضاع عن بعد.

حضر اللقاء إلى جانب اعبابو كل من الشلواطي وبوبري والكومندان المالطي وآخرون لم أتعرف عليهم. بعد هذا الاجتماع الوجيز، عادوا جميعا إلى بناية القيادة العامة. في تلك اللحظة بالضبط، وصل اعبابو محمد (الأخ الأكبر) بعد أن غادر قصر الصخيرات والتحق بالقيادة العامة، وما إن وضع قدمه على الأرض حتى سارع إلى مواجهة أخيه بالفرنسية.

- «ما هذه الفوضى وما هذا الهرج؟

- إذا كانت هناك فوضى فأنت سببها والمسؤول عنها. لماذا غادرت الصخيرات؟ كان عليك أن تظل هناك.

- لقد تركت هناك أحد «السرجانات» بمعية خمسين طالبا ضابطا.

- طيب، لابأس. أولا ستتصل هاتفيا بزميلك وخريج فوجك الليوتنان كولونيل سعد الفيلالي وتطلب منه الانضمام إلينا بوضع فيلق المدرعات رهن إشارتنا. ثانيا أرسل برقيات إلى كل وحدات القوات المسلحة الملكية واطلب منهم الانضباط والطاعة من الآن فصاعدا لأوامر مجلس الثورة

برناسة الكولونيل الشلواطي». أسرع اعبابو محمد بالتنفيذ، فاتصل بسعد الفيلالي واطلعه على أمر امحمد شقيقه. وكذب على محدثه عندما أجابه عن سؤاله الخاص بالمكان الذي يتصل منه، بأنه يتحدث من بريد الرباط. رد عليه ضابط المدرعات بغضب شديد: «إن أوامر مثل هذه لا تعطى من مركز بريدي. حذار اعبابو إذا وجدتك في طريقي سأسحقك مثل ضفدعة!».

في الواقع كان محمد اعبابو نفسه منذ البداية غير حاسم وسلبيا وبلا إرادة حرة، وقد كان هو بدوره ينتظر النهاية حتى يتحقق من الجهة التي وضعه قدره فيها. وقد عوقب على عمله بـ 20 سنة سجنا ونهاية مأساوية.

وصل أفراد اللواء الخفيف للأمن الذين أرسلوا لحماية القيادة العامة ورابضوا على طول الجدار الفاصل بين مركز القيادة ومقصف الضباط. وبعد انتظار معين بدأوا الهجوم. وكانت تلك اللحظة هي بداية الفشل بالنسبة لاعبابو. فقد جمع هذا الأخير كل العناصر الموجودة في القيادة العامة. ثم طرح عليهم السؤال التالي: هل تعرفونني؟» أجابوه دفعة واحدة: «نعم أنت الكولونيل امحمد اعبابو قائد المدرسة العسكرية الملكية بأهرمومو». وسألهم مرة ثانية: «هل تعرفون بأننا قضينا على كل الخونة في الصخيرات؟

- نعم نحن على علم بذلك.

- طيب، الآن انصتوا إليّ، ما قمنا به هو لصالح أبنائكم ولصالح بلدكم. من الآن فصاعدا ستحصلون على كل حقوقكم المغتصبة. لن يبقى هناك ظلم أو فساد أو زبونية. من الآن فصاعدا لن يبقى للعنصريين (...) نفوذ، لن يحكموكم وسيصبح بلدكم حرا، وأعدكم بأنني سأقضي على كل الخونة. قولوا معي «عاش الوطن، عاش الشعب». فرددوا معه كل شعار كان يرفعه بأصوات مرتفعة. ومنهم من صاح بحماس «عاش الكولونيل اعبابو».

استأنف حديثه قائلا: «انصتوا جيدا، يجب أن تظل القوات المسلحة قوية ومتضامنة، والآن انضموا إلى جانب مدرسة أهرمومو ولنكافح جميعا من أجل عزة الوطن «عاش المغرب للمغاربة». وفي هذه اللحظة، أشهر بعض الحاضرين أسلحتهم ورفعوها في الهواء، بعضهم صاح بقوة «يسقط الخونة» وعاش المغرب.

أعطى الشلواطي أوامره بتسليم العتاد والذخيرة وتوزيعهما على

الجميع. وتم إعطاء العلاجات الأولية لبعض الجرحى من الطلبة الضباط. تم كل هذا في غياب الكومندان (ش) قائد القيادة العامة، الذي وصل قبيل «الخطبة». حاول أن يظل بعيدا وألا يراه اعبابو. ومن سوء حظه لحظ هذا الأخير حضوره فدعاه إليه، تقدم (ش) وأدى التحية. طلب منه اعبابو الاقتراب أكثر «أريد أن أتحدث إليك». سأله هذا الأخير: «قل لي، أنت مع مَنْ؟ هل أنت معنا أم ضدنا؟» أجاب مخاطبه بحذر: «مون كولونيل، أنا لست ضدكم، لكن أرجوك أن تعفيني من هذه المهمة، لأني، كما تعلم، أجهل في أمور الدولة وقراراتها تتجاوز قدراتي».

انتبه اعبابو الى حيلة مخاطبه. صوّب مسدسه نحوه وطلب منه الجثو - الجلوس على ركبتيه - لأنه كان طويل القامة وكان امحمد يبدو أمامه مثل قزم. أيقن الجميع أن ساعته قد أزفت. وقد تيقن هو أيضا من ذلك، فبدأ يتوسل إلى الانقلابي الفظيع. «رجاء، مون كولونيل، ترفّق بي فأنا رب أسرة من عدة أطفال. أنا لست ضدكم لكنني لا أقدر على عملية مثل هذه». أمسك اعبابو سلاحه وبدأ يضرب على رأس القائد العسكري بعقب المسدس وهو يقول مهددا ومهينا: «أيها المنافق أنت ثمرة الاستعمار، لا كرامة لك، كيف وصلت إلى هذا المنصب؟». تدخل الكولونيل الشلواطي لصالح القائد شجاع محاولا تهدئة غضب شريكه وإقناعه بالعدول عن قراره وقال: «أظن أن شجاع لن يضرنا مثلما تعتقد. أنا متأكد أنه ليس ضدنا وهو مستعد للتعاون، كل ما نحتاجه هو بعض الوقت، وهو إنسان منضبط لكن سنه لا يسمح له بمثل هذه الأمور. اتركه على قيد الحياة ولاشك أنه سيفيدنا». أمره اعبابو بالوقوف ثم قال له: «أنت محظوظ حقا. كان عليَّ أن أقتلك قبل تدخل الكولونيل الشلواطي».

زاد عمر الرجل بعشر سنوات وعندما وقف، استعاد أنفاسه مثل محكوم بالإعدام أُنزل من على المقصلة ومرر يده على عنقه. وسرعان ما توجه إلى مرؤوسيه وأمرهم بتهييء ثلاثة آلاف وجبة من اللحم والأرز للجميع ووضع أنفسهم رهن إشارة الكولونيل الشلواطي.

بعد أن سويت قضية القيادة العامة وتم إرسال البرقيات واحتلال جميع الأبواب وتطبيق الأوامر، أحضر اعبابو الجنرالات الأربعة وتحدث إليهم وطلب من الجنرال حمو امحزون الالتحاق بالقنيطرة التي كان قائد منطقتها العسكرية من أجل استيلام زمام الأمور ووضع وحداتها تحت قيادة مجلس الثورة. طلب الجنرال حمو من الليوتنان

قـروي سـيــارته 403 وتوجــه إلى القنيطرة. وبمجــرد وصــوله أطلع الكولونيل أمقران محـمـد، قائد القاعدة الجـوية الثـالثـة على الوضـعـية وطلب منه قصف الرباط قائلا: «إن اعبـابو رجل مجنون، فقد قتل النـاس في الصــخـيـرات، وهو يـحـتل الآن القــيـادة العـامــة والداخليـة وينوي الاستـيـلاء على الإذاعة والتلفزة، ولابد من قصف وحداته لوقف تقدمه وحتى لا يقوم بارتكاب جرائم أخرى». أجاب أمقران: لقد كنت أنا أيضا في الصخيـرات وقد نجحت في الفرار قبيل الهجوم بمعية الكولونيل الأسَاري بواسطة «لوطوسطوب» وقد وصلت للتو، لكن آسف، لا يمكنني أن اتخـذ قـرارا مـثل هذا. لابـد لي من قـرار من الحــرس الملكي مـوقع من طرف الجنرال مذبوح أو الجنرال نميش (قائد القوات الجوية)».

رد الجنرال حـمـو: «كـلاهمـا قُتل في الصـخـيـرات ولا يمكننـا أن ندع اعبابو يقتل الناس. لم أعد أفهمه لقد أصبح مجنونا وخطيرا».

لقد كـان الموقف غـامضـا من جـهـة الكولونيل أمقران والأساري، نظرا للبطء في التنفيذ. وعلى كل، لم تكن الأمور كذلك بالنسبة لي، ذلك لأنه عندما أخبر بوصول اللواء الخفيف للأمن (B.L.S)، أجاب اعبابو بكل ثقة: «لا تخشوا شيئا إنهم معنا»، وهذا تأكيد عيني حضرته شخصيا، كما كنت الشاهد على التأكيدات السابقة. فقد التفت محمد اعبابو نحو الكولونيل الشلواطي وسـأله مندهشـا «مـاذا يفـعل الأسـاري، كـان من المفروض أن يكون هنا، فمـاذا ينتظر؟». ورد عليـه الشلواطي « «على كل حال في انتظار انضمامه سنستعمل الكتيبة الاحتياطية المستعدة لذلك» ومازلت لحد الساعة أجهل عن أية كتيبة كان يتحدث.

اسـتــدار الشلواطي إلى جــهــتي وطلب منـي أن أضع رهن إشــارته «كوماندوها»، فاستدعيت كوماندو السوليوتنان مرزاق الذي كان فوق سطوح البناية، أمـا الكولونيل أمقران فقد ترك طائراته المطاردة (إف 5) في مخـادعهـا في انتظار أمر مكتوب لم يُمْضَ أبدا لأن المذبوح كـان قد لقي حـتفه. ورغم أنه لم يكن يملك القوة، فإن صلاحيـاته القيـادية كانت عديدة، ذلك المساء لم يكن بإمكان اعبابو أن يتوصل بأي دعم بدون أمر من المذبوح «جوكير» اللعبة.

عندما قتل اعبابو جنراله قتل نفسه دون أن يعلم بذلك، لكنه واصل مغـامرتـه بدون توقف. بعد أن أعطى أوامـره، تقدم اعبـابو قـافلة الجند وتوجـه وسط المدينة للاستيلاء على إدارة الأمن الوطني. كـانت تلك هي نيـته الأولى، لكنـه غير رأيه في منتصف الطريق. لما وصل قبالة مسجد

«السنة»، انعطف يسارا وسار في شارع مولاي الحسن ثم توقف أمام بناية رسمية. نزل وكان على وشك إعطاء أوامر بنزول الآخرين، غير أن لاجودان شاف عمر رجائي الملقب «بالكزنايي» المنحدر من قبيلة اعبابو نبهه إلى أن البناية مغلقة قائلا:

- مون كولونيل، اننا يوم سبت والبناية مغلقة.

- أيها البليد، ألا تدري بأن الإذاعة والتلفزة تشتغل باستمرار، وكل يوم؟

رد مخاطبه مندهشا:

- لكن مون كولونيل هاذي ماشي الإذاعة، هذا لوفيص .... ديال الفوسفاط. أما الإذاعة فهي في الجهة الأخرى على بعد 300 متر.

أجاب اعبابو: «غريب. معذرة على هذا الخطأ الفادح، ولاسيما أخطاء اليوم. طيب دُلّني على الطريق الصحيح».

رد عليه لاجودان شاف ديك الجيلالي المشرف على المرآب وسائق سيارة جيب يومها: «أنا بدوري أعرف الطريق وسأقودك إلى المكان المطلوب».

في الواقع، كان الجميع يعرف موقع الإذاعة والتلفزيون باستثناء المتآمر رقم 2. صدق أو لا تصدق، لكنه الواقع.

غيّرت القافلة وجهتها ودخلت زقاقا يفضي مباشرة إلى الإذاعة والتلفزة التي كان يحرسها أفراد من قوات الأمن وقوات التدخل السريع. وقفت الشاحنات ونزل اعبابو من سيارة الجيب محاطا بعصابته من ضباط وضباط صف وبعض الطلبة الضباط. بمجرد وصوله، تقدم نحوه الليوتنان محمد الطايف، رئيس الفرقة المكلفة بحماية الإذاعة والتلفزة، وهو يمشي بهدوء وقد علت وجهه ابتسامة سمحاء. أدى التحية العسكرية ثم خاطبه بالقول: «احتراماتي مون كولونيل، لقد تلقيت أوامر صارمة بالدفاع عن الإذاعة، ومنعك من دخولها. آسف كولونيل، لكن الأوامر هي الأوامر».

امتقع لون اعبابو وزاد غضبه، خصوصا وأن ذراعه المجروحة تؤلمه والتوتر مافتىء يتزايد ويتصاعد. وها هو «هاذ لَفْضولي» يقف في وجهه مبتسما! وجهه هو: امحمد اعبابو الذي قطع 300 كلم لمهاجمة القصر ومرّ فوق العديد من الجثث غير متردد في قتل كل من عارضه ولو كان من بين أصدقائه! ها هو شخص ما يقف في وجهه لمنعه من دخول الإذاعة والتلفزة. لو أن الليوتنان الطايف تجشّم عناء النظر دقيقا إلى قسمات

وجـهـه لـعلم بأنه أمـام وحش كـاسـر مـصـمـم الـعـزم على الذهاب حـتى النهاية، وأن عليه أن يطلق الرصاص عوض الحوار غير المجدي.

رد اعبابو: «حَـيَّدْ من طريقي وإلاّ قـتلتك مـثل كلب». أصَر الضـابط على رفضه: «أبداً لن تمر». استدار اعبـابو نـحـو القبطان شَلاَّط وأمره قـائلا: «اقـتله!». جـهّز القـبطان رشاشـه ثم تردد وقـال «اسـمـح لي مـون كـولـونيل. الطايف صـاحْـبي شَـرْكت مـعاه الطْـعَام شـحـال مَنْ مَرّة مْـع العـائلة، اطلب منـي اللي بغـيت نيدرو، لكن مـا يمكنش نَقْتَلْ صـاحْبي». فـهم اعبـابو وقـام بـالعمل شـخـصيا، حـيث اسـتـل مـسدسـه وأطلق الرصـاص علـى الطـايف الذي سقط ميتا على بعد متر واحد من قاتله!

وبمجـرد مـا دوت الطلقـة، شـرع أفـراد التـدخل السـريع في إطلاق الرصاص وكـانت تلك بداية تبادل عنيف وقوي لإطلاق النار دام حـوالي عشر دقائق شاركت فيه رشاشات AA 52. من جهتنا ورشاشات F.A.L البلـجـيكيـة الصنع التي اسـتـعملهـا الآخـرون الكامنون وراء النوافذ وفي السطوح فوق الإذاعة والتلفزة. بعدها انتقلنا إلى حرب الشوارع وعملية الحـصـار وسـد المنافـذ كلهـا والقـيـام بـعـمـليـة المسح الشـامل لاعـتـقـال المدافعين وتجـريدهم من السـلاح، والوصـول أخـيـرا إلى الاسـتـيـلاء على الهدف. تم القـضـاء على المقاومة، وقد كان لرشـاش AA52 الذي كان في يد العـمـلاق «عقـة» ورشـاش PM MAT 49 في يد شـلاط دور كـبـيـر في ذلك، رجال الشرطة تراشقوا مع الضباط الطلبة الذين نجـحـوا في الأخير في تكسير بـاب الإذاعة وفسح المجـال لاعبـابو الذي دخل منفوش الريش مـثل الديك. وضع كل سـارجـان رجـالـه أمـام كل بـاب وكل نـافـذة وأعطيت لهم الأوامر بإطلاق الرصاص، دون إشعار، على كل من حـاول الاقتراب أو الهـجـوم. اتـخـذنا مكان قـوات التـدخل السـريـع وقـد قـررنـا عـدم الـتـراجـع. وكانت تلك المرة الأولى التـي لم يستسلم فـيـها جنودنا لغرائزهم السادية، فلم يسيئوا معاملة أي حد أو يهينوه وطلبوا انسحـابهم بكل هدوء.

دخلنا الإذاعـة، أراد اعبـابو التـحـدث الى المسؤولين، فـجيء بـالسـيـد بنددوش المجـدولي وآخـرين، أمـرهم بـوقف بث البـرامج وتـعـويـضـهـا بالموسيقى العسكرية، فأمروا بدورهم التقنيين بالامتثال للأوامر فجاؤوا بالشريط رقم 9، وضـعـه شـخص طويل القـامـة أسـمـر اللون ونحـيل في جـهـاز الإرسـال وضـغـط على الأزرار فـصـدحـت الموسـيـقـى الـعـسكرية المشـهـورة «لاغـاليت» LA GALETTE على أمـواج الإذاعـة انـتـقـلنـا الى قـاعـة أخـرى جـمـع فـيـهـا الطلبـة الضـبـاط كل الفنـانين من مـغـنـيين

وموسيقيين وملحنين ومذيعات ومذيعين .. بعد نظرة خاطفة لحظ اعبابو وجود ملحن مغربي شهير، جالس فوق كرسي يستمع ويتابع الأحداث دون أن يراها نظرا لأنه أعمى، أمر باقتياده الى استوديو البث ووضعه أمام الميكروفون ثم طلب منه بصوت مسموع: «اسي عبد السلام بغيتك تعاود معي حرفيا شي اللي غادي نكولك ودير حتى أنت شي بركة»، توقفت الموسيقى العسكرية وبدأ الملحن البصير في ترديد الإعلان الذي لم يكتب ولا نشر: «لقد طلعت شمس جديدة وتخلصنا من الملكية، مرحى بالجمهورية، السلطة الآن في يد الجيش، إن مجلس الثورة يطلب منكم الحيطة والهدوء ... إلخ». أعيد بث هذا الإعلان مرات عديدة، في تناوب مع الشريط رقم 9، الى حدود العاشرة ليلا.

نصب اعبابو «زاباطا» القبطان شلاط نائبا عنه وطلب من مسلحيه أن يتبعوه، بعد أن ترك الطلبة الضباط في حراسة الإذاعة والتلفزيون التي أصبحت محطة «ثورية» أو «انقلابية» حسب زاوية النظر، وهذا ما كان «البعض» ينتظر الحسم فيه، هؤلاء «المنافقون» كانوا مستعدين لتغيير ولائهم في أي لحظة والانتصار لمن انتصر «الله ينصر من صبح» كما يقول المثل، المهم هو الذي لايضيع امتيازاتهم ومصالحهم. ولطالما تساءلت مع نفسي والى حدود الآن مازلت اتساءل: لماذا لم يحاول أي واحد منهم أن يستل مسدسه ويقتل اعبابو؟ والحال أن تلامذة مدرسة أهرمومو جمعوا نقالتين (برويط) من الأسلحة (مسدسات 7،57ملم وأخرى من طراز 9 ملم ورشاشات قابلة للثني من صنع كوبي ... إلخ)، من الرهائن ومنهم من كان يخدم الدولة وكان من المفروض والواجب أن يموت دفاعا عن رئيس الدولة، وللأسف لم يجرؤ أحد من هؤلاء المنافقين على ذلك.

في الرباط وضع أفراد القيادة العامة سلاحهم بدعوى أنهم حديثو التلقيح ضد الكوليرا، والأنكى من هذا أن الوحدات التي أرسلت للدفاع عن هذه البناية ومنعنا من الدخول، لم تقم بشيء كما هو حال وحدات المدرعات التي أخذت أماكنها قبل احتلال الإذاعة على طول شارع مولاي الحسن أي المسافة الفاصلة بين المكتب الشريف للفوسفاط و «مارشي النوار»، فقد ظلوا يراقبوننا في انتظار الأوامر ..

بعد رحيل اعبابو تولى شلاط قيادة وحدة الإذاعة والتلفزة، أمر بلف جثمان الفقيد الطايف بغطاء.

إن الشخصين الصادقين والوفيين يومها اللذين قاما بواجبهما على

احسن وجه، لا لأنهما كانا يتقاضيان راتبا بل لصحوة ضميرهما، كانا ممددين أرضا وقد سال دمهما وهما: السوليوتنان الدركي وزميلنا الطايف، الذي كان زميلنا كلنا. ينحدر الطايف من نفس القرية التي ولد فيها اعبابو وهو ريفي مثله من قبائل كزناية، التحق بالاكاديمية العسكرية في سنة 1964 ورقى الى رتبة سوليوتنان سنة 1966 ونقل الى اهرمومو في السنة الموالية، ثم الى الحاجب حيث عمل تحت امرة اعبابو، ثم عاد الى اهرمومو سنة 1968 عندما أصبح اعبابو مدير مدرستها قبل أن يغادرها سنة 1970 بعد طلاقه، وقد اختير لمواجهة قائده السابق وبعض أصدقائه ولهذا ربما كان باسم الوجه اثناء لقائه باعبابو.

كانت الإذاعة تبث على رأس كل ربع ساعة البلاغ المشار إليه الى جانب الدعوة الى الهدوء و «المارش» العسكري، حوالي الساعة الخامسة جاء القبطان قائد وحدة المدرعات مشيا على القدمين من اجل التفاوض، طلب من القبطان شلاط اخلاء المكان لأنه كان ينوي تدمير الإذاعة والتلفزة حتى يتوقف بث البلاغ، جرده السوليتنان سعودي من مسدسه وأمر شلاط باعتقاله داخل مبنى الإذاعة، لم يقم جنود المدرعات بأي رد فعل وظلوا ينتظروا ساعة الحسم القادمة.

كان الرهائن داخل الإذاعة يخضعون للحراسة المشددة، لاحظت بينهم المطرب المصري الكبير عبد الحليم حافظ واقفا ورافعا ذراعيه وقد نال منه العياء وأنهكه الرعب، اقتربت من اثنين من الطلبة الضباط المكلفين بالحراسة وسألتهما:

- واش عرفتو شكون هذا؟
- أجاباني: «لا».

طرحت عليهما سؤالا آخر: «واش أنتوما من المدينة؟» فكان جوابهم بالنفي وأنهما من البادية فقلت «ماعليهش خليوا هاذ السيد راه مريض بزاف وما تخليوا حتى شي حد يمسوا».

ألقيت التحية على هذا المطرب الكبير ورجوته بالجلوس وسألته عن سبب مجيئه، فرد بأنه جاء من أجل تسجيل أغنية، بعض الطلبة الضباط اندفعوا خارج المبنى وشرعوا في اعتقال المارة، وقد كان من ضمنهم المذيع الصديق معنينو فأثارت سحنته فضول لاجودان خرخاش الذي سأله بفرنسية ركيكة:

طوا، كومينسيت TOI, COMMUNISTE؟

لا !

أصر الضابط على رأيه: سي، سي، طوا كومينيست SI,SI TOI COMMUNISTE.

ثم توجه الى الحراس وأمرهم بالعربية الدارجة، «احضيوه مزيان وديروه وحدو»، ثم واصل بفرنسيته الركيكة «وي، موا كوني كومينيست فيربوكو تشاو - تشاو» MOI CONNAIS COMMUNISTE, FAIRE BEAUCOUP TCHOU - TCHOU» واعتقل رجالنا سائقي الطاكسيات أيضا، وقد اندهشت لما رأيت اثنين منهما يقتادان شخصين، أحدهما يرتدي جلبابا أبيض وطربوشا أحمر والثاني لباس السائق، قدما لليوتنان «منصت» على أساس أنهما شخصين مشتبه فيهما شوهدا وهما يحومان حول مبنى الإذاعة والتلفزة، أصدر الضابط أمره باعتقالهما وضمهما الى الرهائن. تدخلت فورا وسألت «منصت» «واش عرفت شكون هذا؟»، فأجابني بالنفي فقلت له: «هذا السي الحاج باحنيني، وزير الدفاع الوطني وأحد أقدم الوزراء في البلاد».

تدخل المعني، ويداه دائما مرفوعتان وقد انغرزت في اضلاعه حربة السلاح: «نعم، أنا وزير الدفاع الوطني، جئت لأخبر زوجة أخي بأن هذا الأخير قتل في الصخيرات، وهي تقطن وراء هذه العمارة ولسوء الحظ اعتقلني رجالكم».

سأله منصت «أين هي وثائق الإثبات وستنال معاملة تليق بك»، رد عليه: «للأسف ليست معي»، فأمر منصت رجاله «ديروهم مع الآخرين!»

هكذا تعذر على الحاج باحنيني اخبار زوجة أخيه بخبر وفاة زوجها الاستاذ با حنيني الوزير الأول السابق والعضو دائم العضوية في المجلس الأعلى للقضاء والذي توفي في الصخيرات، لقد كان من الأليم جدا فقدان أخ شقيق لكن اللحظة لم تكن لحظة عزاء، لاسيما عندما يكون المرء وزيرا للدفاع، في تلك اللحظة كان من المفروض أن يكون في مكتبه للإشراف والسهر على عمليات القضاء على التمرد وضرب عملية اعبابو، والحال أن الوزير جاء للقيام بمهمة عائلية، قيل له: «لقد كدت أن تقوم بالمهمة، لكن قضية الدولة فوق كل الاعتبارات وكان عليك أن تضحي بالكل من أجل انقاذ الدولة»، لقد قضى السيد الوزير نصف الليل ممددا أرضا بين الرهائن، ولعل من حسن حظه أنه لم يصادف اعبابو وإلا كان قتله لامحالة.

الاستيلاء
على الداخلية

مر الاستيلاء على الداخلية بدون حادث يذكر، فقد ترجل الكومندوهان اللذان كانا يقودهما كل من الليوتنان حيفي عبد السلام والسوليوتنان اليقيظي، واجتاح أفرادهما مقر الوزارة، قبل أن يتسنى للقوات المساعدة الدفاع عنه، فوجئوا بسرعة العملية مما أجبرهم على وضع أسلحتهم، أوقفهم الجنود على طول الجدار بعد أن جردوهم من ملابسهم، ماعدا التبان، لم تسلم النساء من هذا الاجراء المخل بالحياء وهو ما ذكرنه اثناء المحاكمة والحنن عليه، أسيئت معاملة موظفي الداخلية لأن الطلبة الضباط اعتبروا أن سلوكهم كان دوما متعاليا، فانهالوا عليهم بأعقاب البنادق ليكسروا شوكتهم!

أصبح مركز البث والاتصال ومركز الهاتف تحت سيطرة الضابطين اللذين بادرا بإرسال برقيات الى الأقاليم، وركب الليوتنان حيفي سيارته وتوجه مباشرة الى السفارة المصرية لإخبارها بنبأ الانقلاب ثم ذهب الى مقر القيادة العامة لتقديم تقريره لاعبابو.

كان الشخص الأغرب أطوارا يومها هو الكوماندان (ل) من «الدوزيام بيرو» الذي شاهد القافلة تمر «بباب الحد» دون أن يحرك ساكنا أو يخبر رؤساءه على الأقل بهذا الموكب وجنوده المسلحين يتوجهون نحو الصخيرات وهو نفسه الذي جاء إلى مقر وزارة الداخلية وراقب، كمتفرج على العمليات دون تدخل وقد أمضى وقته يتنقل من القيادة العامة الى الداخلية في انتظار الذي ياتي ولا ياتي، وقد أشرف هو ذاته على الاستنطاق وطلب من حيفي أن يروي له كل نشاطاته خلال العملية فاجابه هذا الأخير بكل هدوء: «اعتقد ياكومندان، أنك على علم بها لأنك كنت معي في وزارة الداخلية»، فوجئ (ل) بالجواب فهدد قائلا: «لاتذكر اسمي على لسانك وإنس أنك رأيتني إذا كنت ترغب في الإفلات من جحيم العذاب» وهكذا نجح هذا الكومندان الذي لم يجرؤ في أية لحظة من اللحظات على الكشف عن ولائه لهذا المعسكر أو ذاك، نجح في الإفلات

بجلده دون أن يبرر ذلك، أما الضابطان الانقلابيان فقد أدينا بـ 20 سنة سجنا نافذا ولقيا حتفهما في تازمامارت بعد أن فقد حيفي صوابه وعانى الثاني من نزيف معدي أودى بحياته.

ما إن عاد اعبابو الى مبنى الإذاعة والتلفزة حتى توجه الى المكتب الثالث واجتمع للمرة الثانية مع أعضاء «مجلس الثورة» الذي شارك في اجتماعه ضباط آخرون، عنوة أو بمحض ارادتهم، وباستثناء اعبابو وشقيقه محمد والشلواطي وبوبري والمالطي وحبيبي وبوغرين وامهارش مصطفى واجعوان والفنيري وعمي، لم أكن أعرف كل الحاضرين، والأساري كان في كل مكان منتظرا.

أسند اعبابو إلى الجنرال حبيبي مهمة العودة الى قصر الصخيرات للإفراج عن الأجانب والسفراء منهم على الخصوص، واعفاء أعضاء الحكومة من مهامهم وتنحية زعماء الأحزاب السياسية وبعض الشخصيات المدنية والعسكرية وكل من ورد اسمه في لائحة طويلة سلمها إليه اعبابو وكان الجنرال المذبوح هو الذي هيأها وسطرها، وكانت مهمته تقتضي أيضا محاصرة القصر الملكي ومواصلة البحث عن عاهل البلاد والجنرال أوفقير والكولونيل الدليمي مدير الأمن الوطني آنذاك، وقد وضع اعبابو رهن اشارته الليوتنان لغلو محمد لمساعدته والسرجان أنيس لسياقة سيارة الرونو 4 و 3 شاحنات مليئة بالضباط الطلبة المدججين بالسلاح لخدمته، كان الجنرال معروفا بسطوته، إن لم نقل شراسته ولهذا لم يكن يحب الاقتراب من مرؤوسيه، بعض الاشاعات شبه المؤكدة كانت تتحدث عن تعاطيه للأفيون، كانت العبارة الوحيدة التي فاه بها الجنرال المتكتم والمنطو، طوال الطريق هي «لقد انضمت وحدات الجيش واعتقد الآن أن الأمور ستنجح»، ويبدو أن هذا اليقين هو الذي دفع به الى المشاركة، غير أنه فوجئ لتبدل الوضع، فقد تغيرت المعطيات وانقلبت الأدوار وأكاد أجزم أنه ندم لحظة وصوله على مشاركته، فقد وجد جلالة الملك سليما معافى، محاطا بكل من كانوا رهائن، كان الجميع يحييه ويقبل يده ويهنئه ويتلو سورة الفاتحة معه، وبالرغم من أن الرهائن كانوا لايزالون تحت تأثير الصدمة، منهكين من التعب، متأثرين وجدانيا لتلك المشاهد التي عاشوها ككوابيس، فقد بدوا باسمين منشرحين لنجاتهم من مذبحة محققة.

تظاهر حبيبي كأن شيئا لم يقع وتقدم حبيبي نحو جلالة الملك وقبل

يده متمنيا له طول العمر، ولعل المغفور له أمره بالإلتحاق الفوري بمراكش التي كان قائد منطقتها العسكرية، وبعد أن قطع 300 كلم في عز الليل اعتقل في بيته من طرف الكولونيل بنحدو ومرافقه قبطان من الدرك الملكي، أراه الأمر بالاعتقال تم أمر دركيين كانا برفقته بوضع الاصفاد في يديه والعصابة على عينيه وقطعوا به نفس الطريق في الاتجاه المعاكس ليلقى حتفه، أما الليوتنان لغلو فقد عاد على أعقابه بعد علمه بفشل المحاولة الانقلابية ووصول المظليين الذين حضروا للدفاع عن القصر، لكنه سرعان ما سيسقط في يد عناصر التدخل السريع التي بدأت عملها في التدخل، أدين بعد ذلك بـ 15 سنة سجنا وقضى 18 سنة في تازمامارت في الظروف اللاإنسانية المعروفة وقد قضى 11 سنة نائما على جنبه الأيسر قبل أن يموت.

كانت مهمة الجنرال بوغرين تقضي بالتحاقه هو أيضا بالمنطقة العسكرية بمكناس، لكنه اعتقل في اللحظة التي هم فيها بالركوب الهيليكوبتر، أما الجنرال امهارش مصطفى فقد مكث في مقر القيادة العامة إلى جانب «المجلس» وفي المكتب الثالث وضع امحمد اعبابو اللائحة النهائية لأعضاء «مجلس الثورة» وقد ألح اعبابو محمد (الأخ الأكبر) على إضافة أسماء الكولونيل بوعمامة الطيب والكولونيل عبروق محمد، كما أضيف اسم الكولونيل التيجاني مفتش القوات المساعدة، وعندما تم الاتصال به هاتفيا ليلتحق بـ «المجلس» كان غائبا، وفي الوقت الذي كان فيه هؤلاء السادة يعقدون جلسة عملهم المغلقة، وقعت أمور كثيرة في الصخيرات دون علمهم.

بعد رحيل اعبابو وقافلته عم الهدوء من جديد وإن شابه صمت مطبق وتلقائي ككل صمت يعقب الصخب الجهنمي، وغادر محمد اعبابو المكان بدوره وقد ترك وراءه شبح الموت يسكن الأفئدة والأذهان والمشاهد الجنائزية التي اذهلت الأبصار، أما الرهائن الذين ظلوا واقفين لساعات طويلة بلا حراك فقد كانوا أشبه مايكون بالتماثيل، بعض الممددين أرضا تظاهروا بالموت لعلهم يضلون بذلك الحراس لو قرروا تصفيتهم، كان الحراس تحت قيادة السرجان (ك) الذي اختلى بنفسه لقضاء حاجته فاضاع بذلك توقيت الرحيل فأجبر بذلك على البقاء مع التلامذة ضباط الصف، كان بإمكانه تدبر أمره كما فعل خرخاش الذي احتجز شاحنة مدنية على الطريق الوطنية والتحق بالرباط، لكن كونه «غرا» منعه من أخذ مثل هذه المبادرة.

ظهر جلالة الملك وتعرف عليه بعض التلامذة ضباط الصف وأنا في الحقيقة عاجز عن وصف كل ما حدث بعد ذلك لأنني لم أكن في عين المكان وقد اختلفت الروايات حول الأمر حسب اختلاف الرواة، والشيء المؤكد الوحيد هو أن بعض التلامذة تعرفوا عليه وسلموه أسلحتهم وطرح عليهم رحمه الله بعض الاسئلة، أجابوا عليها بصدق ونزاهة، أي أنهم لم يكونوا على علم بالإنقلاب وأن رؤساءهم خدعوهم. تم استدعاء السرجان كنوش الذي كان الأكثر رتبة من بين التلامذة، قَبَّلَ يد جلالة الملك مثل الآخرين، وقد أفلت السرجان (ك) الذي يحتل الآن منصبا مهما في الدرك الملكي وحضر محاكمتنا كشاهد من شهود الإدعاء العام وأدين زملاؤه بـ 18 شهرا سجنا.

أمر جلالة الملك بالإفراج عن الرهائن كلهم، فطار هؤلاء فرحا وجاؤوا للسلام على عاهل البلاد، كانت لحظة مؤثرة للغاية قرأ خلالها جلالته قراءة الفاتحة، حمدا لله وترحم على كل من قتلوا، وانبرى الأطباء الحاضرون لمساعدة الجرحى، ونظرا لقلة سيارات الاسعاف نقل الدكتور هادي مسواك الجرحى في سيارات خصوصية وهكذا استطاع العديد من الجرحى، بفضله وفضل بعض الأطباء الفرنسيين الإفلات من الموت وكان من بينهم الكولونيل لوباريس.

كانت لحظة حزينة تلك اللحظة التي اصطف فيها الحاضرون وراء جلالة الملك يترحمون على كل ميت أو يواسون الجرحى، كانت هذه الأجواء الكئيبة التي زادها نحيب بعض الحاضرين قتامة شبيهة بالأجواء التي تعقب القيامة، ذلك لأن يوم الصخيرات كان يوما شبيها.

«كوبوي» في الرباط

كان من الأشخاص الذين جاؤوا لتحية جلالة الملك الجنرال دوديفيزيون البشير البوهالي الماجور العام للقوات المسلحة الملكية. وقد أمره المرحوم الحسن الثاني قائلا: «ماذا تنتظر لقمع هذا التمرد؟ كسر شوكة هذا الانقلاب». سارع الماجور العام إلى تنفيذ الأمر الملكي في

الحال. توجه الى بن سليمان من أجل إحضار قوات الدعم الضرورية والتوجه إلى العاصمة للقيام بالمهمة التي كلفه بها جلالة الملك.

وبالرغم من أن كل الكاميرات قد صودرت فقد غامر بعض المصورين في التقاط صور عن العملية قبل اخفاء آلات التصوير الصغيرة في السراويل، والآن يخرجون هذه الصور ليقوموا بواجبهم المقدس في الاخبار. وهكذا بعد صور الرعب، جاء دور صور الفرح العارم والامل.

انتقل جلالة الملك إلى العمل الميداني، فبدأ بإصدار أوامره الى من كانوا معه في مكانه المجهول، الجنرال أوفقير وزير الداخلية والكولونيل أحمد الدليمي المدير العام للأمن الوطني والسيد أحمد العراقي الوزير الأول والجنرال مولاي حفيظ العلوي ووزير الدولة أحمد العلوي. أمر جلالته أيضا بنقل الجرحى وإخلاء المكان من الموتى.

وصل مظليو الرباط الذين أخبرهم السوليوتنان بينبين، الذي غادر القصر على متن «فياط 600» ، الى الصخيرات ووضعوا الضباط 48 الذين كانوا هناك خارج دائرة العمليات بعد أن جردوهم من السلاح وقيدوهم، بعد أن كانت «بركة» جلالة الملك قد حولتهم الى ناس خاضعين ومستسلمين بعد قراءته للفاتحة.

تقدم الليوتنان عبد السلام «س» في الحال وقدم تقريره الى جلالة الملك عن إنهاء حركة الضباط، وعين في الحال قبطانا، وبما أنه لم يجد النياشين الثلاثة المطلوبة كرتبته الجديدة فقد نزع نيشن الكتف الأيسر ووضعه على الكتف الأيمن. وبعدها وضع الطلبة الضباط الثمانية والاربعين في الشاحنات، يساعده في ذلك السرجان كنوش، لنقلهم الى الثكنة...

في الرباط مقر وزارة الداخلية مازال تحت سيطرة الانقلابيين بإمرة الليوتنان حيفي والسوليوتنان اليقيظي، وكان القبطان شلاط يشرف على عمليات الإذاعة والتلفزة، في حين واصلت الاذاعة الجهوية بطنجة بث برامجها العادية والمعتادة.

في مقر القيادة العامة وزعت الأدوار بين الحاضرين. وهكذا كلف الليوتنان كولونيل اجعوان رئيس المكتب الثالث بإرسال برقيات الى كل وحدات الجيش لوضعها في حالة تأهب دائمة الى اشعار آخر صادر عن

مجلس الثورة. وقد نفذ هذا الضابط السامي الأوامر في الحال، وقام فيما بعد بإلغائها كلها. لقد أجبر مثل العديدين على القيام بما لم يرضه.
من جهته اتصل اعبابو محمد (الشقيق الأكبر) بالعديد من قادة الوحدات طلبا لدعمهم، أما شقيقه امحمد فقد انهكه التعب وألم الجرح في ذراعه، فاستدعى إليه الليوتنان كولونيل الطبيب مولاي ليستخرج الرصاصة من ذراعه الذي أصابه الشلل. بعد هذه العملية الجراحية الوجيزة جلس في أحد الأدراج ثم فكر مليا قبل أن يطلب من السوليتنان أزندور احضار الضباط كلهم حتى يخطب فيهم. وقال اعبابو للضابط ازندور: «اذهب وادع جميع الضباط الى هنا. أريد أن اتحدث إليهم لأنني بصراحة أسف على توريط وحدتي في هذه العملية القذرة»، توجه أزندور لدعوة زملائه، لكن امحمد اعبابو لم يعد أمامه وقت للتحدث الى الضباط، لأن التلاميذة ضباط الصف جاؤوا اليه واخبروه بوصول الجنرال البشير البوهالي مصحوبا بأفراد وحدة التدخل السريع، وأنه بباب مقر القيادة العامة.
ذهب امحمد اعبابو للقائه يرافقه في ذلك العملاق عقة والضابط عشور وعمروش والكوري ومزيرك وشقيقاه الليوتنان كولونيل محمد والسرجان شاف اعبابو عبد العزيز، دخل الجنرال ماجور للقوات المسلحة الملكية الى حرم القيادة العامة يرافقه بلمجدوب والكومندان أوعيا عبد القادر قائد وحدات التدخل السريع لابن سليمان والكولونيل شجاع والليوتنان كولونيل أساري وضباط وضباط صف وجنود آخرون، أمر الجنرال البوهالي لكل من الكولونيل اساري وأوعيا التوجه الى الإذاعة والتلفزة لقمع الانقلابيين واخراجهم من هناك ثم اعتقالهم في ثكنات الوحدات المدرعة لقواته. واحتفظ بالمقابل، بالآخرين لمواجهة أحد أعدائه اللدودين. وما من شك أن كل واحد منهما كان يغذي في أعماقه حقدا وكراهية كبيرة للآخر. فقد كان كل منهما يكره الآخر، وكانت تلك اللحظة هي المناسبة المنتظرة لحسم هذا الخلاف الدائم. توجه كل واحد من جانبه باتجاه الآخر واثق الخطوات حازم النظرات. وقد كشف الموقف العدائي لكل طرف الغل الدفين الذي كنه كل واحد في انتظار ساعة الانتقام، التي وصلت في موعدها كما هو حال البؤس. تقدم كل واحد باتجاه الآخر، والشرر يتطاير من الأعين والسلاح مشهر في اليد. خطوات صامتة لا ينم عنها صوت، شبيهة بخطوات هنود «الآباش»، وقد كانت مبارزتهما حقا قمينة بفيلم ويسترن، ذلك أنهما وقفا عن التقدم في نفس اللحظة، وقد باعدا رجلاهما في وقفة أبطال الويسترن ووضعا

اليد على الزناد، من رأهما اعتقد أنهما من «كوبوي» الفارويست، فكلاهما كان اشقر وعيناه صافيتين تلمعان من شدة الدهاء، اللهم ان الجنرال كان طويل القامة وقويا على عكس الكولونيل اعبابو.

كان الجنرال البوهالي البادئ بالحديث:

- ماذا تفعل هنا أيها الحقير، اخرج من القيادة العامة.

أجابه امحمد اعبابو بكلام ناب:

- «أنا في مكاني، أنت من عليه الخروج أيها الغبي.

فرد عليه الجنرال

- «لقد خسرت استسلم أيها الحقير».

لجأ اعبابو إلى «الديبلوماسية» وقال:

- أريد التحدث إليك ولاشك أننا سنصل الى حل مناسب».

رفض الجنرال البوهالي رفضا قاطعا عرض اعبابو وخاطبه قائلا:

- استسلم أولا واعط أوامرك لرجالك بوضع أسلحتهم والاستسلام أيضا إذا كنتم تريدون البقاء على قيد الحياة. ما من شك في أن هذين العدوين كانا يجهلان بأنهما يشتركان في نفس الشيء، الحقد والإشراف (التيليباتي) أو قراءة الأفكار. هذه الأخيرة تشتغل بشكل غريزي ولهذا احس كل واحد منهما بالخطر، نفس الخطر وقرأ كل واحد ما يفكر فيه الاخر، فاصدر الجنرال والكولونيل الامر بإطلاق النار، ولعْلع الرصاص في ذات اللحظة وتقيأت الأسلحة ما فيها من جحيم، اخترق الرصاص جسم الجنرال فمات في الحال، وأصيب امحمد اعبابو إصابات بليغة فخر جريحا، رفع رأسه بصعوبة نحو ذراعه الأيمن الوفي «عقة» وطلب منه ان يقتله ، لأنه لم يكن يرغب في السقوط بين «أيديهم»، تردد عقة في قتل قائده الذي كان يكن له احتراما كبيرا، استجمع اعبابو كل مابقي لديه من قوة وصاح فيه: اقتلني أعقة، أنا مزاوك فيك، اقتلني هذا أخر أمر (أوردر) نعطيه لك، تيريها ماتخممش. الآخرين انتقامهم غادي يكون اقسى من الموت». فأطلق عقة رشقات طويلة على قائده وارداه قتيلا. توقفت المواجهة بين الطرفين فجأة، لم تكن الحصيلة كبيرة من الضحايا: قتيلان وبعض الجرحى الذين أصيبوا عشوائيا في هذه المبارزة الثنائية بين عدوين.

كان لموت الرجلين طعم النهاية، ولولا هذا الموت لتفاقمت الأوضاع ربما، وزاد عدد القتلى والجرحى. وهكذا لم تدم «جمهورية» اعبابو سوى بضع ساعات أما «مجلس الثورة» الوهمي فقد انحل بعيد تشكيله حيث

فر كل عضو للافلات بجلده بعد أن انتشر الخبر ببقاء جلالة الملك على قيد الحياة.

لقد بدأ اعبابوا سلسلة القتل بتصفية نجل أحد القواد واتمها باحد ابناء القواد، البشير البوهالي ابن قائد بني ملال، تلقى تكوينه في «الدار البيضاء» بمكناس قبل أوفقير وادريس بن عمر. بعد أن تخرج برتبة سوليوتنان التحق في الخيالة. شارك في الحرب العالمية الثانية ضمن قوات المدرعات. وقد كانت وحدته ضمن القوات الفرنسية في أحداث وادي زم. وقد كان أحد المسؤولين عن هذه الأحداث. ويذكر أن أحداث وادي زم كانت أحداثا مؤلمة تعرضت خلالها ساكنة هذه المدينة إلا مجزرة رهيبة بعد إعلان رفضها لنفي المغفور له محمد الخامس، الملك الشرعي للبلاد.

وقد سبق أن عين كقائد «السهول» باعتباره قبطانا. بعد الاستقلال طرد من الجيش بعد احتجاجات قوية من حزب الاستقلال. وبعد سنوات أعيد إلى صفوف الجيش برتبة كولونيل وعين ملحقا عسكريا في باريس، ثم عاد من جديد إلى الدفاع الوطني قبل أن يعين جنرالا و نائب الماجور ادريس بن عمر. في سنة 1969 رقي الى رتبة جنرال دوديفيزيون وعين الماجور العام مكان رئيسه الذي أصبح وزيرا للبريد. قبل مجيء الجنرال البشير كان اعبابو امحمد أحد الضباط الذين يظلهم ادريس بن عمر بظله. وكان أيضا أحد القادة المحظوظين في الجيش، يحصل على كل ما يريد ويقدم الهدايا الثمينة لرؤسائه المباشرين. وبمعنى اخر كان «يذهن السير» لكل من يزعجوه، وكان يقدم «الاظرفة» لهم وخصوصا منهم «د» الذي اشتهر بلعب البوكر والخسران فيه. ولم يكن لينتبه الى أن المال مال الجيش، وقد كان اعبابو يرشي أيضا المراقبين والمفتشين والمسؤولين عن المال العام. لقد كان يسرق الدولة أيضا سواء من حيث استنفاد القروض الممنوحة للمدرسة أو عبر تزوير الفاتورات أو تحويل العتاد وبتجويع الطلبة الضباط. ويقول المثل الدارج «جوّع كلبكْ يتبعك»... وقد تبع التلامذة ضباط الصف اعبابو حتى... الصخيرات.

بعد تولي البشير البوهالي القيادة لجأ على الفور الى تغيير في البنية التحتية فعوض كل مساعدي ادريس بن عمر ببعض «أصحابه»، لكنه لم ينجح في التخلص من اعبابو الذي كان فوق القرار. وقد طلب مرارا تغييره، لكن المذبوح كان عراب المافيوزي. لقد كان على اطلاع واسع علي عيوب الضابط الشاب لكنه غض الطرف. لأن اعبابو كان يتوفر على خاصيتين ربما احتاجهما المذبوح ذات يوم، الطموح والشجاعة. ولم يعلم

المذبوح أن هذا الطموح هو الذي دفع «تلميذه» الى خيانته، أما الشجاعة فقد ذهب اعبابو الى أقصى التهور وأقصى ما يمكن، فطلب تصفيته من قبل مرؤوسه عقة.

بعد مقتل اعبابو انفض الجمع. وذهب التلامذة الضباط في كل اتجاه مثل قطيع بلا رأس ففروا في كل صوب وحدب. فاختبأ «عقة» في المطبخ حيث كانوا يهيؤن 3 آلاف وجبة، توجه اعبابو الى القنيطرة ليركب سيارته ويقل زوجته وابنته والفرار الى تطوان. في منتصف الليل وصل مدخل المدينة فشاهد حاجز تفتيش للدرك الملكي فنزل من السيارة وتوجه الى الغابة وحيدا. بعد مرور يومين اعتقله «المخازنية» (القوات المساعدة) ونقل الى العاصمة.

أما عشور وعماروش ومانولو فقد توجهوا نحو فاس واعتقلهم رجال الدرك. السوليوتنان الكوري دق على باب العميد الممتاز ادريس البصري وطلب قضاء الليل عنده حتى الصباح، لكن العميد وضعه في الحال رهن الاعتقال في يد الشرطة.

كان الغروب ايذانا بانتهاء عملية اعبابو وتغير الادوار رأسا على عقب. فبدأ رجال القيادة العامة والتدخل السريع يبحثون عن الانقلابيين ويعتقلونهم وسجنهم. لم يجدوا أية مقاومة لان العديد منهم استسلم ورفع يده عاليا. والبعض الآخر فر في انتظار ان تهدأ العاصفة.

وسط هذا الهرج والمرج جمع ليوتنان من قوات التدخل السريع مجموعة صغيرة من الضباط السجناء من بين الانقلابيين ووضعهم في الحائط قائلا: «ما تستحقوش تكونوا ضباط، لأنكم خنتوا شعاركم الله. الوطن. الملك. غادي نعدمكم قدام الناس، للاسف مادايرين الكالونات، ديالكم كنت غادي نديرغراديكم قبل ما نقتلكم» واستدعى مجموعة من رجاله وطلب منهم الاستعداد وانتظار الامر باطلاق الرصاص. وفي اللحظة التي كان على وشك الامر باطلاق النار تدخل الكومندو «لوديي» لوقف الكارثة.

اوقف هذه المجزرة، ماذا تفعل

اريد اعدامهم - مون كوماندان - هؤلاء ضباط اهرمومو خونة الوطن».

صرخ الكومندان لوديي من فوج محمد الخامس في وجه فرقة الاعدام «اغربوا عني» الا تعرفون انه يمنع منعا كليا اعدام الناس دون محاكمة؟» ثم توجه الى الليوتنان، «بأي حق تريد اعدامهم، صراحة انت غير واع

بعملك الذي تعاقب عليه امام المحكمة العسكرية. در خدمتك وحدها!»
طلب الضابط من السجناء السير وراءه ثم اركبهم في شاحنة في انتظار نقلهم الى الثكنة - السجن. لقد كان رجال التدخل السريع عنيفين وقاسيين، نزعوا من التلامذة الضباط ما كان بحوزتهم (او ما سلبوه للآخرين). في الثكنة تم نزع ملابسهم الا من التبان وقيدت ارجلهم الحافية ومددوا ارضا، نالوا حظهم من الاهانة والتهديد، بعد ان ظلت قوات التدخل منذ الساعة الرابعة تنتظر هذه اللحظة.
وحصل ان «الليوتنان «منصت» القصير النظر منذ الولادة طلب ان تعاد له نظاراته، فأجابه القبطان شطيوي من قوات التدخل السريع: «من الآن فصاعدا لن يحتاج الى نظر او حياة» ومع ذلك فقضى «منصت» *20* سنة في تازمامارت بعد ادانته ب *10* سنوات، ومازال يضع نظاراته ومازال على قيد الحياة

آخر الطلقات

في مبنى الإذاعة عرفت الأحداث مجرى مختلفا. ويمكن القول إن الوضع كان قاسيا شهد عدة ممارسات عنيفة تجاه التلامذة ضباط الصف. وقد طلب الكومندان أوعيا من رئيسه المباشر الليوتنان كولونيل اساري تركه يقود العملية شخصيا بدون حوادث، ودليله في ذلك أنه يجيد الحديث الى الانقلابيين المختبئين من أجل إقناعهم بالخروج دون اشتباك. فبدأ حديثه «اسمعوني كلكم أنا الكومندار أوعيا محمد عبد القادر، كلكم تعرفونني، لأنني كنت الى حدود السنة الماضية، مديركم في التداريب. أريد الآن التحدث الى الضباط»: بعدها مباشرة خرج الضباط وضباط الصف واستسلموا زرافات وضعوا أسلحتهم بدون مقاومة. تدخل الاساري وطلب من الضباط إصدار أوامرهم الى مرؤوسهم ليقتدوا بهم ويسلموا أنفسهم، وهو ما تم على الفور. وفي اللحظة التي كانت عناصر التدخل السريع وهم ما يجمعون السلاح ويقودون *السجناء الى الشاحنات تحت أضواء الأعمدة الكهربائية في الأزقة بعد*

ان خيم الظلام، في تلك اللحظة، أعمت الأبصار فجاة الأضواء الكاشفة الموضوعة على الجانب الآخر من شارع مولاي الحسن وبدات الرشاشات والمدرعات في اطلاق النار على التلامذة ضباط الصف. وقد كانوا واقفين وسط شارع زنقة البريهي، مصطفين في طوابير ثلاثية، فسقطوا ارضا، واصيب بعض العناصر قوات حفظ الأمن، لأن الرصاص كان يستهدف كل الواقفين بدون تمييز. كانت الرشاشات من طراز 12.7 مم تطلق النيران مثل تنينات غاضبة. وكانت أضواؤها وسط الليل تزرع الرعب. اعتقد افراد قوات التدخل السريع أن النار تاتي من جهة القواعد الخلفية للطلبة الضباط فردوا بعنف، فكانت الفوضى. فر التلاميذ الضباط للإفلات بجلدهم أو اختبأوا طمعا في النجاة من الرصاص. وكان افراد التدخل يطلقون النار لمنعهم من الهرب. ورد التلاميذ الذين لم يضعوا سلاحهم على الجنود.

ولم تتوقف الدبابات عن اطلاق النارعلى كل موقع مشتبه فيه، وربما كان ذلك بسبب الفوضى العارمة وما تلاها من قبل أمام مبنى الإذاعة. مما خلق عددا كبيرا من القتلى يفوق عدد الصخيرات. ففي قصر الصخيرات أطلق الانقلابيون النار على المدنيين العزل فقتلوا (9) فردا منهم شخصيات سامية.

وأمام مبنى الاذاعة والتلفزة أطلقت النار على التلاميذ الضباط المتمردين بعد تجريدهم من السلاح. وقد كانوا في طريقهم الى السجن التاديبي فمات منهم 111 شخصا.

اقول رايي الشخصي في أن القانون كان يجب أن يطبق على كل ما انتهكه بالقتل العمد دون وجه حق. هناك فرق بين الانقلابيين الذين حاولوا المس بمؤسسات الدولة والآخرين الذين قاموا بواجبهم في الدفاع عنها، لكن كان لزاما احترام المعايير والأعراف. والخلاف هنا غير قائم بين من أطلق النار علي المدعوين وبين من أطلقها على العزل، الم تكن هناك محكمة للمعاقبة وقانون للاحترام؟ يومها كان الجنود يقلدون مسؤوليهم ما كان ذلك الليوتنان سيقوم به هو ما قام به رئيسه عند ما كان العامل العسكري على مكناس في احداث 38/57.. من حسن الحظ ان المغفور له محمد الخامس تدخل بكل قوة لوضع حد لهذه الفعلة غير الانسانية بأن أعفى المسؤول من مهامه ونقله الي المدرسة العسكرية لاهرمومو.

وما حدث ذلك اليوم في الصخيرات والإذاعة كان ثمرة مرة لبذرة

سيئة. لقد كان الجنود ينفذون الأوامر غير واعين بفعلتهم غير الشرعية معتقدين انهم مجرد منفذين لاأقل ولا اكثر. في الواقع لقد ضلل جنودنا ولقنوا معرفة خاطئة بالطاعة، ومن كثرة ماردودوا على مسامعهم الطاعة العمياء دون تردد أصبحوا قساة غليظي القلب.

هكذا أصبح جنودنا مجرد آلات (روبوات) غير واعية يعتبرون انفسهم مجرد بيادق للتنفيذ. لقد كان قادة وحداتهم يسيئون معاملتهم ويفرضون عليهم انضباطا حديديا. لقد قال اعبابو ذات يوم «يجب أن تكون غنيا لفرض إرادتك، فالثروة تجعلك قويا ومتميزا ويمكنك الحصول على ما تريد شريطة أن تكون غنيا. ويكفي لاستمالة الجميع وترويض غير الفاسدين أن تعرف نقط الضعف» لقد كان رئيسه قد شجعه ودفع به الى الأعلى. وقد كان هو نفسه «سخيا» وكما قال لأخيه الاكبر ذات يوم إن الأظرفة تفتح لي الطريق. وقد اشمأز هذا الأخير من سلوك أخيه الوضيع. فقد كان يرى أن النزاهة أفضل بكثير من المال. أما اعبابو امحمد فقد كان يسمح لنفسه بأي شيء ويستعمل كل الوسائل للوصول الي هدف حتى ولو كانت شيطانية. وحتى الشيطان لم يسعفه عند ماجاء الموت ومات ونياشينه الذهبية في جيبه.

كم تمنيت أن يجدها أحد الجنود حتى تعوضه عن حياته البئيسة، ولعل الافلات من البؤس مساء ذلك اليوم أمام الاذاعة كان هو الافلات من الموت الصاعد من الذبابات والرشاشات. ولهذا لجأ التلاميذ ضباط الصف الى العمارات المجاورة كلما أسعفهم الحظ بذلك، لأن الطرق كلها كانت محاصرة والمنافذ مغلقة من طرف قوات التدخل.

بعد ثلاث ساعات من الترقب تواصلت مواجهات الشوارع واخلى الطلبة الضباط مبنى الاذاعة بعد وصول قوات الأمن، وتواصلت مطاردتهم طوال الليلة لتدوم أسبوعا كاملا، لأن العديد منهم استغل الظلمة وفر الى مسقط رأسه.

تمت تعبئة كل قوات الأمن في مدن المملكة، وإقامة نقط التفتيش بإشراف الدرك الملكي، في كل الطرق، وتم تحرير وزارة الداخلية واعتقال الكومندوهان. من جهتي اغتنمت فرصة هذه الفوضى للافلات من ضربات أعقاب البنادق وركبت سيارة اسعاف في حوزتنا وطلبت من السائق الانطلاق، واستغللت الفرصة أيضا واركبت معي الممرضين والطلبة الثلاثة المصابين إصابات خفيفة في الأرجل. جابت سيارة الاسعاف أزقة الرباط دون أن يتم توقيفها أوتفتيشها حتى نجحنا في

مغادرة الرباط للالتحاق باهرمومو. وكنت انوي اخذ المال والخرائط الطوبوغرافية للتسلل سريا الى مليلية المحتلة، لأنني كنت اعرف اي منقلب سانقلب بعد القبض علي. ولما وصلت الي تيفلت ترجلت وتوجهت الي مقهى شعبي للاستماع الي الأخبار.

فوجئت بوجود 30 بدويا يسمعون إذاعة ليبيا التي كانت تبث الاكاذيب تلو الأكاذيب. لما غادرت المقهى جاء الي شرطيان لتحيتي معتقدين بانني لم اكن ضمن الانقلابيين. واخبراني بان جلالة الملك فوض كل سلطاته المدنية والعسكرية للجنرال اوفقير، فقررت العودة على اعقابي والتوجه الي الرباط، عندما وصلنا الى العاصمة حوالي الساعة الحادية عشرة ليلا وجدنا ازقتها خالية باستثناء قوات الأمن والقوات المسلحة الملكية. اضطررت الي الخروج مرة اخرى من الرباط. كانت سيارة الاسعاف تنهب الطريق الوطنية رقم 3 مدة ثلاث ساعات دون ان تصادف سيارة اخرى، قبل ثلاثة كلم من فاس وجدنا حاجزا مزدوجا للدرك الملكي والشرطة كدت أن أقطع الحاجز لو لم يتعرف علي احد معارفي. اعتقد ان الكشف عن هويتي سيجعل رجال الدرك يتساهلون معه بخصوص عدم توفره علي البطاقة الوطنية. اقتيد الجميع الى كتيبة فاس للاعتقال وهناك وجدت القبطانين بلكبير وغلول وضباط الصف الثلاثة عشور وعماروش ومانولو. وقد كان القبطانان قد فرا من الصخيرات وتخلصا من البذلة العسكرية وارتديا ملابس مدنية، حتى لا يتم التعرف عليهما ، غير انهما اعتقلا في محطة القطار بفاس من طرف القبطان بولعز الدي اقتادهما مباشرة الى عامل الإقليم بن شمسي.

وقد استقبلهما هذا الأخير في مكتبه بمعية الكولونيل الشرقاوي والعميد الممتاز وقائد الدرك بفاس، أمرهما العامل بالجلوس ارضا لكن الكولونيل الشرقاوي تدخل قائلا: «اجلسا على الأريكة فما زلتما ضابطين الى ان يثبت العكس» رد عليه بنشمسي «بالنسبة لي لم يصبحا ضابطين لانهما خانا جلالة الملك». فكانت جواب الكولونيل «لم يجردهما احد من نياشينهما. اما بخصوص الخيانة فالمحكمة هي التي ستحكم، وانا ملكي لكن واجبي هو الدفاع عن ضباطي».

بعد هذه الحادثة شرع العامل في الاستنطاق الذي اجاب خلاله القبطانان بكل صراحة. كان يريد أن يعرف ما وقع في الصخيرات لكنهما بدورهما كانا يجهلان ما وقع . لم ينبس الشرقاوي ببنت شفة واكتفى بمراقبتهما بنظرة مشفقة لأنه كان يعلم ما ينتظرهما. ختم بنشمسي

كلامه كإداري متمكن: «إذ ا ثبت أنكما هربتما من الصخيرات فستتمتعان بظروف التخفيف» غير أن الكولونيل كان يفكر بشكل مخالف، تفكير الجندي الذي يعرف أن على الضابط ألا يفر ويؤدي واجبه ويتحمل مسؤوليته. وبتلخيص اعتقلا وسجنا في مقر الدرك وهناك حكيت لهما ما وقع بالتفصيل احداث ما بعد قصر الصخيرات. واخبرتهما أن امحمد اعبابو سأل عنهما مرارا وأن طالبين أخبراه بهروبهما وتسليمهما الرشاشات فكان رد فعله أن استشاط غضبا وقال: «الجبناء سأقتلهما بيدي» قال بلكبير وهو شارد الذهن حزين القسمات:« أنا أتساءل ماذا يمكن أن أعمل في مثل هذه الظروف؟ الهروب أم البقاء؟ على كل حال إننا محكومون بالاعدام سواء من طرف اعبابو أو من طرف الدولة». كان عاشور قد حلق شنبه حتى لا يتم التعرف عليه، ولو لمدة أيام فقط.

قبيل الفجر، قادني دركيان الى غرفة كان بها القبطان بولعز والليوتنان الدكالي والسوليوتنان غزال. وقبل أن يطرح علي مستجوبي السؤال الأول غرز ماسورة بندقيته في بطني وقال: « من مصلحتك تكول الحقيقة. وإلا قتلتك مثل كلب». بدأت أروي روايتي للاحداث والحاضرون الثلاثة ينصتون في صمت وما إن انهيت حديثي، حتى نظر الى مستجوبي مليا وقال: «أنت كتكذب «دوماج» أنا مضطر نخسر لك زينك» ثم اسمعني تسجيلا لخطاب جلالة الملك وقال:« هل عرفت هذا الصوت؟» حركت رأسي بالإيجاب فواصل كلامه: «مازال جلالته حيا ستدفعون جميعا ثمن خطئكم».

يوم الاحد في الساعة الثانية بعد الزوال نقلوني بمعية زملائي الى السجن المدني «عين قادوس» بفاس . أودعونا الحي «الفرنسي» في انتظار السجانين. كانت زنزانتي طويلة أكثر منها عريضة، ذات إضاءة جيدة، تتوفر على سرير وغطاءين والمرحاض طبعا الى جانب صنبور الماء والكهرباء. كان الغذاء جيدا على العموم وإن كنت اضطر كل مرة الى اقتسام حصتي من الخبز مع 8 فئران ضخمة كانت تنط من المرحاض طلبا لغذائها، كنت حافي القدمين بدون دفاع لهذا أجبرت على الاستجابة لمطالبها المتكررة.

يوم الاثنين 12 يوليوز كان يوم حداد، تم خلاله إقامة جنازة وطنية بحضور جلالة الملك وكل الشخصيات السامية، لكل ضحايا الصخيرات، في حين تواصلت مطاردة الهاربين، واعتقل كل المشتبه فيهم و«المتعاطفين» مع الانقلابيين، واعتقل أيضا الجنرالات الأربعة، جيء

بالجنرال حمو الى ساحة السلاح بوحدة المدرعات على متن طائرة هليكوبتر مقيد اليدين بحبل. وأشهد شهادة شخصيا انه ظل يرفض التواطؤ مع اعبابو رغم التهديد. وقد شاهده كل الحاضرين وهناك من نعته بالخائن. وكان أوفقير هو المشرف على عمليات التطهير، ووقع شخصيا أوامر اعتقال أصدقائه في إيطاليا والحرب الهند الصينية، حمو امهارش، بوغرين وحبيبي. واعتقل كل الآخرين: الشلواطي، بوبري، عمي، الفنيري، بلبصير والمانوزي. واعتقل أيضا أعضاء «القيادة العامة» المزورة ببوقنادل، واعتقل أيضا اجعوان وامقران والاساري وسعد الجيلالي وكل من كانت له علاقة من قريب أو بعيد بالعملية.

في فاس بدأ صباح الاثنين الاستنطاق «المتشدد» مع الممرضين وسائق سيارة الاسعاف. وجهت الى الأولين تهمة وضع المخدرات في القهوة الموزعة على التلامذة الضباط بأمر من اعبابو. أما الثاني فقد اتهم بأنه خالف الاوامر بالتوجه الى الصخيرات عوض بن سليمان. ومساء ذلك اليوم جاء دوري. وقد جاء دركيان الى زنزانتي اقتاداني الى جناح خال لتعذيبي حتى أعترف وأبوح. كان هناك دركيون مستعدون لكل شيء معي. كانوا يعملون كفريق ويمارسون طريقة خاصة تشبه «الكوريدا». بدأ الدركيون الثلاثة الشبان بالضرب وتسديد اللكمات وهم يسألونني و«تهاطلت» الاسئلة والضربات دون أن أجد الوقت الكافي للرد. جاء دوري مع السرجان شاف الذي طرح علي أسئلة محددة واكتفى بالصفعات أو ضرب رأسي مع الطاولة. بعد الامتحان العسير لرجال الكوريدا الثلاثة وصل «قائد الكوريدا» أو المطادور. وهو شخص كان يعمل سرجان شاف قدم خصيصا من تازة من أجل هذا العمل. كان طويل القامة، نحيفا مثل زانة وعنق طويل يثير الانتباه. ووجنتاه بارزتان، غير أن ما أثار فزعي هو عيناه الجاحظتان ونظرته الملغزة الخطيرة. وما إن رأيته حتى تيقنت بأنني أمام إنسان لا يرحم. نظر إلي نظرة ذات معنى قبل أن يضيف: «لقد جئت خصيصا من تازة من أجلك ومن أجل بلكبير وغلّول. وصدّقني سأدفعك للكلام عنوة اللهم إذا كنت تحبذ الموت محتفظا بسرك».

لقد كان هذا الدركي مختلفا عن زملائه، حيث لم يكن يحب طرح الاسئلة وينتظر الاجوبة نظرا لثقته في أسلوبه، بدأ بتقييد معصمي بواسطة حزام جلدي ثم ربط رجلي بحزام ثان ثم ضغط على ظهري الى أن اجبرني على الانحناء الى حد أن مس رأسي قدمي ودخل صدري بين

فخذي، ثم ادخل قضيبا حديديا تحت ركبتي اليمنى ثم مرره تحت ذراعي وصدري، وكنت اشبه بخروف مهيأ للشواء.

رفعني دركيان لأجد نفسي معلقا في الهواء، صدري الى الاسفل وراسي الى الخلف. جاء سجاني بدلو مليء بالماء وبال فيه، وقبل ان يضع اسفنجة (شيفون) متسخة على منخاري وفمي قال لي: «ساشرّبك بولي وهو لذيذ، لأنني شربت الجعة كثيرا»، ثم ملأ قرّافة بالماء المخلوط بالبول وصب المحمولة في منخاري. احسست باختناق في صدري وصعب تنفسي، وكلما زاد من الخليط زادت آلامي، ظننت بان رئتي ستنفجران، ما كان بإمكاني أن أصرخ أو اصيح او اتحدث... كان السجان يدرك اللحظة التي يجب أن يتوقف عندها، فكان يرفع الاسفنجة ويعيد السؤال: «هل انت مستعد للاعتراف؟... احسست بالماء في انفي ورئتي وحنجرتي، بللت نفسي بالبول لأنني بلت على نفسي رغما عني.

كنت عاجزا عن الجواب لأن الإغماء اعتراني، ولسوء حظي ان ذلك الاسلوب كان اول القطر فقط، فإضافة الى «العلاقة» التي تعرضت لها كانت هناك «الطيارة» و«الببغاء» و«الأرجوحة» لانتزاع الاعترافات الكاذبة في الغالب.

وفيما انا أغالب الإغماء سمعتهم يقولون: إنه يدعي إصابته بالالتهاب الجيبي (سينوزيت) وقد يموت». وسمعت السجان النحيف يقول: إذا رفض الاعتراف سأجلسه على قنينة جيدور».

ولما سمعت هذا الكلام فزعت وأنا أتصور مؤخرتي ممزقة قلت «إلا هذه!» وقررت ان اقول لهم اشياء لا تصدق. وهكذا صرحت بان الانقلاب خطط في السر من طرف اعبابو وعلال الفاسي واحرضان الذين كانوا يجتمعون باستمرار في بيت قائدنا. وقد صدقوني رغم ان الاسماء الثلاثة كانت على طرف النقيض من بعضها البعض ويستحيل ان تتفاهم فيما بينها. ثم رقن تصريحاتي على الآلة الكاتبة واحيلت على الرؤساء. غير أن ما هز كياني فعلا كانت هي اقوال دركي شاب وجميل الخلقة. لقد اقشعر بدني وأنا أسمعه يقول: «لماذا نضيع الوقت والوسائل ونقضي الليالي البيضاء، في رقن تقارير لانهائية، بل لماذا إضاعة كل الذخيرة لإعدامهم، فمادامو قد خانوا شعارهم، فإن أحسن وسيلة للتخلص منهم بسرعة هي إلقاؤهم في مسبح مملوء بالأسيد. ولا من راى ولا من سمع. حتى حفاروا القبور سنوفر عليهم مشقة عملهم. للاسف إنني لا املك السلطة لتنفيذ فكرتي»، كنت مقتنعا ان هذا الدركي

الوسـيم كـان أشـد قـسـاوة من الدركي النحـيف صـاحب الوجنتين البارزتين.

صباح يوم الثلاثاء، في الساعة السابعة أرسلت الى الرباط على متن سيـارة لاندروفر تابعـة للقوات المساعدة يرافقـهـا دركيـان وفردان من القوات المساعدة. وضع لاجـودان شاف القيد في رجلي ويدي قال لي ساخـرا»: «مون كومندان لن أضع عصابة على عينيك حتى لا أحرمك من التملي لآخر مرة بالمناظر الجميلة في هذا العالم. وأتمنى أن تحتفظ لنفسك بذكرى حنين أو أسف عميق على هذه الحياة التي خربتها عن قصد. لاداعي للحزن والكآبة لقد قـامرت وخسـرت «أجبتـه، أولا لست كـومندان».. فـقـاطعني قـائلا: «أعـرف ذلك جـيـدا، ما أنت سوى مـجـرد «ضابط مرشح لكن شهادات واعترافات بعض التلاميذ الضباط أفادتنا بأن اعـبـابو سلمك نيـاشين الكومندان التـي وضعـتـهـا فـي جـيـبك في انتظار الوقت المناسب لوضعها».

أجبته «لست مرتزقا لكي أخاطر بحياتي من أجل نياشين كومندان».

واصلنا الطريق وسط صمت مطبق. وعندمـا وصلنا الصـخـيـرات ترجل الدركـيـان للراحـة وتناول الغـذاء، فسألني أحد من أفراد القوات المساعدة أكبرهم سنا: «هل أنت أمـازيغي» قلت نعم حتى أنال تعاطفه: «فـاجـابني» للأسف لقد خيبتم ظني... (...)» التـزمت الصمت لأنني كنت أعـرف أفـراد القـوات المساعدة. لكنه كـان أكثـر رأفة بي. وقد اقـتنى لي الرجل الـعـجـوز سـجـائر ومنحـني زميله الاكل وكـأس قـهـوة بالحليب. وصلنا الى المكتب الثاني (دوزيام بيرو) في الساعة العاشرة صباحا. مكثت لحظة في البهو وأنا موثوق بالأصفاد الى أحد الدركيين.

خـرج كل الموظفين من مكاتبـهم لمشـاهدتـي والتـفـرج علي مـثل شيء غريب مثل عينة من عينات الخيـانة. فكرت في بعضهم الذي كان يصيح يوم السبت احتفاء بخطاب اعبابو ومنهم من نزع قبعته ورماها عاليا!! كـانوا يشيـرون إلي بالأصـابـع ويـهـمسـون في آذان بـعـضـهم. بعـضـهم سخـر. جاء قبطان من الاستخبارات يرافقه ضابطان في يديهما الحبال والعـصـابـات، توجـه القـبطان الـى كـومندان أشـقـر وبدين قـائلا: «مـون كـومـنـدان أقـدم إلـيـك الأفّـاق رقـم 22 "mon commandant je vous presente le 22eme salopard". نزعوا أصفادي وغطوا عيني بعصابة حمراء (لأنه كانت هناك عصابات زرقاء وبيضاء حسب أهمية كل أفّاق». ربطوا قدمي ثم رجلي ثم لفوني

بالحبال من الكتفين حتى القدمين مثل حبة نقانق، ثم حملوني على اكتافهم الى الطابق الثاني. اجلسوني ارضا، لم اكن اتبين ما حولي، لكن صوتا بلا وجه طرح علي عدة أسئلة. وكانت أجوبتي على طرف النقيض من الأجوبة التي أجبت بها على الدرك الملكي. ويمكن القول ان رجال المكتب الثاني كانوا مختلفين وان تعرضنا للصفع والضرب والكهرباء و«الفلقة».

يوم الثلاثاء 13 يوليوز تم إعدام المتورطين العشرة طبقا للمحكمة العسكرية التي ترأسها الجنرال أوفقير. يومها تم نقلهم في سيارات «هالف - تراك» الى ساحة الاعدام. وجدوا في انتظارهم 20 جنديا من كافة القوات.

كانوا مسمرين شاردين والخوف في أعينهم باستثناء الشلواطي الذي حافظ على سحنته وكبريائه. وقد حدث أن مر اتهموه بالخيانة وصفعه احدهم فرد ردا غير لبق. وقال للوزير الاول أحمد العراقي الذي واصل تقريعه: «لا تخف سيأتي يومك ونلتقي أمام الله». تم تجريدهم من نياشينهم من طرف الجنود. وفي الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق وقفوا أمام فرقة الاعدام كانوا كلهم صامتين باستثناء الجنرال حمو الذي صاح «عاش الملك». وإذا كان هناك خلاف في تفسير هذا الموقف، بين من رأى فيها طمعا في العفو أو المحافظة على امتياز، فإنني شخصيا أرى أن الجنرال حمو كان على صواب عندما صاح «عاش الملك» حتى وهو واقف في طابور الإعدام. وأنا أومن بأنه لم يكن ضد الملك حتى ولو حكمت المحكمة بذلك. وقد حضرت رفضه لاعبابو رغم التهديد.

في الساعة الحادية عشرة والربع انتهى كل شيء. وتم دفن المعدومين والجنرال مذبوح وامحمد اعبابو في قبر جماعي على اطراف ميدان الرماية ما بين الرباط وتمارة، دفنوا بدون طقوس.

في ثكنات اللواء الخفيف للأمن(BLS) والمدرعات كان الانقلابيون حفاة في أقبية محاطين بالأسلاك الشائكة والرشاشات.

في المكتب الثاني كنا نظل مكتوفي الأيدي، معصبي العينين مطروحين أرضا مثل الطريدة في البهو تحت أنظار الحراس من الدرك الملكي المسلحين. كنا نمضي، تباعا، الى الاستنطاق ونتلقى في كل مرة حصتنا من «الفلقة». لم نكن نتلقى أكلا أو ماء أو نذهب الى المرحاض. أثناء التحقيق كان القبطان البدين يطرح الاسئلة

ولادجودان «ز» يوزع اللكمات ولاجودان «ب» يركلنا بالجزمة والسرجان شاف وراء ظهورنا يعاجلنا بـ «مسدسه» الخاص بالشحنات الكهربائية التي تمزق الضلوع الهشة أو العنق والعمود الفقري. كنا نسمع باستمرار الصراخ والأنين والحشرجات والأصوات الرهيبة تهددنا وتطرح الاسئلة ونسمع جواب الناحبين الذي زرع فينا الرعب والاحباط. مع مرور الوقت نجحت في ازاحة العصابة عن عيني بفعل حركات ميمية للجبهة والحاجبين، ولاحظت أن القاعة لم يكن فيها سوى الة تسجيل بشريط مغناطيسي جيء به لإضعافنا وزرع الرعب فينا.

كانت أيام يوليوز طويلة وضاغطة وزادت مدتها واختناقها. في المكتب الثاني حيث كنا نتعرض للتعذيب ثلاث مرات في اليوم من طرف سجانين لايكلون وإن كانوا أقل قسوة من الدرك.

كان ما يشغل بال هؤلاء الضباط في ذلك الخميس هو معرفة اسم شخص حضر الى بوقنادل مع ضباط القيادة العامة المتقدمة، وقد كنت أعرفه لكنني تلكات في الجواب ربحا للوقت. وقد اكتفيت بإعطاء أوصافه التي كانت متميزة: «شنب كث، يميل الى الحمرة، عينان صافيتان تبقعهما نقط بنية مثل عيني قط، شعر مجعد»، وقد قضى القبطان المكلف بالملفات الصباح كله يعرض عليّ مئات الصور. كان بمقدوري أن أقول بأن الأمر يتعلق بالضابط مزيرك أحمد صهر المدبوح، لكنني كنت أخشى أن أنقل فورا الى ورشة التعذيب لأنال الحصة اليومية. ومن حسن الصدف أن الصور أنذاك لم تكن بالألوان.

زوال ذلك اليوم ادخلوني مكتبا شاسعا ونزعوا العصابة الحمراء عن عيني واجلسوني على أريكة مريحة وضعت قدمي المتسختين المقيدتين على سجاد أحمر جميل، وأثار انتباهي مكتب كبير عليه عدة هواتف وأجهزة ارسال. نظرت فاغرا فاهي، الى مختلف الأزرار العديدة والملونة التي تخلب الألباب، انتبهت الى وجود 3 شخصيات هم الكولونيل ليوسي محمد رئيس المكتب الثاني وهو ابن قائد، والكولونيل أحمد الدليمي المدير العام للأمن الوطني (ابن قائد أيضا) والليوتنان كولونيل ارزاز حمو (ابن قائد أيضا)، وقلت في نفسي إن هذا أسبوع أولاد الخيام لكبيرة، ولم ينته الأمر بعد، طرحوا عليّ أسئلة عديدة وكانوا يرغبون أساسا في معرفة السبب الذي دفعني لاطرح على اعبابو الهدف من مهمتنا، قلت إنه الفضول لكنهم لم يصدقوني، سألني الكولونيل اليوسي:

بما أنك حصلت على الذخيرة الحية كان عليك أن تعرف الهدف الحقيقي مع رحلتكم التي لاعلاقة لها بتمرين بلا قتال.

• أجبته: «مون كولونيل، أتذكر يناير 1959، عندما انتقلت مدرسة اهرمومو الى منطقة صفرو وقتها وزعوا علينا الذخيرة الحية دون أن نعلم بأن مهمتنا تقضي القيام بمسح شامل للقبض على عمك وزير الداخلية السابق لحسن اليوسي، وبعد شهر تقريبا قمنا برحلة أخرى فى منطقة تاهلة دون أن نعلم أن الهدف كان مواجهة القائد أبرشان الذي هرب الى الأدغال»، قاطعني الدليمي قائلا: «لكن قضية الصخيرات تختلف، كان المفروض أن تتوجهوا الى بن سليمان فوجدتم أنفسكم بالقصر الملكي» اجبته على الفور: «لكن مون كولونيل إذا سمحت سأثير انتباهك باحترام بأنني كنت تحت امرتك في الكتيبة 44 بكولومين، خلال احداث طرفاية، وقد تلقينا الأوامر بالتوجه الى بويزكارن، لكننا تلقينا الامر في منتصف الطريق بالتوجه الى مير اللفت».

كان ارزاز ملتزما الصمت وقد حضر اللقاء باعتباره قائد الدرك خلفا لبولحيمص الذي قتل في الصخيرات. استأنف اليوسي حديثه وسألني «لماذا بقيت في خدمة اعبابو بعد وصولنا الى الصخيرات وانكشاف أمر الانقلاب» فأجبته بمكر: «لكي لا أصل الى هذا الوضع الصعب الذي أوجد فيه الان، وعلى كل، فإن الهروب أو البقاء في مثل هذه الظروف سيان، لان القبطانين والسوليوتنان بينبين الذين فروا من الصخيرات يوجدون حاليا معي في «الدوزيام بيرو» ويتلقون نفس المعاملة».

انتهى اللقاء وعدت الى خانة الانطلاق، بعد بضع دقائق جاؤوا للبحث عني ولتقديمي للجنرال دوديفيزيون إدريس بن عمر العلمي الماجور العام للقوات المسلحة الملكية مؤقتا، لأنه كان وقتها وزيرا للبريد، عندما سمعت صوته استبد بي الهلع واعتراني الخوف، وفكرت في صرامته في أحداث مكناس 1958 ومصير اللصوص الذين نهبوا المحلات بعد زلزال اكادير، وقد أمر بدفنهم أحياء في الرمل لاتظهر منهم سوى رؤوسهم على أساس أن يأتي شخصيا لإطلاق رصاصة الرحمة. ومن حسن الحظ أقنعه جنرال سويدي بالتراجع عن فعلته هذه.

قلت في نفسي إن دوري حان للخضوع لقانونه الخاص، أمرهم الجنرال إدريس بن عمر قائلا: «ارفعوا عنه العصابة»، وعندما فتحت عيني وجدته أمامي بلباسه الكباردين، وكل نياشينه على صدره، كان قصير القامة، وجهه المسن خطته التجاعيد، عيناه واسعتان بنظرة

مرعبة صاح في «آه، اعرف هذا الشخص لقد عمل تحت امرتي عندما كنت كومندان المدرسة العسكرية بأهرمومو».

وأجبته: «نعم مون جنرال كنتم رئيسا من 1958 الى 1961»، استأنف حديثه بعد أن وضع إبهامه على صدفة في صدريته: «إذن هو ذا الاخلاص الذي علمتكم، ماذا فعلتم بكل دروس الأخلاق والتربية الوطنية؟ وقد اعتقدت بأنني لقنتكم أقصى ما يمكن من الوفاء والاخلاص للعرش العلوي الشريف النسب؟ وها أنتم، في رمشة عين تخليتم وتبعتم هاذ الخائن اعبابو» كان بودي أن أقول له بعض الكلمات في وجهه، لكني للأسف عدِمْتُ الشجاعة والجرأة للمخاطرة بحياتي أمام هذا الرجل الصارم. لو أنني كنت أكثر شجاعة وأقل جبنا لقلت له حرفيا: «مون جنرال أنت المسؤول الأول عن هذه الكارثة التي ألمت بالبلاد واسمك معروف في ربوع البلاد وداخل كل العائلات بسبب سطوتك وصرامتك حتى أنك أشهر من كوكا كولا. في الجيش يخشاك الجنود ويهابونك لكبريائك. لقد استطعت في ظرف 4 سنوات فقط أن تسحقنا وتجعلنا مجرد بيادق ومنفذين بدون عقل. أنت المسؤول عن بؤسنا لأنك شكلت جيشا شبيه «بالكوم» منضبط انضباط البلداء ينفذ بدون أن يفهم. لن أحيل على المادة رقم واحد من القانون العسكري الذي تنص على الانضباط والتنفيذ دون تردد وعلى أن الذي اعطى الاوامر هو المسؤول عنها، بل سأحيل على قانونك الخاص الذي علمته لنا: «إذا طاح الشاف ديالكم في البير طيحوا معاه وايلا رمى راسو في النار ديرو بحالو ولا تحاولوا الفهم نفذوا فقط. الشاف ديالكم هو الدماغ اللي كايفكر هو يفكر وأنتم تنفذوا»، إننا اليوم غير مطالبين بالتفكير ... لقد حدثني عن الأخلاق. هل هي الأخلاق التي تمنع التبذير والشيخات والبوكير بمال اعبابو المسروق؟

مون جنرال لقد طرحت عليَّ السؤال واسمح لي بدوري أن اسألك كيف وصل اعبابو الى قمة الهرم؟ رغم وجود عشرات الضباط الشبان الحيويين والأكفاء يفوقونه كفاءة، ضباط مغاربة بالمعنى الحقيقي للكلمة تفخر بهم القوات المسلحة الملكية. ضباط نزهاء اصفياء واعون. وبصراحة ألم تكونوا على علم بأن اعبابو لص، يزور الحسابات ويزور الفواتير ويسرق عتاد الدولة؟ ويقوم أصحابه بالسرقة ليلا؟ لماذا غضيتم الطرف؟ كل الجيش يعلم ذلك وأنتم أيضا.

وبتلخيص لم تسعفني شجاعتي وظل الجبن لصيقا بي، فبدأت

انظر إليه دون كلام، لأنني فقدت شخصيتي و «تقلص كياني» وتحولت الى بيدق، يومها التزمت الصمت ملتفا في خوفي ونفاقي وانعدام شخصيتي شاخصا النظرات خنوعا، كما يقول المثل المغربي «شكون يقول للسبع فمك خانز»». فجأة خطابني بصوت أجش: «على كل إن مصير الانقلابيين في يدي الجنرال أوفقير، تدبروا أمركم معه فهو الذي يملك السلطة مؤقتا» وتدخل الكولونيل اليوسي قائلا: «اعتقد مون جنرال بأن الجنرال أوفقير سيلتقيه هذا المساء».

بعد ذلك وقفت سيارة «دي.إس/DS»، سوداء أسفل البناية ونزل منها حارسان بلباس أسود وتوجها نحوي، وضع الدركي العصابة على عيني وتولاني الحارسان وأركباني السيارة، وقفنا أمام باب منزل أوفقير، عبرنا حديقة معشوشبة وندية قلت في نفسي «لاشك أن الجو جميل هذا المساء» ويا له من احساس في تلك اللحظة التي كان فيها مصيري معلقا بخيط رهيف، طلبوا مني طأطأة رأسي ثم صعدت الادراج، واجلسوني على زربية وبدأ انتظاري الطويل الذي لم أسمع خلاله سوى همسات الدركيين وقعقعة أسلحتهم، والغريب الذي حدث لي ذلك المساء هو أنني لم اتجشم عناء التفكير في أسلحة الجنرال ولا في الأجوبة التي أهيؤها عادة، بل فكرت في أحداث تاريخية اختفى أثناءها الناس في ظروف غامضة، وسرعان ما بدأ جسمي يرتعش لفكرة سيطرت على ذهني سيطرة كاملة، لقد روي عن أوفقير أنه كان يعذب ضحاياه بنفسه وكان يمزق أجسادهم بالشفرات (الرازوار)، وقيل أيضا أنه كان يفقأ الأعين لأنه كان مصابا بداء في عينيه فكان يتلذذ بذلك، غير أن ما أفزعني أكثر فأكثر هي الفكرة التي عنت لي عنه ومفادها أنه خلال أحداث الريف الدموية قام بذبح أحد المتمردين اطلق النار على هيلي كوبتر ولي العهد آنذاك، كنت سارحا في أفكاري المؤلمة عندما تناهى الى سمعي الصوت الأجش للجنرال أوفقير مصحوبا باليوسي والدليمي وأرزاز. وظهر من خلال صوته أنه كان غاضبا وتوجه الى الدركيين بالقول: «انزعوا العصابة عن عينية وفكوا قيده، هنا بيتي وليست الكوميسارية»، رفعوا عني العصابة والقيد وأوقفوني. طلب مني الجنرال أوفقير أن اتبعه الى الصالون، كانت به أريكة سوداء ضخمة وأخرى صفراء، طلب الجنرال من مرافقيه أن يمكثوا في غرفة الانتظار لأنه أراد مقابلتي رأسا لرأس، دخل ودعاني للجلوس أمامه، كنت أواجه الخطر منتظرا انفجار غضبه في آية لحظة.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت الجنرال عن قرب. ولما دخل انتبهت الى مشيته وحيويتها محافظا بذلك على خصائصه السابقة كرجل حرب في الهند الصينية، كان طويل القامة، نحيفا، شعره أملس وأسود، وجهه وجه عقاب، ويضع نظارات سوداء تخفي عينيه الصغيرتين السوداوين مثل عين «كوبرا» وقد استطعت رؤيتهما بعد ان رفع النظارات ليمسح زجاجها بمنديل حريري، نظر إليّ مليا قبل حديثنا. ولاشك أنه كان يقرأ ما يجول في خاطري قبل الشروع في الحوار، تحدث بهدوء وترو: «يا بُنَيَّ ماذا فعلتم؟ عم كنتم تبحثون في الصخيرات؟ إن جلالة الملك ينتظر مني تقريرا مفصلا. فماذا سأقول؟ صراحة لقد وضعتموني في وضع حرج. وأنا الذي دافعت دائما عن الجيش لدى جلالة الملك، لقد سحبتم البساط من تحتي»، اجبته: «إن اعبابو، مون جنرال، هو الذي تآمر ولسنا نحن، لقد غرر بنا وقادنا معه»، قاطعني أوفقير: «لكن ليس إلى هذا الحد من البلادة. لقد تبعتموه مثل الخراف. كان عليكم أن تشغلوا دماغكم، فأنتم ضباط ولستم حميرا»، رددت عليه «لكن مون جنرال، لقد سألته عن الهدف من مهمتنا، لكنه أجابني بأنه كان يجهله هو أيضا»، صاح الجنرال «هذا ما يوضح بالفعل أنكم حمير، هل صادفت في حياتك قائدا لايعرف الهدف من المناورة على بعد 24 ساعة من الشروع فيها؟ الأمر واضح وضوح الشمس ويتعلق بانقلاب عسكري». «لكن مون جنرال هل تريد ان أجيبك بصراحة وبدون تحفظ؟»، «أنت في بيتي ولست في «الدوزيام بيرو» وقد دعوتك خصيصا لمعرفة الحقيقة، لاتخشى شيئا وأنا اعطيك كلمة شرف الضابط والصحراوي»، «لقد خضعنا طيلة 15 سنة لانضباط حديدي وقد نحتوا في اذهاننا الطاعة العمياء والخضوع كل لحظة دون سؤال أو رفض، اضف الى ذلك أن اعبابو كان منذ 1968 محميا من طرف الجنرال بن عمر والمذبوح، وكان يسمح لنفسه بخرق القانون ويسجن الضباط. لمدة 4 أشهر ويصفع ويحلق رأس الضباط، لقد عشنا كل هذه السنوات تحت سطوة اعبابو الرهيب، لقد كان يسرق الدولة دون مراقب أو حسيب ويسلب الناس دون تقريع»

الجنــــرال أوفقيــر
يســــتنطقنــي فـــي بيــته

قاطعني الجنرال أوفقير قائلا: «إنها الآن التاسعة ليلا وعشر دقائق، أريد منك أن تروي لي كل ما حدث من ألفه إلى يائه وأمامنا الليل كله وأريدك أن تحكي التفاصيل كلها لأن الأمر مهم للغاية، أخذ سيجارة من علبة (إل إم) مبتاعة من القاعدة الامريكية بالقنيطرة ووضعها أمامي وعرض علي التدخين، وهو الأمر الذي لم أستجب له وقتها لانعدام الرغبة.

هكذا بدأت روايتي الطويلة والجنرال ينصت إلي باهتمام وهو يدخن السيجارة تلو الأخرى. بدأت بوصف الحالة التي كانت سائدة في المدرسة مع المقارنة بين فترة الكولونيل الدمناتي والكولونيل البوزيدي وبين فترة امحمد اعبابو. «ما بين الدمناتي وامحمد ترامت صحاري أخلاقية كان الاول فاضلا والثاني بلا ضمير، أما الفرق بين البوزيدي واعبابو، فهو أن الاول كان يحترم القانون والثاني ينتهكه» حدثته أيضا عن مناورة الحاجب التي تمت في شهر ماي وكيف تم إلغاء الرحلة الى عين الشكاك في الساعة الثانية صباحا بواسطة مكالمة هاتفية من اعبابو. سألني الجنرال أوفقير: ألم يخالجكم أدنى شك حول تبديل البرنامج في آخر لحظة؟

- لا! مون جنرال، لأنه لم يلغ التمرين بل غير فقط المكان والتوقيت. مقابل ذلك هناك شيء معين أثار حيرتنا من مدة والأمر يتعلق بعدم مشاركة محمد في استعدادات« المناورة الكبرى للجيش» وبما أننا نعرف بأنه كان من ضمن استراتيجيي القوات المسلحة في مناورة «بير رام رام» في مراكش سنة *1968* فقد تساءلنا لماذا استغنت القيادة العامة عن قائدنا هذه المرة». وقد تبين فيما بعد بانه كان على خلاف مع الماجور العام.

سألني الجنرال: قبل قضية الصخيرات: من هم الذين كانوا يزورونه أجبته على الفور: «كانت شخصيات عديدة تزوره في بيته، لكننا لم نكن

نصادفهم لأن المدرسة تتوفر على ثلاثة أبواب: الباب الرئيسي المخصص لاعبابو وعائلته وضيوفه وعشيقاته الأربع (وهنا علق أوفقير ساخرا: كنت أعرف أنه زير نساء، لكن أن تكون له أربع عشيقات فذلك معناه أنه كازانوفا). أما الباب الثاني، فقد كان مخصصا للعسكريين والثالث مخصصا لأسر المتزوجين أو صديقات الطلبة الضباط. علق الجنرال من جديد:

- بخصوص هذه النقطة. أعتقد أن اعبابو كان أنانيا أقل من المعتاد!

واصلت حديثي قائلا: بالنسبة للذين كانوا يزورونه دون تورية فهم الجنرالات حمو، امهارش مصطفى، بوغرين والكولونيل اليوسي والليوتنان كولونيل أبارودي والليوتنان كولونيل خياري والكولونيل بوزيدي، وقد كان قائدنا يهيئ لهم في كل لقاء المشوي والويسكي والشيخات».

أزال الجنرال نظاراته من جديد ورأيت مرة أخرى عينيه اللامعتين رغم إصابتهما بالمرض، ورأيت فيهما شرارة قوية، استبد بي الخوف من جديد وأنا جالس أمام هذا «الغول» الذي أبدى الى حدود الآن طيبوبة ولباقة تجاهي، ومن المؤكد أن أكلة لحوم البشر كانت لهم نفس الصفات ومن المؤكد أيضا أنه نفذ بنظرات الكوبرا الى أعماقي وقرأ أفكاري لهذا قال لي: «لا تخف واحك لي كل شيء بتفصيل. لننتقل الآن الى استعدادات قضية الصخيرات (لم يكن يحبذ كلمة انقلاب»). فحكيت له بكل دقة كل مجريات الأمور بعناية أكبر، وكثيرا ما كان يقاطعني لطرح سؤال محدد أو يطلب مني إعادة نفس الجملة، وقد طلب مني مرارا أن أعيد على مسامعه «خطبة الجمعة مساء بقاعة الشرف وخطاب الجمعة في الساعة الواحدة ببوقنادل ثم طرح سؤالا محددا: قل لي يا بني (لم يخاطبني أبدا باسمي العائلي)، من ذكر في الخطابين اسم الملك أو ألمح الى النظام؟».

أجبته: «في قاعة الشرف تحدث عن مناورة بن سليمان والثقة المتبادلة بيننا وفي بوقنادل، تحدث عن عناصر مخربة في قصر الصخيرات وضرورة محاصرتها وإطلاق النار على الهاربين. وقد ألح على أن وحدات أخرى من الجيش ستتدخل بدورها وقد أنهى حديثه بالقول استعدوا للحرب، أنتم ضباط عليكم أن تفهموا... هذا كل ما في الأمر».

- هكذا إذن تبعتموه منقادين بدون محاولة الفهم.

- لقد علمونا أن ننفذ بدون فهم (وبما أن الجميع كان على علم بالصراع الخفي بين أوفقير وادريس بن عمر فقد استغللت الفرصة

وقلت) لاسيما منذ 1965 وقد سحقونا وحولونا الى معتوهين ومنصاعين. وأصبح الجيش ملكية خاصة للقائد وذاع صيت ادريس بن عمر وزادت شعبيته الى درجة أنه صار أسطورة. وفي الواقع لقد اشتهر اسمه حتى نسينا أن القائد العام للقوات المسلحة الملكية هو جلالة الملك». هز الجنرال رأسه وأطلق تنهيدة طويلة ثم قال لي:

- قل لي. ألم يشك أحد أثناء استعدادات 9 يوليوز».

- نعم مون جنرال - لقد قال لنا طبيب فرنسي يدعى «فورطاس» عندما رآنا نستعد، من خلال الاستعدادات يخال لي بأنكم تهيئون انقلابا عسكريا». وسألني أيضا ليوتنان مغربي عندما كنا نهيئ المؤونة، هل يمكن تصور مناورة بها تهييء بواسطة الذخيرة الحية ويقوم بها تلاميذ غير مجربين. أجبته بالنفي «باستثناء العمليات السريعة والسرية. لكن بعد خطاب قاعة الشرف، بعضنا طرح الاسئلة عن الهدف من المهمة. لكن الأمور ظلت غامضة ومضببة. في الواقع كنا نثق في قائدنا الذي كنا نعتبره ملكيا».

- وما بعد بوقنادل؟

- بعدها فهمنا بأن الأمر ليس مناورة واختلفت آراؤنا حسب فهم كل واحد منا.

- مثلا؟

- طيب مون جنرال. كان هناك من صدق هجوما مضادا للقضاء على العناصر الانقلابية وآخرون افترضوا بأنه انقلاب على مستوى الجيش برمته وأن المدرسة ماهي إلا جزء صغير.. ورغم كل ذلك ظل الشك سيد الموقف؟

- وأنت ماذا كان رأيك؟

وبما أنني كنت أنتظر هذا السؤال فقد أجبت على الفور: «منذ بوقنادل ودماغي يشتغل وتهت في أفكاري وضدها. لم أعد أميز الحق من الباطل وكنت كمن تحمله المياه المتدفقة أو يجذبه المغناطيس، لقد كنت أمشي بدون تفكير. وبعد أن وصلت الى عين المكان كنت أعرف بأنه القصر الملكي بالصخيرات، وقد كان اعبابو قد فرض علينا الأمر الواقع. لم يكن بوسعنا التراجع أو الهروب. فإذا ما مكثت الى جانبه فإن الحكم بالإعدام هو مصيري وإذا هربت سيكون الإعدام أيضا لو نجح اعبابو».

- حتى لما علمت بأنك في القصر ولست في مكان يحتله المخربون واصلت تنفيذ الأوامر؟

- نعم، مون جنرال، مادام أنه لم يكن هناك أمر مضاد.
- لكن المدعوين كانوا كلهم عزّلا؟
- استسمحك مون جنرال. لأن العديدين كانوا مسلحين، وقد جمع تلامذتنا الذين جردوهم ما يكفي لملء الجزء الخلفي للجيب «ويليس» وقد كانت هناك رشاشات كوبية ومسدسات من طراز 9 ملم.
وكان بعض المدنيين مسلحا الى جانب الحراس الخاصين لجلالة الملك والدرك الملكي المصاحب له عادة والشرطة والحرس الملكي وكتيبة المظليين الذين كان بحوزتهم PMMT 49 وبنادق ماس 36. وماس 49. وانا اتساءل لماذا ظل كل هؤلاء بلا حراك. كان عليهم جميعا الدفاع عن جلالة الملك وعن انفسهم، ولا أحد قام بواجبه خصوصا حراس القصر، فلماذا يتكالبون علينا لأننا نفذنا الأوامر؟».
انصت إلي الجنرال أوفقير وهو يهز رأسه بين الفينة والأخرى، وفجأة سألني: «قل لي يا بني هل كان قائدكم يحمل لائحة أسماء في يده؟ يبدو انه نادى على أسماء الأشخاص وقتلهم».
- لا مون جنرال هذا غلط وما يروى مختلق فقد كان اعبابو نفسه يتجول بين الصفوف ويقتل هو نفسه من يشاء أو يأمر المرؤوسين بفعل ذلك».
طلب مني أوفقير أن أروي له طريقة مقتل بعض الشخصيات فرويت له ما حدث للمذبوح والخياري وبولحيمص والغرباوي وبوجمعة. فطلب مني تفاصيل أكثر حول هذا الأخير (وهو الذي قتله الرايس - م) فاجبته بأن القضية كانت قضية موت أو حياة بالنسبة لي وحياتي رهينة بها ولم يكن أمامي خيار مع تهديد اعبابو ولو أني رفضت لقتلني وانا رفضت توقيع شهادة موتي بيدي.
طرح علي الجنرال سؤالا آخر قال فيه:
- «وباستثناء المذبوح واعبابو وشقيقه، من هم الجنرالات أو الضباط الذين لاحظت أنهم نشطوا في الصخيرات أو تعاطفوا مع الانقلابيين؟»
- في الصخيرات لم ألحظ شيئا - مون جنرال - لكن في الرباط التحق الكولونيل الشلواطي والكولونيل بوبري بالانقلابيين».
- هل كان معكم جنرالات؟
- نعم، لكنهم كانوا سجناء».
وقد حكيت له ما وقع بينهم وبين اعبابو وكيف ظلوا على رفضهم ولم يستسلموا لضغوط اعبابو إلا بعد دخوله الإذاعة.. كان الجنرال

على علم بأن بعض الضباط السامين تصرفوا تصرفات مشبوهة يوم 10 يوليوز، لكنه كان يبحث عمن تورط فعلا. سألني:

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- نعم، مون جنرال. وأنا واع بتصريحاتي وأتحمل مسؤوليتها وقد كنت شاهد عيان على ما أقول، بل إنه كلفني بحراستهم قبل أن يطلب مني مرافقته».

وسرعان ما سألني الجنرال أوفقير سؤالا لم يكن في الحسبان:

- لماذا أنت شاحب الوجه؟ تبدو متعبا.

- مون جنرال لم أذق الطعام منذ يوم الثلاثاء صباحا في الدوزيام بيرو، كانوا يعذبوننا دون إطعامنا أو سقينا».

ضغط على زر فدخل علينا رجل ضخم الجثة، أسمر البشرة يرتدي بذلة بيضاء فأمر أوفقير «امبارك جيب ليه قرعة ديال الما». شربتها في جرعة واحدة، ثم واصلنا الحديث عن الاستيلاء على القيادة العامة وعلى الهجوم على الإذاعة والداخلية، وألح على خطبة اعبابو في القيادة العامة ورددته مرات عادية على مسامعه ليتأكد أن قائدنا لم يلفظ كلمة «جمهورية»، نظر الجنرال الى ساعته ثم قال لي: «إنها الواحدة صباحا و35 دقيقة.. لنلخص منذ البداية في قاعة الشرف. قال بأنها قضية جنرالات وأن المناورة ستتم في بن سليمان. وفي بوقنادل حدد مهمتكم في محاصرة العناصر الانقلابية في منشآت الصخيرات وإطلاق النار على الفارين وفي المكتب الثالث (طروازيام بيرو) تحدث عن مجلس الثورة وفي القيادة العامة ألح الى الفساد والرشوة وإضاعة مستقبل الشعب والجيش على الخصوص دون أن يمس باسم جلالة الملك ودون الحديث عن الجمهورية. هذا ما في الأمر أليس كذلك؟» أجبته بالإيجاب فوقف وكرر على مسامعي ما قال في البداية: «ماذا سأقول غدا لجلالة الملك؟ لقد مرغتم شرفي في الوحل أنا دافعت دوما عن الجيش. طيب سأرى ما بوسعي عمله، لكن قبل أن أسمح لك بالانسحاب أريد أن أعرف بالضبط عمق تفكيرك والدافع الاساسي الذي دفعكم الى ارتكاب هذه المجزرة ربما أنكم لستم ضد جلالة الملك فضد من ترتم؟».

أجبته:

«فيما يتعلق بي مون جنرال، أنا يتيم منذ صغري، عشت في الفقر

والبؤس لهذا ثرت ضد الظلم الاجتماعي والمحسوبية، وعموما ثرنا ضد البرجوازيين الأنانيين والانتهازيين الذين يستغلون الفقراء وكل الضباط والتلامذة الضباط من عائلات فقيرة» لم يعلق أوفقير على اقوالي وفتح الباب بنفسه ودعا الكولونيلات الثلاثة الذين ظلوا ينتظرونه منذ التاسعة مساء وعشر دقائق.

توجه أوفقير بالحديث الى الكولونيل اليوسي بلهجة «صارمة» «ماذا فعلتم اسي اليوسي، لماذا جف ريق كل سجنائكم؟ لماذا تحرمونهم من الاكل والشراب لمدة 4 أيام؟.. أريد أن يتناول السجناء عشاءهم الآن، تدبر أمرك في ذلك؟ ثم التفت نحو الدليمي:» أحمد، ابتداء من الان سيتولي رجال الامن الاستنطاقات، تول الامر شخصيا وسأفصل في التعليمات فيما بعد؟»، في الاخير تحدث الى أرزاز بقوله: أطلب من رجالك أن يقتادوهم، أما أنت الرايس فمن المحتمل أن أراك فيما بعد».

بعد ذهاب الجنرال أوفقير، ثم تقييدي ووضع العصابة علي عيني ثم رحلت، ومن الواضح أن التعليمات قد صدرت قبل وصولي الى المكتب الثاني لهذا تم إيداعي بمكتب ولم أترك في الممر الوسخ والمثير للاشمئزاز.

أزال لاجودان زرو العصابة عن عيني وخلصني من كل الحبال التي كانت تلفني ثم وضع أمامي قطعة لحم (بيفتيك) وخبز وحبة برتقال وكوكا كولا قائلا: «كل مادام باقي الوقت تأكل»، نمت في هدوء بدون عصابة أو حبل إلى حدود الساعة التاسعة صباحا، وقدم لي الفطور مكونا من قهوة وحليب وخبز وزبدة ومربى، في منتصف النهار اقتادوني جميعا الى الادارة العامة للأمن الوطني، وقد مكثت هناك من يوم الجمعة 16 يوليوز الى يوم السبت 7 غشت، أخضع لتحقيقات طويلة لانهاية لها، غير أن التعليمات الخاصة بالاكل والنظافة فقد احترمت حرفيا هكذا تضمنت وجباتنا سندويتشات بالدجاج واللحم والسمك والكبد والكفتة، وناولونا كل صباح الشاي المنعنع و «الهلاليات بالشوكولاتة»، وكنا نستفيد من الدوش، مرة كل أسبوع وسيجارة بعد كل وجبة.

يوم السبت 17 يوليوز بدأ التحقيق القضائي قام به عمداء ممتازون، ويوم 18 يوليوز استدعيت الى المكتب «الاخضر» للإدارة حيث كان الدليمي في انتظاري صحبة (ثلاثة) أشخاص مهندمين بذوق راق، وفيما الدليمي يطرح علي الاسئلة، كان الضيوف الملغزون ينصتون

باهتمام، وقد عدت بعد بضعة أيام الي هذا المكتب «الاخضر» لسبب خاص، ذلك أن المرحوم مولاي عبد الله الذي جرح في الصخيرات جاء للتعرف على من اعتدى عليه من بيننا. وقد عرضونا على سموه واحد تلو الآخر بدون عصابات حتي يسهل عليه التعرف علينا، ولم يجد من بيننا من قام بالاعتداء.

قضينا الاسابيع الثلاثة في الادارة العامة ممددين أرضا والعصابات على الاعين والايادي مصفدة وكان حراسنا رجال الشرطة مسلحين برشاشات يتناوبون على رأس كل 8 ساعات. لم نشاهد وجوههم ابدا ولم نكن نعرف أسماءهم، لأن كل فريق كان يختار اسمه وينادي افراده بعضهم البعض باسم «الحاج» أو «خويا مايك». واللافت للنظر لدى هؤلاء الشرطة هو لهجتهم ولغتهم غير البذيئة علي عكس الدرك الملكي وعسكريينا ولعل مرد ذلك هو تعليمات أوفقير.

حل ذلك اليوم الذي كان علي أن أتوجه فيه الى التحقيق في أحد المكاتب الكئيبة التي سبقني إليها كثيرون لامحالة، ولما دخلت أحسست بأنني في مواجهة شخص يرمقني بشكل خاص. منذ مدة وأنا أعيش وآكل واستحم في الظلمة حتى أنني تعودت تفقد الاشياء ومعرفتها عبر السمع، أو كأنني أرى بأذني، وفي لحظة واحدة خلصني هذا الشخص منها وأعمت بصري أضواء مصباح قوي الانارة. أجلسوني أمام العميد الممتاز السيد غنيمي الذي عاجلني بابتسامة هادئة وطلب مني إن كنت أدخن. أجبته بالايجاب فأمر الشرطي المرافق له بإحضار علبتي «ل إم ـ I M».

كان الرجل المكلف بالتحقيق معي متوسط القامة، مكتنزا بوجه مستدير يخترقه جرح فظيع، وتشوه على مستوى الفك يمنعه من تهجي الحروف بوضوح وهو تشوه ناجم عن حادثة سير. وبرغم انه كان يتقن الفرنسية إتقانا فإن نبرة نطقه الامازيغية «لأنه وليد غرامة بالراشيدية» كانت تجبرني علي أن أشرئب بعنقي حتى أتبين كلامه.

عاد الشرطي وسلمه العلبتين، فأعطاني واحدة واحتفظ بالاخرى، وأمره بمغادرة المكان لينفرد بي، بادرني بالحديث قائلا: لندخن أولا قبل الشروع في الكلام، فأنت لست طريدة مهمة بل إنسانا ماكرا أيضا»، دخنا في صمت وهو يراقبني بإمعان فقط والابتسامة لاتغادر محياه، ذلك انه كان يعلم أنني فهمت مراده لأن بصري كان مشدودا الى ملفين ضخمين فوق مكتبه، أنهي سيجارته وسألني بنوع من اللامبالاة، أي

تعذيب تعرضت له من قبل الدرك الملكي في فاس حتى تتدعي بأن علال الفاسي وأحرضان كانا مورطين في الانقلاب؟».

أجبته: التعلاق و«الطيارة» وكانوا مستعدين لقنينة «جيدور» انفجر غنيمي ضاحكا، ثم أضاف: «هل خفت من جرح في المؤخرة؟

أظن أنك أمازيغي؟ من أي منطقة تنحدر؟

- أنا من أهرمومو أيها العميد.. هكذا بدأ حوار أكثر حميمية وطلاقة تحدثنا خلاله بالفرنسية والامازيغية. نظر إلي وسألني: ماهو التعذيب الذي مورس عليك من طرف إخوانك العسكريين حتى قلت بأن الجيش كله كان متورطا وأن بعض العناصر فقط هي التي تراجعت في الاخير».

- الفلقة والكهرباء.

- يبدو أنك التقيت بالجنرال أوفقير؟

- نعم مسيو الكوميسير.

- طيب أنا المكلف خصيصا من طرف الجنرال لاستنطاقك وتدوين شهادتك لنبدأ من البداية.

حكيت له مجريات الاحداث حسب تواليها الزمني وهو يسجل كل أقوالي حرفيا دون تعليق، كان يدون بكل دقة ويزن كل كلمة من كلماتي، أحيانا كان يطلب مني أن نتوقف وندخن قبل أن نواصل الحديث.

كان أحد الاسئلة يتناول وعينا السياسي إذ سألني:

- قل لي هل كان لك ولزملائك ضباط اهرمومو اهتمام بالسياسة؟

- قليلا

- هل كان من بينكم من كانت له ميولات شيوعية؟

- لا أيها العميد (وقد كذبت لوجود 5 منهم بيننا).

- لاشك أن واحدا منكم علي الاقل كانت له نزوعات اشتراكية؟

- عموما، أيها العميد، يولد الامازيغي اشتراكيا دون أن يقرأ الكتب أو النظريات وهو يرفض الاشتراكية الدكتاتورية التي تجبره علي الانصياع للقواعد الايديولوجية المفروضة من طرف الآخرين، وهو ليس اشتراكيا بالشحن الايديولوجي بل بإفعاله وعلاقاته الاجتماعية وروح الجماعة والتكافل وتعاليه علي البذخ والبهرجة والانانية ولهذا السبب اقول لك أيها العميد أنه لاعلاقة لنا بأي حزب اشتراكي أو شيوعي. أو رأسمالي».

انصت العميد دون أن ينبس بكلمة، ولاشك أنه كان يتأمل ما أقول ويحاول فهم معناه، وسألني:

- وعلي كل حال لقد قمت بانقلاب عسكري ولا اعتقد انكم قمتم بكل هذه المجزرة من اجل التسلية؟

- انقلاب؟ أيها العميد إنه قضية المتآمرين الاثنين ضد جلالة الملك» و تكرر الحديث عن البورجوازية والتبذير والمسؤولية الجماعية وعن دور الجنرالات الأربعة وما حصل مع الحاج ابا حنيني).

تحدث الي الغنيمي قائلا: «لقد عقد البرلمان جلسة طارئة لمناقشة وضع الانقلابيين وقد صوت بالاجماع على قرار بإعدامكم من طرف محكمة عسكرية. ومن حسن حظكم أن الحاج با احنيني وزير الدفاع عارض هذا القرار بشدة وقد كان لموقفه دور حاسم وستمثلون امام محكمة خاصة تنظر في قضيتكم حسب القوانين، ها انت ترى بأن الاستاذ باحنيني انسان يدافع عن العدالة واضعا الحق قبل احاسيسه الشخصية رغم انكم قتلتم شقيقه أحمد باحنيني الوزير الاول و اعتقلتموه هو شخصيا واهنتموه لساعات طوال». وافقته الرأي وافكر الآن في اشخاص أخرين مثل علال الفاسي الذي صوت ضدنا لأنه جرح او لانه كان مناهضا للنزعة العسكرية.

دام الاستنطاق ثلاثة أيام متتابعة لم أفكر فيها في مصيري أو مصير عائلتي. في الختام عاد غنيمي الي سؤال سابق «قل لي بما انه لم تكن لكم مبادئ للدفاع عنها، لماذا توجهتم الي الصخيرات؟ لقد كان لرؤسائكم حساباتهم الخاصة لكنكم ستدفعون الثمن».

- لقد ذهبنا الى الصخيرات لأننا أمرنا بذلك، فنحن جنود قبل كل شيء، تعلمنا الاذعان وتنفيذ الاوامر.

- لقد تفهمت ما فعله الطلبة الضباط، لكن انتم الضباط لستم مسيسين، فلا انتم شيوعيون ولا رأسماليون ولا تملكون أدنى فكرة عن الاشتراكية أو الماوية أو التيتاوية (تيتو) بل قمتم ب «الصخيراتية».. وهذا مصطلح ساضيفه الى قاموسي، وأدعك الآن لمواجهة قدرك الخاص».

قضيت في إدارة الامن أياما وليال طويلة أنتظر ما يفعله القدر بي الى أن حل يوم السبت 7 غشت 1971 فنقلت الي السجن المركزي بالقنيطرة، قضينا هناك شهرين في زنازن انفرادية. ذات ليلة زارنا الجنرال مولاي حفيظ العلوي زيارة مفاجئة كان الهدف منها رؤية المرتزقة السبعة الذين كنت أحدهم (الكولونيل محمد اعبابو، شلاط، الرايس - عقة - حيفي - مزيرك - عشور)، وكان الهدف من الزيارة هو

معرفة ما إذا كنا فعلا ذهبنا الى الصخيرات بنية القيام بانقلاب، ومعرفة قضية مذبوح ولماذا واصلنا تنفيذ الاوامر عن قصد وتصميم رغم المجزرة. ليلتها كان الجنرال رفقة العميد غنيمي وقد فوجئنا بالاهمية التي اكتستها قضيتنا، وقد قيل لنا في ما بعد ان مصيرنا قد تحدد تلك الليلة، لأن الجنرال مولاي حفيظ قد اتصل هاتفيا بالقصر الملكي من مكتب مدير السجن. وبعدها بيومين بدأ الحقيق القضائي.

وفي منتصف شهر شتنبر مثلت أمام الكونونيل رمضان بنعبادة المدعي العام للاستماع لأقوالي وقد كان صارم القسمات، نحيف الوجه، ضامر الوجنتين انفه انف نسر كاسر، عيناه تعلوهما نظارات سميكة تخفي نظرات حادة وقاسية، أما شفتاه الرقيقتان والجافتان فقد كانتا تصدران السهام القاتلة والكلمات السامة.

منذ الوهلة الاولى تبادلنا الكراهيـة ولم يحدث ان تفاهمنا في اي لحظة من اللحظات أو اتفقنا على نقطة من النقط، كان هو يتحدث عن القانون الجنائي ساردا الفصول تلو الاخرى وكنت من جهتي اتشبث واحاجج بالنظام العسكري لاسيما الفصل الخاص بالانضباط العام».

كان الفرق بيننا واضحا، فقد جاء من عالم القضاء قبل ان ينال رتبة ليوتنان لم يسبق له أن قاد وحدة أو أصدر الاوامر او احس بالمسؤولية الملقاة على عاتق القائد في الظروف الخطيرة.

بدأ أول مابدأ، بقراءة صك الاتهام في حقي تتخلله الفصول وارقامها التي توالت على مسامعي مثلما تتوالى مقصورات قطار يسير بسرعة امام عيني طفل مندهش، بعدما طرح علي السؤال المعتاد: ماهو قولك في المنسوب إليك؟ هل تعترف؟. أجبته على التو: «لا!» لأنني كنت اعلم ان ماهو معروض علي ليست تذكرة سفر للاصطياف بل حبل مشنقة.

- كيف لا؟ وانت متهم بالمشاركة في انقلاب عسكري والمس بامن الدولة ومحاولة اغتيال شخص جلالة الملك وعائلته وقتل ضابط ونشر الفوضى... ومع ذلك تنفي المنسوب إليك؟

اتشبث بالنفي لأنني جندي خاضع للانضباط العسكري ونظام صارم لايسمح بمناقشة الاوامر..

- اوقف هذا الهراء فانا أعرف ذلك، ولديك عندي شيء احسن هو الفصل (١) من العمل العسكري الذي ينص على ان «كل رجل عسكري مسؤول عن افعاله». في الجيش يلقنوننا القانون الجنائي للقضاء العسكري لأننا لا نتكون من أجل التخرج كقضاة بل كجنود يحاربون،

وسردت عليه بعض العقوبات الخاصة بالاخلال بالطاعة.
- ألا تدري بأن هناك الاوامر غير القانونية التي لايجب تنفيذها؟
- ما دام قائدي لم ينح من منصبه فإن أوامره مطاعة.
طرح علي بنعيادة عدة أسئلة خاصة بخطبتي اعبابو ومقتل القبطان بوجمعة وقد اجبته بخصوص هذه القضية، بما سبق وقلته عن التهديد والنهاية الحتمية في حالة الرفض.
وقعت على أقوالي وأودعت السجن من جديد، لكن ما فاجأنا هو مجيء 3 من عمداء الشرطة الي السجن بهدف طلب توقيعاتنا بخصوص وثيقة خاصة بخطبة اعبابو في بوقنادل لما عرضت علي الورقة بيضاء رفضت التوقيع، أحد العمداء طويل القامة اضخمها، نظر إلي نظرة شزراء وقال: نحن على عجلة من أمرنا، ستوقع الآن وسنرقن عليها أقوالك فيما بعد» فأجبته بلباقة «لايمكنني التوقيع على بياض»، فأجاب مهددا «ألا تثق فيها»، قلت «لا» استدار نحو زمليه وقد رفع قبضة يده قائلا: «باغي نخسَّر وجه هذا الخائن»، لكن أحدهما تدخل قائلا: «هون عليك من حقه ألا يوقع علي بياض»، التفت نحوي «يمكنك الانصراف ستوقع فيما بعد». وقد تبين في القادم من الايام أن أغلب ما صرحنا به بخصوص خطبتي اعبابو في بوقنادل قد طاله التغيير.
انتهى التحقيق في شهر أكتوبر وتم تعويض رجال الشرطة الحراس بحراس عسكريين يحرسون السجن عادة، أصبح النظام بدوره عاديا واعطيت الاوامر بالسماح لنا بالخروج مرتين الي الساحة، كان سجن قنيطرة يضم وقتها عسكريين محكومين ب 60 يوما كعقوبة، واخرين ينتظرون المثول أمام المحكمة العسكرية لاسباب مختلفة وانقلابيي الصخيرات وبعض الضباط السامين الذين أثار سلوكهم يوم 10 يوليوز 1971 الشبهات، وقد أخبرنا الحراس ذات جمعة انه قد أطلق سراحهم بعد الصلاة وبعد أن اعلنوا التوبة أمام جلالة الملك. في شهر رمضان طلب أوفقير رؤيته اعبابو محمد، شلاط بلكبير، غلول وبن دورو.. وقد أرسل الكومندان بوعزة مدير السجن من رافقهم الي منزل أوفقير، وفي اليوم الموالي أخبرنا زملاؤنا المعتقلون بما دار بينه وبينهم وصرحوا لنا بأن الجنرال قال لهم بأنه سيصدر عفوا عاما بعد المحاكمة ونعود الى مكاننا في القوات المسلحة الملكية. هذا النبأ أحيى الامل فينا وفرج كربتنا خصوصا وأن الجنرال أوفقير أصبح وزيرا للدفاع والماجور العام للقوات المسلحة الملكية.

المحاكمة

مع مطلع شهر يناير 1972 أخبرنا بافتتاح محاكمتنا وطلبوا منا إطلاع عائلاتنا للبحث عن محامين للدفاع عنا. وقد كنت محظوظا لان الأستاذ عبد الرحمان بنعمرو جاء بمحض ارادته للدفاع عني بالمجان ..

يوم 31 يناير في الساعة التاسعة صباحا بدأت محاكمة المشاركين في انقلاب الصخيرات بالقنيطرة من طرف محكمة العدل الخاصة برئاسة عبد النبي بوعشرين وعضوية كل من الجنرال الحاج عبد السلام والكولونيلين نعيمي والفاسي الفهري والليوتنان كولونيل بلميلودي. بعد قراءة صك الاتهام والتعرف على هوية المتهمين شرعت المحكمة في الاستماع الى المتهمين الذين تعاقبوا على قفص الاتهام للإجابة عن اسئلة رئيس المحكمة السيد بوعشرين. كان أول من مثل امامها هو الكولونيل محمد اعبابو، وقد نفى كل المنسوب إليه، وصرح بانه امضى الوقت كله في محاولة ثني أخيه امحمد واقناعه بالتخلي عن مشروعه الجهنمي. ونفى شلاط أيضا التهم الموجهة إليه، وصرح بانه لم يكن في مقدوره التنبؤ بما سيقع «لأنه ليس مَلاكا». اما القبطانان بلكبير وغلول فقد صرحا بانهما لجأ الى الفرار بمجرد اطلاعهما على حقيقة الأمور، فكان أن نعتهما المدعي العام بن عيادة بـ «الجبناء» لأنهما غادرا موقعهما وتنكرا لوظيفتهما كضباط. ومن جهته، صرح بندورو القبطان السابق في الدرك الملكي بانه لم يكتشف الحقيقة إلا بعد وصوله الى الرباط، ولما سأله رئيس المحكمة عن أول رد فعل له بعد اكتشاف الخدعة أجاب بسماحة لاتصدق «مشيت لأول محل وشربت كوكا كولا باردة»، فاهتزت القاعة ضحكا، لم يسلم منه حتى المدعي العام الصارم.

جاء دور افراد «المقدمة» التي سميت بـ «الفرقة الخاصة» لسبب غامض، تلاهم رؤساء الكومندوهات الخمسة والعشرون. وكل هؤلاء نفوا التهم الموجهة إليهم، وحمل ضباط الصف المسؤولية لضباطهم، في حين صرح التلامذة ضباط الصف بانهم مجرد منفذين. وجوابا عن احد أسئلة رئيس المحكمة متعلق بمعرفة ما إذا كانوا شاهدوا جثثا وموتى اجاب العديد من الطلبة الضباط بانهم رأوا «العود» ممددا على العشب، فما كان منه إلا ان أرغى وأزبد لهذا الجواب المتكرر وصاح: «باراك ما تكولوا العَوْد العَوْد، هل كان الضحية الوحيدة؟ كتكلموا على الحيوان وتنساوا بنادم»! قيل له بأن «العود» هو احد التلامذة الضباط

وليس «الحصان»، فافتر ثغره عن ابتسامة دالة على هذا الخلط وتبعته القاعة.

كما صرح مزيرك الذي كان يجهل القراءة والكتابة، بأنه سمع الحوار الذي دار بين المارشال مزيان والكولونيل اعبابو، وأنه - للأسف - لم يحتفظ سوى بكلمة واحدة من الحوار الذي دار بالفرنسية وأن هذه الكلمة هي «ساما جسطي» فانفجر الحاضرون ضاحكين.

تخللت المحاكمة كذلك لحظات حزن ومذلة لاسيما عندما اجهش بعض المتهمين بالبكاء. وقد كان أولهم الكولونيل محمد اعبابو الذي فعل ذلك طلبا للصفح والعفو، وهو ما أثر في بعض رفاقه وزملائه والمحامين ايضا. في الواحد والعشرين تقدم المدعي العام بمرافعته وطالب المحكمة بإنزال أقصى العقوبات، 26 حكما بالإعدام و 25 حكما بالمؤبد. وطوال مرافعته القاسية مارس دوره «كَغَرّاقْ» كما يسميه المغاربة. وتساءل في معرض اتهامه: «كيف يمكن اطلاق النار على مدنيين عزل؟ وهل تتم المناورات العسكرية في القصر؟ حتى ولو كانت هناك «عناصر مخربة مزعومة» هل يملك المتهمون الحق في اطلاق الرصاص كيف ما اتفق؟» لقد تساءلت مع نفسي وكأنني أحدث المدعي العام: «إن اتفاقيات جنيف تطبق على الجميع وأن الذين اطلقوا النار في الصخيرات مجرد منفذين مثل الذين اطلقوا النار على الطلبة في 1965. والحال أن المتهمين الرئيسيين كانوا غائبين، فهم كل من شارك في اجتماع بوقنادل واجتماع المكتب الثالث وكل الذين لم يحركوا ساكنا في الصخيرات، كما في القيادة العامة وفي الثكنات. ولعل الوحيد الذي ظل وفيا لمبادئه ولنفسه الضابط المخلص لوباريس عبد القادر الذي قاوم بكل كيانه رغم أنه كان أعزل.

ويبدو أنه كان مستعدا للشهادة لفائدة من اعتدى عليه. وقد لاحظت أن اسمه لم يرد حتى ضمن لائحة شهود الادعاء العام. من جهة أخرى، راجت أخبار كان مصدرها بعض المحامين، أن المحاكمة كانت ستتوقف في حال قبلت «الكتلة الوطنية» (الاستقلال، الاتحاد الوطني) مشروع تشكيل الحكومة ولما رفضت الكتلة استمرت المحاكمة.

جاء دور خرخاش الذي حول المحكمة الى قاعة عرض ضحكت منه المحكمة والدركيون والمتهمون وهم يسمعون الى شهادة هذا الجندي الذي شارك في الحرب العالمية الثانية والحرب الهند الصينية. بدأ حديثه بالقول إنه لم يدخل الجيش سوى من أجل «الحريرة والكاميلا»

وانهم علموه كيف يواجه مواجهة مباشرة في القتال ولم يلقونه البتة كيف يقيم انقلابا عسكريا. وصرح أيضا أنه اعتقد أن موقع المناورة كان محطة قطار اضرب عمالها قبل أن يتصور انه معمل لتصبير الطماطم لما رأى بقع الدم الحمراء. وأضاف أن كل «العناصر المخربة» بالنسبة اليه «حمراء/شيوعية» لهذا اعتقل أحد الآسيويين، وبعد أن واجهته المحكمة باتهامات وشهادات التلامذة الضباط أجاب باكيا بأنهم يتكالبون ضده لأنه كان قاسيا معهم في التداريب، وكان ينكل بهم بأمر من اعبابو. وجوابا عن سؤال موجه من المدعي العام قال بأن «اعبابو كان يرسلني لأجمع «الماتِرْيَالْ» ديا الدولة ونجيبو للمدرسة باش نبنيوا، لان كل شيء ديال الدولة واعبابو كيخدم الدولة»، واطلق خرخاش رصاصة الرحمة علينا بقوله «ماكونتش عارف اش فراس «لي زوفيسي» انا ما عارفش ...». تقدم المائة وعشرون محاميا حاضرين بمرافعاتهم، مستندين في دفاعهم إلى الانضباط العسكري وتنفيذ الأوامر، ولمحوا إلى الفساد والظلم الاجتماعي والأزمة السياسية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع. وأظن أن المحكمة فهمت بأن المقصود بهذه التلميحات هي محاكمة مراكش حول ماسمي بـ «المؤامرة» المخطط لها من طرف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية المعروفة بقضية «دمنات» مسقط رأس لفقيه البصري المنفي في فرنسا والمحكوم غيابيا بالإعدام بسبب القضية، ثم قضية الصخيرات نفسها وقضية الفساد وتحويل المال العام من طرف بعض الوزراء المقالين الذين حوكموا فيما بعد. بذل المحامون كل جهدهم لإنقاذنا، لكن الأحكام صدرت ضدنا مابين سنة سجنا نافذا والاعدام. لما استدعي الشهود، كان شهود وزارة الداخلية هم الاكثر تكالبا علينا، وقد ورطوا أكثر، كلا من حيفي واليقيظي اللذين أساءا معاملاتهم على حد قولهم.

استمرت المرافعات طوال ليلة الجمعة والى الساعة الرابعة صباحا قبل أن تستأنف في الساعة التاسعة من يوم السبت، قبل انتهاء المحامين وجهوا نداء الى المحكمة من أجل الفصل في المحاكمة بالعدل والانصاف، كما ألحوا أيضا على تبيان أن اتهامات المدعي العام لاتستند إلى دليل قوي.

ووصف الدفاع اعبابو بـ «نابليون اهرمومو» الذي افلح بواسطة دهائه المكيافيللي وقسوته الهرقلية، أن يفرض نفسه على تلامذته وتحويلهم ومن معهم من الضباط الى روبوات وكائنات الية، وبعد أن

اصبحوا أدوات في يده لم يتردد في استعمالهم بعد أن روضهم أيما ترويض. صرح الدفاع كذلك بأن مؤامرة تستند إلى 1300 مشارك على بال كان بإمكانها أن تنجح، لكن المشاركة غير الإرادية والطوعية لعناصرها هي التي أدت إلى فشلها. وأضاف المحامون أن مرتكبي الانقلاب وجرائم الصخيرات هم المذبوح وامحمد اعبابو والضباط السامون الذين لقوا مصيرهم.

لاشك أيها السادة المحامون أن المتآمرين الذين مسوا بمؤسسات الدولة قد لقوا حتفهم، لكني مازلت مقتنعا بأن اثنين منهما ما كانا ليلقيا نفس المصير، وهما الجنرال حبيبي الذي رفض أي أمر من اعبابو، والثاني هو الكومندان المانوزي الذي لم يحضر لا في بوقنادل ولا في الصخيرات ولا في القيادة العامة، بل كان في بيته، لاشك أن الكومندان كان حاضرا في اليوم الثاني بمنامته (بيجاما) في المكتب الثاني، لكن الحقيقة الواضحة للعيان لم اطلع عليها إلا بعد 21 سنة، أي بعد الافراج عني. وقد جاءتني على لسان زوجته مليكة التي حكت لي، وهي تنتحب عن تفاصيل يومه واستعماله الزمني قبل اعدامه يوم الثلاثاء 13 يوليوز 1971، حكت لي هذه السيدة الفاضلة بأن زوجها قضى زوال ذلك اليوم في قيلولة طويلة ثم ارتشف قهوته المعتادة، وأدى صلاته ثم ظل الى جانب زوجته الشابة. وفي المساء استحم قبل ذهابه الى النوم، كما هي عادته، غير أن طرقات قوية على الباب ايقظتهما في عز الليل، فوجئ المانوزي لإزعاجه في هذه الساعة المتأخرة من الليل بطريقة غير مألوفة، فتح الباب فوجد أمامه رجال الجيش مصحوبين بالدرك الملكي يطلبون منه مرافقتهم «لأنهم» يحتاجونه لأمر عاجل. أجابهم «طيب سارتدي ملابسي وأصحبكم» لكن المسؤول قاطعه: «لا أيها الكومندان لقد أمرونا بألا نفارقك قيد أنملة» احتج المانوزي: «اتريدونني أن أرافقكم وأنا بالمنامة؟» فكان رد مخاطبه: «كذلك الأمر!»، فاحتج المانوزي ثانية فخاطبه المسؤول بجفاء: «كومندان أنت في حالة اعتقال عليك أن تأتي معنا فنحن في عجالة من أمرنا».

ذهل الكومندان المانوزي لهذا الموقف، لكنه واسى زوجته وطمأنها بقوله: «لاشك أن خطأ ما قد وقع، سأذهب لأرى وأعود. اطمئني ليس في الأمر ما يدعو الى الخوف!» ولم يعد الكومندان أبدا.

أثار الدفاع أيضا قضية الشك وغياب الحجة والشكل المسطري، كلها عناصر تثبت انتفاء المسؤولية لدى المتهمين، ولما استدعي الكولونيل

محمد اعبابو الى المثول الأخير أمام المحكمة صرح مجددا بانه «اخي هو الذي ورطني في العملية، وأن مصيري ومصير ابنائي بين أيديكم». وكرر المتهمون جميعا تشبثهم ببراءتهم، وقد طالب بن عيادة كما اسلفنا بالإعدام في حق 26 متهما والحكم بالمؤبد في حق 25 آخرين، كما طالب بـ 20 عاما سجنا نافذا في حق 25 آخرين. وفصل قضية 3 متهمين يوجدون في المستشفى واسقاط المتابعة في حق 85 متهما، لانهم ساهموا في قلب مجرى الأمور في الصخيرات. أما بخصوص 917 تلميذا ضابطا والسائقين وضباط الصف السائقين أو الميكانيكيين، فإنه أحال قضيتهم على المحكمة للنظر فيها.

يوم الثلاثاء 29 فبراير 1972 في الساعة التاسعة والنصف ليلا صدر الحكم بحضور القضاة العسكريين والصحافة الوطنية والدولية. لما سمعت زوجتي خديجة الحكم الصادر ضدي أغمي عليها بعد أن صرخت بكل ما فيها من قوة: «لا، لا هذا ظلم، راجلي بريء ..» تم إخراجها من القاعة ونقلها الحراس وبعض الأصدقاء الى الخارج. وواصل رئيس المحكمة تلاوة الأحكام. في يوم الغد الأربعاء فاتح مارس في الساعة الخامسة مساء بسجن القنيطرة جاء الكولونيل رمضان بن عيادة وكيل جلالة الملك مصحوبا بالقبطان البقالي كاتب الضبط والعديد من المحامين وقرأ الأحكام التالية بالتفصيل:

- الإعدام: لاسبيران محمد الرايس، المؤبد: شلاط، عقة، عاشور - 20 سنة سجنا نافذا: الكولونيل اعبابو، حيفي، اليقيظي 15 سنة سجنا، لغلو، مزيرك 12 سنة، الكوري 10 سنوات، بندورو، منصت، بينبين، عماروش، أبو المعقول، ديك، اعبابو عبد العزيز، عبد الصادقي 4 سنوات، بلكبير، سعودي مجاهد 3 سنوات، شبيرق، صادقي بوتو، سنتان. 22 متهما من بينهم 9 ضباط صف و 13 ضابطا 18 شهرا، 19 ضباط، سنة سجنا، سوليوتنان العراقي ومرماش وعنتر علي.

انتهت المحاكمة إذن بـ 74 إدانة (شملت الفرقة الخاصة، الضباط وضباط الصف، نواب قادة الكوماندوهات، وتمت تبرئة التلامذة ضباط الصف السائقين) وقد استدعي التلامذة والسائقون من طرف بن عيادة وأعلن فيهم البراءة فهللوا في حين «عاش الملك»، فجأة انبرى شاب عمره 23 سنة قمحي البشرة، عيناه خضراوان وشعر متجعد اشقر، واخذ الكلمة بنبرة أمازيغية من ميدلت، وخاطب بن عيادة قائلا: «مون كولونيل، اسمح لي أنا لست سائقا، اعتقد أن هناك خطأ»، قطب بن

عيادة وسأله: «ما اسمك؟» فأجابه الشاب: «أنا السرجان أولعربي نائب القائد الكوماندو»، فحص الكولونيل لائحة الاسماء وتنهد: «لقد برأتك المحكمة حتى أنت»، هل هو خطأ قضائي؟ سهو؟ اهمال؟» كيف ما كان الحال لقد جاءت أم السرجان كشيش فيما بعد لزيارة ابنها وقد هدها اليأس والغضب وقالت له:«لقد بذلت كل ما في وسعي، واتصلت بمن هم فوق في كل الدوائر العليا، وقد اعطيت الأوامر أمام عيني، ولسوء الحظ أن أحد البلداء وضع ملف سرجان آخر مكان ملفك، والآن مستحيل القيام بأي شيء نظرا لأن الحكم صدر» .. هكذا انقذ السرجان أولعربي بمعجزة رغم أن كل زملائه أدينوا بـ 18 شهرا نافذا وسرحوا من القوات المسلحة الملكية. ويحضرنا هنا تفصيل لابد أنه كان ذا اهمية وقتها، إذ خلال المحاكمة استدعي السارجان أولعربي الى قفص الاتهام وسأله رئيس المحكمة: «فين المحامي ديالك»، فأجابه السرجان «أو» بما يشبه الثقة «الله وحدو هو المحامي ديالي».

غادر السرجان السجن في اليوم الموالي بتعيين جديد، كما قسم السائقون على وحدات أخرى مثلهم في ذلك مثل الـ 85 تلميذا ضابطا مكثوا في قصر الصخيرات. أما المتهمون الآخرون وعددهم 917 فلم يحالفهم نفس الحظ رغم أنهم برئوا فقد سرحوا من الجيش .. وبعد مرور 20 سنة على هذا التاريخ قدر لي أن التقي بتلميذين سابقين يعملان كحارسين في السجن المركزي بالقنيطرة وتلميذ ثالث يدعى عواد يقضي 15 سنة سجنا بسبب قتله لرئيسه، سعد لرؤيتي وحكى لي عما وقع بعد خروجنا من الصخيرات وحكى لي أيضا عن قصة الساعة المسروقة (...) وعن سبب قتله لرئيسه الذي يبدو أنه أهانه وضربه أمام زملائه فعمد إلى قتله برشاشة. بعد 4 أشهر من لقائنا تم اطلاق سراحه وقد هده الزمن ونالت منه دوائره وشاب شعر رأسه.

كنت اخر من دخل على المدعي العام في مكتب مدير السجن، لم أجد بن عيادة الذي حقق معي منذ 4 أشهر، ذلك المدعي العام الذي ينظر إليّ شزرا وهو يوجه إليَّ أصبع الاتهام أثناء مرافعته، بل وجدت شخصا عاديا، موظفا أنهى عمله وأتم واجبه، نظر إليَّ بما يشبه الأسف وحدثني بنبرة تكاد تكون أبوية: «الرايس، أنا أسف لأجلك، اعرف أنك أب لـ 6 أطفال، لكن أخطار المهنة لاترحم .. أظن أن الأستاذ بنعمرو قد أخبرك؟»، «وي مون كولونيل لقد أخبرني»، أحنى رأسه لهنيهة وسرحت شوارده ثم خاطبني: «الله كريم وقادر، كون عندك ثقة فالله وعليك

بالصبر، والأستاذ بنعمرو غادي يعمل الواجب في محكمة النقض».

عدت الى زنزانتي وأنا أفكر في الأشياء الرهيبة القادمة، قضيت الليل أحملق في الظلام. وقد جفاني النوم، طرحت على نفسي الأسئلة تلو الأخرى دون أن أجد جوابا يواسيني ويخفف عني. توالت أمام عيني المشاهد المرعبة: فرقة الإعدام، راعي البقر وقد علقه الشريف، جان دارك في المحرقة، كاريل شيمان في غرف الغاز. بذلت ما في وسعي لأطرد هذه الأفكار الشريرة والغامضة. عبثا كانت محاولاتي. في اليوم الموالي زارتنا العائلات التي لم نرها منذ 10 يوليوز 71، عمت أجواء الحزن والبكاء والأسى، لاسيما عند الأمهات، كانت تلك أول مرة أحس فيها بقيمة الحرية عندما تضيع بلا سبب وجيه. كان الإحساس بأننا مراقبون مراقبة شديدة، قابعون بين أربعة جدران قاسيا على نفسي، أنا الذي تعودت على المدى والفضاءات الشاسعة، ولزمني وقت طويل لأعتاد على حياتي الجديدة كمسافر الى الما وراء. أحسست فجأة أن الوجود يخونني. مرت الأيام متثاقلة وكنت أرفل في انتظاري .. لم يكن ينقصنا شيء، وكنا نحاول خلق الأمل بالعفو الملكي لاسيما مع وجود الجنرال أوفقير، وكانت زوجتي تبذل ما في وسعها لإنقاذي من المشنقة ..

المغفور له الحسن الثاني يستقبل زوجتي..

بعد الحكم علي - بذلت زوجتي كل مجهوداتها وأكثر لإنقاذي، فدقت جميع الأبواب بما فيها باب الأمير مولاي عبد الله وباب الجنرال أوفقير لعل وعسى.. ويامَا تم اعتقالها والتنكيل بها في الكوميساريات، وحدث ذات مرة أن شوهدت وهي تحوم حول القصر الملكي فاقتيدت إلى الإدارة العامة «لتاديبها»، ومن حسن حظها أن فاعل خير أخطر المرحوم مولاي عبد الله الذي هاتف العميد التدلاوي الذي أطلق سراحها. وبالرغم من كل ما حدث لم ينل منها اليأس أو يساورها التراجع. وحاولت عدة مرات الاتصال بجلالة الملك الراحل، واستحال عليها تحقيق هدفها نظرا لحراسة الشرطة والدرك الملكي والحرس الملكي الذين كانوا يمنعونها من الاقتراب من ملعب

الغولف. كانت زوجتي تقضي أياما بكاملها تحت الشمس الحارقة، لكنها كانت تعود دائما بخفي حنين. ذات يوم لاحظ أحد الحراس ترددها على المكان واقترب منها قائلا: «لقد لاحظت مجيئك يوميا إلى هنا ماذا تنتظرين؟»، فكان جوابها «أريد أن ألتقي بجلالة الملك، أريد منه أن يعفو عن زوجي لاسبيران الرايس المحكوم بالإعدام في قضية الصخيرات.

- من المستحيل أن تلتقي به لأن حراس الأمن سيمنعونك قبل الوصول إلى سيارته. لكن عندي وسيلة فعالة لمفاجأة الحرس والاقتراب من سيارة جلالة الملك التي يصعب التعرف عليها، ستعودين غدا لأنه اليوم الذي يمارس فيه جلالته رياضة الغولف، عندما تلاحظين بأنني رفعت قبعتي اعلمي وقتها بأنها سيارته، وقتها إجري نحوها بكل ما أوتيت من قوة واشهري رسالتك عاليا».

وحدد لها الحارس المجهول ساعة وصول السيارة ومكانها، أسدى لها بعض النصائح كي لا تثير انتباه الدرك الملكي ورجال الشرطة على طول الطريق، ثم عاد إلى مكانه المعتاد، عادت في اليوم الموعود في الساعة المتفق عليها وانتظرت طويلا وهي تذرع المكان ذهابا وإيابا وعينها على العسكري الحارس المرابض في أعلى إحدى الفيلات، تراءت السيارة وهي تقترب من بعيد ورفع العسكري قبعته فركضت خديجة بكل ما أوتيت من سرعة نحو السيارة، مفاجئة بذلك رجال الدرك الملكي بعد أن وصلت منتصف الطريق وأجبر السائق على التوقف، قفز حراس جلالة الملك من كل جهة وامسكوا بزوجتي التي صاحت بصوت عال «بغيت نشوف جلالة الملك».

اعطى جلالته الأمر بأن تقدم له بعد رياضة الغولف، فاقتيدت إلى إحدى الغرف وظلت هناك تنتظر إلى أن استقبلها المرحوم الحسن الثاني، عاتبها جلالته بداية الأمر على محاولتها الخطيرة ونصحها باللجوء إلى السلم الإداري للمطالبة بحقوقها، لأن أبوابه مفتوحة دائما، سألها بعد ذلك عن الهدف والموضوع من زيارتها، اجهشت خديجة بالبكاء طالبة العفو عنّي. كما علم جلالته بأن الأمر يتعلق بأحد المشاركين في انقلاب الصخيرات، قال لها: «اسمعي سيدتي على عكس ما تقولين، لم يكن زوجك بريئا هو واصدقاؤه. لقد نفذوا الأوامر، نعم، لكن كان عليهم أن ينفذوها في إطار القوانين الجاري بها العمل وليس تنفيذ أوامر غير شرعية لقائدهم الخائن. لقد قرأت التقارير ولم أجد لهم عذرا خصوصا بعد لقاء بوقنادل، وزوجك نفسه دخل القبة في القصر وتوجه إلى القيادة العامة ومبنى الإذاعة.

وعلى كل حال عودي إلى بيتك ودعي المسطرة القضائية تأخذ مجراها العادي وعندما تصل القضية بين يدي سأرى ما أفعل». أركبوها سيارة وظيفية وأوصلوها إلى البيت، بعض ضعاف النفوس والمنافقين الذين علموا بمغامرتها الشجاعة لاموها قائلين: «كان عليك أن تستغلي الفرصة وتطلبين مساعدة مالية أو «كريمة» لتربية أبنائك الستة تربية لائقة» فالعفو مسألة ثانوية. وإذا ما رفض العفو، فإنك سترتبحين ماديا لتلبية حاجياتك، لأن «البؤس يجعل الأمور أصعب»، وكان جواب خديجة: «لم يخطر ببالي ما تقولون، لأن الهدف هو نعْتق روح».

بعد مرور شهرين على هذه الحادثة عفا جلالة الملك الراحل على محمد أجّار المعروف بسعيد بونعيلات ومحمد بن موسى وأصدر أمره بتحويل حكم الإعدام الصادر في حقي إلى حكم بالمؤبد. قبل أن ينظر المجلس الأعلى في قضيتي، جاء الأستاذ عبد الرحمان بنعمرو ليُنبئاني بالخبر، وكما لاحظ أنني غير مبال للأمر سألني عن السبب فأجبته متسائلا: «ما هو الفرق بين أن أقبع حياتي كلها في السجن وأن أعدم على الفور» أجابني بقوله: «إنه الأمل، ومادامت هناك حياة هناك أمل» رددت على الفور:

«هذا متعلق بالمدة التي يتطلبها الأمل حتى يتحقق، وبالنسبة لي لا فرق بين العقوبتين».

- لا، الرايس: المحاكمات السياسية تختلف وعليك بالصبر، لأن الظرفية تلعب دورا كبيرا فيها، مساء ذلك اليوم نفسه أرسل مدير السجن الكومندان بوعزة (30 سنة خدمها في الجيش الفرنسي) أحد ضباط الصف المداومين لإخطاري بنبإ العفو عني. هذه الالتفاتة أثرت في عواطفي خصوصا وأنها لمدير سجن احتفظ بجانبه الإنساني رغم مهمته العقابية. لقد كان الكومندان بوعزة المنصوري الصديق الحميم للجنرال الكتاني - أول جنرال عربي وافريقي في الجيش الفرنسي المرقي سنة 1954 - ورغم أنه كان أميّا فقد كان بوعزة المنصوري صاحب أخلاق ومروءة وجدير برتبته. لقد كان شديد الولاء للملكية، لكنه التزم بحدود مهامه دون أن يُسيء معاملتنا أو يهيننا.

كان نظام السجن قاسيا، لكن موظفيه كانوا يغضون الطرف، وبذلك كنا نستفيد من تساهلهم. وخلافا للسجناء الآخرين كان بإمكاننا «خلسة» أن ندخن ونستمع للإذاعة ونقرأ الصحافة والتشمس طوال النهار عوض ساعتين. مع توالي الأيام والرتابة ألفنا وجودنا الجديد وإن كانت قساوة

العقوبة بالنسبة للبعض قد أثبطت العزائم لأن الحكم على زميل بنفس الرتبة ونفس الوظيفة بعقوبة مرتين أقل يجلب اليأس للسجين، وقد سنحت لي الفرصة الحضور لحوار دار بين سجينين برتبة ليوتنان، كانا قائدين للكوماندو ولم يقترفا جرما محددا أو يتهمهما شخص بذاته. فقد سأل الأول (م) زميله الثاني (ز): «صراحة أنا ما فاهم والو، كيفاش أنا وأنت ما تفرقناش ولو لحظة وحكموا عليك بعامين وأنا 5 سنين؟».

أجابه (ز) «أنت ما كونتش ذكي، أنا عرفت نتكلم على راسي أما أنت فدويت بلا ما تعرف اش تكَول، والحال أنه قدام المحكمة خاص بنادم يكون ذكي ويعرف يتكلم».

أحس (م) بجرح غائر يدميه ولكن «الصراحة كاتجرح».

وأتذكر الحديث الذي دار بيني وبين خرخاش. ذات يوم كنا ندخن في صمت ونحن جالسان في جانب مشمس من الساحة، فبادرني خرخاش بالسؤال: «أش كتْحس دابا بعدما مابقيتش محكوم بالإعدام ارْتحت شوية»؟.

- مرتاح؟ عوض ما نقضي حياتي كلها في السجن كنفضل «نطلع» الفوق وأنا متأكد بأن الفوق حسن من التحت».

فوجىء محدثي أول الأمر ثم أطرق مفكرا قبل أن يضيف:

في نظري يجب أن يستمتع الإنسان إلى أقصى حد من الحياة، لأنه لا حياة بعد الموت».

ذهلت لأقواله هاته فسألته.

- «هل تؤمن بالله؟

أجابني: طبعا.

- إذن أنت تؤمن باليوم الآخر والصراط المستقيم والجنة والنار؟

- لا أنا لا أؤمن بشيء من هذا، لأن أجسامنا تبقى في الأرض وأرواحنا أيضا، كل شيء يبقى في الأرض ولا شيء يصعد إلى السماء، لهذا فمن مصلحتنا أن نغتنم من الحياة.

هل تؤمن بالبعث؟

- لا، أنا أؤمن بالحياة وحدها.

- أنت كافر إذن!

الكفار هم الذين يسجنون الناس بدون وجه حق، سأعطيك مثالا واحدا على ذلك، ففي قضية «الأواس» OAS(المنظمة المسلحة السرية التي كونها عتاة الاستعماريين ضد الأحرار في الجزائر، وحدهم المسؤولون حوكموا

وادينوا، أما المرؤوسون، أبسط الجنود إلى القبطان فقد عوقبوا بالمشي 10 كلم فقط، وهذا كل ما في الأمر، والأمر مختلف عندنا، ففي وقت السلم نعاقب لعدم الانصياع وعندما يقع مشكل ما نعاقب على الانصياع».
وقلت له، مداعبا: «أنت عجوز راسك قاسحْ، كافر حقيقي ولا شك أن مصيرك هو جهنم وبئس المصير»، فخاطبني بقوله: «إذا كان الجحيم موجودا كما تقول فأنا أفضله على الظلم والجور، ومن جهتي أتمنى لك حياة مديدة وإفراجا قريبا، وأتمنى من الله أن ينجيك من إخواننا ، هنا وفي كل مكان».
لم أعر اهتماما لكلامه، لكنني أدركت مغزى دعوته في تازمامارت.
لقد كان من الحكمة أن يخبرني قبل رحيله بأن الحياة ليست دائما بالجمال الذي ينسب إليها، واليوم أقول له: «نعم، كنت على صواب يا خرخاش فالحياة قاسية جدا وقد قطعت صحراءها وتحملت جفافها بصعوبة يؤسف لها.
(...) حل يوم العاشر من يوليوز 1972 بعد سنة على أحداث الصخيرات، وقد زكى المجلس الأعلى الحكم الصادر ضدنا، يومها كنت وحيدا في زنزانتي أفكر في صمت في مشاهد تلك الأحداث التي توالت أمام عيني كشريط فيلم مطول (...) يوم 5 غشت 1972 غادر السوليوتنان «ع» السجن بعد أن قضى سنة سجنا، رغم أن هذا الضابط، رئيس كوماندو صرح بأنه أعطى أوامر لأحد رجاله يحمل سلاح إ ف إم FM 29/24 بتوجيه طلقاته نحو القصر، واعترف أيضا بأنه شارك في احتلال وزارة الداخلية والقيادة العامة ومبنى الإذاعة، بالرغم من كل هذا أدين بعقوبة صغيرة، أي أقل من السرجانات الذين حكموا بـ 18 شهرا. أمر غريب حقا يكشف أن «التسويات» لا تنعدم حتى في القضايا الحساسة مثل الصخيرات، وتفسير ما حدث أن رئيس المحكمة قد يكون صديقا حميما لوالد الضابط المذكور!
يوم 7 غشت جاء دور مرماش وعنتر لمغادرة السجن وجاء الكومندان بوعزة لمواساتنا وطمأنتنا بأننا سننال عفو الملك، إن عاجلا أو آجلا. ويكفي التحلي بالصبر، وقد علل قوله بأنه حسب النظام المعمول به كان يجب أن نرحل إلى سجن مدني، لكنه تلقى أوامر صارمة بالاحتفاظ بنا. وبدا لنا في ذلك واضحا ومعقولا فراودنا الأمل.. لكن المقدّر المكتوب لم يترك لنا الوقت للانتظار. ففي يوم الأربعاء 16 غشت 1972 حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال كنا جالسين في الساحة، بعضنا غارق في شجونه

اليومية والبعض الآخر منكب على لعب الورق، فريق ثالث يقرأ «بابيون» أو يتجول أو يلعب كرة القدم.

ولكن هناك فريق آخر جالس في الإدراج على طول الجدران، كنت واحدا من أفراده الذين يلقبون بالحالمين أو الكسالى، كنا نتأمل الحمام ينقر الحب أمام المطبخ، فجأة رأينا فوق رؤوسنا طائرة نقل «بوينغ 727» على علو منخفض، مائلة علي جانب واحد مثل طائر جريح فقد جناحه، والدخان الكثيف يتصاعد من أحد محركيها، بدا لنا أن الطائرة موشكة على السقوط بسبب ما خمناه من صعوبة لدى الربان. اعتقدنا أنها رحلة عادية ولم نكن نعرف أنها الطائرة الملكية وعلى متنها الملك الراحل والوفد المرافق له العائد من فرنسا، شاهدنا الطائرة متعجبين - وفهمنا أنها لن تصل إلى وجهتها.. وراقبناها بنوع من اللامبالاة دون أن ندرى أن مصيرنا مرهون بها. ونظر الانقلابيون السابقون، الذين كانوا قبل سنة من هذا التاريخ يدوسون الجثث ويطلقون النار على كل من هب ودب والغل يملأ صدورهم والشر يتطاير من أعينهم، نظروا إلى الطائرة وهم يتضرعون إلى الله أن ينجيها وينجي ركابها وأن يتم الهبوط في سلام وطمأنينة درءا للموت والدم والنحيب. لم يدر أحد منا ما كان يحدث ولم نطلع علي حقيقة الأمر - أي وقوع انقلاب أوفقير - إلا فيما بعد لما بثت الإذاعات الخبر وتداول الحراس مجريات العملية وجاءت العائلات يوم الخميس 17 يوليوز لزيارة السجناء، لكن الحقيقة لم نعرفها بالتفصيل إلا فيما بعد على لسان الطيارين المشاركين أنفسهم، ومفادها أن أوفقير بعد أن أصبح يملك كل السلطات بين يديه، اعتقل كل المشتبه فيهم وكل من له علاقة - من قريب أو بعيد - بالانقلاب، وأصبح أوفقير مثل «هيملر» ترتعد فرائص الجميع أمامه.

ذات مساء استدعى أوفقير الكولونيل أمقران محمد. قائد القاعدة الجوية لطائرات إف 5 القنيطرة (الثالثة بافرا 3)، طلب هذا الأخير لاجودان شاف «لمفضل» أن يتجه به إلى الرباط علي متن سيارته الخاصة، لأنه خمّن بأنه لن يعود قبل أيام، هذا إن عاد فعلا. بعد تحقيق جزافي أمر الجنرال باعتقاله مثل الآخرين. وبما أنه من أصل ريفي وصديق حميمي لاعبابو فمعنى ذلك أن أمره محسوم. بعد اعتقاله لعدة أيام في المقرات التأديبية لوحدة المدرعات، استدعي مجددا إلى مكتب أوفقير الذي أخبره بشهادات ضده تقول بمشاركته في انقلاب الصخيرات. نفى أمقران كل الاتهامات، في حين تشبث أوفقير بها وأكد له بأن أصدقاءه هم الذين

نسبوا له افكارا ثورية ومناهضة للملكية وبأنه على علاقة مشبوهة باعبابو. امام النفي المتكرر لأمقران رفع أوفقير السماعة واتصل برقم هاتفي وطلب من أمقران أن يأخذ السماعة الثانية حتى يتسنى له الاستماع إلى الحديث. طلب أسماء معينة وأمرها بتكرار اقوالها، فقام الضباط الثلاثة باتهام زميلهم :وبعد المكالمة الهاتفية التفت أوفقير نحو امقران قائلا: «مون شير أمي تي كوي Mon cher ami t'es cuit، فهذه التصريحات. وفي هذا الوقت بالذات تجعلك «صالحا» للمشنقة، وبما ان السلطات كلها في يدي فسأمنحك فرصة لا تعوض، اعتبر نفسك تحت المراقبة، والآن عد إلى عملك كما لو أن شيئا لم يقع، «حظ سعيد»، وبهذه الطريقة وضعه «في جيبه» وجعله طوع بنانه لأنه مدين له وسيدفع الثمن غاليا مقابل وفائه»، بعد أن أصبح أوفقير وزير الدفاع والماجور العام بدا يزور باستمرار القاعدة الجوية بالقنيطرة، بل حدث أن تناول غذاءه في مطعم الضباط الربابنة وباذلهم الحديث والممازحات، واستغل لاسبيران ميداوي هذه الأجواء وطلب تسوية مشكلة التأخر في ترقيته، وفي الحال طلب منه أوفقير وضع نياشين السوليوتنان!

بعد ان توثقت عرى الصداقة بينهما وتبادلا الثقة وعرف اوفقير عمق تفكير امقران عرض عليه المشروع الخاص بالانقلاب، في البداية اعتقد الطياران أوفقير يمزح أو أنه ينصب له فخا وتذكر وضعه تحت المراقبة، ألح أوفقير على العملية وكشف له «بعض الأسرار»، ظل أمقران حذرا لأنه يخشى مآل الأمور مع صاحب عيني «الكوبرا»، لكن أوفقير أمره بتهييء خطة دقيقة وعرضها عليه، ما سماه بالانقلاب «التقني والعصري» عوض «الفانطازيا التي قام بها الجنود في الصخيرات.

فهيا عملية «أوفر فلاو» القاضية بإحداث عطب تقني في ساعة محددة في موقع محدد لإجبار الطائرة المروحية التي تقل الملك الراحل في رحلته الأسبوعية على الهبوط الاضطراري ويجد في استقبالها كوماندو خاصا، تم اختيار المكان وسط غابة كثيفة، وتم الاتفاق على أن يكون اختيار التقني الذي يجيد المؤامرة اختيارا دقيقا، أما سائق المروحية الملكية الكومندان العلمي المعروف بـ «الشريف» فقد كان غير وارد لما عرف عنه من إخلاص ووفاء للعرش العلوي، وحدث ما لم يكن في الحسبان، إذ وقع أمقران ضحية مرض خطير استلزم إجراء عملية جراحية مستعجلة. فأمر جلالة الملك بنقله إلى باريس. وفي فرنسا قد يكون اتصل به بعض مساعدي معارض مغربي عرضوا عليه الانقلاب وإقامة جمهورية ديمقراطية شعبية! وزاره هؤلاء

المجهولون مرة ثانية فوعدهم بالمشاركة. بعد عودته إلى المغرب عين نائبا للكولونيل اليوسي القائد العام لقوات الطيران حتى يصبح بإمكانه اتخاذ بعض القرارات في المستقبل، كما عين على رأس القاعدة الجوية الكومندان كويرة النائب السابق لأمقران. وبهذا أتم أوفقير خطته بإحكام.

لكن الحياة قد تخبّئ لمن يعتبر الناس «حميرا» ما لا يخطر على باله، وقد اعتبر أوفقير «أمقران» حمارا، بدأ هذا الأخير يشك وجالت الأسئلة في رأسه متواترة: ماذا يريد أوفقير؟ لماذا الجيش والمدنيين؟ بعد تفكير، اعتقد امقران بأنه مجرد أداة بسيطة وسط رقعة واسعة ولعبة غامضة، وربما مجرد شيء سيتم التخلص منه بعد استعماله. وعلى كل كان أمقران يتعلل كل مرة بتعلة ما لإرجاء العملية وكان أوفقير يفقد صبره.. كان أمقران يعلم أن أوفقير هو الشيطان بعينه وقرر مع ذلك الذهاب إلى النهاية (وحدث ما سبق ونشرناه في سلسلة أوفقير : العائلة والدم).

بعد أسبوع على العملية راجت أخبار في السجن المركزي بالقنيطرة مفادها بأن معتقلي قضية الصخيرات سيرحلون إلى سجن سري عبارة عن «فيلا صغيرة تسمى تازمامارت».

ثم اعقبتها شائعات أخرى تحدد المرحلين في المعتقلين المدانيين ب 3 سنوات فما فوق، أما الباقي فسيرحل الى سجن مدني حتي يخلو المكان للطيارين المعتقلين في القنيطرة قبل المحاكمة. يوم 31 غشت نقلنا الى السجن المركزي بالقنيطرة وأودعنا جميعا في الحي المنفرد، وكلفت فرقة التدخل السريع بفاس بمراقبتنا وحراستنا قبل أن تعوضها فرقة وجدة، ثم مكناس الخ. وجدنا صعوبة كبيرة في التأقلم مع وضعنا الجديد، لأننا عزلنا عن كل المعتقلين الآخرين، سواء كانوا معتقلين سياسيين أو معتقلي الحق العام، ورغم بعض الصعوبات في التفاهم والتواصل مع الحراس والإدارة فقد انتزعنا بعض المطالب من قبيل البقاء طوال النهار في الساحة، ارتداء اللباس الشخصي - زيارات طولة - فحص طبي منتظم - الابقاء على النور طول منتصف الليل ..الخ.

وفي الواقع كان السجن المركزي سجنا قانونيا يتمتع فيه المعتقلون بالحق في الاستحمام والبريد والمطعم والمكتبة.

بعيد الألعاب الأولمبية بميونيخ 72 بدأت محاكمة الوزراء المتهمين بالفساد. كنا نتابع المداولات يوميا عبر الصحف. وكان من المهين فعلا قراءة تلك التصريحات والأكاذيب من طرف أناس راكموا الثروات والمسؤوليات سنين طويلة.. تم إصدار الحكم وأدين الوزراء السبعة بأحكام تتراوح بين 4

و 12 سنة سجنا نافذا وأودعوا في سجن سلا تحت نظام خاص.
وقد جاء أحد الأقرباء لزيارتي، وقال لي : «اعذرني لم آت لزيارتك في الصباح، لأنني زرت رؤسائي السابقين الطاهري (وزير المالية) والشرقاوي (موظف سام في المياه والغابات) وقد جالستهما معا وقضينا وقتا ممتعا، وقد سخر الوزير السابق من زميله قائلا: «إنك تقضي عقوبة سجنية سدى لأن السجن من أجل بعض الدريهمات مسألة حقيرة.. ولاشك أنني سأغادر المعتقل قبلك. وأنا على الأقل أعرف لماذا أنا هنا». والدريهمات التي يتحدث عنها الوزير تصل إلى عدة ملايين مختلسة من المال العام.

كيف عشت تفاصيل إعدام أمقران وكويرة والآخرين

مرت محاكمة الوزراء المرتشين في صمت ودون اهتمام لتزامنها مع المحاكمة العسكرية الثانية أو قضية الطائرة الملكية (انقلاب أوفقير في 16 غشت 1972)، وقد جرت أطوارها في نفس القاعدة ونفس الديكور الذي جرت فيه محاكمتنا، وتولاها نفس القاضي بوعشرين والمدعي العام بنعيادة، ولم يتغير سوى أعضاء المحكمة، وأحيل الجنرال عبد السلام المعروف بلقب نيكرا والكولونيلات الثلاثة على المعاش سابق لأوانه، نظرا لنفوذ وتأثير أوفقير عليهم إبان محاكمتنا، الشيء الذي نجم عنه حكم مخفف، وتم تعويضهم بالجنرال بلعربي والكولونيل سباعي والدليمي وبن الشيخ والكولونيل سكيرج (الطيران).
عند الشروع في المحاكمة احتج المحامون وقدموا لرئاسة المحكمة بيانا ضد حضور الكولونيل الدليمي، لأنه شارك في الاستنطاق وعذب شخصيا الليوتنان الزيادي وهو يصرخ: «أنت أرعبت أبنائي وسأرد لك الصباع صاعين»، أي أنه مارس قانون العين بالعين قبل أن يصبح بعد

سنة من ذلك التاريخ أحد صناع الموت في معتقل تازمامارت. رفض طلب الدفاع واحتفظ الدليمي بموقعه الذي خلق من خلاله عدة مشاحنات مع الدفاع وصلت إلى حد نعت أحد المحامين بالحمار، لأنه لم يقل جلالة الملك. مثل أمقران وكويرة في قفص الاتهام واعترفا بالمنسوب إليهما وأوضحا وجهة نظرهما في الوضعية السائدة في البلاد وأفكارهما المناهضة للنظام، وسرد أمقران كل ما يتعلق به وبلقاءاته المفترضة مع مبعوث لفقيه البصري أثناء تواجده في المستشفى وما قاله أوفقير بخصوص «المصالحة» مع المعارضة، بل تحدث عن لائحة مزعومة لمجلس الثورة سلمها المبعوث ووافق عليها الجنرال الخائن أوفقير، وأن اللائحة تضم كلا من الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد، والجنرال الصفريوي عبد السلام (قائد الدرك الملكي) والليوتنان كولونيل بوخارطة (صهر أوفقير) والكولونيل أحمد الدليمي ولفقيه البصري وأمقران وكويرة وأوفقير بطبيعة الحال. وقد استدعت المحكمة الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد والجنرال الصفريوي اللذين نفيا علمهما بهذه اللائحة واعترف الليوتنان زياد بما نسب إليه، في حين صرح الآخرون بأنهم نفذوا الأوامر دون علم. وتكرر المشهد الذي شهدته نفس القاعة قبل عشرة أشهر من تاريخ المحاكمة الثانية، أي قراءة صك الاتهام واستجواب المتهمين ومرافعة المدعي العام بنعيادة ومرافعة الدفاع والاستماع الى الشهود والمداولات، قبل النطق بالحكم التالي: 11 حكما بالإعدام (6 ضباط و 5 ضباط صف) و 20 سنة سجنا نافذا في حق 3 طيارين هم القبطان حساد صلاح لأنه اعترض الطائرة دون معرفة الهدف - لا جودان شاف ماغوتي مفضل لأنه قام باستعراض التحية فوق مطار الرباط- سلا والسرجان موهاج لأنه صور كل ما مر بالمطار وأدين ضابطان تقنيان بعشرين سنة سجنا نظرا لما قاما به من نشاطات مشبوهة طوال ذلك اليوم (16 غشت 72) وهما الليوتنان زموري محمد والليوتنان الطويل مبارك. أما القبطان وافي امحمد، المدير السابق للعتاد التقني بالقاعدة وضابط الأمن بها فقد كان قد نقل الى قاعدة مكناس عمدا من طرف أمقران الذي أراد إبعاده 15 يوما قبل العملية. وجاء يوم الانقلاب من اجل الرحيل فظل بجوار أمقران الى حين اعتقاله، وأدين في المحاكمة ب 10 سنوات سجنا بتهمة إهمال مهمته كضابط استخبارات حيال المكتب الثاني وحكم على المراقبين رشيد لامين ودغوغي ادريس ب 5 سنوات سجنا لكل منهما بسبب بعض الكلمات المشينة المسجلة في العلبة

السوداء. وأخيرا حكم علي كل «البنادق الذكية» (أسلحة) ب 3 سنوات سجنا في خريف 1972 لكنهم ظلوا الى جانبي بتازمامارت الى يوم 15 شتنبر 19، بعضهم مات موتا أليما، علما بأن أمقران وكويرة حاولا عبثا أن يبرئوا كل مرؤوسهم، لكن الدليمي ورفاقه اختاروا القسوة خلال المحاكمة، علما بأن المرحوم الحسن الثاني كان قد خاطب أمقران (بعد الانقلاب): «أيوا حتي أنتا أمقران؟ فأجابه أمقران: للأسف حتى أنا، ولكن ليس المرؤوسين».

نطق بالحكم ليلة عيد الفطر، ونقلوا على إثرها مباشرة الى السجن المركزي تحت حراسة الدرك الملكي. أودع الربابنة في حي المحكومين بالاعدام (حي باء حاليا) وما أثار فضولنا وقتها هو النظام الخاص الذي خضعوا له حيث كانوا محرومين من الزيارات العائلية ومن البريد، معزولين عن العالم الخارجي.

شهدت نهاية سنة 72 عدة أحداث سياسية، فقد عرفت مفاوضات شتى بين الاحزاب السياسية لتشكيل حكومة ائتلافية يرأسها أحمد عصمان، لكنها انتهت بالفشل الذريع. ويوم الجمعة 12 يناير 1973 اقتيد أمقران وكويرة الى الرباط فجرا واستقبلهما الملك الراحل، وقد تمت المحادثات سريا ولم يعلم أي أحد بما دار فيها وإن راجت شائعات تقول إن هذا اللقاء سيكلل بعفو ملكي في حقهما، هيهات! بعد أن انتظرنا عودتهما على أحر من الجمر والأمل يراودنا، بأن كل واحد منهما اودع بعد عودته في زنزانة انفرادية يقف أمام بابها دركيان. وكنا نعلم أن أمقران يخضع، بسبب حالته الصحية المتدهورة، إلى مراقبة دائمة ونظام غذائي خاص، كان العاهل الراحل نفسه قد أمر به. مساء ذلك اليوم طلب منه أن يحدد نوع الأكل الذي يريد، لكنه رفض متعللا بانعدام الشهية. وهو لم يكن في الواقع في حاجة إلى ذلك. ففي ذلك السبت 13 يناير 1973، في الساعة الثالثة صباحا كان الجميع، نائما باستثناء المخزن، الذي لا يغمض له جفن. وفي ذلك الصمت الليلي الذي يزيد من كآبة الجو الرهيب في السجن المركزي، والبرد الشتوي الذي يحتم على المرء الالتفاف حول نفسه واستملاء الدفء تحت الغطاء، رنت خطوات ثقيلة في البهو، تلاها الصرير المعدني للأقفال ثم الأبواب وهي تفتح بتؤدة، استيقظ ذوو السمع الرهيف على حين غرة وتلصصوا من ثقب الباب على مايحدث في البهو. كان خلق كثير غير الحراس والدرك ورجال الأمن ومدير السجن، ونائبه بلحسن وضابط الأمن الحارثي

و الليـوتنان فـضـول المرعب والمسـؤول عن الأمن، كـان أناس غـربـاء عن السجن حـاضرين لوداع من سيعدمون. مر المدعي العام بنعيادة على كل زنزانة لإخبـار المعنيين بالنبأ المشؤوم، ثم أخرجـوا إلى البهو للتحـدث مع مـحـامـيـهم وتوديـعـهم، أمـهلوهم الوقت الكافي ليـتـوضـأوا ويصلوا الصلاة الأخيـرة، وشرعـوا بعدها في الـتـرتيـبـات الادارية والقـضائية المعتـادة وتسجيل طلبـاتهم الأخيرة، وكـانت في الواقع طلبا واحـد يتعلق بتسليم جثمانهم إلى ذويهم، وتفرد الليوتنان الميداوي بطلب خاص عبر عنه للحـاضرين ألا وهو ترك ثلث منزله لخـادمـته اليـتيمة الصـغيـرة ذات الاثني عشر ربيعا.

مع مطلع الفجر اقتـيدوا إلى سـاحـة الاعدام حيث كانت فرقة التنفيذ في انتظارهـم. وقد حـضـر هذا المشـهـد الرهيب الـعـديد من الشـخـصـيـات منهم رئـيس المحكمـة بوعشرين، وحـسني بن سليـمـان (عـامل القنيطرة انذاك) وقائد الدرك الملكي الكولونيل الشرقاوي وكومندان اللواء الـخفيف للامن (B.L.S)، كما حضرإمام ونقيب المحـامين والمحامون المعنيون بالملف وشـخـصـيات قريبة من المخزن.

أجريت القرعة لاختـيـار أول المعدومين، ومن يليه أمام فرقة الموت فكان أولـهم الليـوتنان الميـداوي. ويـاله من مـشـهـد بئـيس ومـحـزن، مـشـهـد الانسان المشدود الى قائمة الاعدام ينتظر الموت.

رفض أغلب المحكومين وضـع عـصـابـة على عـيـونـهـم لأنـهم أرادوا أن يروا الموت بأم أعينهم، كـان الجنرال حـسني بن سليمان يدير رأسه قبل كل اطلاق رصـــاص حــتـي لايشـــاهد ذلك المنظر الفظيع، لان هـؤلاء الاشـخـاص الذين كـانـوا يقتلون الواحـد تلو الآخـر كـانوا من أصدقائه. وفي اللحظة التي شد وثاق امقران استـدار وأشاح بوجـهه وبكى، وفعل نفس الشـيء مع كويرة صديقه. فـهـمـا كـانا دائمـا مـعـا وكـانت القـاعـدة الجـوية أحـد أمـاكنه المفـضلة. كـان الكولـونيل الشرقـاوي هـو الذي أنـهي العـمليـة رغـمـا عنه. ويـتـضـح أنه كـان ينفـذهـا علي مـضـض من خـلال صراخه في الاخير. «هذا ظلم، الله يسمح لينا».

هكذا، بعد يوم الـثـلاثـاء 13 يولـيـوز 71 الذي شـهـد إعـدام مـتـهـمي الصخيرات، كان يوم السبت 13 ينـاير 1973 يوم إعدام 11 اطيارا متهمين بقـضـيـة يوليـوز 72. لاشك أنه كـان من بينهـم من تواطأ وتـآمـر ويمكن القـول بخـصـوص مـا يقـال عـادة «هاهم لقد لـعـبـوا وخـسـروا»، لكنني تسـاءلت دائمـا ومـازلت أتسـاءل هل الجنرال حـمـو امـحـزون الذي رفض

امامي التواطؤ مع اعبابو

هل يستحق فعلا هذا الحكم، والحال أنه ظل يصرخ، عاش الملك الى حين وفاته، وهل يستحق الكومندان المانوزي ابراهيم الذي اعتقل وهو في لباس النوم وانتزع من سريره في عز الليل، هذا المصير؟ فالكومندان المانوزي كان سليل عائلة بربرية عريقة من الجنوب كان أغلب أفرادها من المعارضة، بعضهم اعتقل بتهمة التآمر، كان المانوزي ابراهيم أحد القادة الكبار من قياديي جيش التحرير، عرفت عنه أفكاره الناصرية وتكوينه العروبي، لكن هذا ليس سببا لكي يعتقله أوفقير ليلتها ويصدر فيه حكم الإعدام.

شخصيا أحمل المسؤولية المباشرة لأوفقير لأنه ضحى بكائنات بشرية من أجل الحصول على الثقة وتهييء الميدان في المستقبل لتوريط آخرين في هذه القضية القذرة، وأحمل المسؤولية غير المباشرة للجنرال ادريس بن عمر الذي حولنا الى أرواح مستعبدة وخنوعة مثل الآلات، وزرع فينا الخوف الذي انتزع منا شخصيتنا وحط من كرامتنا، هذه الأسطورة التي أفزعت الجيش كله من 1956 الي 1969 بما عرف عنه من قسوة، كرس في أرواحنا الجبن والضعة.

فيما يخص أوفقير أقول (الله على راحة) لأنه ظل لسنوات طوال «يغستابو» المغرب.

مع نهاية شهر يناير 73 أفرج عن رفاقنا المحكومين ب 18 شهرا سجنا، فنظمنا حفلة صغيرة لتوديعهم، فساد البكاء والحزن لأننا كنا نعرف أنه الفراق الأخير، في الثالث من مارس 73 كان يوم عيد العرش ويوم اندلاع اضطرابات في المغرب، وعمت القلاقل كل أنحاء المغرب بسبب الهجوم المفاجئ الذي قام به كوماندو تلقي تداريبه في سوريا، على ثكنة للقوات المساعدة بمولاي بوعزة وتم وضع قنابل في الأماكن العامة وكان رد السلطات هو القمع الشرس والوحشي لإخماد الغضب الشعبي، فامتلأ السجن عن آخره، وتم إيداع كل الشخصيات المعتقلة (أطباء ، محامون، سياسيون ...) في حي مجاور لحينا، وتضاعفت الحراسة وحلقت المروحيات باستمرار. واتخذت كل الاحتياطات درءا لكل الاجتماعات، إذ يبدو أن شخصا يدعى بن صالح، أحد كبار المعارضة التونسية قد فر من السجن بتواطؤ مع مدير السجن وبعض الحراس المتعاطفين معه.

تكررت عمليات التفتيش وزاد الحرص في الحراسة، والحال أننا في

المركزي بدأنا نفهم بعض الأمور كنا نجهلها في السابق، وشيئا فشيئا ازداد وعينا، ففي هذا السجن، حيث كان كل شيء ممنوعا، كنا نستمع الى كل محطات الاذاعة تقريبا ونقرأ المجلات والصحف الممنوعة لمعرفة الحقيقة التي طالما حجبوها عنا.

في السجن المركزي بدأنا نفهم الحقائق التي طالما خبأوها عنا، ولولا هذا الاعتقال لبقيت «حمارا» بأذنين طويلتين. في السجن المركزي وأنا أقضي الحكم المؤبد كنت أحس أنني أكثر حرية من السابق، لأنه إذا كان جسدي معتقلا فإن روحي لم تكن كذلك. لم أعد ذلك القن الذي ينفذ بدون تفكير، بل أمسيت ذلك المتمرد الحرون الثائر على خسة القادة، وهناك بدأت أحتقر «الآخر» الذي كنته، غالبا ما كنت أستغرق في التأمل في الماضي، في كل حياتي البئيسة قبل دخول المعتقل التي انعدم لدي فيها أي مثال سام أو طموح .. وكثيرا ما لمت نفسي باكيا وأنا أفكر بمرارة في ذلك «الآخر» الذي كنته، آخر قصير النظر منغلق لا يرى العالم إلا من خلال فتحة صغيرة أراد الآخرون أن يدلوه عليها.

لقد اغرقوني في بركة الجهل ورأيت نفسي مثل ذلك الضال الذي ألقوا به في هوة سحيقة، فتاه وسط المتاهة بحثا عن مخرج، فانخدع ببصيص نور واتبعه الى أن وجد نفسه في هوة أخرى: وما كان يحدث لي كان أفدح من المتاهة، كان موتا بطيئا ساديا ومبرحا. وددت لو أنني اعتليت جرفا سحيقا ورميت بنفسي لأضع حدا لمعاناتي، لكن الجلادين للأسف، كانوا صبورين ويفضلون تذوق لذائذ معاناتي على مهل.

في السجن العسكري بالقنيطرة أمضيت الوقت في التعلم واستقصاء الأخبار. ذات يوم وكنت عائدا من الدوش، فسألت الحراس متظاهرا باللامبالاة عن وجود حارس بالقرب من بوابة صغيرة أسفل الجدار الخلفي للمطبخ؟ أجابوني بأنه توجد تحت المطبخ ساحة للرماية سرية كان الفرنسيون يعدمون فيها المقاومين المغاربة لمحكومين بالاعدام، وسألت إن هي استعملت في تصفيات سرية بعد الاستقلال، فأجابوني بأنه حدث في 1963 أن نفذ الاعدام السري في حق القبطان الصقلي محمد المتهم في إطار «المؤامرة» المعروفة بنفس السنة. حارس اخر دلنا على اثار سلاسل في زنزانة مظلمة قيد فيها سعيد بونعيلات وفي المركزي دلونا أيضا على الزنازن التي سجن فيها عدي أوبيهي ومن معه وزنزانة الليوتنان ميمون أوبجة المحكوم بالاعدام وقد كان كولونيلا في 1972 وقائدا للواء الخفيف للأمن ورئيس الفرقة الشرفية المعين من طرف

اوفقير في مطار الرباط سلا يوم 16 غشت 72.

قلبت أحداث مارس 73 البلاد، رأسا على عقب وأمسى النظام السجني أكثر قسوة وصرامة والمسؤولون أكثر حزما، ودرءا لنسج أية علاقات توادد بيننا وبين الحراس كان المسؤولون يغيرون الحراس، على رأس كل شهر. وفي السجن المركزي تعرفت على البشير، القائد الممتاز سابقا لأزيلال والضابط السابق في جيش التحرير وصديقه بن حمو القائد والمقاوم المحكومين معا في قضايا سياسية ذات طابع تناحري بين الأحزاب، يؤدي الى اغتيالات. كان هناك أيضا ابراهيم الحلاوي الذي كان يعرج بسبب التعذيبات المحكوم بالإعدام في قضية شيخ العرب وتهريب السلاح، حيث ربط الاتصال ببعض الأمريكيين في القاعدة العسكرية بالقنيطرة كانوا يبيعون السلاح سرا. كانت هذه الأسلحة مخصصة لعمل مسلح سياسي، لكن كشفت أمره امرأة تدعى مدام مورتيي، وهي موظفة فرنسية ببنك الصرف بالقاعدة وجاسوسة تعمل لفائدة المغرب كان المعتقل الأطلسي أيضا محكوما بالاعدام في قضية شيخ العرب والذي دوخ الأمن طويلا قبل أن يتم اعتقاله على إثر وشاية من أحد أعز أصدقائه. وقد شلت ذراعه من شدة التعذيب الفظيع الذي خضع له في الاستنطاق. كان المعتقلون السياسيون في قضية «مراكش» أكثر عددا وتنظيما لأنهم كانوا مدعومين ماديا ومعنويا من طرف حزبهم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. أما نحن فقد كنا منسيين إلا من عائلاتنا البئيسة التي كانت تتحمل ثقل العنت والضنك لتلبية حاجياتنا.

التحق بنا معتقل جديد هو الخياري أحمد الذي كان قد تلقى تدريبا مكثفا في سوريا، ثم عاد عن طريق الجزائر لقتل ابراهيم موناضي الذي شك انه وشى برفاقه في آخر لحظة . أو أصحاب قضية «دمنات» قرية لفقيه البصري. وقد قتله فعلا في قريته وحكم عليه بالاعدام، قبل أن يطلق سراحه في يوليوز 94، ولعل القضية التي أذهلتنا أكثر من غيرها هي قضية السارجان شاف عماروش من الحرس الملكي الذي قضى 9 سنوات في السجن العسكري بالقنيطرة دون محاكمة. لم تكن حالته حالة خاصة فقط، بل كانت غامضة أيضا. وأعماروش ريفي الأصل مثل المذبوح، ذات يوم من سنة 1963 استدعاه هذا الأخير واطلعه على وجود مؤامرة ضد الملك والملكية، فطلب منه أن يلتحق به مصحوبا ببندقيته من أجل القيام بالعملية. فيما بعد اتصل به سرا في وقت

متاخر من الليل وأخطره بأن الانقلابيين يريدون أن يختبروه ويختبروا ثقته، وأنهم سينتحلون صفة الشرطة السياسية. وقال له: «حذار سيضربونك ويعذبونك عمدا ويهددونك ليمتحنوا مدى تصميمك على القتال والصمود، سيطرحون عليك الأسئلة حول المؤامرة والمعارضة وحولي شخصيا، يجب ألا تبوح بشيء وتكتفي بالقول بانك تريد أن تنتقم شخصيا من الملك. أنت ريفي عليك أن تبرهن لهم أنك من معدن صلب ورجل بمعنى الكلمة توالى السيناريو كما خطط له. ولعب اعماروش دوره كما يجب، لكن سيتبين له لسوء حظه، أن العملية ليست مسرحية بل واقعا حيا. ولم يكن أفراد الشرطة المزعومين لا من المعارضة ولا من الأمن، بل كانوا عسكريين اختارهم المذبوح من بين رجاله التقاة حتي يخضعوه لهذا الاستنطاق الذي سجل على شريط من أجل الانتقام والابتزاز وكان المذبوح يريد الثأر من اعماروش لما بين عائلتيهما من أحقاد وحزازات تحكمت فيهما منذ أجيال، ثم لينزع منه قطعة أرضية خصبة كان أجداده يدعون امتلاكها. ولعل السبب في النزاعات أن المحكمة حكمت لصالح اعماروش. فلجأ المذبوح الى الحيلة حتى يقبره ويخلو له الجو لاستغلال الأرض.

هكذا أعطى أوامره، باعتباره المساعد الأيمن لجلالة الملك، لاعتقال السارجان شاف اعماروش ووضعه في حالة «انتظار» حتى إشعار آخر. بعد مرور أربع سنوات أصبح المذبوح مدير الحرس الملكي فاستفحل وضع السجين اعماروش، لأن المنصب يعلو علي كل وحدات الجيش وأوامر صاحبه لا تناقش. ولما رأى أن المذبوح قد وشى بما سمي «بمتآمري 1963»، التزم اعماروش الصمت مخافة أن يحكم بالاعدام وهكذا تخلى عن الأرض وعلق انتظاره على حبل الزمن في انتظار المعجزة التي جاءته يوم 10 يوليوز 71.

طالما عاشرناه وناقشنا معه حالته قبل مغادرته السجن في أبريل 1972، وطالما تساءلت على أية معايير استندوا في سجن انسان مدة طويلة بدون محاكمة ودون حجة قائمة أو سبب وجيه؟

لقد كان اعبابو نفسه قد سجن الليوتنان عدنان لمدة 4 أشهر، في حين أن القانون لا يجيز مدة العقوبة أكثر من 15 يوما. إن هذا الشطط في استعمال السلطة لم يكن يدفعهما الي المبالغة، بل الى الدوس على المؤسسات العمومية أيضا. ولكي يدعي الانسان أنه يحارب الظلم، عليه أن يكون عادلا هو نفسه. وهو أمر لا ينطبق على المذبوح كما توضح

حكاية ابن اخته الليوتنان (ب). فقد كان هذا الأخير يقارع الكاس في أحد بارات مكناس، فصفعه أحدهم ردا على صفعته. لكن هذا الضابط الذي يصفع ولا يقبل أن يصفع استل مسدسه وقتل خصمه بكل برودة دم. تدخل المذبوح وتم حجز القضية، وقضى القريب 60 يوما في الاعتقال ثم عاد الى مقر عمله، واليوم يشغل رتبة كولونيل.

في السجن المركزي علمت أن العدالة لا تطبق على الجميع يوم 1 غشت 73 تمت عقوبة كل الذين أدينوا بسنتين سجنا وغادروا السجن المركزي عائدين الى ذويهم. فبقينا نحن الثلاثين 4 محكومين بالمؤبد و3 بعشرين سنة واثنان ب15 سنة وواحد ب 12 سنة و5 بعشر سنوات و9 بخمس سنوات و3 ب 4 سنوات و3 بثلاث سنوات. ترك خروج زملائنا فراغا كبيرا، فبعد أن كنا 74 أصبحنا ثلاثين وهو العدد الذي سيقل في القادم من الأيام.

لقد كنا جماعة موحدة، نتواصل فيما بيننا، أو نتصل عبر آخرين بالطيارين. كانت عائلاتنا تأتينا ب«سلة» محترمة وكنا نقتات جيدا و نمارس الرياضة في الساحات المشمسة، بعضنا كان يهيىء دبلوماته والبعض الآخر يحلم بمشاريع في المستقبل، أما نحن «العقوبات القاسية» فلم نكن نفكر في أي شيء: كنت أكاتب زوجتي كثيرا لمواساتها وتشجيعها لأنها تواجه الحياة وحيدة وتعيل ستة أطفال، آخر رسالة وجهتها إليها تبدأ علي هذا المنوال: «لن أعطيك دروسا لأنني أعرف قوة إيمانك تفوق إيماني، أما الأخلاق فأنت سيدتها، وأنا مندهش عندما أراك دائما حسنة المزاج والأمل لا يفارقك. عليك ألا تحزني أو تبكي، لا تنسي أن «الطير الحر» لا يتنطع عندما يدخل القفص بل يعاني ويموت في صمت. نعم يا شريكتي، لماذا علينا أن نشتري السعادة بالمعاناة؟ ها أنت ترين كيف أن الحياة سلسلة من الفرح والاحباط. والفرح أملك بعضه كما إنني خبرت الخيبة. أما المستقبل فالله وحده يعلم غيبه ... »

الله يعلم ولاشك ولكن «المخزن» بدوره كان يعلم ما سيحدث لي بعد أسبوع وكما قلت لزوجتي، فقد أديت الثمن عينا من معاناتي الكبرى الطويلة فبعد أن علمت الكثير عن تاريخ بلادي، كانت أشياء أخرى تنتظرني لمعرفة شراسة الناس وتذوق عذابات الثأر والعقاب القروسطوي لأناس يدعون التمدن. فبعد أن أدنت من طرف المحكمة ، اعتقدت بأنني سأقضي عقوبتي بشكل عاد في سجن عاد، هيهات! هيهات! كان للمخزن رأي آخر. فبعد أن نفذنا «الصخيراتية» من جانبنا مارس هو المكيافيللية من جهته.

إذا كان أوفقير قد ضحى بأصدقائه من أجل أهداف خاصة فإن المخزن قد أقبرنا ليتخلص منا وينتقم ويقوي نفسه.

الاختطاف
وعتبة الجحيم

كان اليوم يوم الثلاثاء 7 غشت 1973 والساعة تشير الى الثانية صباحا عندما أيقظني أحد الحراس وأمرني بجفاء أن أستعد لرحلتي الطارئة نحو وجهة مجهولة.

اعتقدت بأنه مجرد كابوس فوقفت فاغرا فمي لأعي كلماته وصداها زادت حيرتي لما كرر أوامره نفسها على مسامع المعتقلين الآخرين.

كنا في عز الصيف والحرارة خانقة رغم طراوة الليل التي تخفف الأجواء وتسهل علينا التنفس. فجأة فتح الباب ودخل كبير الحراس بلحسن الذي أمرنا بلهجة صارمة بمغادرة الزنزانة والسير خلفه. ذهلت عندما رأيت هذا الانسان الكئيب الذي لا يفتر ثغره عن ابتسامة. نفذت بدون نقاش لأنني كنت أعرف أنني لن أتلقى جوابا من هذا الشخص المحنط والمنفر.

سرت علي خطوه بشكل آلي مثلما هو حال المعتقلين الآخرين، سرنا ونحن صامتين بمحاذاة الجدار المتسخ للبهو الكبير المعتم والكئيب الى أن وصلنا المكتب وجدنا به الكومندان لعنيكري بمعية دركيين بملامح متجهمة مسلحين بالرشاشات والمسدسات وبأيديهم أيضا الأصفاد والعصابات الحمراء.

بعد أن فحص كل ملفاتنا بإمعان أعطى الكومندان أوامره بالتنفيذ، عصبوا عيوننا ثم وضعوا الأصفاد في أيدينا ، ثم أركبونا في شاحنات عسكرية غطيت بعناية ، لم يكن الطريق طويلا لأننا وصلنا بعد ربع ساعة الى القاعدة الجوية الثالثة لم تكن تبعد كثيرا عن السجن المركزي بالقنيطرة حيث قضيت سنة كاملة بعد أن قضيت سنة سابقة في السجن العسكري في نفس المدينة، ترجلنا عن الشاحنات ثم أركبونا طائرتين عسكريتين (C130و C119) كانتا في انتظارنا. أمر الكومندان التمسماني الطيار وقائد المهمة بأن توثق أيادينا خلفنا وليس أمامنا مزيدا في الحراسة والأمن. بعدها أقلعت الطائرتان وحلقتا فوق القنيطرة قبل أن تتوجه نحو وجهتها المجهولة. كانت الرحلة الليلية الطويلة مثار حيرتي طوال المدة. قمت بعدة حركات بالحاجبين و الجبين ونجحت في إزاحة خفيفة للعصابة، وتمكنت بهذا من رؤية حراسنا من الدركيين ورجال الأمن. بقسماتهم المتجهمة وسحناتهم العدوانية.

وتفاديا لانكشاف أمري التفت ببطء وحذر حتى أنظر من النافذة

فترامت تحتي مساحة صحراوية يتناثر فيها النخيل ، فكرت بسرعة اننا نتجه نحو الصحراء الشرقية للمغرب. كان النهار قد طلع ولم أكن احس بدورة الزمن لأنني كنت طوال الرحلة مشغولا بهذا «الترحيل» الطارئ والمستعجل الذي ظننت أنه يهيء لي مفاجات غير سارة. فلم يخامرني شك في أن القادم من الأحداث سيتخذ مجرى آخر، لم أكن استبعد الخطر لكنني لم تراودني أبدا تلك الفكرة الكئيبة التي تفيد باننا سنرمى في البحر عنوة كما أعتقد العديد من أصدقائي: ولعل بعضهم اعتقد أن الرحلة ستنتهي بكارثة مبرمجة وان جثثنا ستلتهمها الحيتان. اه لو علموا «النيرانا» التي كانت تنتظرنا.

وصلنا الى مدينة الراشيدية فهبطت الطائرتان في مطار عسكري، وبعد استراحة خفيفة ، نقلنا على متن شاحنات سيمكافورد الى معتقل تازمامارت الموجود ما بين ميدلت والراشيدية في الجنوب الشرقي للمملكة غير بعيد عن الحدود المغربية الجزائرية. فتحت بوابة معدنية كبيرة ثم باب أخر أكبر منها لفسح المجال لدخول الشاحنات التي دخلت ساحة صحراوية حجرية توجد داخل السجن المحايث تماما لجرف عال. انزلنا الدرك من الشاحنات الواحد تلو الآخر وسلمنا الى العسكريين الذين يحرسون المعتقل، ثم خضعنا لتفتيش جسدي دقيق ...

بدأوا بتفتيش الجيوب وأفرغوها من كل محتوياتها ولم تخل حركات العسكريين من عنف وشراسة يفوقان ما لدى الدرك، كما أن أوامرهم كانت أكثر حزما وأصواتهم أكثر قوة وتهديدا. أحد السجناء تضرع إليهم كي يَدَعُوا له القرآن الكريم. فأجابه صوت أجش حاسم: « مابقيتش تحتاجو وماشي هاذ الشي اللي غي خرجك من هنا»، ارتعدت فرائصي لهذه الكلمات المجدفة.

سجين أخر احتج «لا تاخذوا سبحتي فهي آخِر ماتبقى لي»، أما منصت الليوتنان في فرقة الخيالة والطويل الليوتنان السابق في الطيران، فقد طلبا أن يتركا لهما نظاراتهما، فلقيا نفس الجواب القاسي «لاسبحة ولانظارات، وعلى كل لن تحتاجوا لا للنظر ولا للحياة».

لما جاء دوري كان أحد الحراس يطرح علي بعض الاسئلة وزميله يفتش انحاء جسدي بدقة، ثم دفعني بقوة لأتقدم وادخل إلى بناية إسمنتية. لما بلغت الداخل نزع دركي العصابة عن عيني ورفع الأصفاد عن يدي ثم دعاني إلى الدخول إلى اقامتي الجديدة، وقد كانت شديدة العتمة والظلمة يصعب معهما التمييز فيما حولي، التفت لأرى الباب.

كان الحارس مازال واقفا يراقبني وعيناه جاحظتان، كان محتقن الوجه حتى ظننت أنه يبكي، وكانت سحنته الحزينة تخون خوفه وغضبه من رؤيتي في هذه الحالة وهذه الظروف، وكعربون على طيبوبته ابتسم في وجهي ابتسامة خجولة بسبب وجود دركي ينتظر إغلاق الباب، وكان ذلك الانسان يبكي في أعماقه ويكتم بكاءه العميق وآلامه، لأنه كان يعرفني معرفة قديمة ويعرف أيضا ما ينتظرني. لقد كان صديقا لي وهاهو القدر يجعل منه سجاني، في نظرته قرأت التعاطف والحسرة، والتقطت رسالته الصامتة، وعبر عينيه المغرورقتين بالدموع قرأت عمق تفكيره وفهمت نصائحه، ، اضطر إلى القيام بواجبه واغلق الباب الحديدية وأدار المفتاح ثم انتقل إلى السجين الثاني الذي أصبح بقوة الاشياء جاري ورفيقي في هذه الظروف الغامضة. تسمرت واقفا وسط زنزانتي المعتمة أتفحص الظلمة لعلي أتبين هذا الشيء أو ذاك، لم أر أدنى شيء لكنني كنت أسمع الأصوات المعدنية للأبواب وهي تفتح ثم تغلق وصرير المفاتيح يعقب ذلك. تصورت أن هذه البناية مثل حوت كبير يبتلع ضحاياه دون مضغ أو أنه مثل بقرة تبتلع قبل أن تجتر. وسيجد تازمامارت الوقت الكافي لتكسيرنا، دفعني الفضول إلى الاقتراب من الباب والتلصص من ثقب صغير لايتجاوز قطره 1.5 سنتمترا لعلي أشاهد ما يدور في البهو. عندما أودع كل السجناء في زنازنهم، غادر الدرك المكان واصطف الحراس الجدد على طول الجدار المؤدي إلى البهو الطويل في انتظار التعليمات. مرت عدة دقائق قبل أن يدخل شخصان ببذل عسكرية لتفحص المكان والاطمئنان على حسن تنفيذ العملية التي اطلق عليها اسم «فلورانسا»، توجها نحو الزنزانة رقم 15 التي أودع به الطويل مبارك والتي كانت قبالة الباب الحديدي الكبير للبناية، أحد القادمين الكولونيل لوالي قائد الموقع العسكري بالراشيدية، وهو رجل طويل القامة، نحيف بعينين زرقاوين ووجه مستدير شاحب، والثاني هو الطبيب العسكري للمنطقة، بعد جولة تفتيش وجيزة داخل المكان (الكاشو)، سأل الكولونيل الطبيب عن رأيه فكان جوابه «لاباس يمكن العيش فيه ..» هز الكولونيل رأسه وقال بالحرف «أنا متفق معك في الرأي...»

خرجا راضيين عن نجاح مهمتهما الملعونة واستكمالها دون أدنى حادث بناء على ماشاءه رؤساؤهم. نعم إنه عمل «كامل» في إطار اللاقانون وبناء على القواعد اللاشرعية، كل منهما أتم مهمته حسب

التعليمات الصادرة ضدا على القانون. لقد ارتكب هؤلاء الناس عملا شنيعا بوضعهم بشرا في مغارات قمينة بما قبل التاريخ وبالتصديق على انها قابلة للعيش»، إن تصرفها اللانساني يكشف عن جرم ملموس في حق العدل وحقوق الانسان ثم برغبة إرادية في انتهاك المؤسسات، لقد دفنا، بكل وعي، كائنات حية وتركاها للموت البطيء...

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا عندما غادر الحراس البناية الأولى بعد ان اغلقوا الباب الكبير والعودة إلى ثكناتهم وقد تركونا وحيدين، كل في زنزانته أو بالأحرى في قبره.

قررت أن استكشف إقامتي الجديدة أو امبراطوريتي، لأنني كنت السيد الوحيد والمطلق. بدأت أتلمس المكان مثل أعمى، أحرك يدي ذات اليمين وذات الشمال لعلي أرتطم بشيء ما، قدرت أن طول قبري الضيق والمعتم 3 امتار وعرضه متران مبني بالاسمنت المسلح، وسأعرف فيما بعد بان طلاءها رمادي، بلا نوافذ اللهم إلا 17 ثقبا صغيرا في الجدران تطل على البهو (الكولوار) الداخلي المظلم دائما اللهم إلا وقت توزيع الوجبات، كان هناك ثقب آخر في السقف، لكنه بلاشك لسقف مزدوج لان النور لم يكن يتسرب إلينا باستثناء عندما تكون الشمس في كبد السماء ويتسلل إلينا شعاع شاحب.

وأنا أتلمس المكان، وجدت مصطبة اسمنتية بمثابة سرير عرضه متر وعلوه 80 سنتمترا وضع فوقها غطاءان مهترئان يكادان يكونان غربالين والبرد القارس ينتظرنا. لم يكن من السرير غير هذا. في الجهة اليسرى حفر ثقب في الأرض بمثابة مرحاض، حاولت سدى، أن اجد زر الكهرباء أو الصنبور. كانت أرضية الزنزانة مغطاة بالحصى والاسمنت مازال طريا ونديا، وسط الظلام وضعت يدي صدفة على سطل بلاستيكي سعته 5 لترات مليء بالماء، عرفت أنها حصتي اليومية منه، وبجانبه وجدت صحنا للأكل. قررت الجلوس فوق المصطبة والتأمل الهادئ لعلي أزيل الغموض الذي يلف أفكاري وأتبين أمري وأجد علة تفسر هذا الترحيل الغامض. قبل هذا اليوم كان كل شيء عاديا، فقد قضينا سنتين في القنيطرة بدون حوادث وفي إطار نظام سجني عاد، وقد شطح بي الخيال بعيدا عن هذا المكان لأفك هذا الغموض، فشطت بي الذاكرة سنتين إلى الوراء بحثا عن التفسير المقنع. صحيح انني شاركت في انقلاب مسلح ضد الملك في قضية الصخيرات يوم 10 يوليوز 71 واعتقلت في الغد وعذبت من طرف الدرك والأمن ثم أودعت

الاعتقال الاحتياطي في السجن العسكري بالقنيطرة يوم السبت 7 غشت 71 وحوكمت وأدنت من طرف المحكمة العسكرية يوم 29 فبراير 72 بالاعدام قبل أن تخفف يوم 18 ماي 72 إلى حكم بالمؤبد، ثم نقلت إلى السجن المركزي بعد اسبوعين من انقلاب اوفقير. وقضيت به سنة سجنا في ظروف عادية... لكن لماذا هذا التحول المفاجئ؟ ماذا فعلنا حتى نرحل سرا إلي معتقل الموت بتازمامارت؟ لقد حوكمنا علنا من طرف المحكمة العسكرية وثبت المجلس الأعلى الحكم رغم النقض فلماذا إذن ينتهك القانون وحقوق الانسان؟ صحيح أن العديد من الانفجارات الاجتماعية والأحداث النقابية والطلابية قد تواترت في هذه الفترة لكن ليس هذا سببا كافيا لاقبارنا هنا في هذا المكان الملعون.

وربما كان نقلنا محض انتقام من المخزن لأن قضية الصخيرات هي الشرارة التي أحدثت الحريق، كما كانت سبب كل الماسي التي جاءت بعد الانقلاب تناهشتني الافكار وذهبت بي مذاهب شتى وطرحت على نفسي العديد من الاسئلة، لماذا انتظر المخزن سنتين لتنفيذ انتقامه؟ وهل كان لزاما أن يكون حقودا إلى هذه الدرجة وإرسال الكائنات البشرية إلى الموت في هوة سحيقة؟. مضت ساعة على ذهاب الحراس ولم يجرؤ اي سجين على الحديث. لاشك أن المعتقلين كانوا غارقين في تاملاتهم أو في أسئلتهم التي لا جواب لها. وفجاة أخذ أحدهم الكلمة وقال، « اسمعوا أيها الرفاق، اسمي غلول محمد، قبطان في المدرسة العسكرية الملكية - محكوم بـ 5 سنوات سجنا في قضية الصخيرات، والزنزانة التي تقابل زنزانتي رقمها 18، فمن هو نزيلها »، فأجاب نزيل الزنزانة 18 على الفور: «أهلا أيها الرفاق، أنا مفضل ماغوتي - اجودان شاف طيار (طائرة إ ف 5) من القاعدة الجوية الثالثة بالقنيطرة، محكوم بـ 20 سنة سجنا في قضية البوينغ الملكية، والزنزانة المقابلة لي تحمل رقم 27، أهلا غلول كيف حالك؟»

هذان الشخصان لم يسبق لهما أن تقابلا أو تعارفا، لكن القدر شاء أن تلتقي طريقهما على هذا النحو.

هكذا بدأت حلقات التعارف بين السجناء وسرعان ما حل الهرج محل الصمت الرهيب وصار كل واحد ينادي على زملاء وحدته ويستقصي أخبار الذين لايعرفهم. فعمت بذلك أجواء التعاطف والتوادد.

صاح الذي كان قبالتي: «أنت الذي قبالتي، رغم زنزانتك 14 وانا اسمي بنعيسى رشدي، سرجان في الطيران، أعزب من مواليد تيفلت،

انخـرطت في الجـيش سنة 1965، عـمـري الآن 26 سنة مـحكوم ب 3 سنوات سجنا نافذة وانت؟».

لم أجبه للوهلة الاولي. لم أرد أن أضيف متاعب لنفسي والتيهان في سراديب الشك والاسئلة التي لاجواب ولانتيجة من ورائها. فكرت مليا، ثم قررت تجاذب أطراف الحديث مع جاري الذي يبدو انه ثرثار ولعلي فرحت بهذا، لأن الحديث أحسن طريقة لقتل الوقت وتجاوز الضجر، العدو القاتل في السجن، قلت: «أفعلا بنعيسى، تشرفت بمعرفتك، رقم زنزانتك (أ). أنا اسمي الرايس محمد، اسبيران مدرس بالمدرسة العسكرية باهرمومو، ولدت بالرباط، انخرطت سنة 1956 في الجيش، متزوج وأب لستة أطفال. عمري 34 سنة محكوم بالمؤبد في قضية الصخيرات».

كان الحديث يطول بنا كثيرا، وكان يحدث أننا لاننجح في التواصل بسبب الضجيج الصاخب الذي كان يقطعه وصول الحراس في منتصف النهار لتقديم الغذاء، وكانت الوجبة تحتوي على قطعة خبز هزيلة ومغرفة من «النشويات» (لا لحم، ولاسلطة، ولا فواكه)، والكل رديء كما وكيفا، بمعنى أن الاكل كان الهدف منه بقاؤنا علي قيد الحياة من أجل موت بطيء، اغتنمت فرصة توزيع الغذاء وسألت الحارس الذي بكى لحالنا وعن وضعيتنا المأساوية والغامضة لعله يشفي فضولي، أجابني بصوت منخفض حتي لايسمعه زملاؤه، باننا في معتقل تازمامارت بأمر من الاوامر العليا وأن المهمة موكولة للكولونيل أحمد الدليمي الذي عين بدوره القبطان ق. محمد مديرا للمعتقل.

وقد سبق لهذا الاخير أن عمل في صفوف الجيش الفرنسي وشارك في الحرب العالمية الثانية واعتقل في معتقلات النازية، ثم شارك فيما بعد في حرب الهند الصينية. سألته:

- إذن هو شخص عجوز؟

- نعم، إنه متقاعد تم استدعاؤه للقيام بهذه المهمة المشينة، كما انه احد اقارب الكولونيل الدليمي وهو منحدر مثله من بلدة زغوطة.

- هل يقيم هنا؟

إنه يملك منزلا في سيدي قاسم وفيلا جميلة في مكناس وسكن عسكري بالريش (على بعد 17 كلم من المعتقل) وسكن اخر هنا. متزوج بامراتين ويعاقر الخمرة، وقد شاركت وإياه في الحرب في نفس الوحدة، كما أنني اشتغلت تحت امرته هنا في المغرب، يمكن القول انه

بلا إحساس،، لايرحم، غليظ القلب... قل إنه الشيطان بعينه».

ذهلت لما سمعت واحترت لكل هذه الاجراءات المتخذة حتي قبل وصولنا، ولم أصدق ماروي لي، غير أن فضولي دفعني الى أن أسأل مخاطبي سؤالا إضافيا: ماهي التعليمات التي أصدرها هذا المدير الفظ؟، تردد ثم قرر أن يفصح لي عن السر وقد طأطأ رأسه واغرورقت عيناه بالدموع: «خليوهم» ليل ونهار في الكاشو حتى يجينا الامر (...) بالسراح. ممنوع الحديث معاهم، ما بقى عندهم حق لاسيفيل ولاميليتير. ماتيقوش فيهم، راهم خونة» بعد ذهاب الحراس حكيت لرفاق المحنة ماقاله صديقي الحارس. علق كل واحد منا علي الحوار، بعضنا أمن إيمانا مطلقا بما قال، البعض الآخر فند ما سمع لأن مثل هذه الفعلة الشنيعة ضد مبادئ الاسلام الحنيف، وأن مايحدث مجرد انتقام شخصي للكولونيل الدليمي حتي يكسر شوكتنا ويعطي بنا المثل. جزء اخر منا أبدى تفاؤله وبرر ذلك بأن العقاب عقاب عابر ومؤقت وأن مايقع ماهو إلا جزء من سراب الدنيا الحافلة بالافراح والاتراح حتي يكون لها معني. وأننا سنغادر المعتقل وأن الله رحيم بعباده». كان هناك من ذهب في التشاؤم مذهب المتطرف وقال بالانتقام الطويل الامد. وقد كنت من أصحاب هذا الرأي، ليس لأنني محكوم بالاعدام بل لأنني «كنعرف خوتي».

قضينا الزوال نضرب أسداسا في أخماس، نقلب الموضوع على كل جوانبه ولم ننتبه الى الوقت الى أن فوجئنا بعودة الحراس لتقديم العشاء. وقد وزعوا علينا مغرفة من الشربة مطبوخة في ماء مالح بلا زيت أو توابل، إضافة الى قطعة خبز أسود (1/8 خبزة البولانجي).

ما استنتجته من احداث اليوم الاول في تازمامارت، كان هو الارادة الثابتة في دفننا هنا بدون وجه حق أحياء واعطائنا القليل من الطعام حتى نموت موتا بطيئا ويطول عذابنا النفسي والجسدي على حد سواء.

بحثا عن الراحة والاسترخاء، فرشت الغطاء الأول على البلاطة الاسمنتية والتحفت الثاني بعد أن استعملت نعالي كوسادة، ثم تمددت لعلي أخذ قسطا من الراحة. كنت أعرف أن النوم لن يزور جفني، وقد قضيت الليلة الأولى شاردا لا أفكر في موضوع محدد، وذهني يسبح في الظلمة. كان بعض الزملاء في المحنة يتجاذبون أطراف الحديث، حديث يعبر الجدران. وقد كان من الغريب حقا أن يتحدث المرء مع أناس لا

يراهم، لكن هذه الأصوات بدأت تأخذ هويتها شيئا فشيئا، وكلما كان الحراس يغادرون الداخل كان المعتقلون يستأنفون الحديث الى درجة أن الضجيج أحيانا كان يفرض علينا الصمت. كان كل واحد منا يمثل بالنسبة للآخر صوتا بلا وجه، تركنا الحراس بعد أن عادوا أدراجهم وأغلقوا أربعة أبواب: باب الزنزانة، باب البناية وباب الساحة الأولى وباب السجن.

بُني سجن تازمامارت أسفل السفح، تحيط به الجبال الحجرية من كل جانب. وفي كل ركن من أركان السجن الأربعة، نصب برج للمراقبة وأضواء كاشفة تعمي الأبصار. وقد وقف الحراس مسلحين بالرشاشات مستعدين لإطلاق النار بدون إشعار، كما صدرت الأوامر بذلك. وعلى رأس كل ساعتين يقوم الحراس بجولة المراقبة المعتادة وقد كانت تقودهم الى السقف فوق رؤوسنا، المكان المفضل لهم للاستماع لدردشاتنا.

ومن حسن الحظ أن زميلنا السعودي (رقم 9) كان يتمتع بسمع رهيف. وكلما تناهت إليه أدنى حركة صاح منبها: «إن عنزة السيد سوغان تقرئكم السلام! .....

كان الجو مختنقا بفعل الحرارة مما جعل النوم مستحيلا في الليلة الأولى، ومن حين لآخر، كان عواء الذئاب يمزق سكون الليل الرهيب مما يزيد في حزن اللحظة. وبعد أربع ساعات كانت الديكة تصيح معلنة عن طلوع الفجر ويليها المؤذن داعيا المؤمنين إلى الصلاة. كان ذلك بالنسبة إلينا نحن أبناء العتمات، التباشير الأولى على قدوم يوم جديد.

يوم الأربعاء 8 غشت 1973 جاء الحراس في الساعة السابعة صباحا لتوزيع الفطور والحصة اليومية من الماء. هالني الصوت المدوي والمثير للأعصاب الذي كان حراسنا يتعمدون إحداثه: صوت الأبواب وهي تُفْتَح وتغلق بقوة، مما أجبرني على صم أذنيَّ بقطع من الغطاء.

كان الحراس يفتحون أبواب زنازننا الواحدة تلو الأخرى، أحدهم يمسك في يده أنبوبا لضخ الماء والآخر يصب قرافة من القهوة (عبارة عن شعير محروق مسحوق!) والثالث يناولنا قطعة الخبز الهزيلة. تمثل 1/14 من خبزة تزن كلغ واحدا. وللتدقيق أكثر، كان المبنى رقم 1 يضم 29 سجينا وكان الحراس يأتون بخبزتين وقطعة خبز كنا نسميها «الحلقة» وكل خبزة كانت توزع إلى 14 قطعة! صدق أو لا تصدق!

عندما يتم تقديم الفطور يغادر الحراس المكان. وكنت أستغرق في التفكير، وأتأمل هذا السلوك الغريب للحراس وهذه اللامبالاة المقرفة

حيالنا. موقفهم وهو يفتحون الباب ويقدمون الفطور ويغلقون الأبواب في ظرف 15 دقيقة دون أن يتركوا لنا ولو ثانية لنستنشق هواء البهو، حيث كانوا يمنعوننا من تخط عتبة الزنزانة.

كان «قبري» من الضيق بمكان إلى درجة الاختناق بفعل نقص الاوكسجين، كانت المسافة الفاصلة بين البلاطة والباب جد محدودة بحيث أن حركتي لا تتجاوز 4 خطوات، طولا! حركة الذهاب والإياب هاته كانت تسبب لي الدوخة والغثيان. كنت أشرب قهوتي المتسخة وأتناول قطعة الخبز الحافي ثم أترك العنان لخيالي يمرح في اللاشيء عساي أنسى مأساتي. بعد ساعة، زارنا رجال الدرك الذين جاؤوا لأسباب إدارية وطلبا لبعض المعلومات وتهيىء ملفات، بعد أن أخذوا بصماتنا جاء دور المصور الذي وضع على صدري لوحة تحمل رقم 14، أي رقم زنزانتي بعد أن أنهى عمله دفعني بقوة نحو الباب وقال: «من الآن فصاعدا أصبح اسمك 14». غضبت لمثل هذه المعاملة فأجبته على الفور: «كانظن عندي اسميتي والطوبيس وحدو عندو أرقام». انتهت المماحكة مع إغلاق الباب الحديدي خلفي. هكذا بعد 32 سنة من الوجود، فقدت وبكل بساطة، اسمي لأن زنزانتي تحمل رقم 14. يا لها من إهانة للبشرية ولكرامة الإنسان.

أول اضراب في تازمامارت وأول رسالة الى زوجتي

لقد اصبحت، شئت ذلك أم ابيت، مجرد الرقم 1 4 في نظر الحراس. ومعني ذلك انني لم أعد موجودا كإنسان بل أصبحت مجرد شيء يحمل رقما وضع في الرف لأسباب خاصة.

تيقنت من مجيء الدرك بأنني سالبث طويلا في معتقل تازمامارت، لهذا فكرت ان من مصلحتي مستقبلا، أن اتخذ كل الاحتياطات للبقاء حيا، تمددت فوق المصطبة الاسمنتية وسرح بي خيالي مثل مسافر في مركب، ترك مصيره للامواج تتلاعب به دون أن يدري إن كان البر امنا أم موحشا، تاملت حالي، بلا خوف أو ندم، وقد امتزج الماضي البعيد و المستقبل الغامض في ذهني.. خبا الواقع في تفكيري عن عمد واستسلمت للحلم مدركا انه لاشيء أكثر ألما من ذكرى سعيدة في الايام الحالكة. تشابكت افكاري واستحال علي إيجاد حل لهذه الوضعية الغامضة. كنت أسبح في الظلمة مثل شخص يبحث عن مخرج وقد امسك في يده بشمعة مترافصة. بعيدا عن واقعي، كنت أخطو بخطوات متثاقلة وسط دهليز معتم، أحيانا تتراءى لي التماعة بعيدة. في سواد ذهني، كانت تلك الالتماعة ذكرى مجيدة نسيتها: أطفالي.

هدني هذا القدر الطارئ وكمن اغرقته الظنون وشكوك مستقبل غامض وماض جارح، لم أكن أدري معنى وجودي الحقيقي ولا المصير الذي ينتظرني. وأنا سجين أربعة جدران لامرئية بفعل الظلام خلف باب حديدي يخنقني التفكير بانه لن يفتح أبدا. هل أنا فعلا في القرن العشرين؟ أم تراني في القرون الوسطى عندما كان الناس يرمون في هوات سحيقة بلا قرار آخرها الموت؟ فجأة اقشعر بدني عندما عنت لي ذكرى السجن القديم في شالة الذي بناه المرينيون، الذين كانوا يضعون المعتقلين في أقفاص صغيرة مثل الارانب، فزعت أيضا عندما تذكرت أحد القادة الافارقة الذي يرمي باعدائه الى التماسيح. ومن جهة أخرى كنت اجد عزائي في القول «هنا على الاقل ساموت في هدوء».

وكم كان خطئي بليغا وحكمي جزافيا، ذلك لأن التماسيح كانت اقل شراسة من الكثيرين من البشر.. فالبشر يمتص أولا دم أخيه الانسان قبل أن يلتهمه.

طلبت من أحد الحراس إن كان بإمكانه اغلاق الباب بدون رجة، اجابني بهدوء انها أوامر المدير للتأكد من انغلاقها فعلا، ومن أجل ضبط توقيت عملنا وإلا تعرضنا للعقوبة، وكثيرا ما رجوناهم من بعد، لكن بعض الساديين منهم كانوا يتلذذون بكل ما يثير غضبنا ويغلقون الابواب بضجيج أكبر، وكلما جاءهم صوت السجناء الغاضبين الحانقين ردوا عليه بأصوات ساخرة. وقد كنا نعي بأننا نخضع لحرب أعصاب.

رغم ما يقال بأن أيام السجن تتشابه، فإنني شخصيا أعتقد انها تتوالى ولايشبه بعضها بعضا، فقد كانت تأتي علينا أيام يصل فيها جو المرح اقصاه فيغني البعض بأعلى صوته ويتحدث أخرون بحمية وحماس أو يستغرقون في الضحك وهم يحكون مغامراتهم أو يتداولون النكت. مقابل ذلك مرت علينا أيام يسودها الحزن فيخلو البعض الى نفسه وخيالاته ويستسلم البعض لليأس والقنوط، وعرفنا أيضا أياما حالكة لم تخل من شجار أو سباب لأتفه الامور. شخصيا كنت أتبع مجرى الحياة، أحيانا أقتسم مع زملائي الأشياء اليومية وأحيانا أخرى أخلو الى نفسي. وفهمت، مثل العديد منا بأن عدونا اللدود هو الملل والسأم.. قررت أن المطلوب مني من الآن فصاعدا هو معاركته ولذلك علي أن أركز تفكيري في الحاضر لأن الماضي ولحظات سعادته كانا يدفعاني الى الحزن والبكاء.

مرت الايام كئيبة وجيزة لأن الفصل كان فصل الخريف، كنت أعدها وافرح كلما زادت الايام ناسيا ما ضاع من حياتي، كان الزمن يلتهم حياتنا في تازمامارت التي لاتشبه أي سجن آخر، لأن سجن تازمامارت كان معزولا بعيدا عن أعين الفضوليين، مبنيا بالاسمنت المسلح وجدرانه سميكة للغاية، تحرسه كتيبتان من الخيالة وفيلقان من الدبابات، أما حراسنا فقد كان عملهم يقتصر علي فتح الزنازن واغلاقها وتوزيع الاكل دون المكوث بين ظهرانينا، وقد كانت وراء ذلك قرارات حازمة لمنع أي علاقات بيننا.

قررنا خوض اضراب عن الطعام للاحتجاج على شروط الاعتقال اللاإنسانية، لكنه لم يأت بنتيجة لأن المسؤولين كانوا غير منشغلين بمصيرنا، كما أن اضرابنا كان بردا وسلاما علي الحراس الذين حصلوا على عطلة وتخلصوا من عناء إضافي. لم نفكر في الماء عندما قررنا اضرابنا فحرمنا من الاغتسال وتنظيف المرحاض الذي فاحت منه رائحة كريهة. رفض الحراس مدنا بالماء وأجابونا بأن الماء لاينفصل عن الخبز



وهو رهين به. وجوابا عن ابتزازهم أحدثنا ضجيجا وصخبا بقرع الباب بقبضات اليد لعلهم يستجيبون لمطالبنا. بعد مرور عشر دقائق، جاء القبطان القاضي وبدأ يقطر سمه وتهديداته «هل تريدون تكسير الابواب؟ كسروها وسأكسر ضلوعكم... صدقوني سأصفي حسابكم بسرعة»، اجابه أحد النزلاء بالانجليزية فجاء رده على الفور «وَخَّاتدوي بالشينوية، آشْ هَمْني؟»، توجه بعد ذلك الى موظفيه بالامر التالي: «غلقوا البيبان مزيان وسيروا لديوركم في الريش، عندكم برمسيون ديال 48 ساعة. واش بغاو يديرو لي النقابة؟ هما بغاو اضراب عن الطعام وانا غادي نعاقبهم بيومين ديال الجوع» بتهمة عدم الانضباط ومحاولة التمرد. وهكذا انتهت محاولتنا الي فشل ذريع. وعوض أن يستسلم الحراس استسلمنا نحن. بعد هذه المحاولة تقوقع بعض رفاقنا على انفسهم رافضين أية مواجهة مع المخزن لأن غضبه كان قاسيا. عاد الحراس بعد انقضاء مدة العقوبة وقالوا لنا بلهجة المنتصرين، في المرة القادمة سيكون العقاب أكثر قسوة وكل احتجاج فردي سيؤدي الي عقوبة جماعية «هاذي راها تازمامارت ماشي النقابة»! صرنا بين المطرقة والسندان وكان الحراس مستعدين لفعل أي شيء لأنهم كانوا علي علم بأننا معتقلون هنا من أجل ....الموت!

خريف تلك السنة، اندلعت الحرب العربية الاسرائيلية، فسلمنا الحارس المتعاطف معنا جهاز «ترانزيسطور» لمتابعة الاحداث والمعارك. وكنا بعد كل خبر يطلعنا عليه زميلنا حشاد، نعلق على الوقائع حسب شفرة متفق عليها فيما بيننا لأسباب أمنية. كان كل انتصار عربي يفرحنا وكانت الاحداث تنسينا مآسينا الخاصة.اغتنمت الفرصة وحكيت لجاري بوحيدة (رقم 13) تفاصيل حرب الايام الستة (نكسة حزيران)، لأنني قرأت «حملة سيناء» - «حرب الايام الستة» و«المعركة الثالثة»، بعد انتهاء الحرب استعاد الحارس جهازه فانفصلنا مجددا عن العالم الخارجي واستأنفت الحياة في السجن رتابتها السابقة، وأصبح الحراس أكثر قسوة وعدوانية، كان يحدث لبعض النزلاء المعاندين أن يدخلوا في رهان قوة ضد الحراس وسرعان ما يستسلمون. بعد الاضراب عن الطعام، حَوّل مدير السجن حياتنا الي جحيم، فساءت نوعية الاكل حيث أخضعنا لنظام «نصف حصة» لعدة شهور ودخلنا مرحلة «الهزال الاجباري».

كان الجوع يلتهم الجسد والضجر ينخر الروح، وطرح علينا مقاومته

بأي شكل من الأشكال. من جهتي كنت أفكر في حريتي، أعد الايام رغم علمي بانه لا فائدة ترجى من هذا. كان البعض يرى أن مرورنا بتازمامارت مرور عابر، وكنت أحيانا أرفض فكرة أن مصيري نهائي وأطرد كل الافكار من ذهني. لأن الامل ضروري بالنسبة لي، كان من الممكن أن أجن وأنا أتساءل هل بإمكاني أن أصمد أمام الجوع والانواع والامراض؟. إن الله وحده كان يعلم بمصيري وهو وحده سيده. من جهتي كنت أعلم بأن الجمود واللاحركة سيضران بصحتي، وأنه لابد من الحركة للحفاظ علي لياقتي ومعنوياتي فبدأت أذرع المكان ذهابا وإيابا وكان بإمكان التوتر وحرق الاعصاب والمعاناة النفسية والهواء الفاسد للزنزانة أن ينالوا مني منالهم لولا أنني اتخذت قراري قبل ذلك.

جاء الصيف وجاءت أيامه الطويلة الخانقة والرتيبة. ولمواجهة الضجر كان لابد من الحديث والدردشة، وقد كان لي باعي الطويل في هذا. فكنت أسرد على مسامع المنصتين تفاصيل الافلام التي شاهدتها من قبل. فشددت ألبابهم بحكاياتي وذهبت بهم إلى عالم الخيال لاخراجهم من واقعنا المزري الذي كنا نعيشه منذ 7 غشت. مر علينا شهران منذ وصولنا إلى هذه القبور الخانقة والنتنة حيث تمتزج رائحة العرق والمراحيض والاسمنت الطري فتفوح رائحة حيوانية تثير الغثيان. مَرَّ الصيف ولاحت تباشير الشتاء بأمطاره العاصفة ورعوده الهادرة ورياحه القارسة. فلا خريف رومانسي ولا ربيع عشاق في تازمامارت. فقط شهران من صيف حارق وعشرة أشهر من شتاء مثلج في غالبه. يا إلهي كيف سأتحمل هذه المدة الشتوية الطويلة وليس معي سوى غطاءين مهترئين ومصطبة من إسمنت وبدون ملابس صوفية. وكيف لجسمي أن يصد البرد القارس الذي ينفذ إلى النخاع الشوكي؟ إلهي هبني قوة التحمل وارادة مقاومة المعاملة الميكيافيلية والصبر والجلد حتى اجتاز العراقيل والأنواء وهبني من لدنك الإيمان حتى أقوى على هول الظروف اللاإنسانية واجعل لي من الأمل سلاحا يثبت إيماني بك.

أول رسالة

منذ وصولي إلى تازمامارت وأنا أجهد تفكيري في إيجاد وسيلة للتواصل مع زوجتي خديجة، إلى أن حل ذلك اليوم الذي قررت فيه أن أحدث الحارس المتعاطف معي في الموضوع. قبل هذا الأخير دون تردد

وجاءني بورقة وقلم وشمعة وعود الثقاب، فكتبت رسالتين، الأولى إلى زوجتي والثانية لمشغلها الدكتور هادي مسواك، طارت الرسالتان إلى الرباط وبقيت انتظر على احر من الجمر. كانت الرسالة الموجهة إلى خديجة زوجتي عبارة عن بضعة أسطر أقول فيها: «أكتب إليك من تازمامارت بين قصر السوق (الراشيدية) وميدلت. وأنا مسجون ليل نهار في زنزانة ضيقة مظلمة ورطبة. كل شيء هنا ممنوع بما في ذلك الشمس والهواء النقي. لم أظن أبدا أنني سأنقل علي متن طائرة مثل طرد معصوب العينين ومصفد اليدين، إن السلطات العليا كما قيل لنا هي التي نقلتنا إلى هنا سرا، مازلنا نجهل سبب هذا الدفن المفاجئ. اعرف أنك قلقة لهذا أطلب منك الصبر - الله كبير - لقد خاطر الحارس من اجلي، لابد من اعطائه المال ليبتاع لي الأكل والدواء، هنا المجاعة فلا طبيب ولا دواء، إن المبعوث رجل ثقة وصديق بكى بمجرد أن رآني. أقبلكم جميعا، اعتني بالأطفال ولا تقنطي من رحمة الله، أما أنا فقادر علي تحمل كل شيء. استسمحك على الخط لأن المكان مظلم». بعد مرور أسبوع توصلت بالرد. فتأثرت له وبدأت أرتجف مثل ورقة في مهب الريح واغرورقت عيناي بالدموع حتى أنه تعذر علي قراءة الرسالة، كان الرد مفعما بالحنان والنصائح والدعوات وأخبار الأطفال. وأنا أقرأ الخطاب اعتراني احساس غريب، احساس بالقوة، بنوع من الثقة في النفس واختلط الأمل في ذهني بالخيال المريح. وبدا كأن شيئا ما ينبجس في دمي وينمو وربما كان ذلك هو الإصرار الذي ساعدني على الصمود طويلا في هذا الجحيم. كانت الرسالة تحتوي أيضا علي بعض المال، مما سمح لي أن اشتري، عن طريق الحارس، كبسولة من غانيدان والكالسيوم واسبرين وبعض التمر ولتر من زيت الزيتون وابتعت - ويالي من متهور - علب سجائر لتسميم جسمي! ومازلت - بالمناسبة - أتذكر أيامي الأولى في السجن وما جرى لي مع أحد الحراس، فقد سألني: ماذا تريد أن أقول للمدير؟ هل نسيت أنه منعنا من الحديث إليكم؟» طلبت منه بمكر «اذهب وقل له بأن المسمى الرايس يريد سجائر لأنه لا يستطيع التخلي عنها فهو مدخن كبير»

هز الحارس رأسه ساخرا: «فهمتك، باغي الكارو، مايمكنش تعيش بلابيه»؟ أجبته أن نعم، فهي ضرورية لي. فجأة انفجر الزملاء الذين كانوا يتابعون الحديث ضاحكين، ولم يستطع الحارس نفسه أن يكتم الضحك، وقتها أدركت الخطأ الذي ارتكبته لأنه من غير المعقول أن يطلب المرء سيجارة في الظروف التي أنا فيها!

اطلعت رفاقي في المحنة على اتصالي بزوجتي، بل قرأت رسالتها،

اندهشوا للحدث وبعضهم استغل المناسبة وطلب من الحارس أن يقدم له خدمة، شجع ذلك على القيام برحلة أخرى بعد بضعة أسابيع، لا سيما مع المكافأة التي عرضوها عليه. بعض الحراس أثار سلوكه فضولهم وحسده آخرون وخاف فريق ثالث منهم فأخبر المدير بالقضية ونصب له فخا بمجرد عودته إلى المحطة الطرقية بالريش فوجئ الحارس ولم يجد الوقت الكافي للتخلص مما بحوزته فضبط متلبسا واعتقل لمدة 60 يوما ثم أحيل على المعاش النسبي.

كان من المؤلم حقا أن نرى ما حدث له وكان ذهابه خسارة كبرى شلتني شخصيا، واعتبرتها أول كارثة كبيرة تمسني في تازمامارت.

هذا الحادث جعل الحراس أكثر حيطة وحذرا، كما أنه أثر على النظام الغذائي فتهاطلت علينا عقوبات الحرمان من الغذاء لأدنى سبب. كان الحراس يريدون منا الخضوع التام والطاعة العمياء، وإذا ما تجرأ الفرد أو الجماعة على تقديم أي طلب نزل العقاب القاسي نفسه: الحرمان من الأكل لمدة 4 أيام، بدون ماء! هل كانوا على علم بأنه لا وجود لأي قانون يحرم السجين من الأكل؟ إن بعضهم كان يجهل ذلك جهلا تاما في حين كان آخرون يعرفون بأنه خرق للقانون لكنهم ادعوا أنهم مجرد منفذين لأوامر مديرهم الذي كان مصاص دماء هدفه قتلنا على مهل. كان الحراس أميين، كما أنهم كانوا من أفراد «الكوم» أو الميلشيا الاسبانية الذين أدمجوا وكانوا يحقدون علينا مثل الجرب. وقد بادلناهم حقدا بحقد، واستفزازا بغضب (...)

بعد ذهاب حارسنا، تعرض الحراس لمعاملة قاسية من طرف رؤسائهم الذين اتهموهم بالتوادد معنا فصدرت الأوامر مجددا بمنعهم من الاقتراب أو التحدث إلينا، وهكذا ساد صمت مطلق بيننا من منتصف دجنبر 73 إلى شهر ماي 73 على الأقل، كما أننا لم نحصل على أي خبر من الخارج أو اتصال مع عائلاتنا فزاد هزالنا وبرزت عظام الكثيرين منا، اسودت وجوه البعض رغم انعدام الشمس واصفرت أخرى، وأصيب العديد منا بالمرض وتدهورت صحتهم بلا دواء أو طبيب واتسخت أجسامنا وكبر شعرنا والتهمت لحانا وجوهنا حتى غابت ملامحنا وصعب التعرف علينا.

حدث ذات يوم قبل نهاية السنة أن جاء الحارس بمعيه شخص مجهول وفتح الزنزانة 27 التي أودع فيها أغلول وسأل الزائر: هذا هو

اللي بغيت اتشوف؟

□ هو بالذات، واش عرفتيني كابيطان؟

■ لا ما ذكرتكش.

□ أنا سي لحسن خدمت معاك من 1963 في غليمين كنت سكرتيرا.

■ واعرفت ذيك لوقيتا كنت مسؤول على 250 عسكري وبزاف ديال الكتاب.. انسيت.

□ لكن مايمكنش تنس العسكري الجديد اللي قرصت ليه وذنيه وصرفقتيه شحال من مرة على خطأ في الآلة الكاتبة أو «بون» ما معمرش مزيان

□ آه دابا فهمت جيت تنتقم يمكن تصفع ايلا بغيت... كيفاش جيت دابا؟

■ هاذي مجرد زيارة، الله يسامح علي التصرفيق، وعلى كل حال هاذ شي اللي علمني الخدمة ودابا أنا سرجان والكاتب الخاص ديال المدير وداك الشي علاش خلاوني نزورك.

□ وباش تنتقم جيت حتى لعندي ضد الأوامر..

■ كاتعرف مون كابيطان الحياة بحال الرويضة كدور قال في الأخير هذا الزائر قبل أن يغادر المكان ساخرا.

يصرخ ويقرأ القرآن وينادي أمه..

ان للمخزن، حتى في أسفل سلمه، انتقامه وحقده. هكذا غير الحراس من اسلوب توزيع الوجبات تفاديا لأي لقاء مباشر او ثرثرة غير مجدية.. بدأوا يفتحون الباب ويضعون «الصحن» ثم يغلقون الباب فورا ليخرجوا بعدها الى الساحة في انتظار الطنجرة، وعندما ينهي «النادلون» (الموزعون) ملء قرافاتنا، كان الحراس يفتحون الابواب مرة اخرى لنأخذ غداءنا ثم يغلقونها ويغادرون البناية. وللاسف اتذكر حادثين فقط سأسردهما. هنا. كان احد الحراس قد ادى الخدمة في

الستينيات معنا في اهرمومو، فتح ذات يوم الباب وطلب من غلول ان يأخذ حصته من الغذاء، تهادى هذا الاخير في مشيته وتعطل قليلا فدع السجان الصحن برجله قائلا: «خذ غداءك فليس لدي الوقت لانتظرك» فاجابه غلول «لماذا تدفع الصحن هل انا كلبك؟ ان عملك هذا مهين وغير لبق علما بأنك كنت ضابط صف في الجيش الفرنسي».

- انت سجين وليس لك الحق في ابداء اية ملاحظة.

- هل نسيت انني كنت قبطانك وانك كنت تجثو لكي تؤدي التحية. واليوم تتجرأ على دفع صحني برجلك لترهيبي، ليكن في علمك بانني حتى وان فقدت النياشين مازلت احتفظ في اعماقي بكبرياء القبطان. اما الصحن فلن آخذه ويمكنك اغلاق الباب» فكان ذلك وظلت الشربة في البهو وجبة ويالها من وجبة للفئران الحشرات.

حدث ايضا ان سأل حارس آخر رفيقنا مرزاق احمد: «اسمعك تتلو القرآن دوما هل تحفظه عن ظهر قلب؟»

- اجابه مرزاق: نعم لقد حفظته وانا طفل في جبالة لأن ذلك اجباري عندنا.

- انا ايضا حفظته وعمري *14* سنة واجد في استظهاره او الاستماع اليه سعادة عالية. ان القرآن راحة للنفس وشفاء للصدور يمنعنا من ارتكاب المعاصي.. انتبه الحارس الى انه تأخر عن رفقائه. وقبل ان يغلق الباب دفع بقدمه الصحن نحو مرزاق قائلا:

- آه، تعطلت خذ زمرك وادخل! انحنى السجين ليأخذ طعامه وهو يقول بأدب وهدوء: «ان الاسلام ليس هو حفظ القرآن فقط او اداء الصلوات خمس مرات بل الاسلام ان تحترم الآخرين وتعاملهم برفق وأدب وما فعلته وقلته هو ذنب ومعصية».

غضب السجان فاغلق الباب في وجهه قائلا: «ما شي انت اللي غدي تعلمني الادب. انا اعرف الدين احسن منك وما عندك ما تعلمني».

فرد عليه السجين رافعا صوته من داخل الزنزانة «انت تدعى معرفتك بالاسلام لكنك تنسى بانه منزل في القرآن الكريم ان احسنوا الى السائل واليتيم وابن السبيل والاسير».

ذهب السجان الى حال سبيله وانتهت الحادثة لكنه ظل يحمل له غلا

ثابتا.

مرت علينا ستة اشهر في تازمامارت وتعودت على التواصل عبر الجدران مع اشخاص لم اعرفهم من قبل. ولا أراهم الآن. فقد كنا نتعرف على بعضنا بالاصوات التي يحاول كل واحد منا ان يخمن منها هيأة محدثه. وطالما اخطأنا في التقدير اذ ان البعض كان غليظ الصوت وتبين فيما بعد انه قصير القامة عكس ما اعتقدنا.

لقد جعلنا طول المدة نتعرف اكثر على طبائع بعضنا البعض، فمنا المكتئبون والمتكتمون والمرحون، اما الثرثارون فسرعان ما كشفوا عن فرادتهم دون ان ننسى «النوامين» والسهاد. ورغم انني كنت سجين اربعة جدران فقد نجحت في تمييز كل واحد من سعاله، وطريقة عطسته ومن سخريته المتميزة.

في البداية حاول كل واحد منا ان يظهر الجانب الجميل فيه فقط باذلا مجهودا كبيرا في اخفاء العيوب التي ستظهر فيما بعد. لانه لا أحد معصوم من الخطأ. لقد كانت بنايتنا مكونة من اشخاص متنافري الامزجة. فهل هي الصدفة ام قانون «الطبيعة» لايهم الجواب والمهم هو انه كان بيننا الطيبون والسيئون، العنيفون والهادئون كان هناك ايضا المتفائلون الذين يؤمنون بكل شيء. ويأملون كل شيء وينتظرون مفاجأة ما. عفوا او معجزة. هؤلاء كانوا طلاب الخارق. وكان من بيننا المتشائمون الذين لا ينتظرون شيئا ولا يؤمنون بشيء تقريبا. هناك المتكتمون بالسليقة والذين يرفضون تبديد طاقتهم في الحديث. ولعلهم كانوا الاكثر خسرانا بسبب نظرتهم الخاطئة. مقابل ذلك كان الذين يتحدثون كثيرا يقضون الوقت ويبددون الزمن داخل السجن. وكان الورعون المؤمنون يقضون سواد ليلهم ونهارهم في الصلاة والتضرع الى الله وتلاوة القرآن دائما. وكان «الخنوعون» بيننا قلة. اما الاغلبية فكانت تتمرد وتتشاجر مع الحراس الذين لقبوهم ب «الريوس السخونة» بعضنا كان هادئ الطبع يتميز ببرودة اعصاب هائلة ويفضل حل الخلافات بالتوافق وبالتي هي احسن، والبعض الآخر، وهم المتطرفون، الذين اختاروا المواجهة وكنت للاسف. منهم. وكثيرا ما قارنت بنايتنا بلوحة تجريدية لا افهم منها شيئا او أسمال متسول رتقت الف مرة.

كانت سحنات رفاقنا بكل الالوان: السوداء، السمراء، البيضاء، الشقراء، واغلبهم من البادية والقلة من الحضر، لكنها كانت المهيمنة وصاحبة القرار فيما يخص القضايا الجماعية، كان السجناء من اصل عربي اكثر عددا من رفاقهم ذوي الاصول الامازيغية. كان بيننا ايضا شبان تنقصهم

التجربة ومسنون عركتهم الحياة وقد كان الفارق العمري سببا في العديد من الخلافات حول التنظيم او القرارات الجماعية وكرس صراعا بين الجيلين تسبب في عدم الثقة بيننا. فكان الفريق الاول يخشى حيلة الفريق الثاني وهذا الاخير يحتاط من مفاجآت الشبان وتهورهم.

ولعل احدى مآسي تازمامات كانت تكمن في هذا الخليط من عناصر الطيران. والمشاة (نظرا لتمايز الامزجة) وفي وجود ضباط وضباط صف كانوا في السابق مرؤوسيهم. فقد كان الضباط يرفضون المعاملة بالمثل وعلى قدم المساواة مع ضباط الصف وكان الفريق الثاني يرفض اية امتيازات او تفضيلية. فلأقل سبب مهما صغرت حيثياته كان الضباط يلحون على أنهم الرؤساء فيجيبهم الآخرون بالقول: «ذاك الشي كان من قبل، دابا كلنا محابيس» وكثيرا ما سمعنا: «هنا نفس النظام يسري على الجميع».

فلا فرق في الرتبة او السن. في تازمامارت رغم الجحيم. فاننا على الاقل متساوون. و هنا دمقراطية ربما لا نجدها في كل افريقيا»! بل هناك من راى في السجن نوعا من الحشر، او اليوم الآخر والصراط حيث لا فرق!

كان ذلك خطأ فادحا وعبثا وسيفهمون ذلك فيما بعدو يقرون بالخطإ. سيلاحظون مع مرور الزمن انه حتى في هذا الجحيم، فان التمييز لن يختفي.. وان الرشوة ستفعل فعلها. لقد نخرت الروح القبلية بعضنا وظهر تعاطف الحراس من رتبة ضباط الصف مع السجناء من نفس الرتبة واضحى السجانون ينادون على زملائهم باسمائهم الشخصية في حين اصروا على مناداة الضباط بالارقام.

ربما يبدو هذا تفصيلا تافها، لكن هل كان لزاما على المرء ان يسجن في تازمامارت لكي يحس بمدى الغبن المهين.

فيما يخصني بما انني «اسبيران» (مرشح ضابط) فقد كنت اداريا ضابط صف لكنه يتمتع ببعض الحقوق والاحترام المخول للضباط: وبمعنى من المعاني كنت «ابرة» الميزان مابين هاتين الفئتين في تازمامارت: فلم اكن الاكبر سنا نظرا لمن هم اكبر مني وهو صلاح حشاد الذي «يعقل» على الشاحنات البخارية ونقود الورق المقوى. ولم اكن الاصغر سنا لوجود بوحيدة احمد الذي لا يتذكر نفي المغفور له محمد الخامس ولا عودته من المنفى. ونظرا لهذا الوضع المحرج فكنت استنكف عن الخوض في اي تعليق تافه يخص مصيرنا او مدة بقائنا في المعتقل.

وفي الواقع كنت اخفي افكاري المحبطة حتى لا اثبط عزائم بعض رهيفي الاحساس او اصدم المفرطين في التفاؤل. ربما سيقال انت لم يكن لديك ما تخسره سواء بقينا في السجن او غادرناه لانه محكوم عليك بالمؤبد» لكن ساقول: كم كنتم مخطئين الا تعرفون ان هناك دائما املا مادامت هناك الحياة؟ ربما لم تدروا بانني مثلكم اتوصل معجزة او اتسولها.

تلك المعجزة التي ستحدث ذات يوم والتي دفعتني الى المقاومة بكل قوة.

لم يكن لدي ابدا ايمان المؤمن ولا شغف المقامر ولا شجاعة المغامر او حب المخاطرة لدى صائد النمور. بل كنت من انصار الكسل. غير ان عنادا مرضيا دفعني الى رفع التحدي ومبارزة الموت التي اقسمت على افنائنا، الواحد تلو الآخر، بلا شفقة او رحمة. لهذا السبب كنت من بين الذين دعوا إلى تنظيم أنفسنا وضبط جدول زمني يلتزم به الجميع، أي الصمت المطلق في وقت القيلولة حيث يمنع على أي كان الحديث قبل إعلان الاستيقاظ من طرف شخص نختاره بالتناوب، أو إزعاج النزلاء ليلا اللهم في حالة الضرورة القصوى. هناك من رفض الانصياع في البداية لكنه سرعان ما وعى خطورة ما يتهدد صحته وصحة الآخرين. ذلك لأن التلوث الصوتي كان قاتلا في الظروف التي كنا نعيش وقد كنت مقتنعا أشد الاقتناع بأن الهدف من العزلة في الزنازن الانفرادية كانت خادعة تمتص نسغ الكائن وتهد روحه التي بدأت التجاعيد تعلوها. وإهدار قوته تخيفه من كل شيء حتى من المحيط الذي عاش فيه لحظات سعيدة، وبمجرد أن يقضي عقوبته يلقى به في الخارج وقد جفت ذاكرته ووضعت عليه بطاقة كتب عليها: «شخص مروض، تائب، مدجن... لكنه نصف أحمق».

كان الشتاء قاسيا وصارت البلاطة أكثر برودة ولم يعد الغطاءان المهترئان يجديان في شيء أمام الجو الجليدي، إضافة إلى أن الطعام البئيس كان بلا مفعول والرائحة النتنة ونقص الأوكسجين جعلا حياتنا أصعب وأكثر رتابة، فقررنا أن نؤثث وقتنا الكئيب رغم رفض البعض إقرار استعمال زمني صارم مفضلين الدردشة على حفظ القرآن أو تعلم اللغات الحية. وحتى نلبي رغبات الجميع خصصنا ساعات فراغ للذين يودون تجاذب أطراف الحديث أو المناقشة. يوم الجمعة، المقدس خصصناه للخوض في المواضيع الدينية والوطنية والتلاوة الجماعية لآيات من الذكر الحكيم. أما الأحد، فقد خصصناه للتسلية، يقوم فيه كل واحد منا بالغناء وحكاية النوادر.

كنا نحاول أن ننسى وننغمس في الملذات العابرة لعلها تلهينا عن مآساتنا القائمة. وتنسينا السنة الأولى في تازمامارت، السنة الصعبة والمرة. كان علينا أن نقاوم لكي نظل أحياء بعد السجن، وقد تعودت، في آخر المطاف، على وضعيتي الجديدة ووجود المحروم من الحرية. وقد جاء هذا التعود صعبا وطويلا وكان أبشع فترات حياتي ولاشك وترك في بصمات لا تنمحي. ولم يخطر ببالي أبدا أن الإنسان يستطيع أن يتعود على حياة مثل هذه، وكما يقول المثل الدارج: «الزمان كيثقب الصمّْ». وكنا غير مبالين بما يخبئه لنا الزمن نحلم ولا أحد يمنعنا من ذلك.

كان المدير يأتي يوميا لمراقبة المكان والحراس، ولكي يتأكد أساسا من تدهور حالتنا الصحية، فبعد عدة حوادث بدأ يزورنا شخصيا للتأكد من احترام التعليمات.

كانت أبواب زنازننا تتوفر على مَنْور (كوة صغيرة) تفتح من الخارج فقط، خصصت مبدئيا لتوزيع الطعام، وهو ما لم يراعه الحراس أبدا. ذات مرة نسي أحد الحراس - بسبب ثمالته ولاشك - إغلاق باب إحدى الزنازن. لما غادر هو وزملاؤه المكان، خرج نزيل الزنزانة المذكورة وفتح جميع الكوات (المناور). اتفقنا على إنجاز نظام بدائي لفتح وإغلاق هذه المناور دون علم الحراس طبعا. هكذا ربطنا لسان القفل بخيط من الخارج ومررناه إلى الداخل، بحيث يكفي جذب الخيط لكي تفتح الكوة. وكنا نستغل هذه الحيلة في غياب الحراس لشم الهواء الأقل نتانة في البهو وللدردشة الهامسة بين الجيران، وهو ما كنا في حاجة ماسة إليه حفاظا على أعصابنا ومعنوياتنا وبصرنا. ومن سوء الحظ أن هذه الفرصة الخارقة لم تدم سوى أسبوع واحد بسبب إهمال أحد الرفاق. فقد لاحظ أحد الحراس هذه الحيلة، فقام هو وزملاؤه بنزع جميع الخيوط وأعادوا الكوات إلى سالف عهدها متوعِّدين بالويل والثبور إذا ما تكرر الأمر. وانتظرنا فرصة أخرى، تكررت بعدها مرارا وذقنا بسببها الجزاء والمرارة والحرمان من الأكل. وفي الأخير، قرر الحراس استعمال أسلاك معدنية وكلابة لقبض وشبك القفل بلسانه المعدني.*PITON* ونجحوا بذلك في القضاء على «عملية الانفتاح» التي قمنا بها لسنوات عديدة.

في الصيف كانت زنازننا عبارة عن إفرانات. في الشتاء كان التنفس يصعب ونكاد نختنق بفعل الرطوبة.

مرت ستة أشهر، ونحن على هذه الحال، فبدأ أحد رفاقنا الذي لم

يتحمل هذه المعاناة يفقد صوابه ويهذي. كانت الظلمة تزيد من مخاوفه ووساوسه والعزلة تفتك باعماقه. وتدرج حمقه بفعل الاستيهامات والتهيؤات. بدأ يعتقد انه ليس وحيدا في الزنزانة، ويتخيل أشياء لا تصدق، تارة يتخيل أمه التي كان يحبها كثيرا إلى جانبه وتارة أخرى زوجته الشابة وابنته الوحيدة. وعندما نساله لماذا تحدث نفسك، يجيب بأنه برفقة ضيوف أو يشرب الشاي مع عائلته.

أحيانا كثيرة كان يصرخ أو يقرأ القرآن جهرا. هذا الرفيق هو الليوتنان محمد بن شمسي، طيار حربي حكم عليه بـ *3* سنوات سجنا في قضية طائرة البوينغ الملكية سنة *1972*. كان قد قضى نصف عقوبته وهي بمثابة أبد طويل في تازمامارت كان مطلع فبراير قائلا بالنسبة له: ذات ليلة صرخ طويلا وتوسل إلى أمه لتنقذه ثم صمت فجاة، في يوم الغد فتح الحراس زنزانته فوجدوه ميتا، ملقى على الأرض وسط بركة ماء، عاريا كما ولدته أمه وقد امسك بيده دلو الماء فارغا وعيناه شاخصتان كما لو كانتا من زجاج.. لن يصرخ شمسي أبدا.

في حضرة الثعابين

يوم *22* فبراير *1974* كان يوم حداد، فقدنا فيه كائنا بشريا. ويبدو أن محمد شمسي تصبب عرقا من كثرة الصراخ والحركة، فتعرى ثم صب على رأسه وجسده إبريق ماء مثلج، لأن الفصل شتاء. فخرّ صريعا في الحال بفعل إغماءة نهائية. نقل الحراس ما حدث الى المدير فامرهم بدفنه فورا في الساحة القاحلة للمعتقل، فوارى جثمانه الثرى بدون غسل أو كفن أو صلاة جنازة أو طقوس دينية أخرى.

أقبر كما تقبر الكلاب المسعورة. كانت الساعة العاشرة صباحا عندما دخل الحراس إلى زنزانته وحملوه ثم وضعوه في غطائه المتسخ المبقع بالفضلات ثم حملوه إلى الخارج.. سمعنا صرير النقالة (بَرْويط) وهي تنقل الجير وتفرغ فوق جثمانه. قبل إخفاء أي أثر للجريمة. لقد مات شمسي، لكن اسمه سيظل منحوتا في قلوبنا إلى الأبد.

لقد اعتقد جميع الرفاق بأنه سيحصل تغير في النظام أو على الأقل بعض من التحسن فيه بعد هذه المأساة، لكن ذلك الأمل كان كاذبا، وحصل العكس، حيث أصبح جحيميا أكثر فأكثر، وتدهورت حالتنا الصحية أكثر فأكثر وخارت قوانا وأصبح الأكل أقل «جودة» مما كان عليه وزادت عدوانية الحرس فانهارت المعنويات مما جعل الأجواء أكثر كآبة وثقلا.

ونال منا اليأس، تلك الآفة القاتلة في وضعيتنا، لأن موت شمسي هز كياننا وبدأنا نتساءل: كيف يمكن لشمسي الرياضي، الصلب والسليم عقلا وجسما أن يموت على هذا النحو. ما من شك أن معنوياته انهارت ولم يستطع تحمل انتظار انقضاء عقوبته. بعضنا ادعى أن «الجنون ضربوه»، البعض الآخر قال بالتسمم التدريجي. أحدنا افترض بأنه ربما كان عرضة لميكروب أو فيروس؟ لكن عقب عليه أحد الرفاق الآخرين الذين يؤمن بما يحكيه والداه: «لا، الجنون هما اللي كايديروا بحال هاذ الشي. وشمسي كان ساكنو جن». من جهة أخرى، استبدت فكرة التسميم بعقل عبد السلام حيفي على الخصوص الذي كان يشطح به الخيال فيرى أشياء لا تصدق بدأت تنأى به نحو الجنون. فطلب من جاره القابع في الزنزانة المقابلة أن يراقب جيدا الحراس عند توزيع الطعام لأنهم قد يضعون السم في صحنه بالكولوار. سأله جاره: علاش غايديرو ليك السم غير أنت بالضبط وما يديروهش لواحد آخر» أجاب حيفي بكل تؤدة وهدوء «دارو السم لشمسي لأنه ليوتنان وأنا بحالو عندي نفس لغْرادْ وداباجا الدور ديالي.. دِيرْ شي اللي كللت لك وغادي حتى أنا نْراقْب الطبسيل دْيالك».

هكذا بدأ رفيقنا العزيز يخطو تدريجيا على طريق المعاناة التي ستقوده إلى الحمق، صديقنا الليوتنان السابق عبد السلام حيفي الذي كان رفاقه ينادونه بـ «هنري بوب»، المنحدر من تاونات (ناحية فاس) المحكوم عليه بـ 20 سنة سجنا في قضية الصخيرات، المزداد سنة 1946، المتوسط القامة، الرياضي بشعره الأشقر الطويل الذي يعطيه مظهر شخص اسكندنافي. كان حيفي يبدي جدية في العمل لا يضاهيها سوى حبه للمزاح والتسلية في أوقات الفراغ، هادئ الطباع بشوشا، طيب المعشر وصافي الذهن يحب كل الناس.

لقد قضت المأساة الشتوية على شمسي وذهبت بصواب حيفي. فساءت الأجواء في البناية وأصبح الرفاق أكثر حساسية وعدوانية

وغضبا.

وقضينا الشتاء نرتعش بقميص وسترة (فيستة) صيفيين، بدون لباس صوفي أو جوارب. كان البُرْد يرقصنا عُنْوَة واسناننا تصطك باستمرار. أما التجول، ذهابا وآيابا في الفضاء الضيق للزنزانة فقد سبب لنا الدوخة، غالبا ما كنا نغني بصوت مرتفع أو نتلو القرآن أو ننادي بعضنا البعض بأصوات مرتفعة عمدا لعلنا نتدفأ بأصواتنا ونقاتل عدونا اللامرئي: الشتاء.

وبقينا على هذه الحال إلى حدود يونيو، لأن الربيع لاوجود له في تازمامارت. وحل ذلك اليوم الذي طال انتظاره بشغف، فنسي أحد الحراس إغلاق زنزانة السوليوتنان سعودي (رقم؟). بعد رحيل السجان فتح رفيقنا الباب دون تردد وفتح كل الكوات محاذرا ألا يفل السلك الحديدي. وبما أن الحراس كانوا دائما يتفحصون الكوات فقد قررنا أن نكسر المفصلة الصغيرة التي تربط مؤخرة القفل بالكوة وتعويضها بسلك حلزوني مشدود إلى خيط صغير مخبأ بعناية في شق صغير بين الكوة والجزء الداخلي للباب، كما أعدنا الباقي الى سابق عهده كما تركه الحراس. وظاهريا بدا كل ذلك عاديا ما دام الخيط الصغير لا يرى وسمح لنا أن نفتح الكوة ونغلقها كما نشاء. دام الحال مدة شهر، لكن اهمال أحد رفاقنا كشف الأمر مرة أخرى عندما لاحظ حارس يدعى بنغازي الوضع المريب للكوة. استشاط الحراس كلهم غضبا لأنهم خدعوا مرة أخرى فنقلوا إلى المدير فورا هذا التخريب العمد لأملاك الدولة، جاء القبطان المدير حالا ليتأكد بنفسه من التخريب، وكان بديهيا ان هذه الحادثة ستفاقم من حالتنا. بعد انتهاء مراقبته توجه إلينا المدير مباشرة بصوته المفعم حقدا وغلا: «هرستو ماترياال اديال المخزن؟ دابا الوقت توريكم شكون غادي يهرس الآخر. أنا واللانتوما.. دابا تشوفوا». بعد توبيخه لمرؤوسيه أعطى تعليماته لتشديد العقوبة، وكانت النتيجة الفورية لذلك هو الطعام الذي أصبح أسوأ من السابق. وبطبيعة الحال، زاد الحراس من عدوانيتهم وحذرهم المعتادين، بعدما تلقوه من إهانات يندى لها الجبين من طرف المدير. ولعل من سخرية القدر أو المزاج العكر أنهم كانوا دائما يرددون على مسامعنا «ها النتيجة ديال الخير، مادير خير ما يطرا باس. نسيتو آش عملنا معاكم، حنا كانحاولوا نعاملوكم بحال بنادم ونتوما كترددوا بهاذ الطريقة. خاصكم اتعرفوا راه حتى ولوا ما عطيناكم الماكلة حتي واحد ما يسيق

خبار والرؤسا الديالنا كايعتبركم حشرات».

دار الحوار بيننا، كنا نتهمهم بأنهم شركاء في هذ المأساة وأنهم واعون بعملهم الإجرامي، كانوا يجيبون بأنهم مجرد منفذين لا حول ولا قوة لهم. وسرعان ما نحا الحوار منحى آخر واتخذ لهجة مغايرة تهديدية. ولما أحس الحراس بالإهانة أجابوا «من الآن فصاعدا سنغير المعاملة مادمتم تصمون آذانكم عن أي فهم وتتهموننا بأننا كفار.. وعليه سنصبح كفارا معكم».

غادروا المكان على إثر هذا الحوار وصفقوا الأبواب خلفهم. ومساء نفس اليوم عادوا لإصلاح ما خربناه مستعملين أسلاكا حديدية أكثر صلابة ومسامير لولبية وقباضات إلخ، وغادروا المكان راضين مرضيين بعد أن أفشلوا عمليتنا التي أطلقنا عليها «عملية فريشنيس» FRICHI-NESS. ومن حسن حظنا أننا لم نفقد الأمل تماما واقتنعنا بأنهم ربحوا المعركة ولم يربحوا الحرب. فأقسمنا أن ننال ثأرنا والثأر «وجبة تؤكل باردة» حسب المثال المأثور. وقد سنحت الفرصة بعد سنوات، فأعدنا الكرة مرة أخرى وتصرفوا نفس التصرف، كان هدفهم أن يحرمونا من الهواء النقي وكنا نسرق منهم بعض أنفاس لملء رئاتنا.

سنة 1974، كان الشتاء قاسيا، أكثر من المعتاد، جليديا حمل معه بردا سيبيريا ولم نكن نملك سوى البلاطة الاسمنتية كسرير، وبما أن السماء كانت تمطر باستمرار والرياح تعوي ليل نهار فقد كانت ترفع سقف «الزنك» (الصفح) محدثة ضجيجا لايطاق ويفل الاعصاب، فساد جو رهيب ومرعب. فقد بني سجن تازمامارت بعجالة لأسباب خاصة، وكل ما فيه كان حديثا إلا الأساليب القروسطوية لتصفيتنا؟ ولم يتم استكمال بنائه لأن الأشغال توقفت ولاشك بسبب مجيئنا المفاجئ، لأن الزنازن كانت لاتزال تحتفظ بقطع خشبية في السقف لم يتم نزعها ومسامير في السقف والجدران. والاسمنت المسلح مازال «طريا» وفي حاجة الى الكثير من المياه ليتماسك أكثر، وهو الشيء الذي أحدث شروخا عديدة في البناء، أصابت السقف والجدران واتسعت مع مرور الوقت. تسربت المياه من السقوف - الغربالية - وأغرقت أرضية الزنازن كلها. بعض الرفاق تبللت بلاطاتهم وغطاءاتهم. وكنت من المحظوظين الذين ظلت بلاطاتهم سليمة، لكن الماء غمر أرضية زنزانتي. هناك من الرفاق من قضى الليالي والأيام في وضعية «المكسيكيين» أو جالسا القرفصاء في ركن في انتظار

ان يتوقف المطر وتطلع الشمس لعل الماء المتجمع فوق السطوح يتبخر. كان السجين الزموري محمد، الليوتنان في الطيران، كلما هطل المطر، يقضي الليالي الطوال ملتفا في غطائه وقد وقف بالقرب من المرحاض حيث لا يقطر السقف. كان يقضي ليالي بيضاء يرتعد من البرد منتظرا الصباح ومقدم الحراس ليطلب مكنسة يفرغ بها الماء من زنزانته. وما فتيء طوال هذه المدة الشتوية يطلب من الحراس ان يأذنوا إليه بقضاء بعض الوقت في زنزانة مجاورة بعد أن انهكه السهر وخارت قواه. وامام رفض الحراس القطعي ترجاهم أن يطلعوا المدير حتى يأذن لهم بتبليط السقف المتهاوي. واحتج الرفاق كلهم أيضا وطالبوا باتخاذ الإجراءات الضرورية .قام الحراس أنفسهم بتبليغ مدير السجن، لأنهم كانوا بدورهم يتخبطون في المياه كلما أدوا مهامهم في الأبهاء العائمة، قدمت وعود ووعود ولم يتم أي شيء، وكان علينا أن ننتظر 10 سنوات حتى يتم إصلاح سقف الزنازن. وظل البرد ينخر عظامنا ويحفرها إلى حدود النخاع الشوكي، وانضاف إلى الجوع الذي فتت احشاءنا.

كنا تحت رحمة التساقطات المطرية التي اغرقت زنازننا، ولم يكن احد يسمع الصراخ ولا يحرك ساكنا إن هو سمعه، لأن التعليمات كانت صارمة. لقد كنا هناك من أجل الموت ولم يكن المسؤولون يتعجلون ذلك فقد برهنوا على صبر عميق. المهم هو أن يكون الاحتضار قاسيا وطويلا. ففي آلام البعض، كان البعض الآخر يجد لذة واستمتاعا ممزوجين بالسادية.

في كل بناية من بنايات السجن كان فريقان من الحراس يتناوبان على الخدمة كل 24 ساعة. كان رئيس حرسنا يسمى احمد ش وهو شخص قاس وبذيء، قصير القامة، فاحم اللون ونظراته حاقدة. كان يحقد علينا ولم يكن السبب هو الانقلاب، بل كراهيته للمتعلمين والمثقفين ولكل ما يجعله يحس بضعته. كان هو الذي قام بتلحيم بعض كوات الزنازن. فقد استغل حضور لحام جاء للقيام ببعض الأشغال داخل السجن فطلب منه تلحيم الكوات حتى لا نستطيع فتحها مجددا.

ولعل حسن الطالع هو الذي جعل قنينة الغاز تستنفد حمولتها بعد تلحيم اربع منها فقط، ألح لاجودان شاف على إتمام العملية فوعده عامل التلحيم بالعودة في اليوم الموالي، لكننا لم نره بعدها أبدا. هل كان ذلك بسبب النسيان أم صحوة الضمير؟ لست أدري، لكن كبير الحراس اغتاظ

للامر فضاعف من المراقبة كل صباح وزادت شراسته فقرر خنقنا. لأنه كان يجد لذته في معاناتنا. ومن جهتنا أقسمنا على أن نفوت عليه الفرصة وألا نخضع له. هذا الشخص الذي كان مصدر مآسينا من قبيلة هجانية (تيسة) ناحية فاس التحق بالجيش سنة 1950 وشارك في الحرب الهند الصينية وفي قمع مظاهرات الدارالبيضاء وضد المقاومة المغربية في 1955 .. وماكانت الحرب إلا لتزيد من فضاظته وغلظة قلبه واحتقاره للآخرين. كان يكره الجميع والجميع يكرهه، ولم يفز بصديق أبدا كما أنه لم يحاول الارتباط بأية صداقة مع أي كان.

أما الفرقة الثانية من الحراس فقد كان يديرها لاجودان محمد بن محجوب وهو من بني ملال، يعرف القراءة والكتابة، التحق بالجندية بعد الاستقلال، كان محجوب شخصا مستقيما، واعيا ولا يمارس أي شطط، كان يعي بأن ما يحدث غير قانوني لكن النظام في تازمامارت لايسمح بأي خرق، ماكان يعجبني فيه هو برودة أعصابه ولباقته وأدبه، أما المشرف على البناية الثانية فقد كان لاجودان شاف ف.حميدة، وقد سبق له أن عمل في بنايتنا عدة سنوات، وهو شخص كئيب، بلاوعي أو ضمير ولاشخصية أيضا، ينعدم لديه أدنى إحساس بشري، خدم في الجيش الفرنسي مدة 15 سنة (1965/1950) وظل على حاله وقصر نظره وفظاظته التي لايقابلها سوى مزاحه في وقت التسلية. كان ينفذ الاوامر بلا أدنى تفكير مثل جلاد، المهم هو التنفيذ وقبض المقابل ولايهم ما يحدثه في الناس.

وقد كان هو وبن إدريس المسؤولين الأولين المباشرين عن موت بعض رفاقنا في المحنة، وسأتحدث عن ذلك فيما بعد بالتفاصيل.

أما البقية فقد كانت بيادق في رقعة شطرنج باستثناء ربما السرجان شاف سعيد المنحدر من بني عالم منطقة اهرمومو، فقد كان على علم بما تقترف يداه ويقوم به بكل لذة وانتشاء. فقد كان يبحث عن أية تعلة ليعذبنا وكان التعذيب عنده هو حرماننا من الأكل والشرب لعدة أيام. وقد بلغت به خسته أن استعمل يديه في ضرب السجناء المساكين المرضى والنحيفين مثل هياكل عظمية. وقد أدت احتجاجاتنا الجماعية على افعاله هذه الى 48 ساعة من الجوع والعطش قررها هو شخصيا، إذ كثيرا ما كان يتخذ مثل هذه القرارات دون الرجوع الى مدير السجن. فتازمامارت تعني قانون الغاب، قانون القوي، كما كانت تعني نوعا من الفوضى يترك فيها الحراس العنان لخيالهم السادي، المهم ألا يكون

قرارهم لفائدة السجناء، وكل ما يدمر معنوياتهم أو صحتهم كان مسموحا به وكان الحراس يجدون في ذلك طمعا في تقدير المدير ومدحه لهم.

حل الصيف مرة أخرى، بحرارته الخانقة فوجدت نفسي مجبرا على خلع ملابسي والبقاء عاريا كما ولدتني أمي، باستثناء لحظات توزيع الطعام، ولم يفدني ذلك في شيء لأن جسدي ظل يتصبب عرقا، ولم يحرمنا الصيف بدوره لأن البق والبرغوت كانت تمنعاننا من النوم. كانت هذه الحشرات تمتص دمنا وتتكاثر حولنا، والذباب نفسه حلق في الزنازن رغم الظلام! أما الفئران فقد كان تجري ذهابا وإيابا متنزهة بين زنازننا وفي البهو بحثا عن فتات الخبز أو الشربة، كان حضورها يقرفنا لأنه يجلب الثعابين الصحراوية المثيرة للاشمئزاز صاحبة العضات القاتلة والتي تتسلل بكل سهولة الي قبورنا، سواء بالانسلال تحت الباب أو بالسقوط من شقوق السقف، كان هناك زائر سام وغير مرغوب فيه هو «العقرب الأسود»، وإذا كانت الثعابين تاتي لمطاردة الفئران أو الضفادع التي تقضي الليل تنق في البهو، فإن العقرب كان يهرب من الحرارة المفرطة في الخارج بحثا عن الرطوبة والحشرات ولاسبما منها «سراق الزيت». وقد كنا نترك هذه الحشرات عمدا تعيش بين ظهرانينا لتخليصنا من البق، وكانت العناكب أيضا تشاركنا الزنازن وتنسج بيوتها في الأركان لاصطياد الذباب دون أن ننسى النمل والزنابير التي اتخذت مساكنها في البهو وبعض الزنازن، وكنا نخشى لسعاتها الخانقة، في حين أننا كنا نتيمن بدخول النحل، ومن بين الزوار المداومين جاءتنا «أم الأربع والأربعين» و «بوصيحة» لم نكن وحيدين على كل حال! بل كان لنا رفاق في القبور ورغم أنهم ضارين وغير مرغوب فيهم.

نزف السجين 4 أشهر ،
الى أن مات !

لم يكن في تازمامارت سلام أو عدل. كانت الزواحف والحشرات تتقاتل في ما بينها ويأكل قويها ضعيفها ويلتهم كبيرها صغيرها. لقد كان

القانون السائد هو قانون الغاب، وكنا بدورنا نخضع له. كنا نسحق من طرف السجانين، بحيث أن أية مطالبة تجابه بالضرب والتنكيل أو الحرمان من الأكل. أحيانا كان الحراس يقبلون الحوار فيقولون بأن دورهم ينحصر في فتح وإغلاق الابواب، وأن لاحق لهم في نقل مطالبنا الخاصة بالأكل إلى المدير، لأن الطباخين يخضعون مباشرة للمديرا وكثيرا مابالغوا في الادعاء ، بأن السجن لايتوفر على أي شيء لادوش، ولا مصحة تمريض ولامكان لاستقبال الزوار. وكان الحراس يقتلون العقارب والفئران بمكنسات، التي كانت تستخدم بدورها في مآرب شتى، تنظيف البهو، غسل الطنجرات وتنظيف المراحيض. ولما كانت هذه الأخيرة تسد كان الحراس يلجأون إلى الأنبوب الذي يصبون به الماء لنا ويغرسونه في المرحاض، وبعد الانتهاء يستعملونه في توزيع الماء دون غسله أو تنظيفه غير مبالين بخطر الكوليرا أو الطاعون. لما كان بعض الرفاق يشكون من مثل هذه المعاملة أو يتبرمون منها كان المنافقون من الحراس يجيبون بصوت معسول رخيم حتى يقنعوننا بتعاطفهم معنا قائلين: «ما عندنا مانديرو ليكم، احنا كانشفوكم تتعذبوا لكن ما بيدنا حيلة. واحنا مسجونين بحالكم غير انتوما لداخل واحنا برا وكاين بزاف الشكاما في الحبس».

في شهر غشت *74* كان من المفروض أن يغادر ثلاثة رفاق أدينوا في قضية الصخيرات السجن، لأنهم قضوا عقوبة *3* سنوات المحكوم عليهم بها. هؤلاء الرفاق هم: شبيرق ادريس، بوتو موحا وعبد الرحيم صدقي. وكان من المفروض أولا ألا يوجدوا هنا، لأن المنتظر كان هو الحكم عليهم بسنتين مثل أغلبية قادة «الكوماندوهات». والحال أن هذه السنة الاضافية جاءت نتيجة لبعض التصريحات الفضفاضة وغير ذات قيمة. فالأول صرح بأن الجينرال الصفيري أصيب في رجله وكان يتألم باكيا، والثاني صرح أنه قدم التحية العسكرية للجينرال أمهارش مصطفى المدير السابق للاكاديمية العسكرية (نفذ فيه الاعدام بالرصاص يوم الثلاثاء *71/7/13*)، أما السجين الثالث فقد حكى بمحض إرادته وبكل صدق أنه كان الضابط صاحب الرانات الامريكية *(GUETRE)* الذي دخل القصر من الباب الغربي، والحال أن لا أحد رآه أو ذكر اسمه. ومازلت

اتذكر التعجبات الساخرة لرئيس المحكمة الذي رد عليهم في المحاكمة بالقول: «آه، لقيت الوقت باش اتشوف الناس مجروحين وما ساعد تهموش» ثم توجه إلى بوتو مبتسما: «آه صاحبنا سلم على المدعوين، بحال ايلا فداروا!» ثم ختم حديثه متوجها إلى صدقي بالحديث « كنت باغي تبان حتى يشوفك الرايس ديالك ويشوفوا آش كتدير كنت باغي مكافاة أكثر من اصحابك»

لعل العبرة من هذه الحكاية أن كلمة واحدة زائدة عن اللزوم يمكن أن تؤدي بصاحبها إلى التهلكة.

حل ذلك اليوم المنتظر على أحر من الجمر، وذلك الافراج المرتقب كهلال، وهيهات لم يغادر السجناء زنازنهم وظلوا مسجونين بها. وكان الحراس يواسونهم بالقول الكاذب بأن السبب إداري محض وأنهم ينتظرون الأوامر من الرباط، ولما زادت احتجاجات الزملاء تلقوا الجواب التالي «صبروا شوية، غادي تخرجوا قريب... وعلى كل حال هيانا لكم غرفة للضيوف في الخارج حتى ترتاحوا وتخرجوا» منذ وصولنا والسجناء يعدون ما خلا من الأيام ومابقي منها، وكم قضوا من الليالي البيضاء يفكرون في أيامهم القادمة ومشاريعهم وحياتهم بعد السجن. كانوا ينتظرون يوم خروجهم للهروب من هذا الجحيم حيث الموت بالمرصاد، عشية يوم الخروج المفترض ودعوا اصدقاءهم، حزنوا لفراقنا وتركنا وراءهم، فرحوا بالمقابل لمعانقة الأهل والأحباب. وعدونا بأنهم سيدعموننا ويدعمون قضيتنا ببذل كل المجهودات لكشف الحجاب عن تازمامارت. والحال أنه إذا كنا بلداء، فإن المخزن علي غير هذه الحال. لقد فكر في كل شي وتوقع كل شي وقدر الأمورحق قدرها وانتبه إلى نتائج الافراج عن الرفاق الثلاثة. لقد كان هؤلاء الرفاق يأملون في عفو عام حتى يكمل فرحنا، واقسموا لنا بأنهم سيزورون العائلات ويخبروها بماسينا والاتصال بكل المنظمات الانسانية ويحكون لها كيف يقتل الناس في تازمامارت ووعدونا أيضا باطلاع الرأي العام على الطرق السادية وعذاباتها.

لكن المخزن تنبأ بهذا، وكما يقول المثل «اللي فراس الجمل فراس الجمالة» وهكذا تبخرت الوعود وخبت شعلة الأمل مع طول الانتظار.

انتظروا ونحن معهم، اسبوعا، ثم شهرا بلا جدوى أو نتيجة. وكان علينا أن ننتظر سنوات أخرى الي أن جاءت اللحظة التي انقطع فيها

حبل الامل.

إن تعذيب سجين أمر فظيع ولاإنساني، لكن الحبس التعسفي والقسري والتعذيب السادي لسجين لم يعد معتقلا بقوة القانون شيء اكبر فظاعة وعمل لايمكن للعقل السليم أن يتصوره. تعاقبت الايام واستسلم الرفاق الثلاثة لمنطق الاشياء وتعودوا على حياتهم الجديدة، اي حياة «إنسان حر في السجن». شخصيا كنت مقتنعا بانهم يخفون قلقهم واحزانهم في سويداء القلب محتفظين بكبريائهم (...) في نفس الصيف كان المعتقل «كينات محمد» (سرجان بالطيران ينحدر من سيدي سليمان) نائما في زنزانته - الافران. فتسلل ثعبان كان يتعقب فارا الى زنزانته، وبدأت لعبة «الغميضة» التي قادتهما مرارا الى البلاطة، استيقظ كينات لكنه لم يول للخطر المحدق به أدنى اهتمام عازيا الحركة المحدثة الي تواجد فارين كما اعتاد علي ذلك. استسلم للنوم من جديد في الوقت ذاته بلع الثعبان طريدته فتسلل الي جنب النائم ونام بدوره الى ان طلع الصباح. لما فتح الباب كالمعتاد حمل كينات صحنه وإبريق الماء وتقدم نحو الحارس لينال حصته اليومية، في تلك الاثنان زحف الثعبان باحثا عن مخرج دون أن يلسع كينات. ساد الهرج والمرج وقتل الحراس الثعبان الدخيل صائحين «إنها افعى سامة» واجابهم السرجان ساف حمو الخميساتي، بطبيعة الحال إنها سامة ألا ترون أن رأسها مثلث». لم يصدق كينات عينيه وتساءل كيف أنها لم تلسعه رغم انها قضت الليل بجواره. رد عليه حمو بحكمة: «لن تعضك لانها جاءت بحثا عن طريدة. ولما امسكت بها انتهت مهمتها، ومادمت لاتشكل خطرا عليها، فإن الزواحف لاتهدد حياتك، لأن الحيوانات الزواحف لها مبادئها، مثل الاسد». وبعد أن أطرق مليا واصل حديثه متفلسفا: «إن بني ادم هو الوحيد الذي ينسى مبادئه وصدقوني إن الانسان اخطر من الحيوانات والزواحف. في الاسبوع الماضي أمسكنا بثعبان في الساحة وامسك به جندي شجاع شد على عنقه بقوة ثم فتح فاه وبصق فيه عدة مرات وطلب منا الاقتداء به وهو ما قمنا به.

بعد بضع دقائق ألقى الحارس الثعبان أرضا وقد فارق الحياة». اندهشنا فطلبت جوابا من الحارس، فأجابنا بقوله إنه «لايوجد أي لغز فيما رأيتم، لأن ريق الانسان أكثر سما من سم الافعى؟ إن ريقنا هو الذي قتله».

شخصيا لا أصدق مثل هذا الكلام، لكنني استوعبت مغزاه.

وصاحبنا كينات الذي كان يشكو كثيرا من آلام في معدته، سقط مريضا ولزم بلاطته (عوض فراشه) مجبرا بفعل الانهاك. قل غذاؤه الى أن توقف تماما بعد أن فقد الشهية، تلا ذلك نزيف حاد رهيب، فبصق الدم من فمه وخرج من مؤخرته أيضا، أراه للحراس ليخبروا المدير غير أن هذا الاخير رفض اعطاءه أي دواء أو تمتيعه بالعلاج. طلب من الحراس أن يساعدوه فجابهوه باللامبالاة. توسل إليهم، فصموا آذانهم، مرت الايام وزادت الآلام حدة ونزف الدم: ولا دواء أو حتى أعشاب لتهدئة آلامه أو كلام جميل يجبر الخاطر ويواسي الروح. وكل صباح كان الحارس يدخل الى الزنزانة وبيده مصباح كهربائي ليتأكد إن كان لايزال علي قيد الحياة، جر كينات آلامه مدة أربعة أشهر بلا أدني مساعدة، ويوما عن يوم كان يغرق في بركة الموت الآسنة يئن بلا صراخ أو بكاء.

لاشك أنه كان ينادي على أبيه أو أمه عندما يشتد هذيانه أو ينادي على زوجته، وظلت نداءاته بلا جواب، الى أن انطفأت روحه يوم فاتح دجنبر 1971 في جو ثلجي بارد.

كان رفيقنا كتوما بالسليقة، فمات في صمت.

بعد التأكد من موته، لفه الحراس في غطائه القذر المبقع بالدم والفضلات ورموه في حفرته كما فعلوا مع سابقه شمسي، بعد انتهاء مهامهم لجأوا الى غرفهم. في منتصف النهار عادوا لتوزيع الطعام وهم فرحين رائقي المزاج، يسخرون من بعض أصدقائهم الذين خسروا في لعبة «الكارطة» ويطالبونهم بدفع ثمن «المونادا» المتفق عليه. ويرفض الطرف الخاسر بدعوى أن الرابحين غشوا في اللعب. هذه المشاهد حدثت في بناية يعمها الحداد ويسكنها سجناء فقدوا صديقهم إلى الأبد. كانوا يتلاسنون ويستهزئون ببعضهم البعض، في حين كان كينات قد دفع حياته. ساد جو حزين جدا في الزنازن وبكينا ذلك الإنسان الذي تألم كثيرا وبلا جدوى قبل أن يموت موتا بطيئا لاإنسانيا وقاسيا.

في تازمامارت، لم يكن الموت هو ما يرعبنا، بل المعاناة غير المجدية التي تمزق أعماقنا. ما جدوى المعاناة إذا كان الموت حتميا؟ لقد قضى كينات، في حين كان أمام المسؤولين الوقت الكافي لإنقاذه. مات ولم يبق من عقوبته (3 سنوات) سوى 9 أشهر وترك والديه ينتظران بشغف الافراج عنه. وأصبحت زوجته أرملة دون علمها بعد أن أعياها الانتظار. وقد سنحت لي الفرصة للقاء بها سنة 1993 وجدت أنها لم تتزوج بعده وظلت تنتظر عودته.

ألم يكن ذلك الجندي الذي أمسك بالأفعى، على حق عندما قال إن لعاب الإنسان أخطر من سم الأفعى؟

كانت سنة *1974* سنة كارثية بكل المعاني على المستويين المعنوي والمادي معا. وما من شك أن أحداثا كثيرة وقعت ونسيتها، لكنني احتفظ في ذاكرتي بأيام الضجر الطويلة الشبيهة بقطرات الماء التي كانت تتساقط من سقف زنزانتي الواحدة تلو الأخرى بعد المطر (...) كنت أتأمل حياتي وأحاكم نفسي بقسوة، وباركت هذه العزلة التي لولاها لما تأملت حياتي واستذكرت تفاصيلها. أقسمت بأني لن أرتكب بعد الافراج عني، أي خطأ مما سبق وأن اقترفت، وغذيت في أعماقي إيمانا أعمى بأن أحيي حياتي القادمة في طهارة تامة. لقد كان من المبرح فعلا أن يدخل الإنسان السجن، ولاسيما تازمامارت، وهو في عز الشباب والقوة، ثم يموت ببطء وبلادة بعيدا عن الوجوه الطيبة المحبوبة التي تبادلك حبا بحب. إن موت الإنسان في مكان نظيف، معطر، محاطا بالوجوه الأليفة، حتى وإن كانت حزينة، هبة من السماء، أو إكسير ضد الألم والعذابات ووداع فرح ومريح.

منذ وفاة كينات غاب المدير ولم يعد إلا ليلة عيد ميلاد المسيح حيث قام بتفتيش وجيز ليتأكد بأن تعليماته تنفذ حرفيا قبل السفر إلى مكناس بحثا عن المتعة واللهو. وحين أقول اللهو فذلك هو ما يحدث بالضبط لأن هذا العجوز الماجن كان يعاكس العاهرات ويحيي الليالي الملاح، لأنه كان عملاقا مسكونا بالملذات مثل سفير الشر أو فارس القيامة، بنظراته الشيطانية السادية وهيأة الضواري الجائعة، حتى الحراس كانوا يكرهونه. كان أميا رغم أنه قضى مدة طويلة في الجيش الفرنسي، وقد أحالته القوات المسلحة الملكية على التقاعد منذ البداية فيما يشبه التبرؤ منه. ولعل الشيء الوحيد الذي ورثه عن إقامته في معسكرات النازية وأبلى فيه بلاء حسنا هو التعذيب.

وحدث مرارا أن تخاصم الحراس أمامنا بسبب أمور تافهة، مما كان يسمح لنا بالإطلاع على بعض أسرار المعتقل. ذات يوم سب أحد الحراس الجادين والصارمين زميلا له ونعته بـ «و.. المدير»، اغتنمت الفرصة فسألت المعني بالأمر لماذا تفوه بذلك الكلام النابي في حق الآخر، فأجابني بحمية ونرفزة «نعم، السرجان (ع) وسيط المدير. الكل على علم بهذا.. ويتوسط له في كل شيء حتى في.. وهما يعاقران الخمر سوية، كما أنه «يبركك له». أجبته على الفور: «هذا أمر لا يصدق، رجل عجوز

يقوم بأشياء من هذا القبيل بدون احترام لعمره أو بذلته».

رد علي محدثي: هذا هو الشيطان بعينه، فهو لا يهتم لدين أو ملة، بل يجهل حتى مكان القبلة، لا يحترم أحدا حتى المتزوجات.

في فصل الشتاء كانت البنايتان في تازمامارت تغرق في المياه الطوفانية المتهاطلة من السقف المشقق أو من ثقب التهوية أو في الفيضانات الناجمة عن سيول روافد «وادي زيز» التي تسد المواسير فيفيض الماء الحار في زنازننا، عندها نضطر الى اغلاق الثقب بالشيفون ونضع أرجلنا فوقه طوال ساعات لوقف المياه القذرة وروائحها النتنة.

لم تعرف سنة 1975 أي حالة موت، لكن العديد من المعتقلين مرضوا بسبب نوعية الأكل. وهكذا أصبنا بأمراض المعدة والتهاب الأمعاء فاضطررنا الى نزع لبِّ الخبز اللاصق والاكتفاء بقشرته الباقية من الحصة اليومية غير الكافية بحد ذاتها. وقد كان سوء التغذية هو أصل هزالنا وأمراضنا، وتفاقمت حالات الاسهال الحاد والمستمر. والحال أن كمية الماء كانت دون المطلوب للشرب والنظافة والاغتسال وتنظيف المراحيض عدة مرات، فساءت أحوالنا الصحية وذبلت أجسادنا ولصق الجلد على العظم. فأصبح منظرنا يثير التقزز وصار الحسن الذي خلقه الله يفسد بفعل الآدميين، فهل من حقنا أن نذم ما خلقه الله جميلا؟

لقد كانت سنة 1975 سنة الاستفزاز العمدي من طرف السجانين الذين كان يتذرعون بأية علة ليدمروا معنوياتنا، فتكاثرت العقوبات وزاد الحرمان من الأكل والشرب، وصارت اللعنات والتهديدات والتنكيل والضرب جزءا لايتجزأ من البرنامج الجديد للإهانة والحط من كرامتنا. لقد كان للامساك الجديد بزمام الأمر جد صعب وقاس وكانت له أوخم العواقب على وجودنا في السجن. وبمعنى آخر، فإن سنة 75 كانت مشتل سقامنا وأس مأساتنا وطريقنا الى الموت، وبالرغم من انتفاء أية حالة وفاة خلالها، فقد كنا منهكين، وبلغة تاكتيكية عسكرية كانت سنة مرحلة الرماية التمهيدية قبل الهجوم الذي تهيؤه الموت، وبما أننا بصدد الحديث عن العقوبة فقد حرمت أنا أيضا من الأكل والماء مدة 24 ساعة لأنني جادلت أحد الحراس في أمر وعوقب رفاق آخرون، وكان عقابهم أشد قسوة (يومان أو ثلاثة أيام). ومن البديهي أن العقاب الذي انزله الحراس بنا كان يختلف حسب الحالات، فهم وحدهم القضاة والجلادون والمنفذون على حسب هواهم دون حتى أن يعوا بانهم ضد القانون. كانوا يعتقدون أن كل شيء مباح لهم مادام المخزن هو الذي

يامر، والحال أن المخزن لم يأمر مثلا بتلحيم كوات الزنازن لمنعنا من استنشاق الهواء ولم يرخص لهم المخزن أيضا بضربنا وحرماننا من طعامنا، وقد لجأوا بهدف اخضاعنا الى استعمال العنف والإفراط في ذلك أو حسب تعبيرهم المتكرر: «غادي نْزَيْرُوا لِيكمْ لْفِيس حتى تركعوا قْدَّمْنَا»، وقد كانوا على استعداد لفعل أي شيء لتحقيق ذلك ولو القتل، أي نعم، القتل .. ففي نفس السنة، خرج عبد السلام حيفي الذي فقد صوابه وفرّ ذات صباح هاربا نحو الساحة في غفلة من الحراس الذين كانوا منهمكين في أداء واجبهم. كان المسكين يطمع في رؤية الشمس واستنشاق الهواء، عمت الفوضى ولحق به الحراس في الحين. لعلهم يمسكون به. بدأ الهارب يدور ويلف ويضحك معتقدا أنه يلعب معهم لعبة الغميضة، عندما أمسكوا به عض ذراع أحد الحراس فضربه هذا الأخير بالمكنسة ضربات متكررة لعله يهدأ. لكن المسكين واصل الضحك وبعد أن شدوا وثاقه هدأ واستسلم لهم وعاد الى الزنزانة. أحد السجانين الذي كان يكرهنا جميعا غضب وصرخ في وجه المعضوض: «عْلاَشْ مَاقْتَلْتِيهْشْ؟ مَا عَنْدَكْ مَنَّاشْ تْخَافْ حْنَا انْشهدُوا مْعَاكْ والغلطة دْيالُو مَاكَانْشْ خَصُّو يَخْرُجْ من السِيلُونْ دْيَالُو .. كَانْ عْلِيكْ تْقَتْلُوا هَذاكْ ما يَصْلَحْ لِيهْ هَذَاكْ لَحْمَقْ»، هذا الوحش كان يسمى سعيد وبعضهم كان يسميه مولاي سعيد، مدعيا أنه من الأولياء! ويا له من ولي! كان مستعدا لقتل رجل أحمق غير مسؤول عن أفعاله، وسأحدثكم عنه في الوقت المناسب لأن هذا القاتل يستحق لوحده فصلا كاملا.

كان الشتاء في تلك السنة في قساوة الشتاءات السابقة وانضاف إلى قسوته المرض والهلع. استبد بنا الخوف من أن تكون معاناتنا بلا جدوى مثل من ماتوا، وتحولت الاستيهامات

والتهيؤات النهارية الى كوابيس ليلية، وزادت حلكة الوقت بسبب أنين المرض في هذه الأيام الشتوية المعتمة والذي زادها رتابة وطولا. وكان يعز عليّ ويؤلمني أن أفكر في الأنين أو أسمعه. أحيانا كان صبري ينفد فأتلهف على لحظة الحرية أكثر من كل اللحظات.

هل عليّ أن أحكي كل ما حدث؟ ووصف بدقة هذه الحياة المفعمة بالخراب والاحباطات والطوارئ؟ ما من شك أن أشياء قد غابت عن ذهني وأخرى ضاعت مني، لكنني سأحكي بكل دقة واخلاص كل الوقائع التي عشتها، والله شاهد على ما أقول. سأفعل ذلك بكل إنصاف وموضوعية حتى ولو رميت نفسي في التهلكة، لأن الصمت جبن في حق ضميري

أولا وفي حق ثلاثين سجينا ماتوا الذين كانوا أصدقاء ورفاق المحنة والضحايا الكبار للمأساة. كان من عادة الحراس القدوم مبكرا، قبل فتح البوابة الكبيرة للبناية وتوزيع الطعام. وقد علمنا من خلال نقاشاتهم وتعاليقهم بتنظيم المسيرة الخضراء لتحرير الصحراء من الاستعمار الاسباني. وقد علمنا فيما بعد من خلال أحاديثهم بوقوع «صراع» بين المغرب وبعض العناصر المسماة «بوليزاريو» وتناهى الى علمنا أيضا أن الصحراء المغربية أصبحت نقطة ساخنة وأن الحرب اتخذت حجما كبيرا على المستوى التاكتيكي. ثرنا ضد السلوك الصبياني للقذافي وضد نكران الجميل من طرف الهواري بومدين حُيال وطننا. ولهذا السبب أطلقنا عليهما أسمين مشفرين: الأول لقبناه بـ «الولد المزعج» والثاني بـ «ابن آوى».

كان صيف تلك السنة شبيها بصيف السالف من الأعوام بنفس الحشرات ونفس الزواحف ونفس التجاوزات، والجديد أن عدد السجناء الذين طالبوا بالإفراج عنهم لم يقتصر على ثلاثة، بل تعداه الى عشرين رفيقا، منهم كل الذين أدينوا بـ 3 سنوات سجنا في قضية طائرة البوينغ الملكية سنة *1972* إضافة الى 3 سجناء محكوم عليهم بـ 4 سنوات في قضية الصخيرات سنة *1971*، وهم القبطان بلكبير عبد اللطيف والسوليوتنان سعودي عبد الكريم والسوليوتنان مجاهد محمد.

قابل الحراس مطالبهم باللامبالاة وأجابهم أحد الحراس بقوله: «بغيتوا تخرجوا؟ آش نكولوا على اللي كملوا الحبس ديالهم العام الفايت؟» سخر ثم أضاف: «انتظروا بعد أن يخرجوا هما .. ثم يجي دوركم». تعالت الاحتجاجات فتدخل أحد الحراس بترو وحكمة ووضع حدا للضجيج: «انصتوا جيدا وتوقفوا عن هذا الصراخ، فذلك لن يجديكم في شيء، وانسوا الأحكام الصادرة عن المحكمة، هنا كلكم محكوم عليكم بعقوبة غير محددة، فإما ستغادرون السجن جميعا وإما ستقبعون فيه جميعا».

بعد الاحتجاج الجماعي غير الحراس من سلوكهم ورفضوا المحادثة وصموا آذانهم عن المطالب، وأثناء توزيع الطعام كانوا يختبئون وراء الأبواب المواربة، وما إن يتناول السجين حصته حتى يغلقونها بعنف كعلامة على الغضب. ويبدو أن مدير السجن قَرَّعَهُمْ بشدة بسبب الدردشة والألفة معنا «ما تْكَلْمُوهُمْشْ بَاشْ ما يْطَلْبُوا وَالُوا، ما تْخَبْرُونِيشْ بالمطالب ديالهم وما بَاغِيشْ نسمع شِي هَضْرَة على المرض.

يموتوا ايْلاَ بْغَاوْا يمُوتُوا، اجيو خبروني غير بالوفاة، فقط، ماتْرَحْمُوهُمْشْ!»، هَذا ما قاله المدير حرفيا وهو ما سمعناه من فم الحراس فيما بعد عندما أرادوا تعليل سلوكاتهم ولا مبالاتهم.

تعاقبت الأيام وتوالت بطيئة مملة، كما لو أن لاشيء يحدث في هذا المكان الذي يشهد أحداثا ستقلب فيما بعد العالم كله رأسا عبى عقب.

وكانت البناية الثانية تعيش الفوضى المطلقة، كل يتصرف حسب هواه بدعوى أن كل واحد حر في زنزانته، فانقسم السجناء الى مجموعات صغيرة حسب الطباع والأمزجة وعلاقات الود، واختطت كل مجموعة لنفسها برنامجا وجدولا زمنيا خاصين. كان البعض يسهر الليل ويقضيه في تجاذب أطراف الحديث أو الغناء أو حفظ القرآن الكريم، ثم ينام طوال النهار، والبعض الآخر ينشط في النهار مزعجا النائمين الذين أيقظوهم في الليل وهكذا دواليك.

على عكس البناية رقم 1 التي كان نزلاؤها يحترمون البرمجة المتفق عليها، كانت البناية رقم 2 تعيش الفوضى العارمة. ولعل بعض الحكماء منهم كانوا على حق عندما شبهوا البناية بسفينة في الخضم يكفي أقل حركة ليضيع الجميع. والمسؤولية في ذلك تعود الى الجميع. في مثل هذه الظروف يكون التنظيم جوهريا وضروريا مثله في ذلك مثل التضامن من أجل قهر الحواجز والعراقيل، غير أن الأنانيين لم ينصتوا لصوت العقل الصادر عن رفاقهم العقلاء، وسرعان ما نشبت المواجهات وعم التنابز والسباب، فتأثر السجناء للأجواء الكئيبة وتحولت البناية الى جحيم أرضي.

ذات يوم خاطبني حارس يدعى «لويس العربي» وهو يصب لي الماء: «هنا الراحة والهدوء وأنتم جد منظمين، والعكس هو الصحيح في البناية 2 حيث يسود الهرج والمرج ليل نهار، ويُسمع صوت رفاقكم من البعيد وهم يتخاصمون ويصرخون في وجه بعضهم البعض. إن رفاقكم مجانين فكيف لهم الشجار؟ صدقني إنهم يدمرون أنفسهم بأيديهم وما من شك إنهم يذبون مثل شمعة وسيندمون في آخر المطاف»، وقد صدقت نبوءته، إذ ندم البعض بعد أن أصبح الندم لاينفع وأخذ بعضهم أسفهم معهم الى الأبد. وللأسف لم يندم البعض منهم واعتقدوا أنهم كانوا على صواب بالدفاع عن أنفسهم. لقد أعمتهم الأنانية فدعوا الى الفردانية واختاروا التدبر الوحيد. ومن حسن الحظ أنه كان من بينهم رفاق رصينون ، حصيفون ومفعمون بالود والإنسانية يملكون من الشجاعة

وبعد النظر ما جعل أعمالهم الفروسية وأفعالهم النبيلة تحسم الأمر في اللحظات المأساوية وتقديم المساعدة رغم قلة ذات اليد ونقص الحيلة، فكانوا ينزعون قمصانهم وسراويلهم ويقدمونها لرفاقهم المرضى لتدفئة عظامهم الواهنة، وكثير منهم آثروا المرضى على أنفسهم فسلموهم الغطاء الخاص بهم في عز الشتاء القارس. آخرون منعوا أنفسهم من الطعام وأرسلوه إلى المنهكين جسديا المحتاجين الى الوحدات الحرارية، ومنهم من فعل ذلك لمدة شهور طويلة لفائدة المصابين بالهزال الحاد إلى درجة لم يستطيعوا المشي على الأقدام.

كان هؤلاء الخيرون يعملون لصالح الجميع، لكن بعض الخراف الضالة كانت تفكر في نفسها فقط. سأقول بكل بساطة «من يزرع الريح يحصد العاصفة، إذ أن العديد من هؤلاء، الفردانيين ماتوا».

كل شتاءات المعتقل قارسة الى درجة أن الصنابير في الخارج تجمد ماؤها وكثيرا ما حرمنا من الماء الى حدود منتصف النهار، وكثيرا ما اضطر الحراس الى تسخين الصنابير عندما تحجب الشمس، وحدث أيضا أن تعطل المحرك الكهربائي لعدة أسابيع فلجأنا الى شرب مياه الوديان المحملة في الحاويات. وكان الحراس يثيرون انتباهنا الى الطحالب وما شابهها، شخصيا غالبا ما كنت أحجم عن الشرب في مثل هذه الظروف لأيام مسترسلة. وقد أصيب العديد من رفاقنا بالاسهال أو العمى مما زاد من ضعفهم!

في الجناح رقم 1 ، قمنا بإعداد استعمال للزمن تداولنا فيه لمدة طويلة وقلبناه من جميع الجوانب، حتى يحظى برضى الجميع، وذلك حتى لايتاثر احدنا بما يفعله الآخر. كان كل منا حرا في عمل ما يحلو له، لكن بشرط ان لايزعج الآخرين، وكان شعارنا هو: «نهاية حريتك عند بداية حرية الآخرين» وقد ساعدنا هذا التنظيم على تفادي خصومات لا ضرورة لها.

كان يومنا يبدأ منذ اللحظات الاولى لصياح الديك وآذان صلاة الفجر. بعدها يقوم واحد منا، حسب الترتيب المتفق عليه، بتلاوة ايات من القرآن الكريم، ويختم ذلك بالتمنيات للجميع بقضاء يوم جيد.

وبعد توزيع الحصة اليومية من الماء والقهوة السوداء التي كانت تقريبا بلا سكر، كنا نبدأ في تعلم دروس القرآن الكريم شفويا ، وبعد ذلك حصة تعلم اللغات الحية، دون نسيان فترة الاستراحة، وحيث يسمح لمن يريد ذلك، تبادل الحديث مع جاره، كانت فترة الاستراحة

هذه ضرورة لنا، خصوصا بالنسبة لمن كان يحاول - كما كنت ١٦٢افعل - تفادي الإرهاق، كنت أتابع دروس القرآن الكريم فقط، ذلك اني لم اكن ارى فائدة من تعلم اللغات الحية ما دمت محكوما بالمؤبد، كنت اقول بيني وبين نفسي، من المؤكد اننا سنتحدث في العالم الآخر لغة مجهولة ! لكني سأندم بعدها على هذا الخطأ الذي ارتكبته.

بعد وجبة الغداء المتواضعة ، كنا نقيل لبعض الوقت، وقد كان ذلك ضروريا بل ومقدسا نظرا لتدهور صحتنا وخوفا على قوانا العقلية.

وقد كانت ساعتين تكفي لراحة اعصابنا المتوترة. بعدها كان كل واحد، حسب الترتيب، يقص علينا ما تختزنه ذاكرته من افلام، روايات، قصة معيشة او مغامرات شخصية، كما كانت النكت مسموحة لإضفاء جو من البهجة والتقارب فيما بيننا.

بعد العشاء الذي كان عبارة عن «جبانية» من العجائن او الشعرية، وقد استمر الحال على هذا المنوال طيلة سنوات الاعتقال. بعدها يسمح بتبادل الحديث الى حدود الساعة العاشرة ليلا، ثم يخيم الصمت على الاجواء الى الفجر.

ما كان رائعا هو جو التفاهم السائد واحترام الآخر. فقد التزم كل واحد منا بهذا البرنامج ، خصوصا ان البعض لم يكن يستطيع القيلولة او النوم الهادىء، حيث كانت الكوابيس تطارد العديدين ، لكن رغم ذلك، لم يجرؤ احد على الإخلال بهذا الالتزام وذلك لمنح الآخرين فرصة للخلود الى النوم.

كنت من بين هؤلاء وأنا فخور بذلك.

كان من المرعب قضاء الليل ساهدا، وسط الظلمة، وأنين المرضى وصراخ النائمين الذين يقعون فريسة الكوابيس والذين يظلون طوال الوقت يطلبون النجدة من الوالدين، الازواج او الابناء وكان مرعبا سماع انين هذه الازواج البريئة.

في نهاية هذه السنة ازدادت شكاوي المعتقلين وبالخصوص المرضى منهم الذين طالبوا بحقهم في العلاج. كما توالت الاحتجاجات ضد الحالة المتردية للمراحيض ، وعدم كفاية الماء.

أصبح الجناح متعفنا ومتسخا ، بما في ذلك الابواب الحديدية التي اضحت صدئة بفعل الرطوبة. وأصبحت الامطار تتسرب الى الزنازن من بين الشقوق لم يكن هناك شيء اسمه الوقاية، فلم نكن نتوفر على الصابون وكان الماء قليلا فأصبحت رائحتنا نتنة بفعل الاوساخ. وكان

الحراس يسدون انوفهم بواسطة النعناع او القطن حتى لايضطرون الى شم رائحتنا الحيوانية. وكان البعض الآخر يتعطرون قبل المجيء لان رائحتنا كانت تصيبهم بالغثيان. كنا بالنسبة إليهم كالمصابين بالجذام او أسوأ من ذلك. وكانوا يخشون العدوى لأن بعض رفاقنا يسعلون كثيرا ويبصقون الدم.

سيظل سنوات أخرى متمتعا بنظام خاص، والكل مرتبط بالظروف السياسية، بالحظوظ بالضغوطات، وخصوصا بالتسوية مع المخزن. كل رفيق كان يعطي وجهة نظره، باختصار، وكل واحد كان يفكر بطريقته الخاصة انطلاقا من مزاجه. بالنسبة للمتفائلين لم تكن المسألة سوى مسألة وقت، فكل شيء كان مهيأ ومعدا لإطلاق سراحنا قريبا. ولكن سيتم ذلك عبر مراحل لتجنب ضوضاء وتعاليق الصحافة: في الأول، سيتم الإفراج عن الطويل، ثم كل الذين أتموا مدة العقوبة، بعدهم كل الآخرين. أما بالنسبة للمتشككين أو الحائرين الذين أسميهم الواقعيين، فإنهم يفكرون بطريقة مختلفة، لأنهم كانوا يرون الحقيقة التي تفقأ العيون.

كان علينا أن نكون أغبياء حتى لانفهم، أو نفطن الى المكيدة التي تتوارى خلف قضية الطويل. هذا الأخير كان له اتفاق سري سنتي 78 و 79 نقلته السيدة حشاد الى زوجته يطلب منها فيه أن تعود الى بلدها الأصلي (الولايات المتحدة الأمريكية) لتدافع عن قضيته. وهذا ما فعلته سنة بعد ذلك. في بلدها الأصلي، حكت الزوجة مأساة زوجها في معتقل تازمامارت، وتحدثت عن تفاصيل حالته الصحية المزرية، وعن الشروط اللاإنسانية التي عاشها طوال سنوات كابوسية، وخصوصا عن الخطر الذي يتربص به هناك. وقد اتصلت بأعضاء مجلس الشيوخ والمسؤولين في مصلحة (A.I.)، ووصلت التقارير الى المهتمين في الدبلوماسية الخارجية الأمريكية الذين اتصلوا بالمسؤولين المغاربة. وهكذا، بدأت المفاوضات والمصالح والتوافقات بين مسؤولي البلدين. وكان الطويل يعتمد كثيرا على الجمهوريين. وقد توصلوا أخيرا الى حل ملائم، الى اتفاق في مصلحة الطرفين، سواء المغاربة أو الأمريكيين. إذن كان من اللازم تقديم الاعتذار الى السيدة الطويل بدون إحراج المسؤولين.

غير أنني لا أرغب في أن أستبق الأشياء أو أشوش أفكاري، سأواصل الحكي: في اليوم الموالي، غير الحراس من معاملتهم للطويل، حيث أصبحوا مؤدبين ومهذبين معه، وقد استدعاه المدير ليسلمه الأدوية

والمنشطات التي وصفها الأطباء، وقد أخبره انه سيتسلم النظارات في اقرب وقت ممكن حال توفرها. أما في اليوم الذي يليه فقد طلب منه الحراس نقل اغطيته وحوائجه، لأنه سيقضي النهار في الساحة من الثامنة صباحا الى الخامسة مساء. وهكذا أصبح يتناول وجبات الأكل في الخارج، وتحولت الساحة الى امبراطورية له، يأخذ فيها حمامه الشمسي ودشه ويغسل فيها ملابسه.

وكان يتجول طوال اليوم رفقة الكلبة،وذلك في انتظار المستجدات التي لن يطول انتظارها. كان الأمر يتعلق بتهيئ السجين، جسديا ونفسيا للقاء مرتقب ومهم. وهكذا أصبح يتبع النظام الغذائي التالي: في الفطور: الحليب - الزبدة - المربى - الجبن. في الغداء: اللحم أو الدجاج - الخضر - سلطات متنوعة - فواكه الموسم وبراد شاي منعنع. في العشاء: بيضة وشاي. أما بالنسبة للخبز، فكان ينال ضعف الحصة.

وبالنسبة للنوم، فقد سلمت له «بونجة»، كيس نوم محشو، لحافان، 4 اغطية جديدة، ومخدة، فوطتان، «خرقة» النظافة - علبة تيد، صابونتان في الشهر.

وكان الأهم هو المراسلة مع زوجته وابنه أمين المزداد سنة 1972.

لقد كان يتوصل بالبريد بانتظام، وكذلك بطرود الأدوية والمنشطات والملابس والمعلبات واللحم المجفف والكتب والمجلات والصور. وبطبيعة الحال، توصل بالنظارات.

بمعنى اخر، لم يعد حبيسا، لأنه كان يقضي النهار كله تحت الشمس ولا يعود إلى زنزانته إلا ليلا للنوم.

وبكل صدق، لا أحد منا كان يؤاخذ الطويل على هذا، لأن وضعيته شكلت انتصارا انتزع من أيدي جلادينا. إنه رفيقنا الذي عانى مثلنا جميعا.

كان نصرا ومبعث ارتياح أن نرى معتقلا يفلت من كماشة المعتقل التي كانت تطبق على أنفاسنا من يوم إلى آخر.

كانت الكراهية متبادلة بيننا وبين الجلادين، لهذا شكل انفلات أحدنا من قبضتهم عزاء لنا.

في حين كنا نؤاخذ المسؤولين الذين كانوا يقايضون أرواحا بشرية لمصالح اقتصادية وسياسية. وكيفما كانت أهميتهم سيظلون تافهين أمام حياة رجل. والطويل كمغربي مثلنا المحكوم عليه بعقوبة ثقيلة

اكثر من ثلاثة أرباعنا، حصل على كل هذه الامتيازات وحده. لماذا هذا التمييز عنا وهذه المحسوبية الرسمية؟؟ لأنه كان زوج مواطنة أمريكية. كان يتعين بكل بساطة الإفراج عنه. سيكون ذلك منطقيا أو وضعه وحده في مكان اخر، سيكون ذلك عاديا. وبتركه معنا يستفيد من كل الحقوق التي كنا محرومين منها، فذلك يدل على درجة السادية لدى الرؤساء المسؤولين عن المعتقل. وهذا القرار الحقود والشيطاني ليس فقط عارا وإهانة، ولكن أساسا مسا بكرامة المرأة المغربية: منح زوج الأمريكية ما هو ممنوع على أزواج المغربيات، ولو أننا كنا متزوجين من أمريكيات لما كان هناك أبدا معتقل تازمامارت. لم يكن مستساغا أبدا أن يأكل محمد الرايس رقم 14 عجائن مسلوقة، يشرب قهوة بدون سكر، وله الحق في قطعة صغيرة من لحم بقرة طاعنة في السن كل شهرين (60 يوما)، بينما الطويل رقم 15 يأكل وجبة المطعم «لدى ماكسيم» ويشرب الحليب، ويحصل كل يوم على حصة محترمة من اللحم أو نصف دجاجة. لم يكن مستساغا أن يتلقى الطويل العلاج ويتناول مقويات، ويأخذ كل يوم حمام شمس، ودوشا، بينما الغالو رقم 2 المشلول، النائم دائما على جانبه الأيسر، تفوح منه رائحة كريهة ويتألم من شدة المعاناة، محروم من العلاج والنظافة. وكان أيضا من غير المستساغ وغير المقبول أن نرى الطويل الملازم المحكوم بعشرين سنة سجنا يستفيد من نظام إقامة شبيه بإقامة الفنادق، ويتراسل شهريا مع زوجته ويقضي «عقوبته بهدوء وراحة مثل منفي، أو ربما مثل نابوليون في جزيرة الألب، بينما الرقباء الذين نفذوا أوامره بدون وعي يوم الأربعاء 1972/8/16 كانوا يعانون ويتلقون معاملات لا إنسانية وعقوبات شيطانية من هؤلاء الذين يمنحون الطويل عطفهم ورحمتهم ويغدقون عليه بالامتيازات.

بصراحة، لم نكن نستحق هذه الإهانة التي كانت تجرح كبرياءنا. وهذا العمل المليء بالاحتقار، والحق كان يحبط معنوياتنا، بطبيعة الحال، أتحدث عن الأقلية من رفاقي أما المتفائلون الذين كانوا يتغذون بالامل ويسبحون في الأوهام. الأوهام الضائعة مسبقا فكانوا يعتقدون دائما بالفرج (بابانويل) بإمكانهم دائما أن ينتظروا، لأن الإنتظار سيكون طويلا سيجعلهم يملون، الطويل نفسه كان يعرف أن لا علاقة له بنا نحن المنسيين. وبعد أسبوعين بدأت التحضيرات لاستقبال اللجنة التي ستزور المعتقل. الطويل بذكائه وحذره وإحساسه كان يزعم بأن هذه اللجنة - لها فائدة بالنسبة لنا جميعا حتى ينجح في تهدئة نفوس

هذه اللجنة وهو ما لم يكن صحيحا بالمرة. كان كذبة ابتدعها المعني. ووصلت اللجنة متأخرة بيوم واحد. كل العاملين فوجئوا بمن فيهم المدير نفسه الذي كان يعتقد بأن تاريخ الزيارة قد تأجل.

كانت اللجنة تتكون من الكولونيلات: الزرهوني، إبورك، ميلود، والكولونيل فضول والقائد بنونة عبد العزيز. كلهم ضباط سامون في الدرك جاؤوا من الرباط على متن طائرة هليكوبتر حطت كالصاعقة في تازمامارت. الجميع أصابه الذهول، كنا جميعا، بمن فيهم الحراس نتوقع مفاجآت لأن المخزن وصل على حين غرة دون سابق إخبار. وبعد جولة تفتيش في المعتقل (باستثناء البنايتين اللتين كنا فيهما لأنهما ممنوعتين على الزوار)، ولقاء مع المدراء، تناولوا وجبتهم في المقصف (الميس). ومنذ ذلك الصباح كان الطويل يعيش على جمار حارة، ينتظر مصيره على أحر من الجمر، كان يكره المفاجآت من هذا النوع وبالأخص لم يكن يحب الأسئلة المحرجة. كان يتوقع أن تقوم هذه اللجنة بتحقيق وتسأله كيف تمكنت زوجته من معرفة الظروف الرهيبة للمعتقل ووجود الطويل في هذا المكان السري. وبعد أن أخذ حماما وارتدى ملابس على المقاس وحلق وجهه، كان في الساحة يتمشى وهو يصغي جيدا لكل حركة أو صوت، وكلما حصل على خبر كان يسر به لنا عبر شق الباب الكبير.

الجنون والنزيف لأهل الكهف

لم تلق احتجاجاتنا ومطالبنا صدى لدى المدير القاسي، وإن أجبر على تغييرملابسنا المتسخة واسمالنا ووزع علينا ملابس مرتقة. بدات سنة 1976 بوقوع مأساة وفاة. ففي السادس والعشرين من يناير من نفس السنة توفي السرجان الطيار ادريس باحباح من بني صادق المحكوم عليه بـ 3. سنوات سجنا في قضية البوينغ الملكية (1972). وكان سبب الوفاة وقوع نزيف حاد. دفن ادريس باحباح كما دفن الذين سبقوه بلا اغتسال او كفن او صلاة.

طال الانتظار ونخرنا الروتين رويدا رويدا، شخصيا حاولت ان التزم نفس النظام اليومي، فكل ما أقوم به اليوم أكرره غدا مجاريا الحياة اليومية في انتظار اول لحظة للتصرف. لم ايأس او استسلم وإن حدث لي ان اغضب من نفسي وأحنق على ذاتي فأثور عليها. هل كنت انتظر الهروب؟ طبعا لا! لأن الفرار من تازمامارت مستحيل نظرا للعزلة القصوى، وكان لابد من تدخل اجنبي او تواطؤ الحراس للنجاح في ذلك، إن الفرار ممكن من الكاطراز» وليس من تازمامارت.

والفرصة التي كنت انتظر هي رشوة احد الحراس حتى يتسنى لي التواصل مع العالم الخارجي. وكانت المهمة جد صعبة وتتطلب وقتا طويلا. وأول ما تتطلبه هو سبر اغوار نفس الحراس والحالة السيكولوجية للمبعوث ووجهة نظره في الوضعة المالية ولاسيما وضعه المادي، لأن الحارس المدين يمثل فريسة سهلة وكل ما يلزم هو «استخدامه» ، كان هذا هو هدفي وكنت آمل الوصول إليه.

انسابت السنة في نفس الشروط التي انصرمت فيها السنوات الخالية، ولم يعرف النظام السجني اي تغيير، فاستفحل فينا الداء وانهدت صحتنا وشحب لوننا حتى عاد في مثل لون الجثث وشخصت اعيننا وقد عكست الخوف والهلع.

وطالت شعورنا ولحانا وشوانبنا واتسخت، لغياب الحلاق في هذا المعتقل. لقد مر علينا حين من الدهر كنا نشبه فيه اهل الكهف او إنسان المغارات. لقد كانت تازمامارت قطعة مصغرة من ماقبل التاريخ في جناح من معرض كبير يدعى العالم المتحضر للقرن العشرين. لم يكن المعتقل مجرد مكان لتعذيب وقتل الانسان، بل كان ايضا موقعا لتشويه جسم الانسان حيث يحول الشبان الى شيوخ بعد تجميد جلودهم وتبييض شعورهم. وعلى كل ، لم يغادر أي سجين هذا المكان منتصب القامة. فإما غادره فوق نعش او على أربعة!

في الوقت الذي كان فيه العالم يحتفل براس السنة (1977) وسط اجواء الفرحة والتسلية والانتشاء، كنا نحن منكمشين على أنفسنا فوق بلاطات الاسمنت ملتفين في الغطاءات المثقوبة، بعضنا يئن والآخر شارد الذهن وآخرون يبكون في صمت بلا دموع.

خلال هذه السنوات الثلاث زارتنا عدة وفود في إطار المراقبة السنوية للوحدات، لكن المدير رفض رفضا قاطعا السماح لاي وفد يدخل المعتقل. فلا أحد كان بإمكانه رؤية السجناء وقد صدرت اوامر صارمة في هذا الاطار، بمن في ذلك الجنرال ادريس بن عيسى المفتش العام وقتها للقوات المسلحة الملكية لم يكن استثناء.

وقد جاءني على لسان بعض الحراس ان المدير ابدى وقاحة كبرى اتجاه رؤساء الوفود ، إذ خاطبهم أمام الحراس ! «ليس لي ان أتلقى الاوامر من أي كان. وأنا أعمل تحت إمرة شخصيات أهم منكم. وعلى كل فأنا أريد أمرا مكتوبا وموقعا من طرف السلطات التي عينتني مديرا للسجن، ويمكن أن تسجلوا في تقريركم أنني رفضت الإمتثال».

وعادت كل هذه الوفود أدراجها أمام تصميم المدير وقد حز في أنفسهم ما فعله بهم هذا المدير .. فيما بعد جاءت وفود بترخيص مكتوب لكنه رفض الامتثال أيضا لأنه كان ينتظر أمرا بعينه سيأتي فيما بعد، هيهات!

كانت سنة 77 من أقسى السنوات وقد بدأت بالموت. ففي 13 يناير 77 توفي السرجان بوشتة حدان الطيار المحكوم عليه بـ 3 سنوات سجنا سنة 1972، بسبب التهاب معوي، تفاقم داؤه يوما بعد يوم واحتدت الآمه وبدأ يئن باستمرار، نزفت مؤخرته دما ولم يأبه الحراس لذلك. وقال بعضهم بأنه لاحول له ولا قوة وكان المنظر فظيعا، فقد هدّهُ النزيف ونال من صحته أيما منال حتى أنه بدأ يزحف من أجل تناول حصته اليومية من الطعام، وفي الأخير أجبر على البقاء ممددا بلا أكل إلى أن فاضت روحه. لفه الحراس في غطائه المتسخ والمبقع بالدم ودفنوه مثل الآخرين.

في الوقت الذي كانت البناية 2 مازالت تحت سطوة الحداد، نزلت بها مأساة أخرى، ففي 6 فبراير 77، أي بعد ثلاثة أسابيع فقط على موت الفقيد حدان مات السوليوتنان القوري بعد أن مسه الجنون، خلافا للمعتقلين الآخرين، لم يكن الفقيد مصابا بأي مرض رغم هزالة الطعام وقسوة الظروف. والقوري من مواليد سطات اشتغل كمعلم قبل أن يلتحق بالأكاديمية العسكرية بمكناس سنة 1967 ، تخرج برتبة سوليوتنان بعد سنتين من التكوين ثم نقل الى أهرمومو في 1969 حيث مكث هناك إلى أن اعتقل في قضية الصخيرات وأدين بـ 12 سنة سجنا ثم أقبر في تازمامارت بعد ترحيل ليلي سري. ظل على هذه الحالة الى أن فقد صوابه، كان القوري رجلا جديا، متكتما وانطوائيا، كان حاد المزاج لكنه صديق جيد مع ذلك. وكذلك ظل وهو في السجن رغم محاولات زملائه لإخراجه عن صمته لم يغير من سلوكه ولم يقبل مصيره. ورغم أن طبعه انعزالي فهو لم يقبل هذه العزلة. كان أنيقا، نظيف الملبس حريصا على اللياقة فأصبح رغما عنه متسخا يرتدي الاسمال، عرضة للاهانات والتهديدات وسخرية الحراس الذين أثارت حفيظته سلوكاتهم وازعجته تهكماتهم. فلجأ الى التأمل والاحلام يقضي فيها آناء الليل واطراف النهار لعله يجد في ذلك مهربا او ملجأ.، وسط هذه العزلة أبحرت به نفسه في متاهة من الرؤى لم تنقذه من استيهاماته. هذا الشخص الذي اعطى النموذج لفوجه لما عرف عنه من جدية وأنفة وإقدام أذهل ذات يوم جيرانه عندما بدأ يحدث نفسه في الزنزانة

لم يأبه للنداءات المتواصلة لجيرانه الذين ما انفكوا يضربون على

جدران الزنزانة بقبضاتهم . لم يرد عليهم والتزم الصمت طوال ذلك اليوم. وفي الغد نادى على رفاقه وقال لهم : «أيها الرفاق الاعزاء قد يبدو ما ساقوله لكم شيئا غير معقول. لكن لاتحسبونني مجنونا، فمازلت في كامل قواي العقلية، صدقوني انا لست مجنونا، وأعي ما أقول. البارحة وفجر هذا اليوم زارني راهبان ببذلاتهما وسبحتهما، أحدهما عجوز بلحية بيضاء والثاني شاب وسيم مثل ملاك يحمل في يديه انجيلا. بعد التحية دعياني لاعتناق المسيحية. رفضت قائلا انا مسلم وساظل كذلك طوال حياتي. هددني الراهب العجوز بالموت إذا ما أنا اصررت على الرفض، اجبته على الفور بانني أفضل ان أموت على دين الاسلام. قبل رحيلهما أعطاني اصغرهما مهلة للتفكير قائلا: «سنعود فيما بعد، فكن رصينا» وأيها الرفاق تاكدوا بانها ليست اضغاث، احلام، بل هما رجلان من لحم ودم رأيتهما بأم عيني وأنا أعي ذلك. فما هو رأيكم؟».

كان من المفروض ان يطرح هذا السؤال على طبيب او عالم نفسي، لكن المعتقلين هم الذين كان عليهم ان يجيبوا عنه. فقال البعض بانها مجرد تهيؤات عابرة، وقال البعض الآخر بأن الزائرين من «اجنون» على هيأة انسانية وأوردوا قصصا عدة سمعوها عن آبائهم، واضافوا بأن (جنون) يريدون الإساءة للقوري وأنهم يبحثون عن ذريعة كذلك. وذهب كل واحد في اتجاه وتضاربت الافكار والتحاليل. كان القوري يشكو من الاستيهامات ويأخذها كوقائع ولم يستطع الرفاق الاتفاق على رأي. واتخذ النقاش بعدا آخر وتساءل بعضنا: هل هو الشيطان يريد ان يضل السجين عن الطريق القويم؟ ام جني سكن روحه؟ وانتهى الامر الى ان ساد الفزع لأن البعض اعتقد البناية «مسكونة بالجنون» وان القوري ماهو إلا الضحية الاولى، فعلى من سيأتي الدور ياترى؟ لقد كان بالبناية رفاق فقدوا عقولهم وآخرون في الطريق الى ذلك. و كان الرفاق يعتبرونهم مرضى عقليين. لكن القوري كان يمثل حالة خاصة في نظرهم.

الجنّ الحمى والصلاة

فقد القوري عقله، واختلفتَ اراؤنا. كان من بيننا من طرحوا افكارا منطقية لكنهم لم يجدوا من يصغي اليهم. اعتقد القوري في الامر اعتقادا راسخا مثل زملائه. ولما أخبر الحراس بالامر وطلب منهم ان ينقلوه الى زنزانة اخرى رفضوا متعللين بالقول «غدي يبقوا وراك فين مامشيت وحتى الكاشوات الاخرين كايسكنوهم خيالات الموت ديال اصحابك اللي

ماتو. خاصك فقيه او سحار يكتفهوم».

وظل القوري يحكي كل صباح عن ما جرى له في الليل حتى يناقشه الرفاق ويستخرجون منه العبرة ويسدون له النصح وما يجب عليه فعله. كان الرفاق ينصتون بإمعان للحكايات الغريبة والمأساوية لهذا السجين الذي يتحدث بطريقة عادية مسترسلة لا تنم عن الجنون، ويجيب عن الاسئلة ويجيد الاصغاء. كان المسكين ينفذ حرفيا وبلا كلل كل ما يطلب منه للتخلص من زواره الغرباء الذين كانوا يقضون مضجعه.

بعد ايام حكى اشياء اخرى غريبة وقال: «ايها الرفاق الاعزاء ستصابون بالذهول اذا ما حكيتم لكم ما حدث لي البارحة. لقد زارني شخص عملاق عار كما ولدته امه، اصلع خرج من المرحاض واتجه الي رأسا قائلا: «لماذا هربت للراهبين» اجبته بانني ارفض اعتناق ديانتهم، استشاط غضبا ثم تقدم نحوي وشد بخناقي حتى كاد يقتلني بيديه الضخمتين.

وأعاد الكرة مرات عديدة وهو يتفوه بكلام غامض. وفي الاخير أرخى قبضته ورحل دون ادنى كلمة. «اقسم لكم ان هذا وقع فعلا» اخذ احد السجناء الكلمة وعلق قائلا:« لاشك انه الشيطان نفسه وقد جاء شخصيا لمقابلتك، احذره انه ماكر وقد يفلح في ردك عن دينك وربما في تضليلك وتحويلك الى كافر» ورد آخر معقبا «ماهو لا بالشيطان ولا بالجن بل هي وساوس ورؤى وعندما يجن الانسان يؤمن بكل شيء. واليك مثالا على ذلك: كان روبير شومان الموسيقار الكبير، كلما شرع في العزف على البيانو خيل اليه انه يرى رجلا ضخم الجثة اصلع الرأس عاريا يقترب منه ليخنقه. كان شومان يترك البيانو ويولي هاربا وهو يصرخ. فما كان يرى لا الشيطان ولا الجني بل تلك علامات على الجنون الذي سيذهب بحياة شومان. وصديقنا الآن قابل للعلاج ويمكننا انقاذه اذا ما نحن نجحنا في تحويل فكره عن هذا الكابوس المأساوي الداعم. علينا ان نجبره على التحدث الينا» حبذ العديدون هذه الفكرة في حين استسلم اخرون لهذه الافكار الشيطانية تنخر ذهنهم، وظلوا على اقتناعهم وترديدهم لنفس الحكاية، لأن لاشيء مستحيل في تازمامارت. زادت مخاوف السجين يوما عن يوم وبدأ يصرخ ويولول ويردد نفس الكلام«: ها الحنش جاء غادي يعضني غادي يهاجمني» وكان يعتقد ان «كوبرا» يخرج من المرحاض ويتوجه نحوه ثم يلتف حول جسده وبالذات حول

عنقه ويحاول خنقه، وانه كان يتردد عليه مرارا ويظل يراقبه قبل ان يرحل.

نصحه احدهم باستعمال شيء حاد و جرحه حتى يسيل دمه وسيرحل الى الابد، وهو ما اعتقد القوري انه فعله بواسطة سلك حديدي حاد الطرف، لكن احد النزلاء حذره من فعلته و من «مهاجمة اجنون» وطلب منه ان يكتفي بقراءة القرآن والصلاة. في اليوم الموالي عندما فتح الحراس الزنزانة كان القوري قد مات، اعتقد بعضنا ان الجن انتقموا منه فساد الخوف من لعنة الجنون.

شخصيا عزوت موت زميلنا الى نزيف دماغي ناجم عن حادث في الشرايين، اما الجن فقد كانت له مشاغل اخرى!

قام الحراس بالعملية نفسها في دفن السجين الذي جن بفعل الممارسات الفظيعة لبشر تحول الى وحش. وما كان للقوري ان يموت في هذه السن وقد كانت له الحقوق نفسها لأي معتقل في المملكة. فهذا المظلي الرياضي والصلب كان يتوفرعلى كل الميزات التي تسعفه في المقاومة وتخطي العقبات ومواجهة الصدمات، ولو ان حقوق الانسان لم تنتهك لما اصيب بالجنون او مات وظل يتنفس الهواء والامل معا.

استفحلت الوضعية بعد هذا الحادث المأساوي واتخذ الخوف من الجنون حجما اكبر وأولي جدية اخطر واصبحت قضية «الجن والعفاريت» قناعة راسخة لا سيما عندما روى الحراس الذين كانوا يتولون الحراسة مابين الحادية عشر ليلا والرابعة صباحا، انهم رأوا اطيافا تدخل وتخرج من البناية رقم 2. واكدت شهادات ضابطي الصف المسؤولين عن النوبة الليلية التابعين للمدرعات اقوال الحراس وأكدا انهما شاهدا، امرأة بلباس أبيض وقوائم ناقة، أي « عيشة قنديشة». وصار كل واحد في هذا المعتقل الملعون يرى ويتخيل الاشباح. انتشر الخبر وتنامى الى سمع المدير مايروج بين السجناء فأبطل زياراته المسائية للبناية رقم 2، لما عرف عنه من تطير. رفض الدخول خوفا من «الجنون والعفاريت» لكنه لم يخف من الله. وعلى كل ، لماذا يخافه وقد كان يمثل الشيطان نفسه!؟

في الرابع والعشرين من ابريل من نفس السنة مات رابح البطيوي السرجان الشاف المتزوج وأب لطفلين المنحدر من وجدة والمدان بـ 3 سنوات سجنا في قضية الطائرة الملكية (72) بعد مرض طويل اجبره على التزام «الفراش » مدة طويلة، كانت معدته تؤلمه ألما مبرحا، وكان

يتخذ كل الاحتياطات للتخفيف منه، وذلك عبر الإقلال من الطعام. كان يسترسل في قراءة القرآن الكريم ويفكر في عائلته بلا انقطاع، لم يهتم لقلبه او طاقته او ذاكرته التي وهنت حتى جن جنونه، وأمام دهشة الجميع، حراسا وسجناء، وجد جثة هامدة وهو الامر الذي اصبح عاديا في البناية رقم 2.

دفن بالطريقة إياها، وبدأ التعليقات في أوساط الحراس والسجناء. وتساءل الجميع عن سبب الوفاة. هل مات بسبب نزيف دماغي؟ أم «ضربو جن» لشدة قراءته القرآن الكريم لأن ذلك يزعج قرينه؟

وراجت الاخبار بأن في كل زنزانة جني يقاسم السجناء مبيتهم. من الممكن ان البطيوي قضى بسبب الالتهاب او النزيف ، وعليه فإن المعطيات كانت ستختلف ، ويعزى الحدث للتسمم الغذائي أو خلافه وترتاح الافئدة. والحال ان البطيوي هو الوحيد الذي كان على علم بدائه وقد رحل حاملا معه سره الى مثواه الاخير، وظل اللغز يلف مرضه.

وقد استبدت قصة الجن والعفاريت بالاذهان الى درجة ان بعض الحراس خافوا من أداء واجبهم حتى لايجدوا انفسهم وحيدين أمام الزوار الغامضين، فتمارضوا او دفعوا المال لزملائهم الشجعان لتعويضهم. وقد حدث، بعد أيام على وفاة البطيوي، ان غادر أحد الحراس موقعه وهويصرخ وعندما وصل الى نقطة حراسة الشرطة صاح! «واياكم ، انا شفت بعيني بغلة المقابر تجر من وراها سلسلة كبيرة في رجليها»، غضب الرئيس ولم يستطع اخفاء حيرته ايضا.

- واش انت متاكد بانها بغلة؟

• نعم. انا متاكد».

- انتما غادي تحمقوني. انت كاتكول شفت بغلة، واحد آخر شاف معزة كحلة بعينين حمرين وهاذي واحد الشهر كال واحد آخر انه شاف عيشة قنديشة . غريب!».

عندما كان احدنا يصاب بمرض ما، كنا ننصحه بالراحة والدفء، اضافة الى الاستماع الى ما يدور بيننا من نقاش حتى ينسى اوجاعه. ظل كل شيء على هذا الحال الى حدود الاسبوع الثاني من اكتوبر عندما اصيب رفيقنا الطيب شجاعي محمد. وبدأ يتقيأ باستمرار ولم يعد يتناول طعامه. اصابته الحمى واضطر لشرب الماء باستمرار. في العشرين من اكتوبر ساءت حالته اكثر ولم يعد بمقدوره ان يتحدث او يتحرك كان قد أخبرنا بأن حشرة ما لسعته فتوسلنا للحراس بأن ينقذوه

ببضعة أقراص من نوع «نيفيكين» قبل ان يفوت الاوان. رفضوا طبعا، لكنهم مع ذلك سمحوا لجاره بزيارته وقد حمل معه ابريقين إضافيين من الماء لتنظيفه وتصبين سرواله الذي لطخته الفضلات والدم . بعد انهاء مهمته عاد زميلنا بن رضوان التيجاني الى زنزانته ثم حكى لنا كيف ان المريض كان ينزف دما من أنفه وفمه ومؤخرته واصابته الحمى والقيء خمّنا من خلال الاعراض انه مصاب بالحمى الصفراء. رجونا الحراس مرة اخرى بان يأتوه بأقراص «نيفاكين» فرفضوا متعللين بالمنع الساري. خاطبهم احد الرفاق: «عتقوا هاذ الروح وربي يعتقكم. الدين ديال الاسلام دين الرحمة والتضامن وفعل الخير. غير شي فنيدات وغادي تشريوا بلاصتكم في الجنة».

كمان من بينهم احد الحراس رق قلبه، وقد علمنا فيما بعد بانه كان يحتفظ بالاقراص في جيبه ولم تسنح له الفرصة لتسليمها للمريض، لانه للاسف لم يكن وحيدا نظرا لوجود رئيس المجموعة بن دريس والسارجان شاف سعيد وظل رفيقنا يتوجع ويئن ويهتف باسم شقيقه الاكبر عبد الله، لأنه كان يتيم الاب فرباه شقيقة لهذا اعتاد على اللجوء إليه كلما ألمت به ملمة.

في الخامس والعشرين من اكتوبر فتح الحراس الباب ونقلوه في الغطاء الى الباحة. سمعناهم يتناقشون فيما بينهم مدة غير قصيرة وظلت عقولنا مشدودة الى همسهم، وفي الأخير فتح الباب الكبير ودخل الحراس حاملين معهم المريض وأودعوه الزنزانة. طرحوه أرضا قبل أن يعودوا على أعقابهم. خاطبنا رئيس المجموعة: «لا تخافوا على صاحبكم فقد حقناه بحقنة ذات فعالية» شكرناه على حسن صنيعه وتأثرنا له فانطلق بعضنا في الغناء. قاطعنا عفياوي محمد، الموجود في الزنزانة المقابلة لزنزانته وحكى لنا ما لم نره، وكم صعب علينا الإنصات إليه: «اسمعوني جيدا، ما شاهدته يدمر فعلا الروح والبدن. لقد وضع الحراس شجاعي أرضا ولم يطرحوه فوق بلاطته. لقد ألقوا به دون أدنى اعتبار واعتقد بأن أي أمل عبث. وأنا جد متألم ومصدوم لهذا السلوك اللاإنساني الذي يحط فيه من قيمة الإنسان. لقد مددوه أرضا وفروا بعد أن سدوا أنوفهم. كما لو أنهم يهربون من جيفة!».

المنا ما سمعناه وبدأ الجيران الأقرب الى المريض يصيخون السمع لأدنى نأمة أو أنين يصدر عنه، يتقفون شكواه ونشيجه الطويل. كلما توقف عن النحيب غمرتنا الحيرة، وكلما صدر عنه ما يشي بالحياة

استعدنا الأمل، استولى هذا التأرجح على حواسنا وأعصابنا: تارة يغمغم بكلام مبهم سارحا في هذيانه وتارة آخرى يصمت فنقطع أنفاسنا. في المساء عاد الحراس ومعهم مصباح كهربائي ودخلوا زنزانته ثم غادروها في صمت. حيرنا سلوكهم خصوصا وقد كف شجاعي عن الأنين. في اليوم الموالي، ساعة توزيع الماء والقهوة، بدأت أصرخ فيهم وأعاتبهم وأذكرهم بواجبهم الانساني وحقوق الانسان وإغاثة الآخرين وتعاليم الاسلام الحنيف. وضع بن دريس أنبوب الماء واقترب من زنزانتي ثم علق بصوت مرتفع ليسمعه الآخرون:

- مالك صدعتينا، ماعندكش علاش تعاود لينا كلامك الزين.

مات النيميرو 7 من البارح في العشية. كيفاش بغيت نداويو الميت؟».

أجبته: «كان عليكم داويوه قبل ما يموت. قتلونا أوالا عطيونا حقوقنا. علاش هذا العذاب؟

رد علي بقوله: «كولها للّي حبسوكم هنا. أنا والحراس غير منفذين الأوامر. وأنا في جيبي دابا الأوامر مكتوبة وموقعة من طرف الرؤساء ديالي. أنا ماشي مسؤول على المحنة ديالكم».

مزقت هذه الكلمات القاسية أرواحنا واخترقتها مثل سهام مسمومة. أصابنا الخرس والذهول والمرارة، رغم أن تلك كانت مجرد بداية وسنرى فيما بعد ما لم يخطر على بالنا. صعقنا لأنها المرة الاولى التي يتوفى فيها أحد النزلاء بالبناية 1، والأنكى ان موته كان عن سبق إصرار، تركوه يفنى بدون تقديم المساعدة له. أحسسنا أننا مهزومون، منهكون بفعل هذا الموت المفاجئ والبليد.

نقل الميت بعد أن لفوه في غطائه الملطخ دما وفضلات، كما فعلوا بموتى البناية 2. توجه السارجان شاف حمو الذي أغلق أنفه متقدما، بالسؤال الى زملائه: «هل أنتم متأكدون بأنه بالفعل رقم 7؟ ألم يحدث تبادل أثناء عطلتي؟».

- بطبيعة الحال. لماذا هذا السؤال، أنت تعرف أن التبادل ممنوع».

• غريب، لم أتعرف عليه، لقد أصابه هزال كبير. لم يكن شعره الطويل ولحيته الكثة هما سبب تبدل هيأته، بل إن جسده نفسه لم يعد كما كان وقد شوهه المرض وبدل ملامحه.

- كل الموتى يتشوهون بعد انطفائهم، فعندما يكف الدم عن الدوران يزْرورق الجثمان».

ما من شك في هذا القول، لكن بعض الاحياء يصبحون ذميمي الخلقة

بعد أن يفقدوا روح الحب. وضمير الوعي مثل ما حدث لهذا الحارس الذي فقد روحه منذ زمن طويل، لقد كان يؤدي الصلوات الخمس باستمرار طلبا للمغفرة ويقوم في نفس الوقت بتعذيب بني البشر طمعا في تقدير المدير.

لقد مات شجاعي، لكنه سيظل ملء قلوبنا وذاكرتنا. كان شجاعي الوجدي سرجانا طيارا حكم عليه بـ 3 سنوات سجنا، أعزب، تنقل في عدة أعمال في المالية، بل عمل أيضا ككاتب عمومي قبل أن يلتحق بالجندية. كان طيب المعشر، بشوشا يحب الحياة وملذاتها، جد نشيط ويحب المزاح والنكت. كنا نحبه كثيرا ويبادلنا حبا بحب.

لم يتناول أي واحد منا غذاءه لأن الحزن أفقدنا الشهية، وقد مر علينا وقت طويل قبل أن نتعود على هذا الفراق المؤلم. لقد توفي زميلنا في فصل الخريف العابر والأشجار تفقد أوراقها الميتة والحزن يملأ قلوبنا، ولاسيما قلوب الذين كان لديهم أمل في تطبيب أي سجين يبلغ من السقام ما بلغه شجاعي، كانوا يأملون في أن يعي المسؤولون هذه المجزرة، ويأملون في تحسن ممكن لوضعنا الكئيب (...)

لم تغير هذه المأساة من جدولنا الزمني اليومي، لكننا استنكفنا عن النكت والغناء لمدة طويلة. احتراما لروح صديقنا وكنا نقرأ القرآن كل يوم جمعة ترحما على أرواح موتانا. هذه المأساة وضعتني أمام الأمر الواقع ولم يعد أمامي حل آخر: إما الاستسلام ومجاراة الواقع وإما التصرف في هذا الوقت المناسب. بعد تفكير طويل، قررت تجريب أية وسيلة لربط الاتصال مع العالم الخارجي. وكان لابد لي، أن أخبر الرأي العام بمأساتنا مهما كان الثمن، لقد أصبح من الضروري إخبار الناس بما يجري في هذا المعتقل وأن أي صمت معناه خدمة أبشع أنواع الجبن والخسة.. لم أشأ أن أكون تلك الذبيحة التي تساق الى المجزرة وهي تنظر إلى الذبائح الأخرى تنقاد بهدوء إلى نفس المصير منتظرة دورها. إن صمتي يعني التواطؤ مع الجلادين والتخلي عن مهمتي وخيانة ذكرى زملائي الموتى.

كان علي في الوهلة الأولى، أن أجد شيئا أكتب به، والحال أنني لم أكن أملك قلما وكل ما عندي هو بعض من ورق احتفظت به منذ 1973 وخبأته بعناية كبيرة في ركن من زنزانتي عملا بنصيحة أسدتها لي والدتي من قبل: «احتفظ بكل شيء له قيمته، يفيدك في المستقبل». وجدت أيضا قطعة من خشب مرمية أرضا، بريتها بحكها على الجدار كما كنا نفعل في

الكتاتيب القرآنية.

لم تتطلب صناعة الحِبْر الصيني وقتا كبيرا: إذ أحرقت بعضا من «دوم» مكنسة مهترئة ونشار الصوف المتساقط من الغطاء المهترئ.

لما حصلت على «شمع» لزج، صببت ماء للحصول على الحبر (سائل أسود). غمست الطرف الحاد لقطعة الغصن الصغيرة في السائل وشرعت في كتابة خطابي الذي لا أذكر منه سوى العبارات الأخيرة «تازمامارت أبشع من «داشو» نقطة عبور نحو المقصلة وأفران بدون جير».

الشمس
بعد سنوات
من الظلام

انتظرت على أحر من الجمر وصول اللحظة المناسبة لتسليم رسالتي لأحد الحراس راجيا إياه القيام بما يجب حتى تصل إلى أصحابها. عرضت عليه اقتراحين: يقضي الأول بتسليم الرسالة يدا بيد مقابل مكافأة وأداء ثمن السفر. أما الاقتراح الثاني، فيقتضي إرسالها عبر البريد إذا تعذرت عليه الرحلة.

وبالرغم من تردده وأعذاره، أفلحت في إقناعه لأداء هذه المهمة الصعبة، فقبل أداءها، شريطة أن تقوم زوجته أو ابنته بالعمل بدله زيادة في الاحتياط. أرسلت رسالتي إلى زوجتي وإلى مشغلها الدكتور هادي مسواك، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي المغربي في الأربعينيات الى جانب ليون سلطان وعبد الله بن بوعزة وعلي يعتة. وقد علمت فيما بعد أن رسالتي قد وصلت إلى عنوانها رغم أن المبعوث لم يأتني برد.

وقد قرأتها منشورة في مجلة «الحياة» تحت رقم 2404 بعنوان «رسالة مختطف». وكانت تبدأ على الشكل التالي: «أنا منهك، مسجون منذ 1973، بلا شمس أو طبيب أو دواء. والأكل سيء للغاية ونادر. ونحن تحت رحمة التساقطات والبرد والجوع والوسخ والأمراض القاتلة. هنا لا وجود للرحمة أو الطيبوبة أو المساعدة.. تحرك أو مُتْ.. أنا مسلح بالصبر والإرادة، لأنني مؤمن بالله. أنصح أبنائي بالابتعاد عن الانحراف والمخدرات ورفاق السوء. امتثلوا لنصائح أمكم وجدتكم. عندما أفكر فيكم.. أبكي».

وكم من مرة دمعت عيناي. نسيت أن أذكر جزئية لم أنتبه إليها، وقد صار لها شأن فيما بعد. ففي الوقت الذي كنت أتحدث إلى الحارس المبعوث، كان جاري على اليمين، الطويل مبارك، ينصت إلينا، كما رآني عندما سلمته الرسالة. فنقل الخبر إلى صديقه في الطيران صلاح حشاد (رقم 29) بواسطة شفرة متفق عليها بينهما. فاغتنم هذا الأخير الفرصة وطلب من الحارس ربط اتصاله بزوجته الصيدلية بالقنيطرة.

كان علينا انتظار أبريل 1978 لكي يتسنى للمبعوث الحصول على عطلة لمدة 10 أيام.

في انتظار ذلك. وبينما نحن غارقون في الحداد، حلّت بنا مصيبة جديدة، وقضينا سنين طويلة مكرهين على تحمل الصراخات العالية والنداءات الجارحة والضربات القوية لأحد رفاقنا الذي فقد صوابه. هل هو جني من جن البناية «2» جاء لزيارتنا؟ قد يكون. لكن الصواب البدهي هو أن رفيقنا ميمون فاغوري قد أمضى وقتا طويلا يتأمل حاله، وحيدا في زنزانته وخلق لنفسه عالما خاصا يحلم فيه بكل صمت. كان ميمون، مثل القوري، رجلا صموتا وانطوائيا. بدأت القصة المؤلمة ذات يوم من أيام دجنبر، وقد كان مرزاق أحمد يومها يجود القرآن ويترنّم بآياته المحكمات التي تهز القلب إلى درجة الخشوع. فجأة قاطعه ميمون وطلب منه أن يخرس. طلبنا منه توضيحا لما صدر عنه، فأجابنا بأن أصواتا غريبة في زنزانته تأمره بإسكات قارئ القرآن، لأنه يزعجهم كثيرا. اعتقدنا أن هذا الحادث لن يتكرر، والحال أن ميمون بدأ يحدث نفسه ويتحدث الى من سماهم بـ «الزوار»، الذين كان الرفاق يعتقدون أنهم «الجن» ويَعتقد هو بأنهم «مبعوثو الحرية». كان أحيانا يضحك ويطلق القهقهات الصاخبة وأحيانا أخرى يصرخ صراخا ينشر الرعب. دام الحوار بين السجين و «زواره» قرابة شهر، ثم بدأ يطلق صراخا

عاليا وينادي زملاء فوجه الذين كانوا في الجناح الآخر. ولما لم يتلق جوابا اعتقد بانه قد أفرج عنهم، فبدأ المسكين يضرب الباب الحديدي بكل ما أوتي من قوة مطالبا بحريته: «طلقوني، باغي انكون حر بحال اصحابي اللي خرجوا.. أبَاحْبَاح جاوْبْني، واكيناتْ آجي خرجْني، اجي افتح لي، ما باغيش نبقى في الحبس، كمّلْت العقوبة دْيالي». والمقصود انه مُدان بـ 3 سنوات سجنا في قضية البوينغ الملكية، أنهاها سنة 1975. غير أن هذه الإضافة - من سنتين - أفقدته صوابه وأصبح مجنونا بفعل ظلم الناس له. أما الرفاق الذين كان يناديهم فقد مات العديد منهم.

كانت طريقته في المطالبة بالحرية تنهكه وتهد قواه وتزعج رفاقه الأحياء، خصوصا وأنه لم يكف ليل نهار عن الصراخ وضرب الباب. رجوناه أن يتوقف كي ننام، ونادرا ما كان يستجيب لندائنا، لأنه لم يعد ينصت. فبعد أن أعياه انتظار الإفراج عنه وسماع الوعود لم يعد يخاف غضب السجناء ولا تهديدات الحراس وواصل ضربه وصُراخه. لقد أصابت عدوى الوباء الشيطاني الذي ألم بالبناية «2» بنايتنا، واعتقد العديد منا بأن الشيطان هو الذي كان يضرب على الباب، عوض رفيقنا، لأن الشيطان وحده يملك هذه القوة. وقال البعض الآخر بأن ميمون هو الذي كان يقوم بالعمل، لكنه كان «مسكونا» بجني يريد خراب البناية، لأن الضجيج يحدث نزيفا في الدماغ لا محالة.

وفي هذه الأثناء، ونحن نعيش وسط ضجيج متواصل، توفي السرجان علال موهاج يوم 9 دجنبر 1977 في البناية الثانية بسبب تسمم معوي. وموهاج طيار حكم عليه بـ 20 سنة سجنا، لأنه حلق فوق مطار الرباط - سلا الدولي وصور أحداث انقلاب 16 غشت 72، قبل أن يدفن مثل الآخرين في تازمامارت.

كل ما يمكن قوله بخصوص سنة 1977 أنها كانت كارثية أكثر من السنوات الماضية، ذلك لأن البناية نفسها مستها الآفات الحتمية القاتلة. وخلال نفس السنة، سُدّت مواسير المراحيض بسبب ندرة الماء، فنجم عن ذلك فيضان «المياه الغائطية» وغرقت فيه الزنازن و «الكولوار» نفسه، ففاحت الرائحة النتنة في أنحاء السجن كله، وانتشر الذباب والناموس والحشرات من كل لون واسقمَتْنا الروائح الكريهة وأصيب العديد منا بالسل. وسأتحدث في الوقت المناسب عن الحالة الأكثر بشاعة واللا إنسانية التي لن تغفر للحراس.

الشمس! الشمس!

في السابع من يناير 1978، في الساعة الرابعة، فوجئنا بزيارة غير منتظرة للحراس، واستيقظ الذين كانوا يقضون قيلولتهم فزعين نظرا لتعودنا على توقيت ثابت. ومما أثار حيرتي، حضور كل الموظفين والحراس بمن فيهم الذين كانوا خارج وقت العمل. كان الجميع باللباس النظامي وقد اعتدنا أن نراهم باللباس المدني. فوجئت أيضا بسلوكهم غير العادي. فقد بدأوا بفتح الباب الأول وتوجه أحدهم إلى بنعيسى رشدي قائلا: «خذ إبريقك وصحنك وغطاءيك. واتبعني». امتثل رفيقنا قبل أن يفهم، إذ لا جدوى من سؤال «روبوات» خصوصا وأننا نتوقع الأفظع منهم. ثم فتحوا الزنزانة الثانية وأمروا لغلو محمد بالخروج، وقد وجد صعوبة في المشي بسبب الروماتيزم وبداية شلل نصفي. فأمسك به حارس من ذراعه ودفعه خارج الزنزانة.

راقبت من خلال الكوة رفاق الشقاء يمرون الواحد تلو الآخر: عبد اللطيف بلكبير، القبطان الذي كان في ما سلف من الأيام، عملاقا يمشي مشي الخيلاء الرياضية، دائم الأنافة، يجر أسماله متسخا، محدودب الظهر، يجر رجليه المصابتين بالروماتيزم والجسم قد أعياه المرض ونال منه الهزال، هو الذي مارس الكمال الجسماني لسنوات. لما وصل الباب الكبير للبناية، أعماه نور الشمس التي لم يرها منذ وصوله الى المعتقل، وخلبت لبه السماء الزرقاء الصافية وسحره إحساسه بالحرية فترنح وخر صريعا، ثم سجد لله باكيا وتضرع إليه بصوت جهوري. «يارب الملكوت أطلب رحمتك وغفرانك، انت وحدك قادر على خلاصي من بين يدي الظالمين. انت ربي ومولاي، اطلب رضاك ومغفرتك». رفعه الحارسان بقسوة، فمشى مترنحا، مثل بندول. صاح احد ما «اسرعوا، لا نملك وقتا نضيعه». فجاء دور الصفريوي عبد العالي الذي تقدم بخطوات ثقيلة، وجهه ناتئ القسمات، شاحب، افزعني هزاله، ومشى خلفه اعكاو عبد الله - رقم 5 - يجر رجليه كما لو كان يتزحلق، وقد استند الى الجدار لئلا يسقط. هذا المعتقل الذي كنت اعرفه من خلال صوته الاجش، لم يسبق لي ان رأيته رغم اننا قضينا 4 سنوات في نفس المعتقل الملعون. رأيت اخيرا هذا الصوت بلا وجه ورأيت خديه غائرين ووجهه الشاحب وجسمه الطويل والنحيف مثل صنارة. تلاه رقم 6 بن رضوان التيجاني، وكان قصير القامة، بدأه الصلع، مشى طاو جسمه وقد شد على بطنه بكلتا يديه وجذعه متعامد (90 درجة) مع اطرافه السفلى. صاح احد المسؤولين «من بعده!». كان المفروض ان يكون الفقيد شجاعي

الذي مات منذ شهرين. مر امامي الرفيق عفياوي محمد، رقم ٨، محدودب الظهر مثل عجوز يمشي ببطء وصعوبة، لم استطع تبين ملامح وجهه بسبب شعره الطويل والاغبر ولحيته الكثة. وتعرفت عليه بواسطة صوته ذي اللكنة الوزانية، ذلك الصوت الذي كنت اسمعه مرة او مرتين في كل فصل، لان عفياوي يحب الوحدة والخلود الى الهدوء. كان اخر من مر امامي هو سعودي عبد الكريم، وبالرغم من صغر سنه بدا منهكا يمشي مترنحا حافي القدمين المنتفختين بفعل البرودة، ملابسه الممزقة عرت بعض اطراف جسمه النحيف، في حين وهبته لحيته الكثة الشقراء مظهر قرصان عاطل. هالتني على الخصوص عيناه الجاحظتان المحمرتان بسبب العتمة دون شك. اما شعر رأسه الطويل والمتسخ فقد اظهره بمظهر متسول تائه، كما كان حالنا جميعا بلا استثناء. منظرنا مفزع، خاف منا الحراس لغرابة نظراتنا، اضافة الى رائحة الصديد (القيح) المنبعثة من المؤخرة والصرة.

بصقاتنا نفسها كانت نتنة مثل مخاطنا الذي انتن بسبب الالتهاب الجيبي. انبعثت منا روائح فأشاح الحراس عنا بوجوههم كلما ارادوا فتح ابواب زنازننا. كان منظرنا مقززا للغاية ورائحتنا كريهة. كل الرفاق الذين تعاقبوا امامي كانوا يشبهون الجثث، خلت انني أرى اشباحا وليس بني البشر. وقد تبدلت احوالهم حتى انني لم اتعرف على رفاقي القدامى. صدق او لا تصدق.

وفيما انا انتظر دوري للخروج للاطلاع على سر هذا اللغز، او تغيير المكان واستنشاق هواء جديد على الاقل، دخل سكرتير المدير السرجان سي لحسن مسرعا وقد بان عليه الارتباك وأمر الحراس بوقف العملية. بعد لحظات عاد رفاقنا الى البناية ودخلوا زنازنهم.

سأل حارس فضولي رئيس مجموعته عن سبب هذا الامر المضاد، فأجابه بالقول: «لقد حصل خلط والتباس، اذ ان الذي تلقى الامر نقله معكوسا». رد عليه الفضولي: «كان عليه ان يتأكد قبل التنفيذ. فلماذا كل هذا الهرج بلا جدوى؟». وبعد هنيهة من الصمت اضاف «مع العلم ان السكرتير متعلم، ليس مثلنا» فأجابه مخاطبه: «ان المتعلمين كثيرا ما يرتكبون اخطاء فادحة، وهم أغبى منا».

فيما بعد علمنا ان المدير كان في مهمة خاصة بالرباط وهناك تلقى تعليمات خاصة، فاتصل بسكرتيره وطلب منه إخلاء نصف البناية الثانية ووضع كل سجينين في نفس الزنزانة وترك الجناح الآخر

لاستقبال سجناء جدد سيصلون مساء نفس اليوم. وعوض الاقتصارعلى البناية رقم 2 فقط، قام السكرتير بنقل زملائنا لإخلاء جزء من بنايتنا. ولان الانسان لا قيمة له، فقد نقلوا من مكان الى آخر مثل سلعة، بل احقر منها، لان نقل السلعة يتطلب وصلا بالنقل وعدة وثائق اخرى.

بعد رحيل الحراس روى لنا رفاقنا بالتفصيل ما حدث ابان ترحيلهم الوجيز. فقد اقتيدوا جميعا الي البناية الثانية وأودع كل واحد منهم في زنزانة بمعية سجين آخر من البناية الاخرى. كان بنعيسى (رقم 1) اول من بدأ قصته البئيسة: «لقد اودعوني الزنزانة رقم 30 لصاحبها عماروش كوين الذي وجدته ملتفا في غطائه ممددا فوق بلاطته. طلب مني الاقتراب منه ليسلم علي لانه كان مشلولا. ما أثار فضولي هو رائحة العفونة ولب الخبز المرمي اسفل البلاطة.

بادرني بالقول: «أهلا، أنا اعماروش، منذ 4 أشهر وأنا على هذا الحال. أشكو من التهاب معوي وأنتظر دوري لألتحق بالرفيق الأعلى. لقد مات 6 معتقلين في هذه البناية. أكاد لا أتناول طعاما، أستسمحك عن هذه الرائحة الكريهة، لأنني أتبول في سروالي. أنا سعيد بوجودك معي لمساعدتي. ما اسمك؟» رق قلب بنعيسى الطيب لهذه الكلمات. وأجابه: اسمي بنعيسى رشدي سرجان طيار. من تافيلالت. لا عليك سأعينك ما استطعت إنشاء الله. ومن الآن فصاعدا اعتبرني أخاك الصغير». فجأة دخل عليهما حارس وأمر بنعيسى بلَمّ متاعه الهزيل للعودة إلى البناية رقم واحد.

بعدها روى كل واحد من السجناء مغامرته المفاجئة والوجيزة، وأجمعوا كلهم على أن المعتقلين الآخرين كانوا في وضعية أفظع من وضعيتنا، ليس فقط بسبب الموتى الذين سقطوا، بل لوجود محتضرين ومجانين منهم الليوتنان حيفي والقبطان بندورو.

السجين الذي قتله المرحاض!

بعد 4 سنوات و 6 أشهر لم يتعرف أصدقاء الأمس على بعضهم البعض، لأن تازمامارت شوهتهم بسرعة. في نفس تلك الليلة (التي نقل

فيها جزء من المعتقلين إلى جناح آخر)، أثار فضولنا صرير الأبواب وصوتها المعدني وهي تغلق وتفتح قبل أن يليه هدير الشاحنات وهي تدخل إلى ساحة السجن. سمعنا أصواتا تصدر الأوامر وصياحا ونداءات ثم صرير أبواب الزنازن وهي تغلق عنوة، ثم ساد الصمت ولم نعد نسمع سوى صفير الرياح. وقد علمنا في ما بعد أن كومندان الدرك الملكي الذي كان برتبة اليوتنان سنة 1973 عندما رحلنا من القنيطرة قد جاء من سجن آسفي مرافقا لـ 17 إفريقيا لسجنهم في تازمامارت. وعلمنا أيضا أنهم كانوا كلهم عسكريين ببذلاتهم المعروفة كلهم حفاة وشباب باستثناء الليوتنان المريض والمسن، كانوا يتحدثون فيما بينهم بلهجة قبلية باستثناء برنار وزكريا المسلم الذي ارتبط سريعا بعلاقات مع رفاقنا. ولعل الإحساس الديني هو الذي دفع به إلى التقارب معهم. كانا معا يتقنان الفرنسية ويحبان تجاذب أطراف الحديث مع رفاقنا، لكنهم كانوا يتحاشون الجواب عن الأسئلة المحرجة من قبيل الكشف عن جنسيتهم أو أسباب اعتقالهم. فقد كان رفاقهم محتاطين وكثيرا ما منعوهم من الحديث إلى المعتقلين وتشاجروا معهم إن هم فعلوا ذلك، قضوا الليلة الأولى في صقيع تازمامارت كما قضاها غيرهم، ادعى بعض الحراس أنهم كوماندو من ما يسمى بالبوليزاريو وذهب أحد الحراس المطلعين إلى أنهم من الأفارقة السود من جنوب موريطانيا وكانوا يعملون لفائدة السينغال دربوا من أجل خلق قلاقل في البلاد عبر عمليات مسلحة. سألت صاحب هذا الادعاء:

- هل هم موريتانيون أم سينغاليون؟

- إنهم موريتانيون من أصل سينغالي يطالبون بالانفصال، لكن ما دخل المغرب في هذا؟. تناهى إلى علمنا أنهم «ربما بعض الثوار من الزايير معارضين لنظام موبوتو وقد نفوهم هنا لترهيبهم». شخصيا رفضت الافتراضات الثلاثة الى أن يثبت العكس.

ذهل هؤلاء الأفارقة من النظام القاسي المطبق في تازمامارت وأصابهم ما أصابنا وسرعان ما هَوَتْ معنوياتهم إلى الحضيض وانتابهم اليأس، لقد أقروا بأن بلادهم تعرف أشياء من هذا النوع لكنهم اندهشوا أن يجدوا مثل هذا في بلد قريب من أوربا.

ضجّت ساحة السجن ذات صباح بكل أنواع الحيوانات، حيث ان

المدير جاء أول الأمر بالضأن ثم المعز، وأضاف بعد ذلك الدجاج والديوك الهندية، ولماذا لا يستغلها وهي خاوية على عروشها ممنوعة على المعتقلين؟

هكذا أصبحت الساحة المنذورة لنزهة السجناء اسطبلا لماشية المدير التي تحملنا صخبها لمدة طويلة.

في الثالث عشر من يناير 78 توفي الليوتنان بوتو موحا من جراء التهاب معوي وقرحة المعدة. كان بوتو محكوما عليه بـ 3 سنوات سجنا في سنة 1971 وكان المفروض أن يفرج عنه في الفاتح غشت سنة 74، لكنه ظل معتقلا بدون وجه حق إلى آخر رمق ليدفن في قبر مجهول، علما بأن أبويه كانا لا يبعدان عن المكان إلا بـ 40 كلم فقط. هذا الضابط الشاب، الحيوي والرياضي، الأمرد بوجهه الطفولي كان رصينا، لامعا ومثقفا لم يضيع وقته في الدير والتهم كل الكتب الموجودة في مكتبة الرهبان...

وكان شهر فبراير 78، أقسى الشهور في تاريخ البناية الثانية، ففي الثاني عشر منه، مات سجينان، الأول في الصباح والثاني في المساء، توفي الأول وهو لاجودان عماروش كوين المحكوم بـ 10 سنوات سجنا في قضية الصخيرات بسبب تسمم معوي، بعد مرض طويل أجبره على التزام «المصطبة» مدة طويلة، وعماروش من مواليد بوريد ترعرع في الريف ثم رحل إلى الجزائر، بحثا عن العمل قبل أن يلتحق بالجيش الفرنسي، حارب في الهند الصينية ثم فر من صفوف الجيش والتحق بجيش التحرير، أدمج في القوات المسلحة الملكية سنة 1956، وظل في صفوفها إلى حين اعتقاله في 71/7/10، وهو متزوج، أب لستة أطفال صغار السن لم يترعرعوا أمام عينيه. كان ينتظر موته وكل الرفاق أيضا، وحتى الحراس أنفسهم كانوا ينتظرونه لكي يسارعوا إلى دفنه للتخلص منه ومن شجاره معهم. فقد عرف عنه بأنه كان يكثر من السب والشتم والوعيد. وفي الوقت الذي كان فيه الحراس يدفنون الميت، كان رفيق آخر يحتضر. فقد تدهورت صحته منذ شهور، فنقله الحراس إلى زنزانة رفيقه حيفي عبد السلام.

ومن غريب الأشياء أن يودَعَ شخص نصف مجنون إلى جانب آخر مشلول يحتاج إلى العناية والحدب، وكل شيء كان غريبا في تازمامارت، اللهم إلا إذا كان الحراس قد تعمّدوا ذلك، لأن المحتضر كان من أكرهنا إلى الحراس، لأنه كان ينعتهم بأقبح النعوت وأشنعها ويكيل لهم

الشتائم. في ذلك اليوم الأسود، عاد الحراس على غير عادتهم في الساعة الواحدة زوالا وفتحوا الزنزانة وسألوا حيفي.
- ماذا تفعل؟
أجابهم:
- كنت أدردش مع صديقي، لكنه طلب مني أن أدعه ينام قليلا، أمره لاجودان شاف فريح:
لم حوائجك واذهب إلى زنزانتك.
- رد حيفي: «لكني لا يمكنني أن أتركه وحيدا، فهو محتاج إليّ»
لن يحتاجك ولن يحتاج إلى غيرك، ألا ترى بأنه مات؟
- لا أعتقد أنه قد مات، لقد قضينا الصباح كله في الحديث وكان في وضع عاد. أنا متأكد أنه مجرد نائم».
ودون إيلاء كلامه أدنى اعتبار، رفعوا الميت الذي كان يقضي طوال الوقت ملتفا في غطائه النتن وأخرجوه إلى الساحة ثم دفنوه مثل من سبقوه ودون التأكد إن مات فعلا أم لا. وهل دفنوه بعد أن قضى، أم كان مازال يحتضر؟ الله وحده يعلم والحراس أيضا.. فهل سيجرؤون على قول الحقيقة ذات يوم؟ ربما!
إن السجين المتوفي هو السوليوتنان اليقيظي محجوب المحكوم عليه بـ 20 سنة منذ 1971، كان أعزب عمره 30 سنة، ومن أصل مراكشي.
توفي بسبب الشلل التام والهزال. كان من الممكن إنقاذه لأنه لم يشك لا من نزيف ولا من التهاب أو سواهما، وظل صافي الذهن إلى أن مات وهو يطالب بحقه. كان محبوبا من طرف رفاقه الذين حزنوا لفراقه. عندما كان حيا قارع التعسف وقاوم بشراسة للحفاظ على كرامته.
وقد كان ممثلنا لدى إدارة السجن بالقنيطرة، وسبق أن عوقب بأسبوع في «الكاشو»، لأنه احتج على النظام الداخلي للسجن، وقال للمدير وقتها: «ماشي معقول طبقوا قوانين 1932 وحْنا في 1972، هذا قانون الغاب، قل للحراس ديالك يحتارمونا وحنا رامَاغَديشْ نسكْتو، انتوما كاتعلموا غير لحسانة في ريوس ليتامى، وماشي في لحيتي تبْني لعشاشْ» كان اليقيظي كثير المرح والدعابة مع زملائه، قبل موته بأسابيع فاه بالعبارة التالية: «آه لو كان هْنا شي متعلم حَجّام يتعلم فيَ لحسانة، ولاشك غادي يلقى في لحيتي شي عْشاش». لقد ظل على حاله من الدعابة إلى أن جاء أجله.
في العشرين من فبراير 78 والجو ماطر وحزين كانت البناية مازالت

في حداد عندما ألمّت بها المأساة للمرة الثالثة في شهر واحد، إذ انطفأت روح أخرى في هذا اليوم فزاد بذلك حزن القلوب المكلومة واهتزت الأفئدة المنخورة باليأس والتواكل والخوف. وقد كانت حالة لاجودان العيدي المحكوم بـ 3 سنوات سجنا في قضية الطائرة الملكية، والذي توفي يومها مختلفا عن الحالات الأخرى.

لم يسبق له، منذ وصوله إلى المعتقل، أن أصيب بداء وكان يجاري القدر بنكران ذات. لقد وعى العواقب الوخيمة لليأس، فاختار السرور الدائم وعدم الاكتراث بمشاغل اليومي. كان العيدي رئيس القيمين على السلاح في القاعدة الجوية وظل دائما محبوبا ومحترما من طرف مرؤوسيه حتى في السجن، الذين كانوا ينصتون لنصائحه ويعملون بها، راجح العقل كان ناضجا غير مبال بصروف الدهر يختار من الحياة أحسن ما فيها. احترمه الجميع لحيويته وفطنته وبما أنه كان متزوجا وأبا لطفلين فقد كان أبا حنونا وزوجا لطيف المعشر.

بدأت مأساته عندما سدت مواسير المرحاض بواسطة اسفنجة أو شيء آخر تافه، حدث لاجودان شاف فريح القيم على البناية فقرّعه هذا الأخير قبل أن يُناوله إبريقا ماء إضافيا، لسوء حظه لم يجد الماء في شيء، في اليومين المواليين سلموه إبريقين إضافيين، لكن المرحاض ظلت مسالكه مسدودة. وباءت كل المحاولات التالية بالفشل. بعد أسبوع طلب منهم منحه سلكا حديديا لعله يستطيع انتشال ما علق بالمواسير. حصل على ما أراد وسك منه كلابا ثم شمّر عن ساعده وأدخل الكُلاّب ويده وبدأ عمله الشاق لمدة أسبوع بلا... نتيجة.

كانت الزنزانة طوال الوقت تفوح برائحة كريهة تثير غثيان الحراس، كلما فتحوا بابها، خاف «فريح» من انتشار وباء ما، فوضع أنبوب الماء رهن إشارة السجين، فكانت مبادرة كارثية زادت الطين بلة حيث فاض الماء الوسخ النتن وساح في أرضية الزنزانة التي تحولت الى حوض ماء يسبح فيه الغائط فاض الماء ووصل إلى «الكولوار» مما أغضب الحراس، فاتهموه بأنه يتعمد ذلك إمعانا في إزعاجهم. أقسم بأغلظ الإيمان بأنه لم يفعل ذلك لكنهم حملوا له غلا في أنفسهم تسبب في ضياعه. وكلما كان يقضي حاجته كان مستوى الماء والفضلات يزداد. إلى أن تعذر عليه التحرك دون أن يخبط في المياه العكرة وقد التصق البُراز بجنبات الزنزانة. وضع العيدي منديلا على أنفه حتى لا تزكمه الروائح القاتلة. لكن العفن مس كل شيء، يداه وأدواته وجنبات البلاطة.

طلب من فريح تغيير زنزانته التي لم تعد الحياة فيها تطاق، إن لم تستحيلْ. رفض هذا الأخير طلبه وخاطبه ممنوع «ابْق تَم، ما عندي ما ندير لكْ».

توسل إليه العيدي: «مون أدجيدان، الشانبرات خاوْيين كاين بزّاف، ديروني في شي واحد. أولا غادي تعتقوني وثانيا غادي تنجّيوا الباطما من الميكروبات والريحة والوباء» رد عليه فريح أنه إذا كانت المراحيض مسدودة فذلك بسببه هو وأن عليه الانتباه و «دابا لأنك ما مْسوّقشْ احْنا كنْشمُّو (خ).... ما شي شغلنا غادي تبقا تم مْعْ (خ....)».

توسل إليه السجين: «اخبر على الأقل المدير. لابد وأن يتخذ قرارا لصالحي» وظل المعتقل يغذي الأمل في حل لمدة طويلة أو لعل المدير يبادر ويفرج كربته. هيهات! كان قلب «فريح» غليظا وفظّا، فلا رقّ ولا حَنّ لهذه الشروط اللا إنسانية أو أفلح الإحساس أو روح المسؤولية في فَك الصُلْب الذي لفّ قلبه أو تكسير غلافه الذي طوق به ضميره أو رفع الغشاوة عن بصره الذي هجرته الرحمة أو الطيبوبة. وياما احتج العيدي وتوسل وصرخ وبكى وصاح لكن لا حياة لمن تنادي.

حاول «فريح» أن يواسيه بالقول «لا تحْزَن ستحل الأمور بعد عودة المدير»، علما بأنه كان بإمكانه أن ينقله إلى زنزانة أخرى دون استشارة رئيسه، والحجة الدامغة على هذا أن الحراس أنفسهم كانوا يسألوننا عن الأسماء الشخصية والعائلية لمن ماتوا منّا ذلك لأنهم كانوا لا يعرفون عنا سوى أرقام الزنازن. وقد أودى عناد «افْريح» بحياة سجين لم يعد له مع العدالة أي شنآن واحتفظ به رغم انقضاء عقوبته. هكذا عاش صديقنا في هذه الظروف وحرم نفسه من الأكل حتى لا يرتاد المرحاض ولف رأسه ووجهه بغطائه حتى لا تزكم رائحة تحلُّل البراز أنفه وتخنقه. لم يكف المسكين عن الاحتجاج الى أن بدأ يسعل وأصابه المرض. ولم يسعفه أحد. ظل يسعل ويبصق الدم الذي لم يكترث له الحراس. فزع العيدي عندما تيقن بإصابته بالسل وبدأ الجنون يتسلل اليه شيئا فشيئا. صرخ، بكى، اتهم فريح بمأساته، وقبل أسبوع من وفاته أصابته حمى هذيانية وهدّه التعب، فما عاد قادرا على الصراخ أو الأنين وظل صموتا إلى حدود 20 فبراير 78، فخرّ صريعا وأسلم الروح لباريها في صمت، فدُفن في الشروط المعروفة.

وجبة الفئران

أغرق رحيل العيدي رفاقنا في اليأس والاستسلام، كما هي العادة. وكلما بدأ احتضار احد مرضانا كانت البومة (موكا) تنعب طوال الليل منذرة بالشؤم القادم. وطوال كل هذه المدة الحرجة التي كان العيدي يئن فيها، كان طائر الشؤم يطلق نعيبه المنحوس الذي تصطفق له الافئدة، قبل ان يغيب تماما بعد وفاة رفيقنا، لتحل الغربان محله طوال مدة تحلل الجثة، وتحلق ناعقة. وللذين يقولون ان الرفيق العيدي «ضربوه الجنون» لانه فقد عقله اقول بكل مرارة ان الجن الحقيقي هم فريح وامثاله ورؤساؤه.

كان شهر مارس شهر الكوابيس والاستيهامات والتهيؤات الناجمة عن توتر العديد منا وتفاعلهم مع المأساة الجديدة، واصبح امام المرضى ان ينتظروا دورهم في الرحيل.

في تازمامارت كانت المعاناة اقسى من الموت، وان كانت تؤدي الى النهاية الحتمية بعد ان يقضي المريض مراحل من العذاب والألم الرهيب. وبكل صدق اقول اننا كنا نتمنى الموت بدل المعاناة. لكننا مع ذلك سلمنا أمرنا للاقدار وتحملنا المكتوب. كان جرحنا يتعفن يوما عن يوم وينزف اكثر فأكثر وزاد نزيفه في ابريل 1978.

خارج السجن، كان الربيع قد بدأ عودته الخضراء الى الحقول بأزهاره القشيبة وشمسه المشرقة التي تبخر اشعتها الضباب الصباحي حتى يتراقص الفراش والنحل متنقلاً من زهرة الى أخرى. اما نحن فقد كنا في «بياتنا» نرتعش من البرد في انتظار نهاية شهر يونيو. في هذا الفصل الذي تستقبله الطيور بترنمها الناعم والسماء بزرقتها الصافية بعد ان ارسلت غيماتها الصغيرة نحو المدى البعيد، في هذا الفصل كانت خيالاتنا تسرح في الظلمة بحثا عن مهرب للابتعاد عن واقعنا المر، لعلها تجد في النسيان سلوة. من سوء الحظ كانت الوقائع والاحداث المأساوية تعيدنا الى ارض الواقع الملموس، اذ توفي في 21 ابريل 78،

بعد التهاب معوي رفيقنا لاجودان شاف امحمد ابو المعقول الملقب «بالخضير» وهو من مواليد بوريد (الريف)، متزوج وله 3 اطفال، ادين ب 3 سنوات سجنا نافذا في قضية الصخيرات. عانى بقسوة قبل وفاته، مثله مثل الآخرين ودفن بالطريقة نفسها والآن يرقد جثمانه في قبر منسي بالمعتقل السري في ساحة جرداء، تضم كل الجثث، رغم ان هذه المساحة الصخرية التي تخفي كل الفظاعات، لم تكن تشبه مقبرة، لان الارض مسطحة لا يبرز منها اي دليل يكشف عن و جود جثث.

لقد كان الحراس يضعون كمامات علي انوفهم تجنبا للرائحة الكريهة، رائحة الموت ودرءا للعدوى، ذلك ان العديد من الرفاق توفوا بسبب التهاب معوي ناجم عن سوء التغذية.

واتذكر ما وقع في الثالث من مارس المنصرم الذي يعرف تحسنا في نوعية الطعام. يومها لاحظ الكابورال لهبوب الذي كان يوزع وجباتنا، وجود جرذ (طوبة) ضخمة في الطنجرة وما فيها من لحم ومرق، كان هذا القارض مطهيا جيدا وزغبه يطفو فوق سطح الطعام، اندهش النادل واسقط في يده فانتشلها بمغرفته وطوح بها في الكولوار تم واصل عمله بكل هدوء. التهمنا وجبتنا بشهية، دون عسر في الهضم او قيء. في المساء اكتشف الحراس وجود الطوبة المطهوة محاطة بالزيتون والذباب وجيش من الحشرات، تابع رفيقنا عفياوي المشهد وتوجه اليهم بالقول: ان لهبوب هو الذي وجدها في الطنجرة، ثم رماها في الكولوار، واضاف بان المرق كان مليئا بالزغب، اجابه الحراس شامتين: «هذه امور تقع، وانتم على كل حال محصنون».

بعد رحيل الحراس الذين لم يتجشموا عناء إلقائها في الخارج، اخبرنا صديقنا المتكتم مقهقها: شهية طيبة ايها الاخوة، اتمنى ان تكونوا قد هضمتم جيدا. اخبركم ان غذاءنا كان يحتوي على «طوبة» ممتازة، مازالت في البهو ان اردتم مشاهدتها» كد الجيران المباشرون للعفياوي في التفرج عليها من خلال ثقب الكوة، اما الآخرون فلم يتقيأوا لاننا اعتدنا على العثور على الصراصير والحشرات الكبيرة والذباب، بل المسامير الصدئة. وكل ما كنا نحدث الحراس عن ذلك لاذوا بتعليل ما: فتارة هو العطب الكهربائي وتارة مرض الطباخ وتعويضه بآخر. وعلى كل لم ينته الامر عند «الطوبة» وأكلنا افظع منها.

كما ان الموت لم تنه «تبوريدتها» حيث توفي السارجان تهامي ابونسي يوم 24 ابريل 98، اي بعد ثلاثة ايام على وفاة ابو المعقول، وقد

اقعده التهاب معوي وعانى ايما معاناة الى ان وافاه الاجل ودفن بجوار رفاقه الذين توفي اغلبهم نتيجة التهاب في المعدة او في الامعاء.

كان السبب وراء هذا يكمن في سوء التغذية المتجلي في لب الخبز اللصيق والنتن تفوح منه رائحة التعفن، الى درجة اننا كنا نجد انفسنا مكرهين على كشطه وترك القشرة تجف قليلا قبل اكلها!

وكثيرا ما وجدنا قطعا صغيرة من الشحم تفوح منها رائحة مقرفة تذهب الشهية او تسبب الغثيان. وكل من سولت له نفسه أكل لب الخبز او هذه القطع الشحمية كان يحكم على نفسه مسبقا بالموت، فكل سهو او نسيان لا يغتفر في تازمامارت. لاشك ان اشياء كثيرة كانت تفوق طاقتنا، حيث كنا عاجزين امام البرد والمجاعة والوسخ .ولا يمكن للخطأ العابر وحده تفسير مأساتنا. فقد كنا اشبه ما نكون ببدائيي القرن 20، منظرنا مقزز يثير الشفقة عند كل من يرانا باستثناء السجانين الذين لم ترضهم النتيجة رغم فظاعتها. وقد لاحظ الحراس أن ذوي الرتب الدنيا والمحكوم عليهم بعقوبات مخففة هم الذين يموتون بسرعة، في حين ان ذوي رتب قبطان وليوتنان والمحكوم عليهم بعقوبه اقسى يقاومون ويتحملون مشاق الظروف الجهنمية، وكثيرا ما كانوا يلمحون الى ذلك.

وقد بلغت الصلافة بلا جودان شاف بن ادريس ان رماني بها وجها لوجه:

- مازال حي الرايس؟ مامتش بحال لخرين؟ انت كاتقاوم رغم سنك».

اجبته بفظاظة وجفاء: «عمري بيد الخالقني هو وحده سبحانه يقبضوا لما يبغي. المحكمة حكمت بالاعدام لكنه الله لطف بي.

حتى لهنا شحال من مرة مرضت ونجاني ربي».

عقب بن ادريس وقد ابتسم ابتسماته الصفراء (وهذا وصف حقيقي لانه كانت له عشرة اسنان ذهبية!) «حتى المدير لاحظ بان الكرايدية والمحكومين بحبس طويل ماكايموتوش. هذا لغز حقيقي آه؟»

اجبته بجدية: «ملاك الموت ما كاي يختارش. كايطبق اللي مكتوب في اللوح المحفوظ».

اخذ بن دريس الكلمة غير آبه: «ايلا خرجتو شي انهار غادي تخرجوا مهلوكين، حمقين. لو كان تشوفو وجوهكم في المرايا تعرفوا ان مافيكم ما يتشاف. وكيف ما كان الحال حاولوا تنقذوا ما يمكن انقاذه».

كان مخاطبي يتحدث بصوت جهوري رغبة منه في اسماع أقواله للجميع بهدف تدمير معنوياتنا. هل كان هذا الشخص الصفيق، الفظ

المخنث، النرجسي المرهم والدائم العطور، هذا الشيخ الذي يستعمل المواد الكيماوية ليخضب شعره الأشيب وتخفي شيخوخته، هل كان يعلم بانه كان أشد مرضا منا وأن الفيروس ينخر كبده؟ هو الذي أدمن تملي وجهه في المرآة، هل لاحظ اخضرار لون وجهه؟

في شهر يوليوز من نفس السنة والجو حار، دخل الحراس مبكرا وتم فتح أبواب الأفارقة السود قبل أن يصل الكومندان «ف» من الدرك الملكي مرفوقا بمدير السجن. سلموا لكل واحد من الافارقة حقيبة أمورهم لتغيير ملابسهم. نفذ السجناء الأمر وهم مندهشون وفي رمشة عين كانوا مستعدين وقد ارتدوا ملابسهم البرجوازية ورموا بالبذلات العسكرية المتسخة. بعضهم عن له أن يأخذ معه حصته من الخبز (فمن يدري؟) أو كاسه البلاستيكي، ولعله فعل ذلك احتفاظا بذكرى العبور بهذا المكان الذي قضوا فيه 6 أشهر، وفقدوا أحد رفاقهم، بعد 3 أشهر من وصولهم، وهو الرفيق الذي دفن في الساحة الى جانب الآخرين. ففي تازمامارت لم تكن الديانات تراعي كما تقضي الأعراف بفصل المسيحيين عن المسلمين في المقابر، فتازمامارت كان سجنا لائيكيا.

حدث ذات يوم أن دخل علينا الحارس عبد السلام وهو يترنح من شدة السكر، فسمعنا نقرأ القرآن فسأل زميله: «ماذا يقرأون؟» فأجابه هذا الأخير: إنه القرآن»، فما كان من هذا الثمل إلا أن قال: «ليقرأوه ليل نهار إذا كان ذلك يرضيهم، فليس القرآن هو الذي يخرجهم من هذا الغار».

قبل رحيل الأفارقة الـ 16 حفر الحراس لاستخراج جثة رفيقهم المتوفى حتى يرحلوها معهم، وبعد تفتيش دقيق قام به كومندان الدرك الملكي أمر الحراس بوضع الأصفاد في أيديهم قبل إخراجهم الى الساحة، حيث كانت شاحناتان في انتظارهما. بعدها تم وضع الصندوق المجهز في عين المكان في سيارة خاصة وانطلق الموكب.

استمر الموت في حصد الارواح في البناية رقم 2. هكذا توفي في فاتح شتنبر من نفس السنة السارجان شاف عبد العزيز اعبابو، شقيق الكولونيلين محمد وامحمد، بسبب التهاب معوي وتسمم مزق معدته وتسبب له في آلام حادة ألزمته «الفراش» مدة طويلة.

كان عبد العزيز اعبابو مدانا ب 5 سنوات سجنا، لأنه رافق شقيقيه الاكبرين دون أن يعرف لماذا، وهومتزوج وأب لطفل، قضى عقوبته سنة 1976 لكنه ظل مسجونا الى أن وافته المنية ودفن في صمت.

لقد صار الموت شيئا عاديا في البناية رقم2، حتى انه أصبح إجباريا

مثل الخدمة العسكرية. كل واحد ينتظر دوره ليؤديها والمسألة مسألة وقت فقط. والحق أقول أن الاستسلام والتسليم بالأمر ترسخ في فؤاد كل واحد. كيف يمكنهم أن يغازلوا الأمل، وقد تحولت بنايتهم الى معمل لصناعة الجثث التي تنبعث منها روائح مقرفة تجلب الغربان والبوم الذي كان يوقظنا كل ليلة مما أثار حفيظة المتطيرين. فقد كان شائعا أن تواجد بوم في مكان ما معناه أن الموت يتجول في أرجائه. ولعل الدليل كان قائما حيث توفي 14 سجينا في البناية رقم 2 وتوفي واحد فقط في البناية رقم 1.

سافر الحارس المبعوث الذي اتصلت به في دجنبر واتصل به زميلي «ح» أيضا يوم 4 أبريل 78 وعاد بعد انقضاء أسبوع ومعه بريد «ح» فقط، طمأنني بأن رسالتي وصلت الى أصحابها، لكن زحمة الوقت منعته من العودة للحصول على جواب، ووعدني بأنه سيبذل قصارى جهده للنجاح في ا لمرة القادمة. سلم زميلي جوابه والأدوية والمال نقدا، لقد كانت زوجة صاحبنا صيدلية وخطرت لها هذه الفكرة الرائعة والعبقرية لإرسال هذه الكمية من الدواء والمقويات لمجموع المعتقلين. والمؤسف حقا أن زوجها قد غشت عينيه حجب الانفرادية والأنانية، فقل كرمه عن سخاء زوجته. فكان يسلم الدواء للمرضى بالميزان واحتفظ بكل المخزون عنده وهو الشيء الذي تسبب في خصومات ومشاجرات عديدة بيننا. كان يجبر أحيانا على التصرف ببعض السخاء تفاديا للتعاليق المرة والتهديدات ولربما الفضيحة. وبالرغم من الملاحظات ظل صاحبنا مصرا على عناده فعوض تسليم المريض المصاب علبة من المضادات الحيوية كان يرسل إليه بواسطة المبعوث، قرصين أو ثلاثة، كنا نخاطبه بالقول: «إسمع يا رفيق، لا تكن بخيلا فأنت تملك ما يكفي لمعالجة كل المرضى، فهم يحتاجون علاجا تاما وليست صدقة» وكان الأكثر عنفا يعقبون «إما أننا سنستفيد جميعا من فرصة الاتصال وإما سنخرب كل شيء وعلينا وعلى أعدائنا. عليك أن توزع الأدوية والمقويات بالقسطاس أو حسب خطورة المرض، لأننا جميعا على شفا حفرة، بدون زبونية أو قبلية أو ميز بين الطيران والمشاة».

أما الطرف الغاضب منا فقال: «إننا لا نطلب صدقة بل نطالب بحقنا. فما دام المبعوث تجرأ وربط الاتصال لصاحبنا فلماذا لا نغتنم الفرصة أيضا. نحن سواسية ولدينا المال لمساعدة مرضانا». أخذت الكلمة بدوري لأشرح بعض التفاصيل التي يجهلها رفاقنا «كما تعلمون، لقد كنت أول

من اتصل بالحارس الذي بكى لحالنا في اليوم الأول، وبعد الحادث الذي وقع في نهاية دجنبر 1973 لم يتجرأ احد منذئذ على الاقتراب من الحراس. وقد كنت مرة أخرى أول من سلم للحارس الثاني رسالة في اواخر 1977. وقد كان الطويل مبارك شاهدا على هذا. فنقل الى صديقه وصديقنا «ح» ما دار بيننا، لم يفلت هذا الاخير الفرصة ايضا. لقد وعدنا الحارس ببذل ما في وسعه والحال انه نال مبتغاه في حين خاب مسعاي، وقد دار حوار جاد بيني وبين الحارس الذي خاطبني قائلا: «انا افهمك، فانت غاضب لأنك لم تتلق اخبارا عن أطفالك، لكن يمكنك ان تعالج الالتهاب الرئوي الذي تعاني منه وتخفف من السعال والبصاق وآلام المعدة أيضا» قاطعته قائلا: «لكن الأدوية مخصصة ل «ح» فقط»، فأجاب على الفور : لا، لا، ثم لا الأدوية ليست له وحده وقد كان ذلك شرطي منذ البداية، إما الدواء للجميع أو ارفض، فانا ضميري حي ولا يمكنني ان اراقب الناس يموتون وآخرين يحيون واساهم في الظلم» ثم نظر الى نظرة ملؤها الصدق والعطف والطيبوبة وختم حديثه بالقول: مهما بلغنا من الفضيلة سنظل بشرا. وكل واحد مكانك كان سيثور مثلك ضد الظلم، أما «ح» فمن واجبه ان ينقذكم إذا اراد إنقاذ نفسه وليساعد بعضكم بعضا ولتتنظموا ولتقتسموا السراء والضراء معا وسأسهر شخصيا على عدم اقصاء أي كان وسأتدخل إذا ما ارتكب خطأ ما، بل سأوزع الدواء بنفسي. لقد خاطرت بحياتي من اجلكم .إذن يسروا الأمر لي ولتكونوا إخوة». وبهذه الطريقة انتهى حوارنا. وأريد أن أضيف كلمة صغيرة مفادها بأن لا أحد له الحق في الاستفادة من بعض الامتيازات أو الاكراميات ويتنكر لأصدقائه. ففيما يخصني ونظرا لوضعنا الصحي جميعا وللمصلحة العامة سأؤجل اتصالي الى وقت لاحق، اما الآن فعلينا ان ننظم انفسنا ونفكر في التكتم والسرية، لأن الحراس الآخرين مرتابون وحذرون. وشكرا على انتباهكم». اخذ بعض المعتقلين الكلمة، منهم من شكر الله على نعمه وإسداء النصح ومنهم من اقترح بعض الحلول أو التوصيات ومنهم من هدد وتوعد في حالة حدوث احتكار للدواء من قبل رفيقنا أو ننبه الى المخاطر المحدقة بنا والعواقب التي تترصدنا.

المرايا الصغيرة

التي تأتي بالضوء

أخذ رفيقنا صاحب الادوية الكلمة وخاطبنا بقوله: «أيها الرفاق الاعزاء، لقد غمرنا الله بالطافه ونعمه وعلينا أن نحسن الاحتفاظ بها وشكره وحمده. أما من جهتي فلن أنسى أي رفيق مريض وسأسعفه بواسطة الحارس.

- لماذا لاتوزع الادوية وتسلم لكل واحد منا كمية صغيرة فهذا عملي و«مامون». تساءل سجين ماكر ولبيب يعرف طبيعة تفكير رفيقنا (ح).

- أعتقد أن من الافضل أن احتفظ بها معي لأنني أتوفر على مبادئ قوية تخص طريقة تخزين الدواء، لقنتني إياها زوجتي، لأن الدواء الذي لايحسن تخزينه يصبح ساما، وعلى كل فإن حرصي على الامر أضمن لتفادي التبذير.

- أقترح أن يتم تخزين الدواء لدى الحارس وسيقوم هو بإحضار الدواء كلما دعت الضرورة الى ذلك، وهذا سيجعلنا نتفادى الذهاب والاياب المثير للارتياب.

- لا، أجاب زميلنا، اتركوني أتصرف مع المبعوث، فأنا أعرف ما أقوم به..

هكذا اندلعت حرب ضروس بيننا وبين رفيقنا، بين رجل أناني وآخرين يريدون إنقاذ أنفسهم أيضا، فاحتفظ لنفسه بالفيتامينات والمقويات وكان يوزع بين الفينة والاخرى بعض أقراص الاسبرين أو غاندان *RANIDAN* أما المضادات الحيوية فقلما كان يسلمها لنا - بعد لأي - وظل على هذا الحال مدة ثلاث سنوات الى أن ثارت ثائرة بعض المعتقلين مطالبين بالمساواة، وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد بالتفصيل.

بعد سنة من الالم والمكابدة، نزل الموت بنا واختطف قاسم قصراوي يوم *16* دجنبر *1979* في عز الشتاء، ظل يعاني مدة طويلة من الحمى التي فتكت بجوانحه، ثم بصق الدم. ولما تيقن بأنه مصاب بالتهاب الرئة، طلب من الحراس ألا يقتربوا منه كثيرا حتى لايصابوا بالعدوى

وينقلون الداء الى عائلاتهم! قبل ثلاثة أيام من وفاته طلب من الحارس باغازي طلبا قائلا: «أعرف أنني سأموت لكني أريد قبل أن يصل أجلي أن أطلب منك أن تأتيني إذا أمكنك ذلك بأربع تمرات».

سأله الحارس محتارا لماذا التمر بالذات؟

- عندما كنت صغيرا - قال السجين المريض - كنت أحب التمر وأفضله على الحلوى. وهذه المنطقة صحراوية مليئة بالتمر ولن تخشى سوء العاقبة إذا ما ضبطوا التمر في جيبك. أرجوك حقق لي هذه الرغبة قبل أن أموت الله لن يضيع أجرك..

- هذا ممنوع منعا كليا.. لكنني سأرى ما أستطيع فعله» أجاب باغازي وهو يغلق الباب بلامبالاة واضحة دون الاكتراث لهذا الطلب الانساني البسيط.

ظل المحتضر ينتظر على أحر من الجمر والحارس يسخر في قرارة نفسه. مرت الايام الثلاثة سريعة ومات السجين دون أن يتذوق التمرات التي طلبها من أعمق أعماقه. عندما فتح الحراس الباب أزكمت أنوفهم رائحة الدم المتجمد والفضلات والبصاق، كانوا على علم بأنه مصاب بداء السل فترددوا في الاقتراب منه. فقام باغازي بصب قنينة من «كريزيل» على الجثة حتى يخفف من نتانتها ومخاطر العدوى، ثم وضع الحراس مناديل على أنوفهم ثم أمسكوا بأطراف الغطاء ونقلوا الجثمان وقد أشاحوا بوجوههم عنه، كما لو أنه جيفة. ولما أوصلوه الى القبر دفعها باغازي برجله لتهوي في الحفرة الاخيرة. فلأنه أخبرهم بدائه ونصحهم بعدم الاقتراب منه حتى لايصابوا بالعدوى، أساؤوا معاملته حتى بعد موته! علما بأنهم كان يُلقَّحون كل سنة ضد الداء لكنهم لم يلقحوا ضد القسوة والحقد.

أمضى سجناء البناية 2 سنة *1980* في القلق والقنت في انتظار الموت والعفاريت أو أي بصيص من الامل، قليل منهم فقط يستطيع الوقوف أو التنقل منتصب القامة أما الاغلبية فقد كانوا يتحركون زحفا أو يمشون مشية البط أو الدببة. كان المسمرون في أماكنهم بدون حراك يطرحون مشاكل على الحراس فأجبروا على السماح للسجين المجاور أو المقابل بتسليم الزملاء المشلولين طعامهم خلسة عن المدير. وبالرغم من أن هذه السنة لم تشهد أية وفاة، فإن البوم ظل يتردد على البناية إياها، مثله في ذلك مثل الثعابين والعقارب، أما في البناية 1 فقد توفي السرجان أزيان العربي يوم 2 يناير *1980*، وقد كان هذا

الطيار الاعزب قد ادين ب 3 سنوات سجنا في قضية الطائرة الملكية وكان من المفروض ان يفرج عنه سنة 1975 . قبل وفاته بشهرين، مازلت اذكر ذلك اليوم الذي كنا نتجاذب فيه أطراف الحديث عندما أعتذر لي بسبب الالم الذي كان يمزق أحشاءه وانسحب. بعد ربع ساعة ناداني ليخبرني. وقد استبد به الهلع: «أوه، لقد توجهت لقضاء حاجتي فنزفت دما اسود - ومازال الالم يفتك بأمعائي» عمت حالة الطوارئ في بنايتنا فارتبك ازيان وقلقنا نحن وذهب كل واحد منا مذهبا خاصا لتفسير الالم وإن تجنبنا أي حديث عن الجنون كما هو حال رفاق البناية الثانية. صاح احدنا : «عندنا أدوية، فماذا تنتظرون لإنقاذه؟»، اجابه رفيقنا صاحب «الصيدلية»: «لاتخف - العربي - سارسل لك هذا المساء مضادات حيوية وادوية ومقويات مع الحارس» وكذلك كان فسلمه علبا من تتراسلين وغاندان والفيتيل.

وبكل صدق، لقد بذل رفيقنا «ح» قصارى جهده لإنقاذ العربي الذي كان صديقه الحميم، فكان يرسل له كل يوم الادوية وجبنة «البقرة الضاحكة». وفي اليوم الخامس توقف النزيف والآلام تدريجيا لكن المريض ظل منهكا وقد وهن منه العظم ونال منه المرض.

كان «ح» يناوله الفيتامينات، لأن العربي كف عن الاكل منذ سقط صريع المرض. مرت الايام ونحن ننتظر النتائج. امره بن دريس الحارس بالزحف على اربعة ليتناول غذاءه فلم يستطع الحركة، فقرر الحراس ان ينقلوا الى جانبه رفيقه بنعيسى رشدي لمساعدته والعناية به.

وكانت تلك المرة الاولى، بعد ست سنوات من الاعتقال، التي يعيش فيها سجينان جنبا الى جنب في نفس الزنزانة. وقد شمل بنعيسى الخير والطيب رفيقه بكل عطفه وحنانه، فاطعمه ونظفه بعد قضاء حاجته ونظف ملابسه. وطوال هذه المدة التي دامت شهرا انتظرنا المعجزة، اعتقدنا ان الادوية والمقويات ستنقذ المريض والحال ان ازيان ازداد ضعفا الى درجة انه لم يجد القوة للتبرز، فقد خانته القدرة على اخراج ما تراكم في أمعائه فكان المعتقل بنعيسى يدخل اصبعه في استه كل يوم لينظف ما به أو مااستطاع انتشاله! كان يفرغ مافيه بدون تأفف أو اشمئزاز ودون أن يكرهه احد على ذلك لأن الهدف الاسمى بالنسبة له كان هو إنقاذ صديقه، وقد كان بنعيسى يردد دائما على مسامعي: «أنا مستعد لمساعدة أي كان لأننا روح واحدة، فالانف

حتى ولو كان مصابا بالجذام يظل عضوا من أعضاء الجسم الواحد».
مساء يوم 2 يناير 80، وبعد أن أنهى بنعيسى واجبه، أخذ مكانه الى جانب المحتضر وبدأ يروي له دعابات ونكتا أمازيغية»، فجأة لاحظ أن الانين الاخرس والرتيب لأزيان قد توقف. وضع رأسه على صدره ليجس انفاسه، لما لاحظ أن قلبه لاينبض رفع ذراعه وتركه يسقط

فلما لاحت له علامات حياة، هزه هزة عنيفة لعله يستفيق، لكن شيئا من ذلك لم يحدث فصاح ملء فمه: «يارفاقي مات العربي، لقد ضاع صديقي وفقدت أخي العربي». عم الهلع وطلبنا منه أن يتحقق من موته وعرض كل منا معارفه في هذا الخصوص، لكن النتيجة ظلت هي هي. جاء تعليق منصت (رقم 16) سريعا: «كنت أعرف أنه سيموت لأن الأدوية في تازمامارت لا تجدي نفعا. فما ينقصنا هم الاطباء والمصحة والاختصاصيون، لأن حالتنا بلغ مداه». أخبرنا بنعيسى أن عيني الفقيد مفتوحتان، فطلبنا منه أن يغمضهما بحركة من يده وأن ييمم الفقيد جهة القبلة ويقرأ القرآن. وظل على هذه الحال طوال تلك الليلة الشتوية الطويلة، وكانت تلك أول مرة يقضي فيها الليل إلى جانب ميت فكان من الطبيعي أن يتوجس خوفا ويتوقع ظهور الجن او العفاريت بين الفينة والأخرى، خصوصا وأن بنعيسى الطيب الخدوم كان يؤمن بالأرواح وما يحكى له من الخرافات. في يوم الغد، أخطرنا الحراس الذين تصرفوا نفس التصرف في مثل حالات سابقة.

في ذلك اليوم شعرنا بأننا ضعفاء أمام المرض بالرغم من الأدوية والفيتامينات وأن الحل هو خروجنا من المعتقل، وفي انتظار ذلك وجدنا سلوتنا وعزاءنا في مرايا صغيرة مدورة قطرها 5 سنتمرات وزعها علينا الحارس «المبعوث». منذئذ لم نعد نعيش في الظلمة التامة، بل في زنازن مضاءة بنور أقل من نور الشمعة، لكنه أفضل من لاشيء على كل حال. كنا نلصق المرآة الصغيرة بجزء من الكارطون ثم نجمع ثلاثة أو أربعة أعواد وقطع من خشب ونشد بعضها البعض بخيط أو سواه ثم نربط الكارطون ذي المرآة بأطراف الأعواد بسلك حديد صغير يستعمل كسند في نفس الوقت، ثم نخرج «الآلة» كلها عبر ثقب السقف ونضع السند على طرف الثقب (الجزء الخارجي للسقف) ثم نوجه المرآة نحو إحدى كوات السقف الصغيرة باتجاه الشمس. هكذا تنعكس أشعتها وتتسرب إلى زنازننا مشكلة دائرة ضوئية، على

الأرضية صحيح أن الزنزانة لم تعد مظلمة تماما، لكن الضوء كان ضعيفا إلى درجة أننا تبينا بالكاد الجدران.

كان هذا الاكتشاف مشابها لابتكار القرون الوسطى فرحنا به مثل فرح البدائيين بالنار. اعتقد بعضنا أن تلك هبة من الله الذي أنار زنازننا بعد أن أنار قلوبنا واعتقد آخرون أنها بشارة خير عن قرب خروجنا والحال أن المادي الملموس بالنسبة لي هو أن المرآة سمحت لي برؤية ماكنا نأكله، فمن قبل كنا نأكل بدون عينين، ومن سوء الحظ أن شعاع الضوء كشف لنا عن الطعام الوسخ المليء بالحشرات حتى أن بعضنا تفادى النظر إلى صحنه حتى لا يفقد «الشهية».

أتذكر أحد الأعياد الدينية التي كنا ننتظرها بشغف، لأننا كنا نتذوق قطعة من اللحم في مثل هذه المناسبات. جاءنا يومها بن ادريس وخاطبنا بالقول «اسمعوا هاذ نهار العيد الكبير وطيبنا ليكم ماكلة زوينة فيها اللحم والزيتون وبطاطا. ولكن المارميطا فيها عقْرب كْحل. واش نْسرْبيكم اولا نرْمي كلشي في الزّبالة». ساد الصمت لمدة قصيرة وتعالت الأصوات مطالبة بتوزيع الأكل بعد التطويح بالعقرب. تساءل الحارس: «واش ما خفتو السم»؟ فكان أن أجابه أحدنا: «الما الصْفر اللي كايسيل من الصرَة دْيالْنا قْبَح من السم ديال العكرب».

وهذا ما يحدث عندما يحرم اللاّحِمُ من حصته أو تعطى له كل ٥ مرات في السنة. لقد بلغنا الحضيض حتئ بدا إعطاؤنا قطعة لحم كل (٥) يوما أمرا عاديا وقانونيا.

الشطرنج

تجزية للوقت ومحاربة للضجر تفتّق ذهن رفيقنا غلول (رقم 29) عن «فكرة» شطرنج خاص بنا، كان علينا إيجاد إبر للخياطة لتجسيد فكرته، وهو ما قام به الحارس المبعوث، إذ جاءني بإبرة وكبة خيط لكل سجين، استعملناهما أول الأمر في رتق أسمالنا، بعد الحصول على الخيط والإبرة أصبح لزاما علينا، إيجاد قطعة قماش (الجزء الخلفي من قميص بال) شريطة أن تكون مربّعة وصالحة لخياطة مربّعات من كتان بلون فاتح أو صباغتها بمسحوق (دي. دي. تي الذي كان يوزع علينا لمحاربة الحشرات) بطريقة نحصل بها على مربعات بيضاء بخلفية سوداء، وهكذا نحصل على رقعة الشطرنج.

ثم نعجن لبّ الخبز الى أن يصبح عجينة ثم نخلطه بنشار الصوف المتساقط من غطاءاتنا المهترئة لنحصل على كويرات صغيرة نصنع منها قطعا وبيادق. وما ان تنتهي العملية حتى يضع كل واحد قطعه وبيادقه باللون المفضل لديه. ولعل اللون الأكثر استعمالا كان زيت تشحيم اقفال زنازننا أو القهوة. وفي الأخير، نترك القطع تجف وتتصلب.

لممارسة اللعبة، كان كل من السجين وخصمه والحكم يضع الرقعة وبيادقها تحت الشعاع الضوئي المنبعث من السقف، وبما ان رقعة الشطرنج كانت مرقمة عموديا من 1 إلى 8 وافقيا من ا إلى ز، كان على كل لاعب ان يعلن بصوت جهوري كل نقلة، ونفس الشيء يقوم به الخصم، لأن كل رقعة كانت تضم بيادق اللاعب وخصمه وعليه، فإن كل لاعب كان يقوم بدور مزدوج ليكون على الرقعة وضعيات بيادقه وبيادق خصمه. وفي حالة الخلاف، كان الحكم يحسم الأمر ويصحح الخطأ. فيما بعد نظمنا بطولة على مستوى البناية.

لكن الأغرب والخارق هو ما شاهدناه عند رفيقنا بلمجدوب عقة. فقد كان رفيقنا هذا متكاسلا ومتهاونا منذ الطفولة، لا يحب القيام بأي مجهود ولم يكن لديه أية رقعة شطرنج لكنه كان يشاركنا اللعب والمنافسات، ذلك انه كان يحفظ ذهنيا أوضاع بيادقه، وبيادق خصمه، بل انه كثيرا ما قام بدور الحكم عند حدوث خلاف بين متباريين - وهو ما لم يحدث له قط - ومن سوء الحظ، توقف عن اللعب بعد سنة على بدايته بسبب أوجاع الرأس التي ألمت به، وقد رفض أن تصنع له رقعة شطرنج، لأنه فضل الاسترخاء وجاء ذلك بعد أن كشف تفتيش دقيق لزنزانته انه لا ولم يتوفر أبدا على الرقعة الخاصة به.

لقد كان شعارنا يختلف عن شعار رفاقنا في البناية رقم 2: إذ واصلنا المقاومة رغم كل الظروف، منا من كان يزحف ومنا من احدودب ظهره، لكن الجميع كان يشارك في الأنشطة اليومية بحثا عن النسيان. وكثيرا ما تخيلت نفسي ورفاقي كجذوع أشجار جرفتها السيول، لكنها تعاكس التيار حتى لا تصل إلى الهاوية. كان المجانين منا يعيشون في عالمهم الخاص لا يولون اهتماما لأي شيء من حولهم، حتى انه مر حين من

الدهر على الفاكوري ميمون قبل أن يعي أن صديقه العربي ازيان قد مات. حصل ذلك ذات يوم عندما ناداه للدردشة معه، فلما سألناه عن موضوع الحديث قال: «غير كنت باغي نفكروا في شي ذكريات عشناها في مريكان»!.

كان من انشغالاتي الدائمة اتخاذ جميع الاحتياطات حتى لا أسد منافذ المرحاض للأسف، ذهبت كل احتياطاتي أدراج الرياح بسبب لحظة سهو سقطت أثناءها قطعة اسفنجة في المرحاض، وأغلقت مواسيره، ففاض الماء القذر. أصبت بالهلع فأدخلت يدي في الحال عساي أنتشل ما في المرحاض، لم أحصل على نتيجة وأعدت الكرة مرات عديدة، سدى! فاستبدّ بي اليأس والقلق وأنا أفكر في العيدي الذي قضى بسبب المرحاض وفي غلول الذي كان يفرغه كلما قضى حاجته، مما أدى به في النهاية إلى الشلل، قررت الكفاح واستعمال كل الوسائل لحل المشكلة، أخطرت الحراس فوضعوا رهن إشارتي قطعة خشب ثم سلكا حديديا وكُلاَبا وأباريق ماء إضافية ونصف لتر من «الما القاطع». حصلت على نتيجة جزئية، لأن الماء كان ينصرف ببطء. ومن سوء الحظ أن اليوم الموالي كان يوم خدمة السارجان شاف سعيد الذي رفض منحي ماء إضافيا قائلا: «لك الحق في إبريق ماء واحد فقط!»، تعللت بما حصل لمرحاضي، فكان جوابه: «تدبَّر أمرك كان عليك أن تحذر وقوع ما حصل»، أجبته بصعوبة الرؤية نظرا للعتمة ورجوته مرات عديدة بأن يحقق طلبي. فأصر على رفضه. تسارعت نبضات قلبي ولم أتمالك أعصابي فسردت على مسامعه كل عيوبه لعله يرى وجهه في المرآة: «اسمع البليد، حتى أنتا تعلمت تعطي لي زوردر، انسيت أنك جاهل، بحالك كانوا خدامين عندي. واش كاظن أن القانون هو هاذ شي اللي كدّير. واش كاظن راسك غادي تسلك نهار الحساب، القانون كايفوق كل واحد مسؤول على راسو. باغي تنتاقم، يا لله، انتَقمْ من المحابيس».

أجابني: «اسكت الخائن، ما عندكش الحق تتكلم!».

- كنت خاين أو لا، هذ القضية أكبر منك، انت غير واحد الإنسان بلا اخلاق. وغادي نكولك واحد الحاجة في الأخير، على وَدْ لفلوس ادّير اللي كاين».

قاطعني: «نيميرو 14 راك دَرْت الحدود».

أجبته بحدة: «لو كنت راجل افتح الباب وغاد اتشوف. ما عندي ما نخْسر».

تدخّل لاجودان شاف محمد بن محجوب، حارس بدوره، وترجّاني أن أكف عن السّباب، لكنني واصلت بحدة. أما أصدقائي فقد أذهلهم الأمر للوهلة الأولى ولم يصدقوا ما سمعوه وسرعان ما حل الفرح محل الدهشة لما شنّفت أسماعهم بذمّ السارجان سعيد وإهانته. هنأني رفاقي على ما قمت به على هذه المغامرة التي كلفتني فيما بعد الحرمان من الماء والطعام مدة أسبوع. وقد دخلت العقوبة حيز التنفيذ في ذات اليوم وسهر السارجان سعيد شخصيا على تطبيقها حيث كان يأتي يوميا حتى يوم عطلته. في اليوم الرابع، أجبر على الغياب بسبب مرض ابنه الذي كان عليه أن ينقله إلى الرشيدية.

في منتصف النهار، فتح «الحارس الطيب» الزنزانة بسرعة وملأ إبريق الماء وسلمني حصتي من الغذاء ثم أغلق الباب خلسة قبل أن ينتبه زملاؤه المنشغلون في الساحة. أما الأيام الأخرى، فقد قضيتها تحت مراقبة خصمي. في اليوم التاسع، فتح بن ادريس زنزانتي فثرت محتجا على الشطط، فأجابني «بأن هذا أمر المدير»، ثم ذكرني بسوابقي عندما عوقبت على سوء معاملة السرجان عبد السلام، وأضاف «بعض الحراس يتذمّرون من سلوكك لهذا عاقبك المدير. أنا شخصيا أعرفك منذ ١٩٦٨، لأنك كنت أستاذي أثناء تداريب إعادة تكوين القدامى من الجيش. لقد كنت طيبا ولطيفا لكنك تغيرت في تازمامارت. ويعتبرك المدير وبعض الحراس عدوانيا وخطيرا» سألته: «كيف نسمي الذين وضعوني هنا»، لكنه أغلق الباب وانصرف بدون جواب.

فكرت بعد ذهابه عن جدوى الحوار مع المدير وأعوانه، وخلصت إلى أن أفضل موقف هو الامتناع عن محاورتهم. وما كان هؤلاء الناس يجهلونه هو «عملية الإنقاذ» التي كنا نطبقها دون علمهم. ففي كل مرة يعاقب فيها سجين كان جيرانه يبذلون ما في وسعهم لتمرير الطعام إليه. هكذا . ثنى الطيب بنعيسى غطاءيه ثم وضعهما فوق دلْو الماء واعتلى الكل بعد أن اختار مكانا محددا أسفل ثقب الجدار المطل على الكولوار، قمت بنفس الشيء و.. انتظرت. غمس قطعة من الخبز في المرق (كنا نسميه البحر الأحمر) ثم وضعه في جيب من قماش صنعه لهذا الغرض ربطه بطرف «قضيب» ثم أخرجه من ثقب الجدار باتجاهي. وبمجرد أن أصبح في مستوى يدي التي مررتها عبر ثقب جدار زنزانتي أمسكتُ بالجيب الذي أرجعته بعد أن أخذت قطعة الخبز، لجأنا إلى نفس الطريقة بخصوص الماء مع تعويض جيب القماش بقنينة ماء

بلاستيكية (من نوع جافيل نسيها الحراس في الكولوار فاستغل بنعيسى إحدى المناسبات وسرقها). وقد كانت العملية جد دقيقة، لأنها كانت تقتضي أن يمسك بنعيسى بطرف «الحبل» وأن يحتفظ هو بالطرف الآخر ثم يربط به القنينة. ويطلب مني أن أجر «الحبل» بتؤدة حتى لا تهتز فيما هو ممسك بالطرف الآخر بطريقة تجعله مشدودا جيدا. كان يرخي وكنت أجذب والقنينة تتحرك باتجاهي مثل «تيليفيريك» معلق في الهواء. كررنا العملية إلى أن حصلت على كمية كافية للشرب طوال اليوم.

حل الشتاء بقساوته وكان أقسى على رفيقنا ديك الجيلالي الذي اقعده المرض وشَلَّهُ تماما، قرر الحراس السماح لأحد الرفاق للتناوب على العناية به وكان «ح» يرسل الأدوية الضرورية كلها بواسطة «الحارس الرسول» الذي قرر أن يساعده دون العودة إلى رفيقنا، فكان يأتيه بكل ما يحتاجه من أدوية وأعشاب وغذاء متنوع وفيتامينات. وقد ذهب به الحدب والكرم الى درجة أنه جاءه بالعسل والجبنة والزبدة واللحم المشوي والفواكه. ولما رأى القبطان غلول محمد أن بعض الرفاق المنهكين لا يستطيعون القيام بالمهمة تطوع للعيش مع الرفيق ديك. ساءت حالة هذا الأخير رغم ما بذل من جهد، فكان يقضي حاجته، وهو ممدد على البلاطة وأحيانا كان رفيقنا يتبول في سرواله، فكان القبطان غلول لا يألوا جهدا في النظافة والاهتمام، مثلما كان حال بنعيسى مع المرحوم أزيان. وبفضل صبر وإرادة غلول ومساعدة الحارس، بدأت حالته تتحسن تدريجيا الى أن استقرت وانتفت الآلام واستطاع الوقوف، فرحنا لشفائه أيّما فرح: لكن للأسف ما إن حل الرابع من شتنبر 1980 حتى لقي رفيقنا ديك الجيلالي حتفه.

قررت أنا وغلول التدخل لدى الحارس بن ادريس لفائدة الفقيد، اخترت نقطة ضعفه وضربت على وتره الحساس: «مون آدجيدان شاف، لقد كان ديك صديقك وقد قضيتما معا سنتين تكوينيتين في الميكانيك، ولنقم بشيء ما اتجاهه. تولّاه ليتولاّك الله. انت مسلم جيد (كذا) اتركنا نغسله حسب فرائض الاسلام وبفضلك سيلقى ربه طاهرا نظيفا. والله لن يضيع أجر إنسان مؤمن مثلك».

اجابني بن ادريس: «لا مانع عندي لكن الأمر ممنوع منعا كليا والمدير لا يرحم». عقبت عليه فورا «ما حَدْ لحديد سْخُون»: «لكن اليوم لا يوجد غيركم أنتم الثلاثة، وكلكم برتبة لاجودان شاف، وأنت تعلم أن لاجودان

هو مارشال ضباط الصف عليه أن يتخذ المبادرة. ومرؤوسيكم مجرد منفذين وهم غائبون على كل حال والمدير يوجد في مكناس. لا تنس الله والجنة. فالمسلم هو الذي يحسن إلى الناس».

بعد أن وافق الآخران هز رأسه بالإيجاب وقال لي مبتسما:

- «أنا موافق وسنتركُكما مع جيلالي، لديكما ساعة واحدة للقيام بالعملية. سنضع رهن إشارتكما 10 أباريق من الماء وسنغلق الباب الكبير. حظ سعيد وإلى اللقاء». أغلقوا الباب الرئيس وقد خلفوني مع الميت، أثارتني الرائحة في الزنزانة وذكرتني برائحة مماثلة استنشقتها وأنا صغير عندما دخلت غرفة سيدة ميتة، إنها رائحة الموتى. لما اقتربت من البلاطة وجدت المسكين منكمشا على نفسه وقد علت وجهه علامات مكابدة الألم الذي ألم به قبل الوفاة، وشفتيه نصف مفتوحتين وعينيه جاحظتين ودمعتان من دم جفتا على طول وجنتيه الغائرتين، وجدنا صعوبة كبيرة في خلع ملابسه بسبب أعضائه الجامدة، أذهلتني نحافة جسمه التي تشي بما عاناه من جوع وألم، وأذهلتني تجاعيده وقفصه الصدري الذي كان أشبه بسلحفاة. آلمني ما رأيت فاشحت بوجهي وأجهشت بالبكاء. أحسست بالغضب يشتعل في والسعار يرج كياني كله، وتفاديت نظرته الزجاجية تكاد تقول لي: «آه يا عزيزي الرايس، لماذا عذبوني كل هذا العذاب وقد قضيت عقوبتي منذ زمان»؟.

غسلناه، كما تقضي بذلك تعاليم ديننا الإسلامي، واغتنمنا الفرصة لتنظيف الزنزانة. وبعد أن أنهينا واجبنا لفنناه في غطاء نظيف في ملكية غلول. جاء الحراس بنعش وحملوه إلى مثواه الأخير. وطوال ذلك اليوم، قرأ الرفاق القرآن ترحما على الفقيد. كان ديك الجيلالي برتبة لاجودان شاف انخرط في الجيش سنة 1956، متزوج وأب لـ 5 أطفال ولد سنة 1938 بآسفي. لم يكن يحمل سلاحا أو يقود كوماندو، غير أنه أدين بـ 5 سنوات سجنا في قضية الصخيرات، لأنه كان يومها يقود سيارة جيب استقلها الكولونيل امحمد اعبابو من بوقنادل إلى الصخيرات. وقد دفع ثمن ما قام به، رحمه الله، آمين.

كان الحراس يطوفون بالزنازن، مرة كل شهر، لجمع النفايات، وكانوا يأتون بورقتي قصدير لإنجاز هذا الغرض وكانوا يضعون «الزنك» أمام الزنازن فاغتنم رشدي بنعيسى لحظة شرود الحراس فاجتز قطعة من القصدير ثم شحذها فيما بعد على حافة البلاطة وصنع شفرة حلاقة، كنا نمررها خلسة لبعضنا البعض لنحلق شعورنا ولحانا وشوانبنا،

وياما انتظرنا من سنوات حتى تتدبل هياتنا بهذا الشكل ..

اغتنمنا أدنى الفرص في عراكنا مع الموت والابتذال، وأضحت أتفه اسفنجة ذات قيمة واهمية وأدنى سلك حديدي إبرة وأصغر قطعة معدنية ملعقة. وبذلك اتخذت حياتنا منعطفا جديدا رغم قلة الوسائل: لقد أصبحت لدينا مرايانا الصغيرة «لجلب» الضوء الى الزنازن وإبرة لرتق اسمالنا وقطعة زنك للحلاقة وملاعق، بل حصلنا على قنينات بلاستيكية للتبول في الليالي الشتوية القارسة، دون مغادرة «الفراش» لا سيما بالنسبة للمرضى العاجزين عن الحركة.

الاجدى من هذا هو مسحوق «دي دي تي» ومادة تطهير المراحيض، فعندما اشتدت حرارة الصيف وزعوا علينا المسحوق الأول لقتل البق والبرغوث والصراصير فاستعملناه في علاج جروحنا المتقيحة. واستطاع هذا المسحوق بقوة الأشياء، أن يمتص القيح ويجفف الجروح، أما المادة الثانية فقد استعملناها كمنظف لتطهير أو «كشط» ملابسنا من وسخها السنوي.

وبما أنها كانت تحتوي علي كمية معينة من ماء جافيل، فقد نظفنا بها أباريقنا وصحوننا وجنبات المراحيض والزنزانة. كان الجميع يلجأ الى مسحوق «دي دي تي DDT» لأن النوم على البلاطة، بدون لحاف تسبب لنا في كدمات أو جروح في الخاصرة والمرفقين، ومازلت احتفظ باثارها الى يومنا هذا.

حدث أن استغل أحد السجناء فرصة توزيع الطعام وتسرب الضوء الى زنزانته فالقى عليها نظرة تفقدية فلمح عقربا قابعا في الركن. طلب من الحارس أن يمده بالمكنسة لقتله، رفض هذا الأخير رغم توسلات السجين، وخاطبه وهو يغلق الباب قائلا: «لا تمسه فلن يلسعك لأن العقارب المغربية لا تلسع مثل عقارب آسيا. ثم مطمئنا ودعه يرتاح قليلا». للأسف تعرض رفيقنا للسعة العقرب وأمضى 3 أيام يهذي بين الحياة والموت، وكاد السم القوي أن يسبب له سكتة قلبية، كما اعتقد في أن المطر يهطل على جسده المحموم. لقد نجا بمعجزة ولما أطلع الحارس المعني بالأمر، أجاب دون أن يرف له جفن: «إن لسعات العقرب الاسود لا تقتل، وما يجب أن تحذروه هو العقرب الأصفر. ودليلي في هذا هو كون صاحبكم مازال حيا ويحيا دون أدوية. لقد لسع العديد منكم ولم يمت منكم أحد. يبدو أنكم محصنين مثل مروضي الأفاعي».

فعلا، تعرض العديد من الرفاق للسعات العقارب ولم تقدم لهم أية

مساعدة وتركوا عرضة للألم الحمى والهذيان. وفي هذا السياق، تعرض جاري بنعيسي لنفس الحادثة قبيل وصول الحراس ببضع دقائق، عندما ما فتحوا بابه أراهم أصبعه المنتفخ والمزرق وطلب منهم أن يدعوا الباب مفتوحا حتى يعثر على العقرب ويقتله، أجابه أحدهم: ضع صحنك وادخل، لاشك أنه جرح مسمار، فأنت معروف ب«البريكول». من حسن حظه أن حارسا آخر رأى العقرب في أكرة الباب وقتله. التفت بنعيسى المعروف بصراحته الفجة والمستفزة الى الحارس الأول وقال له: «أتمنى من الله ان يعضك عقرب حتى تقيم الفرق بين العضة والمسمار». بعد ذهاب الحراس اغتنمت الفرصة لأسدي النصح لبنعيسى وتحذيره منهم ونبهته الى ضرورة دراسة مزاجهم وطباعهم. وختمت بالقول: «احذر ردود افعالهم سيخلقون لك المتاعب. فاحفظ لسانك ولاتعطهم الفرصة لايذائك. لقد لاحظت مؤخرا أنك تستفز السرجان شاف سعيد منذما وقع بينكما. احذره، فلن يتردد في التنكيل بك».

أجابني بالقول: «لكنه لم يتصرف على هذه الشاكلة. وبالرغم من أنك شتمته لمدة نصف ساعة فلم يجبك اللهم عندما قال لك «صه، أيها الخائن» فلماذا لم يذقك العذاب».

عقبت بقولي: «كنت أتمنى أن تفهم دون أن أضطر للشرح والمس بكبريائك. إن السارجان سعيد خاضع لنظام الانضباط في كل لحظة وهو على هذه الحال منذ 25 سنة، هذا أمر لا يتخلص المرء منه بسهولة.

وبالرغم من أننا كلنا سجناء في نظر الحراس فإن الهرمية تظل لاشعوريا حاضرة مما يدفعهم الى التمييز بيننا. قانونيا وقضائيا نحن معتقلون ومنبوذون، لكننا نظل في نظرهم ضباطا. وأنت ينظر اليك السارجان سعيد على أنك ندا له.

وهناك أمر آخر لابد لك أن تأخذه بعين الاعتبار يفسر لماذا السارجان سعيد لن يؤذينا، وهذا الأمر هو أنه محكوم علينا بالاعدام. حولت عقوبتي الى المؤبد وليس لدي ما أخسره. وإذا كان علي أن أموت في مواجهتي معه فلابد أن أقتله وهو لا يريد ذلك. أما أمرك فمختلف، فأنت محكوم ب 3 سنوات سجنا قضيتها منذ مدة ومازال الأمل في الحرية يراودك. أضف الي هذا أن بنيتك الجسدية لا تسمح لك بالمنازلة».

بدا لي أنني أفحمته . والحال أن العكس هو الذي حصل فما إن انقضى شهر حتى حدث ما لم يكن في حسباني. فقد فتح السارجان شاف باب زنزانته وأمره بملء دلوه بالماء. فراح السجين يملؤه على مهل

مما اثار غضب الآخر الذي راح يغمغم بدوره. خاطبه بنعيسى قائلا:
مالك كتغوت الحمار؟
انا احمار انا؟

ركله ركلة أصابت عظم ساقه الأكبر، تم أغلق الباب. انهى عمله وتشاور مع لاجودان مولاي علي، ثم دخلا معا الى الزنزانة وانهالا بالضرب على بنعيسى ونكلا به تنكيلا. بدأت أصيح وأضرب الباب بقبضة يدي مندداً بسلوكهما وهجومهما على سجين أعزل ومريض فحاكاني الرفاق في فعلتي وسرعان ماساد الهرج والمرج وكف الحارسان عن فعلتهما الشنعاء. لكنهما أضافا المزلاج الى القفل وذهبا بحصتنا من القهوة والخبز.

قدما تقريرا للمدير القاضي، زيفا فيه الحقائق فكانت النتيجة حرمان الجميع من الخبز والماء لمدة 48 ساعة وحرمان بنعيسى 11 يوما وبعد انقضاء 48 ساعة عضدنا بنعيسى ولم نتخل عنه في محنته. بعد العقوبة، فقد الكثير من حيويته. ولاذ بالعزلة والحزن، ولما سألته عن السبب الذي دفعه الى استفزاز السارجان شاف سعيد أجابني:

«لقد شتمته لأتأكد مما قلته لي سابقا بخصوص سلوكه حيال سارجان ضعيف ومريض».

واستنتج من ذلك أن الهرمية تظل فاعلة رغم السجن مثلها في ذلك مثل شخصية المعتقل وبنيته الجسدية، وقرر إصلاح ذات البين بينه وبين السرجان سعيد.

ذات مساء من مساءات نونبر، فتح الحراس باب البناية قبل موعدهم المعتاد، ثم فتحوا زنزانة ظلت فارغة زمنا طويلا. أصاخ رفاقنا السمع لعلهم يلتقطوا نأمة ما تدلهم على مغزى هذا المجيء غير المتوقع.

زادت حيرتهم من طول الانتظار وهم يترقبون ما يسلي من الاحداث. فجأة دخل شخص محاط بحارسين وقد غطوا رأسه بقناع أسود ووضعوا الاصفاد في يديه. دفعه الحراس وبدا عليه الارتباك وهو يخطو خطوات غير واثقة كمن يقاد الى المقصلة أو كمن ينتظر إلقاءه من أعلى الهاوية.

أودعوه الزنزانة ورحلوا على الفور، ناداه رفاقنا فيما بعد لكنه لم يجب وظل صامتا، سأل السجناء الحراس عن هويته، وتبين لهم من خلال الجواب أن اسمه، حسب ما يبدو، ميلودي صديق ريفي الاصل رتبته سارجان شاف في سلاح المظليين كان ملحقا بالقصر الملكي.

وقد ادعى الحراس أنه أرسل الى تازمامارت من باب تأديبه على سلوك مشين وذهب بعض منه الى أن سبب مجيئه قد تكون له علاقة بعمله كتقني كهربائي بالقصر الملكي بالدار البيضاء وادعى أصحاب هذه الرواية انه ضبط متلبسا بالجرم عندما كان ينوي القيام بعمل تخريبي، يتمثل حسب البعض في تلغيم ميكروفون يشغل عن بعد. كل هذه الافتراضات تركت الشك يخيم على حقيقة الاعتقال وما كان مؤكدا هو انه لم يحاكم أو يدان. ولعله السبب الذي فرض عليه التزام الصمت حتى لا يتورط في بعض التصريحات ذات العواقب الوخيمة. وقد حافظ على تكتمه هذا، الى أن حل ذلك اليوم الذي استيقظ فزعا من كابوس راه في منامه فسقط من علي البلاطة وتكسرت ذراعه. كان الكسر مؤلما فلجأ الى الحراس، متوسلا لعلهم يمدوه بعلاج. فردوا عليه بسخرية مرة وتهكم بين: «آه بغيت اتداوا وصحابك اللي سبقوك سنين هذه ماشافوا لا دوا ولاعلاج، واش ماكتعرفش بللي بزاف منهم ماتوا؟ صبر واستنى بحال الناس». عقب لاجودان شاف فريح من جهته قائلا «زعما انت باراشوتي. ما تهرستش وأنت تنزل من السما واتهرست ماللي طحت من الدالا».

لم ينتظر طويلا لأن الجرح استفحل وشلت الحمر حركته مدة طويلة قبل أن يحين أجله. قبل احتضاره سمح الحراس للمسمى سكيبة بوشعيب بمساعدته ومده بالطعام. وقتها قدم ميلودي نفس المعطيات التي رواها الحراس. بعد موته، دفن في نفس الظروف التي دفن فيها رفاقنا. لمن نخطئ عندما لقبناه بـ«الغامض» لأنه حمل حقيقة الأمر معه، علما انه ظل يدعي أنه بريء.

هو ذا البرد القارس من جديد، وهاهم الرفاق يغرقون في الصمت منهكمين، عزل وقلقين، يتحركون بصعوبة تفقدهم الصواب. من جهتي حددت فاتح يناير 1981 كتاريخ للحديث الصريح مع الحارس الرسول لتوضيح بعض النقط الخاصة باتصالي مع عائلتي، ذلك أن موت أزيان وديك دفعني الى التفكير والتصرف بسرعة لانقاذ نفسي وإنقاذ الآخرين. اغتنمت إحدى الفرص وقلت له:

اسمع من فضلك، استسمحك إن كنت ساحدثك بهذه اللهجة، لكني لم أعد أتحمل بعض الميز في تصرفك».

أجابني: أفصح، لم أفهم ما تلمح له.

أنا أيضا أريد الاتصال مع زوجتي، فليس من المقبول أن يتمتع أحد

السجناء بامتياز وأحرم منه، فهذا «ح» وأصدقاؤه الحميميون يأكلون ما يشتهون ويتلقون العلاج والمقويات في حين أقبع في انتظار أجلي.

وبصراحة لا أريد أن أجن قبل موتي، أنا أيضا مستعد لدفع مقابل خدماتك.

لا تبالغ فكل ما أقوم به هو من باب التعاطف. أنا لست تاجرا، كل ما أريده هو مساعدتكم وإنقاذكم إن استطعت.

• إذن ليكن ذلك لفائدة الجميع. أعنا أعانك الله ورعاك. والحق أقول لك أنا لا أصدق ما تقول لأنني تعلمت ألا شيء بدون مقابل، أنا لا أريد أن أظل تحت رحمة أي كان.

انني أصادف مصاعب كثيرة ولا يمكنني أن أربط الاتصال لفائدة عدد كبير منكم. هذا خطر.

• انت تفعل ذلك لفائدة (فلان) لأن زوجته ميسورة. وأنا أيضا أستطيع الدفع (وكنت ألح الى الدكتور مسواك الذي قد يمدني بما احتاج ويدفع للحارس).

أؤكد لك أنني لا أقوم بذلك من أجل المال، أنا متطوع وضميري حي

إن الرفيق (ح) هو الوحيد المستفيد، فبفضلك وحدك يعيش عيشة النبلاء ونحن اتباعه ونجمع فتات المائدة.

ألا أساعدكم كلكم؟

• لا. انت تهبنا صدقة، ليس قرص الاسبرين هو الذي سيخفف الحمى الهذيانية أو قرص «غاندان» ما يوقف الإسهال الحاد والدائم. نحن نهلك ولاأريد أن يظل قبري مجهولا.

اسمع - الرايس - اللهم عوينة دايما ولا واد نهار.

• شريطة أن يكون هذا النبع للجميع والحال أن رفيقنا وحده يروي عطشه منه ويعيش عيشة القايد أما نحن «عايشين عيشة الدبانا فالبطانة» والقران الكريم يأمر بالعدل والحسنى وينهى عن ماعداهما» واصلت حديثي بالقول أن استمرار الوضع على ما هو عليه سيقود الى الكارثة. لا سيما وأن رفيقنا ظل على أنانيته مما تسبب له في خصومات دائمة مع الرفاق. وأضفت إذا كنت تريد العدل فأجبره على قبول مبدأ صندوق طبي للجميع تشرف عليه لجنة نعينها جميعا» أجابني غاضبا:

انت تريد نقابة، لا تنس أننا في سجن، لا تخلق القلاقل ودع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي، وعلي كل فإن ما بيد (ح) أرسلته زوجته.

اجبته: مادام الأمر على هذا الحال فأنا أيضا أريد ربط الصلة بزوجتي» غضب لجوابي وخرج بعد أن أغلق الباب وراءه وترك رفيقنا (ح) يواجه مصيره لمدة 3 اشهر. لمس هذا الأخير في اليوم الموالي لحديثنا، تبدل سلوك الحارس إزاءه.

فسأل الرفاق إن كان احدنا قد أغضب الحارس. اجبت على الفور .

انا من حدثته بشأن ربط صلتي بعائلتي. فانا في حاجة الى العلاج وأريد معاملة مماثلة لمعاملة رقم 29 والمقصود رفيقنا (ح) رد علي المعني بالأمر، لكن انا ابدل ما في وسعي لمساعدتكم.

• انت تساعدنا حسب مزاجك وتقوم بين الفينة والأخرى ببعض الالتفاتات لإسكاتنا أو لإرضاء الغاضبين، إن لم يكن ذلك طمعا في عطف البعض أو شراء لذمم الآخرين».

ودون أن أذكر الاسماء، أقول أن رفاقه نافحوا عن موقفه وفندوا موقفي. بعضهم عاتبوني قائلين من الأحسن الاكتفاء بقرص اسبرين في الشهر عوض لاشيء ومضاد حيوي واحد يوازي حياة إنسان الخ. في المقابل ساند آخرون موقفي وشاطروني الرأي. وبما اننا كنا نشكل الاغلبية فإن حظوظنا في النجاح كانت أقوى، فكنت ومنصت وغلول ولغلو وسعودي مرزاق وعفياوي وتيجاني وآخرون نلتقي في ضرورة المساعدة العادلة. وكان الرفاق يقول «لسنا في حاجة الى الصدقة. والانسان الذي نال منه المرض لا يحتاج الى شيء والأصوب هو الاهتمام به قبل وقوع المحظور. يلزمنا الآن الفيتامينات والمقويات والحال أن رفيقنا يحتفظ بهذه الاشياء لنفسه ولاصدقائه».

رد علينا رفيقنا: هل تلومونني على شيء في ملكي؟

عقبت: نعم. انا أيضا أريد شيئا في ملكيتي وجاء رده سجاليا:

إن الحارس ليس ساعي بريد لكي يذهب الى منازل الجميع. واذا كان يتصل بمنزلي فلأننا نمت الي بعضنا البعض بأصرة القرابة والجوار.

مثل هذه العلاقات القبلية والاقليمية هي سبب الاحقاد والضغائن في المجتمع. كلنا مغاربة وسواسية والدستور واضح في هذه المسألة».

تدخل غلول مقترحا الحل الآتي:

مادام الحارس المبعوث لا يتوفر علي الوقت الكافي ليطوف على كل العائلات، فليس أمامه سوى أن يسلم بريدنا الي مدام «ح».

رد رفيقنا «ح» على الفور: إن زوجتي صاحبة صيدلية لا يمكنها أن

تنتقل في الدواوير ومدن القصدير».

سارعت بالقول: بما أن زوجتك لا تستطيع القيام بهذا وأنت ممعن في عنادك. فما عليك إلا أن تخلي المكان لشخص آخر يقوم بهذه المهمة الانسانية. وأنا أحذرك الآن، إذا لم يحقق التضامن والتآزر ونتبادل التضحيات فإنني سأمنع كل اتصال. إذا كنا هنا من أجل الموت فلنمت كلنا!

– إذن أنتم تساومونني؟ سأل رفيقنا مستنكرا.

– نعم، أجبته واضفت . أنا لا أساومك فقط بل أهددك أيضا. وكل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. كما ورد في القرآن الكريم.

ولن أتركك تعيش مثل قائد في حين يتساقط رفاقك مثل الذباب.

ومن مصلحتنا أن نظل كثيري العدد لأن السجن لن يظل قائما لأجل سجين أو اثنين، فهم قادرون علي تسميم آخر من تبقى للتخلص منه. كان هناك سجين مكث في سجنه وحيدا هو رودولف هيس، نائب هتلر، ورفيقنا «ح» يريد أن يتمتع بنفس الامتيازات ونفس النظام.

– رد رفيقنا «ح» لن استسلم لخزعبلاتك

• وأنا لن أدعك في سلام وسأقيم «الحصار» الى أن هنا إديت بياف ...»

توقف سجالنا العاصف في هذه اللحظة، وما أن انقضت أيام قليلة حتى نسينا مشاجراتنا علما أنه كان من الضروري أن تكون ونضع النقط على الحروف لأن كل واحد كان يريد الافلات بجلده.

كان الوئام ينتصر دائما لأننا كنا نعي ما الذي سيحصل لو دبت الفرقة بيننا وعششت طويلا أو اختل نظام «البقاء» لم نكن مثل زملائنا في البناية (2) وكان دائما هناك حل لمشاكلنا التي لم تبلغ درجة تعقد مشاكلهم.

الاستمناء والاستحلام والدين

أذكر بوضوح أن منصت كان أول من تطرق للموضوع يومها. إذ خاطبنا بقوله: – «انصتوا جميعا، هناك موضوع تتفادون الخوض فيه هو موضوع النساء، فمنذ اعتقالنا وأنتم لا تفكرون سوى في الطعام

والأمراض والموت وتوافه الحياة. أنسيتم أن الذكر يحتاج الى الأنثى، سواء كان إنسانا أو حيوانا، حتى النبات نفسه يخضع لهذا القانون. إننا نتعمد جميعا التغاضي عن هذه الغزيرة الانسانية الاساسية. الجنس إحساس لا يضاهى ولذة لاحد لها. فما هو رأيكم» انفجر الجميع ضاحكين ثم رد سعودي بمكر: «سول لمزوجين اللي والفو ينعسو زوج في الناموسية أما حنا لعزارة، غير مرة مرة وما عنداش التجربة ديالهم» عقب العديد منا بانه لافرق في مثل هذه الأمور بين المتزوجين والعزاب وأن اللذة لا جنس لها ولا عمر. وعندما تتحرك الغريزة لابد من شريك.

أخذ الزموري الكلمة وقال: «لقد كانت لدي عدة صديقات في ما مضى، لم أكن أنام وحيدا حتى وأنا أعزب. والفتيات موجودات في القنيطرة ، بل كانت لي صديقات في القاعدة الأمريكية نفسها» عقب عليه أحدنا «كان ذلك فيما مضى، والآن قل لنا هل وجدت تعويضا عن اللذة الجسدية؟ » فرد عليه المعني بالأمر: - «في أغلب الأحيان لا أجد مشكلة هنا، لأنني اقضي النهار في استحضار مغامراتي السابقة وفي الليل أستحلم وأشبع بذلك رغبتي».

تدخل منصت قائلا:

«أعرف هذا، شخصيا كنت أقيم مع صديقتي في نفس المنزل مثل زوجين، لكنني الآن، محروم من هذه اللذة والحال أنها ضرورية للتوازن النفسي».

أجاب الصفريوي الذي كان يحب كثيرا مثل هذه النقاشات، ساخرا: «هاذ شي ما كان نقصنا في تازمامارت، غير «بنات الهوى» لمساجين مراض وجيعانين وموسخين». وفي الواقع أضاف المتكلم «يجب التفكير في القانون الذي يحرم السجناء من النساء. لأن هذا المنع لا إنساني وظالم،وصراحة كنت في السابق زير نساء. وكيف لا يكون المرء كذلك في فاس حيث الفتيات مثل الملائكة» وختم قوله« أعيش الآن في أحلامي ومع أمراضي دون التفكير في شيء..».

قاطعه منصت الذي كان يدير النقاش:

- ما هو رد فعلك الآن تجاه الحرمان؟

• «لم أعد أفكر في مثل هذه الأمور، فكوني أشاهد القيح يسيل من صرتي ينسيني كل شيء. وعندما أسمع أنين أصدقائي المرضى،

استشيط غضبا وانسى وجودي نفسه. ولعل ثورتي الداخلية تقضي على كل أحاسيسي. وعلى كل عندما تجوع البطن تخبو الذاكرة ،لكن لو جاؤوني بامرأة، ما نكولش ألا » ضحك الجميع لهذه الخلاصة. وأكد أحد الرفاق بأنه لم يكن يصادف مشكلة في هذا الباب لأنه كان يلبي رغباته مرتين أو ثلاث في الأسبوع عبر ... الاستحلام! فعقب عليه الصفويوي «خصنا نسميوك «جان لقنية» على ود أنا كانستحلم مرة في ستة شهور، كا نظن باللي مابقاش في يدي». أدلى أصغرنا الشاب بوحيدة جاري الشمالي بدلوه في الحديث وقال: أنا ألبي رغبتي مرة في الأسبوع على الأقل، لكني لا أقذف منيا بعد الانتشاء».

جاءه صوت معلقا: هذا ما نسميه بتيرا بلان *Tir El Blanc* وزيادة في المشاكسة قلت لبوحيدة «أنا أعرف مشكلتك وقد سبق أن رويتها لنا في السابق، أنت لا تقذف لأن «خصيتيك منتفختين وتبولت 40 مرة في ليلة واحدة!».

انفجر الجميع ضاحكا، وأكد العديد منا أنه يعاني من هذه الظاهرة، وقال البعض أيضا أنهم لا يستحلمون. وفسر منصت ذلك بنقص في المقويات وأضاف: «ما ينقصنا هي الشمس والفيتامينات والطعام المغذي وإذا تحقق هذا ، عدنا إلى حالتنا الطبيعية ، فحولا أقوياء.

وهذا لا يعني أن علينا أن نهمل غريزتنا حتى في هذه الظروف. عليكم أن تهتموا بجهازكم التناسلي حتى لا تصابون بالعنة».

سأله أحد الرفاق السدج والفضوليين: «كيفاش نديرو وحنا بلا لوز ولا ضرع غنمي ولامخ لعظم»

أجابه منصت ضاحكا: «نتمنى ع الله أنك كا تعرف كيفاش كا يصايبوا الكفتة».

اش جاب الكفتة لكلام؟

دابا تعرف، خليني بعدا نطرح سؤال على الاخوان: « واش عندكم شي حبوب صغيرفي البدن ديالكم؟» ارتفعت الأصوات مجيبة بالإيجاب، فقال منصت:

- طيب، باش يمشي لحبوب ويبقى «الشغل» خدام خصكم (تكف ...) مرة مرة. باش تخرجوا ذاك الشي وما يتجمعش في العمود الفقري وإلا ما يبقاش فيدكم وربما تعماوا. وما تخصكمش تكثروا منه ولا غادي يفشلوا ليكم الركابي ...».

سأله أحدنا: «واش أنت كادير ذاك الشي».

- رد منصت : «ما عندي مشكل لو كنت ما كا نستحلمش ، هاذي نصيحة ديال الطبيب».

عارض العديد من الرفاق هذا الاختيار واعتبروا ذلك فعلة شنيعة وعملا ضد الطبيعة الانسانية ومباشرة شيطانية. تحط من كرامة بني الانسان،وقد حرمها الاسلام بما هي أبشع من الخيانة الزوجية.

رد منصت: «أنا متفق معكم لو كان الوضع عاديا. لكننا في وضع خاص، لا سيما بالنسبة للذين لا يستحلمون، استفتوا فقيهنا المغوتي رقم 18 ،كان هذا الأخير قد تتبع كل نقاشنا فتدخل على الفور: حتى في وضعنا الخاص يحرم الاستمناء من طرف الدين وعقوبته الإعدام (الرجم حتى الموت).

وكل من يرتكب هذه الفاحشة ليس مسلما. وعلى كل حال شخصيا لن أمارسها حتى ولو كانت مباحة في مثل هذه الظروف ، حتى ولو أصبت بالعنة والعمى»، أعترف بعض الرفاق، وكانوا قلة، بأنهم يمارسون هذه الفعلة من حين الى آخر درءا للعجز الجنسي وضعف البصر، ودفعا للعقم أساسا لأنهم كانوا شبانا وعزابا.

ما رويته مجرد عينة من نقاشاتنا العديدة حول الموضوع. فقد عودتنا الظروف التي نعيشها على البوح لبعضنا البعض. لقد أصبحنا فصيلة واحدة بلغ التماثل بين أفرادها أن صارت لنا نفس العادات مثل هز الرأس والغمز اللاإرادي ونفس الطريقة في المشي ، خاصة وأننا كنا ننتعل نفس النعال المصنوعة من عجلات السيارات ونقلم أظافرنا ب «حكها على الجدار»!

في الثالث والعشرين من مارس 1981 أثارتنا الحركة الدائبة للحراس، الذين قرروا بعد أخذ وعطاء أن يفتحوا الزنازن الثلاث المغلقة (زنازن المتوفين) والزنازن المرقمة من 21 الى 29 التي يقيم فيها رفاقنا.

سأل الفضوليون، وأنا منهم ، الحراس عن سبب هذا الهرج، أجابونا بأن بعض رفاقنا في البناية رقم 2 سيقيمون بين ظهرانينا ، تسمرت وراء باب زنزانتي وعيني على ثقبها. يلهبني الترقب والفضول لمشاهدة رفاقي الذين مضت بيني وبينهم 8 أعوام.

فجأة رمقت حيفي عبد السلام وحارسان يسندانه، لم يكن يمشي بل كان يجر رجليه أو بالأحرى كان الحارسان يجران جسده، شاهدت الفتى الذي كان أنيقا في السابق يجر اسمالا وراءه وينتعل نعالا ليس لها من الأمر سوى الاسم، وقد أرخى لحية تشبه لحى الصينين المسنين.

اعماه الضوء في الخارج، وبدا يدقق النظر وسط ظلمتنا التي افقدته صوابه وهدت صحته. تذكرت ذلك الشاب الذي كانه قبل دخوله المعتقل، شابا في 26 ربيعا، المتنطع تنطع الشباب، المرح غير الآبه بالحكم عليه وبعواقب ذلك. لقد أصبح «دون جوان السابق » فضلة انسانية نصف مجنونة، بفعل الشراسة البشرية.

أودعوه الزنزانة رقم 25 الى جانب صديقه محمد مجاهد، كانت تلك هبة لا تفوقها هبة! لأن مجاهد صاحب أريحية وفضيلة يعتني به أكثر من شقيق. مجاهد هذا خلق لكي يفعل الخير فقط! فهو إنسان طيب بالسليقة لهذا قام بأقصى ما في مقدوره ليسعده ويساعده.

القادم الثاني كان هو حميد بندورو. لم اتعرف عليه رغم انه صديق طفولتي، كان يمشي محدودب الظهر، وقد أثقل «الروماتيزم» ممشاه يمسك بيده عصا كعكاز. شعر رأسه الطويل اشبه ما يكون بلبدة أسد هزيل وجائع، أما لحيته الكثة والرائعة وشنبه الطويل فقد وهباه هياة «غولوا» متعب.

ثالثهم عبد الغني عاشور، كان مكتنزا ، أسمر اللون وسريع الغضب. بدا فزعا كمن تجاوزته الأحداث، لم أفاجأ وأنا أرى صلعته ولحيته البيضاء، لأنه كان متقدما في السن ، سبق له أن حارب في الهند الصينية. التحق 5 سجناء آخرون يحيط بهم الحراس. كلهم منهكون، وسخون وفزعون. لم أكن على معرفة بهم لأنهم في سلاح الطيران ، عرفت فيما بعد أنهم الشاوي عبد الكريم، دغوغي ادريس، ريجالي أحمد، فراوي عبد الله ورابحي عبد السلام.

بعد مغادرة الحراس للبناية بدأت المحادثات وأسئلة الهوية ونادى كل رفيق رفيقه. نادى مرزاق صديقة القديم حيفي:

حيفي، واش عرفتيني. كيف حالك؟

ساد الصمت ثم أجاب حيفي

لا! شكون أنت؟

- أنا مرزاق

- اه مرزاق، كيف حالك صوتك غلاظ.

أجابه مرزاق مازحا: خصو يتغسل.

ناداه عفياوي بدوره: أنا عفياوي جبلي بحالك. كيف عامل؟

اه نعم واش انتينا الطباخ ديالنا، شحال هادي مستني هاذ الفرصة باش نقولك طيابك ماشي مزيان طيب لينا ذاك الشي واللا

نقولها للقط لكحل اللي كايزورني.

ناديته بدوري: « أهلا عبد السلام كيف حالك هنري بوب»

- «آه عرفتك انتنا الرايس. سمـاوك جي كي كـا *JQK* (عند مـا كنت اتعلم لعبة «الرامي» كنت أسمي قالي، دام روا جي كي كـا) عندي ليك مفاجأة غادي يطلقوك قريب. قالتـها لي فرح ديبا امبراطورية ايران في استقبال رسمي على شرفي داروه البارح في طهران، كان حاضر فيه الشاه اللي كا يزورني مسيف فقط كحل».

هكذا تبادلنا التعارف بيننا وسألنا كل واحد عن أحواله وعن حال من مكثوا في البناية رقم2. حكى الشاوي الذي كانت ذاكرته قوية ، تفاصيل كل ما وقع خلال *8* سنوات وتطلب منه ذلك أسبوعين من الحكي.

أربعة مجانين في الظلام

نقل رفاقنا من البناية «2» الى بنايتنا، وحكى لنا الشاوي تفاصيل الثماني سنوات التي فرقت بيننا، أكد رفاق آخرون ما رواه مضيفين جزئيات أخرى. روينا لهم بدورنا مآسينا التي كانت - في الواقع - أقل من مآسيهم، لأنهم عانوا أكثر بحيث كانوا «في تازمامارت داخل تازمامارت». ولعلهم كانوا مسؤولين عن بعض عذاباتهم بسبب فُرْقتهم وعدم احترامهم لبعضهم البعض. خلافا لما كنا عليه، حيث لم نتردد في التشهير بأي سلوك خارج عن الاتفاق العام ومناهضة أي نشاز ينال من معنوياتنا أو يفسد أجواءنا. لقد كان القرآن دستورنا والحديث سندنا في الحياة السليمة مع الاحترام المتبادل والطمأنينة الروحية. لم نكن أصوليين ولا متعصبين، بل كنا نبذل ما في وسعنا من أجل أداء الفرائض والسير على نهج تعاليم ديننا الحنيف. للأسف، لم يكن ذلك دَيْدَن رفاقنا رغم أنه حفظوا القرآن عن ظهر قلب أفضل منا وقبلنا بكثير. لم يكن الاستظهار وحده كافيا، بل لابد من التطبيق واستلهام الآيات في المعاملات. لقد كنا قبل الاعتقال نعيش الحياة بكل ما فيها من معاصٍ، باستثناء الماغوتي المفضل الذي كان يداوم على الصلاة منذ طفولته ولمْ

يذق طعم الخمرة أبدا.

في تازمامارت كان الإيمان ضروريا، ففيه حاولنا إصلاح أنفسنا وسلوكنا، لأن الله رحمان رحيم، شريطة أن تكون التوبة توبة نصوحا.

في تازمامارت تعلمت درجة أخطائنا، ففي العتمات أيضا يمكن للإنسان أن يرى نفسه في المرآة الداخلية. لقد وعيت بأنني كنت أعيش في الظلمة حتى والشمس تغمرني بضوئها، كنت أتبع الشهوات العابرة مسلوب الإرادة أمام سحرها الغادر والشيطاني، احث الخطى نحو الخراب الروحي. كانت قوتي الوحيدة في تازمامارت هي الثقة التامة في الله، انتظر معجزته الربانية، واثقا أن خلاصي بيده وحده سبحانه، لا راد لقدره: هو الخالق القاهر وأنا مؤمن بذلك، هل كنت قدريا؟

أبدا، لأن القدرية لا توجد في الاسلام. والله سبحانه وتعالى يقول لنبيّه الكريم في محكم آياته: «وإذا عزمت فتوكل على الله..» (صدق الله العظيم). وهذا ما يفسر إصراري على مقاومة الموت من أجل الاتصال بعائلتي والتشهير بالظروف التي نتآكل فيها وإخبار الضمائر الحية بالطوق المضروب حولها. وحسبي الله في ذلك ونعم الوكيل.

كان رفاقنا الجدد في وضع لا يحسدون عليه، جسديا ومعنويا. اثنان منهم يسعلان بلا توقف، وهما عبد الله فراوي الذي يجهل أصل الداء وعبد السلام ربحي الذي أصيب بنزلة برد بعد أن غسل شعره بالماء البارد. أسبوعا قبل ترحيله إلى بنايتنا. وقد دار بيننا الحديث التالي:

- «لماذا ارتكبت هذا الخطأ القاتل؟

لقد اغتنمت بداية فصل الربيع وسمحت لنفسي بالاستحمام لأنني لا أطيق الوسخ والرائحة العطنة التي تسبب لي الغثيان. وقد بدأت بغسل شعر رأسي.

- لو كنت مكانك لتحمّلت الوسخ والرائحة النتنة بدل السعال الخانق الذي يفتك برئتيك».

كل حسب عادته، شخصيا أحب النظافة ولن أتخلى عنها في تازمامارت رغم هذا الجواب، وجهت له هذه الملاحظة:

- «لكن ما قمت به يعادل الانتحار. وصراحة أنت متهور واعتبر غسلك لرأسك بالماء البارد جنونا...

أجابني بجفاء: ليست المرة الأولى التي أتصرف بها على هذا النحو، وليكن في علمك أنني سليم العقل والبدن وإنسان راشد يعي ما يفعل.

أنت وحدك المسؤول عن أفعالك وما يترتب عنها. وإن كنت أخشى

عليك من ثقل العواقب...».

لم يرد، وأحجمت بدوري عن الكلام ليقيني بأن الحوار بيننا حوار طرشان.

طلبنا من «الحارس الرسول» أن يسعفه بغض النظر عن خلافنا لاسيما المشاجرة التي حدثت بيننا، أنا وحشاد وبينه منذ 3 أشهر خلت. قام الحارس بالواجب مرارا وتكرارا، لكن المجهودات كلها لم تُجْد نفعا، لأن الحمى والسعال استفحلا واستفحلت معهما آلامه. ذاب رفيقنا مثل شمعة واضطر الحراس الى السماح لأحدنا بمد يد المساعدة له لإطعامه. والحال أنه لم يكن يأكل شيئا واقتصر على الماء الذي أفرط فيه بفعل الحمى الى أن لبى نداء ربه في السابعة عشرة من ماي 1981 في الساعة السابعة صباحا، قبيل وصول الحراس. كان المسكين يدردش مع رفيقه في الزنزانة فقال له: «غريب لقد خفت آلامي هذا الصباح وأحس بالاسترخاء، الشيء الوحيد الذي أستغرب له هو برودة أطرافي السفلى والحرارة المرتفعة لأطرافي العليا. لاشك أنها علامات الموت. أجابه رفيقه «لا! لا. هذا غير صحيح».

- مُدّني بقليل من الماء لأغمس يدي فيه، لبى الرفيق طلبه، وبعد قليل طلب منه الماء من جديد ليروي عطشه. وفي اللحظة التي توجه فيها احمد ليأتيه بالماء وعاد به وجده ميتا! أخبرنا بوفاة عبد السلام ربحي، اندهشت وأسقط في يدي.

كان الفقيد من أصل ريفي، ولد بطاطا. فقد أباه صغيرا وربته أمه إلى أن تزوجت بقبطان من القوات المساعدة تكفل به كما لو كان ابنه من صلبه، ترعرع ونما في تطوان وهناك حصل على شهادة الإعدادي وعمره 19 سنة. انخرط في سلاح الطيران وقضى سنوات التكوين بمراكش، ثم 18 شهرا في الولايات المتحدة الأمريكية.

قبل أن يلتحق بالقاعدة الجوية الثالثة بالقنيطرة إلى يوم 16 غشت 1972. أدين بـ 3 سنوات سجنا ونقل الى تازمامارت حيث لقي حتفه، دون أن يشفي غليله بجرعة ماء! دفن في نفس الظروف التي دفن فيها السابقون، وسمعنا، كالعادة، أصوات الحفر والنقالات والحراس وهم يزمجرون. وعلى ذكر الحراس، فقد غضبوا لقدوم رفاقنا الثمانية. بدأوا بالغمغمة ثم الزمجرة ثم أبدوا صراحة غضبهم من هذا الفائض البشري الذي سيكلفهم أشغالا إضافية، بعد أن انتقلت من 26 إلى 34 سجينا، إضافة إلى مخاطر الأوبئة التي كانت تقض مضجعهم. وقد سبق أن

سمعت حمو الحارس يقول لزملائه: «8 أشخاص؟ معنى هذا 8 أدلاء من الماء ومعناه وقت أطول في الكولوار نشم فيه روائحهم الكريهة، لقد بدأ هذا العمل يثير أعصابي» أجابه السارجان شاف سعيد. لقد اخترنا لهذا العمل لكن ما يثيرني هو وجود 3 حمقى من بين القادمين الجدد. والظاهر أنهم عنيفون. أضف إليهم ميمون...!».

تدخل لاجودان شاف بن ادريس قائلا: «لا تثقوا في أي كان، لاسيما المجانين منهم، لن أنسى أبدا ما فعله بي ميمون». وله الحق في ذلك، لأن رفيقنا أوشك أن ينتزع خصيتيه. حدث ذلك عندما فتح بن ادريس باب الزنزانة ذات يوم، فتظاهر ميمون بالانحناء من أجل وضع ابريقه أرضا قبل أن ينقض عليه ويمسكه بخصيتيه وبدأ يضغط عليهما بكل ما أوتي من قوة كي يغمى عليه ويستغل ميمون الفرصة للهرب، فوجيء بن ادريس وارتبك فلم يجد سوى الصراخ لإنقاذ نفسه والاستنجاد برفاقه من البناية الثانية.

سارع هؤلاء الى نجدته وانهالوا بهراواتهم على رفيقنا الذي أرخى قبضته. انكمش بن ادريس على نفسه وقد أمسك جهازه التناسلي بكلتا يديه شاكيا منتحبا: «ولْد لح.... بغا يحيدهوم لي ويردني مرا...»

لم يغفر لصاحبنا فعلته وتحين الفرصة لينتقم منه.

دام الحوار بين الحراس أمام زنزانتي مدة طويلة، أبدى خلاله كل واحد منهم وجهة نظره. منهم من اشتكى من الأعمال الإضافية ومنهم من تذمر من الأوساخ، وفصيل ثالث تخوف من المجانين: لاحظ بن ادريس قائلا: «ألم تلاحظوا بأن «الجدد» منهوكون أكثر من سجنائنا وأكثر وسخا وعصابا؟» ورد عليه لاجودان حمو بهدوء وجدية.

- الأمر عاد، لو وضعت أي كان بدلهم لجن في ظرف أقل. «وسجناؤنا» احسن لأنهم يقرأون القرآن باستمرار أو يتناقشون فيما بينهم، بل منهم من يغني، جاء رد بن ادريس ارتيابيا وتشكيكيا.

- لاشك أن القرآن الكريم يقوي العزائم، لكن لابد وأن هناك شيئا أخر نجهله. ربما الدواء أو وصفات المشعوذين...

- الأدوية؟ - قال مولاي علي الثمل باستمرار - من أين يأتيهم الدواء وهم أبد الأيام في زنازنهم. ونحن معهم دائما.

وافق سعيد على وجهة نظر بن ادريس قائلا:

- أنا نفسي لاحظت منذ مدة بعض السلوكات الغريبة بعضهم مرض شهورا عديدة وفجأة استفاق واسترجع عافيته وتقدم لتناول حصته من

ماء وغذاء، أي جني عافاهم؟ الشيطان!».
أوقفه حمو بحزم: قف، لقد بدأت في التجديف. الله وحده يشفي ويحيي. فإذا دقت ساعتك جاءك ملك الموت في الحال وقتها لن ينفعك شيطانك أو دواؤك. وما قولك في الذين يموتون في المصحات المكيفة والعصرية محاطين بأكبر الأطباء والاختصاصيين والوسائل المتطورة. ألم يمت سيدنا محمد؟ والمغفور له محمد الخامس؟ ألم يمت فرعون الذي ادعى الألوهية؟ إذا واصلت على هذا النحو، فأنت مارق».
ختم بن ادريس، المسؤول الأول في البناية، هذا النقاش بالقول: «قولوا ما شئتم لكنني لا أثق في أبناء «......» هؤلاء. فهم متعلمون وأذكياء وأنا أشعر أنهم يحيكون شيئا في الظلام. وغدا لناظره لقريب...».
كنت أود المشاركة في النقاش، لكن كوني سجينا سيجعلهم غير أبهين لرأيي.
في 23 من مارس 1981 حصل جديد في البناية رقم 2، حيث وصل الإخوة «بوريكات» الثلاثة وهم مدنيون لاعلاقة لهم بالانقلابيْن العسكريين، جاء بهم الحراس واقتيد كل واحد منهم الى زنزانة فارغة، بعد رحيل الحرس، نادى بوريكات على أخويه ليطمئن على حضورهما: «مدحت، بايزيد هل أنتما هنا» ردا على سؤاله بسؤال أخر: «أين نحن؟»، فرد عليهما «لا علم لي» تدخل أحد رفاقنا ليهدئ من روعهم، لما ظهر عليهم من فزع وليشفي فضولهم: «أنتم في تازمامارت في الموقع بين ميدلت والراشيدية جنوب شرق المغرب، هنا معتقل سري، فمن أنتم؟ عسكريون أم مدنيون؟».
أجاب مدحت بحذر لايخلو من صلافة: «وأنتم؟ من أنتم؟» أجابه محمد عبد الصديقي المتهم في قضية الصخيرات «كلنا عسكريون أودعنا هنا منذ يوم الثلاثاء 7 غشت 73، أنا أدعى مانولو» سأله علي بوريكات: «هل أنتم كثر؟».
+ لا! لا توجد في تازمامارت سوى بنايتين: الأولى تضم 29 معتقلا، وهذه البناية رقم 2 كانت تضم في البداية نفس العدد ولم يبق على قيد الحياة سوى 14 رفيقا».
- وأين الآخرون؟ هل أفرج عنهم؟ تساءل علي مندهشا.
+ لا لقد توفوا دفنوا في الساحة، ذلك لأن كلمة «إفراج» لاتوجد هنا، والآن لنتعارف، ففي هذا المعتقل لاتوجد رحمة أو رأفة ولاتدري نفس

متى تموت، أيها الأصدقاء مازلت أجهل أسماءكم، لكن اسمحوا لي بالقول بأن من يدخل هذا المعتقل لايخرج منه حيا، لا أقول هذا لأحطم معنوياتكم بل لكي تكونوا على علم وتتفادوا أية أوهام».

شرع علي في الحكي: «نحن الإخوة بوريكات، نحن مدنيون اعتقلنا في الثامن من يوليوز 1973 ثم سجنا في فيلا سرية بالرباط، في طريق زعير تحت حراسة الديسطي (DST) نقلنا بعد ذلك الى دار المقري بأكدال، قضينا 8 سنوات في الرباط محتجزين في مقرات الشرطة بدون محاكمة أو إدانة، أنا علي، أصغر إخوتي أكبرنا هو مدحت ويليه بايزيد».

هكذا بدأت جلسات التعارف بين المعتقلين والاخوة الثلاثة. وتبادل الطرفان طرح الاسئلة: الإخوة بوريكات يريدون معرفة أقصى ما يمكن عن المعتقل والرفاق يجدون في استقصاء أخبار الخارج، وقد تبين أن بوريكات كانوا مطلعين على كثير من الأمور. فبالرغم من اعتقالهم لمدة 8 سنوات فقد كانوا يتمتعون بالحد الأدنى من الحقوق مثل قراءة الجرائد والاستماع للمذياع والأكل حسب الطلب، بل كانوا يحصلون على مصروف الجيب أيضا، وفي الوقت الذي كان رفاق البناية الثانية يستمعون الى «أسرار» بوريكات، كان رفاقنا في البناية الأولى قد شرعوا في مساعدة الوافدين الجدد، هكذا اجتمعت اللجنة الطبية و «درست» حالات الإصابة لتحديد «الوصفات» المناسبة خصوصا وأن أمراضهم مشابهة لأمراضنا، شيئا فشيئا بدأ الجدد يتماثلون للشفاء باستثناء ربحي الذي توفي بعد شهرين من وصوله.

في شهر أبريل من نفس السنة حقق القبطان بلكبير اتصاله المعتاد، لكن رسوله هذه المرة جاءه بطرد إضافي غير منتظر لفائدة المعتقل الصفريوي رقم 4، وقد كان المسكين عاجزا عن الحركة وكان جاره هو الذي يساعده ويعينه بأمر من الحرس، صباح يوم أبريلي دخل هذا الأخير وملأ إبريق الماء ثم سلمه طردا ورسالة قائلا: «صباح الخير الصفريوي، عندي لك خبر سعيد، رسالة وطرد سلمهما لي «الشويبني»» رد عليه الصفريوي، «هل تسخر مني؟ من أين لي بالتواصل مع عائلتي ولم يسبق لي أن كاتبتها منذ دخولي هذا الغار، لابد أن خطأ ما قد وقع».

«أنت مخطئ إن الرسول لايعرفك لكن أمك هي التي ربطت الاتصال، وقد سألني قبل تسليمي البريد عن اسمك ونسبك ومسقط رأسك واسم أمك، وقد أخبرته باسمك واسم والدتك الحاجة زبيدة»، بعد ذهاب

الحـراس فـتـح الصـفـريوي الطرد وفـوجئ بـعلب المضـادات الحـيـوية والفيتـامينـات والمقويات ومذياع صـغـيـر (ترانـزستـور) بـأربـع بطاريات، فض الظرف وطلب من رفيقه في الزنزانة أن يقرأها نظرا لضعف بصره، انفجر جاره ضاحكا «ألا ترى أن ذلك مستحيل نظرا للظلمة، لابد من وضع المراة، وانتظار انعكاس الضوء داخل الزنزانة حتى أتمكن من قراءتها.

لا أرجوك عجل بالأمر لا أطيق الانتظار مازلت احتفظ بعود ثقاب منذ أن سلمه لي الحارس يوم قتلت العقرب، مزق جزءا من قميصي واصنع منه شعلة، نفذ الرفيق رغبته وأضاءت الزنزانة بنور جعلها أكثر كابة، وما إن بدأ الجار في القراءة، باذلا مجهودا في التدقيق والتركيز وتهجي الكلمات، حتى أجهش الصفريوي بالنحيب، ومست العدوى قارئ الرسالة الذي واصل التهجي وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ورد في الرسالة مايلي «فاس 81/03/25 ابني العزيز عبد العالي، أمك الحاجة زبيدة، لم أتوصل منك بأي خبر منذ 8 سنوات، لقد بحثت عنك في كل مكان ولم أفقد الأمل، ذات مساء بعد الصلاة التقيت بسيدة عند الخروج من المسجد وبعد دردشة قصيرة عرفت أنها والدة القبطان بلكبير الذي يوجد معك وعرفت أيضا أن ابن عمها زوج ابنة قريبتي، وتعارفنا وقد استطعت بفضلها أن أرسل لك الدواء، أما النقود فقد خبأتها في كبسولة دواء دون علم المبعوث. أطلب من الله أن يحفظك ويرعاك ويطيل عمري حتى أراك إن الله رحيم بعباده.

ورغم أني محاطة بأبنائي وبناتي فإنني أفكر فيك دائما ...».

هذا الدعم المعنوي ساعد الصفريوي على الأمل وساعدته الأدوية على الشفاء. توصل حشاد أيضا ببريده الفصلي وأخبرنا بالاجراءات والمساعي التي تقوم بها زوجته لدى السلطات، وأطلعنا أيضا على لائحة الأدوية وطريقة توزيعها وسرعان ما بدأ النقاش من جديد وتعالت أصوات الاحتجاج وتدخل منصت طالبا من الرسل (الحمامة في قنيطرة، الشويبني وفلاش في فاس)، وقف الاتصالات حتى تحل المشكلة على المستوى العام، طلبت من جهتي رأي الرفاق 8 الجدد حتى يتحمل الجميع عاقبة القرار الذي نتخذه، طلبنا أيضا من الرفاق الذين توصلوا بالبريد أن يساهموا لشراء فيتامينات لنا، قبلوا جميعهم - بعد لأي - واتفقنا على شراء علبة الفيتيل لكل سجين، وساهم المبعوث (الحمامة) في هذا المجهود طواعية، وبدأ يأتينا بقطعة سكر كل 15 يوما و 4

تمرات كل شهر وعلبة بسكيوت «هنريس» كل شهرين وعلبة «فروماج» على رأس كل فصل، دام هذا الامتياز قرابة نصف سنة فقط، للأسف استطاع خلالها الرفاق الجدد التأقلم مع الوضع الجديد والافلات من السديم الذي كانوا ينحدرون الى قراره.

قبل الرفاق الثلاثة أن يبعثوا ببريدنا الى عائلاتهم، وزوجاتهم ليتقلوه الى أهلنا ووافق المبعوثون على ذلك، وعاشت البناية 1 في سلام ووئام لشهور عديدة.

في البناية 2 تواصلت الدردشات بما فيها من مفاجآت ودهشة من الطرفين، رفاقنا والإخوة بوريكات. أبدى الاخوة بوريكات دهشتهم لقدرة الإنسان على العيش في هذه الظروف واندهش رفاقنا لحكايتهم المبالغ فيها في أغلب الأحيان، بدأ بوريكات بسرد حياتهم المضطربة وتحدثوا بعدها عن مغامراتهم وما فيها من تحايل وابتزاز وخبايا ثم عن دوائر الزمن وإقامتهم في المراكز السرية بالرباط قبل الوصول الى تازمامارت.

وبوريكات من أصل تونسي كان جدهم ضابطا في صفوف الجيش التركي إبان انحطاط الامبراطورية العثمانية، تجنس أبوهم بالجنسية الفرنسية سنة 1921 التحق بالشرطة وتسلق السلم الى أن أصبح ضابطا، تزوج بمغربية من أصل شريف من مكناس، أنجب منها عدة أطفال لكن الإخوة بوريكات كانوا يكثرون من الحديث عن أختهم خديجة لفرط حبهم لها، بقدرما كانوا يتجاهلون الحديث عن أخ لهم تنكر لهم خلال اعتقالهم بالرباط. ولد بوريكات في مدن عديدة، بسبب تنقلات أبيهم المتعددة .. لكنهم شبوا في الرباط، قطنوا أول الأمر بحي «العكاري» الشعبي ثم انتقلوا إلى حي المحيط (لوسيان) حيث اختلطوا بأنماط مختلفة من الناس، وهناك شحذوا أسلحة الحيلة والتحايل، تعلموا أشياء عديدة من أبيهم الذي كان يخدم فرنسا - وطنه الجديد ويطلع المقاومة المغربية في نفس الآن، وهكذا حصل على احترام المخزن والمقاومة مع الاحتفاظ بعلاقاته مع رؤسائه. بعد الاستقلال حظيت عائلة بوريكات بالحفاوة وحسن الاستقبال وحصل الأبناء على عدة امتيازات .. وحسب أقوال بوريكات دائما، عين أبوهم عبد الرحمان بوريكات بظهير شريف واسندت له مهمة السهر على انشاء المخابرات المغربية (!) بعد ذلك أقاموا بحي فاخر وارتادوا الأماكن الراقية وصاحبوا الدوائر العليا وعاشوا عيشة البذخ والجاه، وانغمسوا في القضايا المشبوهة وفاتهم امتلاك سلوك قويم أو تعلم أو تربية حسنة، فمدحت غادر

المدرسة منذ السنة الرابعة والتحق بالبريد، بايزيد الذي لم يكن موهوبا في الدراسة لهذا دخل عالم الأعمال وأصبح أغنى أفراد العائلة، وكذلك حال علي الذي فشل في الحصول على الباكالوريا وسلك سلوك أخيه وارتمى في حياة اللهو والمجون، وقد حكى حكايات لاتصدق ومغامرات يصعب تصديقها منها مثلا، أنه بذر في بضعة أيام عدة ملايين من السنتيمات في أماكن اللذة ووجد نفسه مفلسا ووحيدا في باريس، لامال ولا صديق، وفيما هو ينتظر أن يبعث إليه أخوه بحوالة بريدية، كان يجوب الأحياء الراقية وينقب في القمامات بحثا عن لقمة يسد بها رمقه، أو ينام في الحدائق العمومية الى جانب المتسكعين والمشردين بعد أن قضى الليالي في فنادق 5 نجوم.

حدث بدوره لم يسلم من لوثة التبذير، أما با يزيد فقد كان رصينا يحسن التصرف لا يفكر سوى في الثراء. وقد حصل بفعل تواطؤ أحد المسؤولين الكبار في وزارة التجارة، على رخصة تسويق الشاي الاخضر المستورد من التايلاند. وبما أنه كان يعمل تحت ظل شخصية مهمة فقد استقبل بحفاوة وسهلت مأموريته. وعاد محملا بالهدايا بعد أن ادعى أن أمه - أميرة» ! - وجلب معه وصلا بشراء مزورا لا يتوافق مع البضاعة. ولما عاد وهب للمسؤول حصته واحتفظ بالجزء الأكبر، ضاربا عرض الحائض المصالح كلها والمبادئ كلها. وبعد أن قضى حياة البذخ، ها هو معنا في أسفل سافلين.

في البناية الأولى تواصلت الاتصـــالات ووصلت إلى 3 طرود الى المعتقل واحد من القنيطرة واثنان من فاس. وقد تمكن رفيقان اثنان من الاتصال بالعائلة لأول مرة، وهما الوافي وصدقي. وفي الواقع، لقد قام المبعوث (فلاش) بعمل جيد وجاء ببريد بلكبير والصفريوي وصدقي ومجاهد.. غضب كثيرون منا لأنهم لم يتلقوا أجوبة أما أنا فقد اختلق «الحمامة» ذريعة وقال أن زوجتي أضاعت الموعد في منزل رفيقنا (ح) ولم يتمكن من الحصول على الرسالة والمال. ومزيدا في اقتناعي، كتب (ح) في الهامش المتبقي من رسالة زوجته بعض العبارات وأرسل الى الرسالة لأقرأها (...) أما الضحية الكبرى فقد كان هو لغلو (رقم 2) الذي عول كثيرا على هذا الاتصال من أجل الحصول على الدواء. لكن قريبه (ل) الموظف في مكتب البريد «بالبطحا» رفض إرسال الألف درهم التي اقترضها منه منذ 1970، أو إرسال قدر منها. وقد كان لغلو مريضا منذ 1978 وزادت هذه الانباء من تفاقم حالته. فقد أصابته نوبة عصبية

وتشنجت عضلاته قبل أن ينخرط في البكاء ويطلق صرخات حادة هستيرية أعقبتها إغماءة فورية، وحين استعاد المسكين وعيه وجد نفسه مشلولا طريح «الفراش» لا قدرة له على الحراك.. ليظل كذلك الى الأبد.

تواصلت الاتصالات وتواصلت المشاحنات فيما بيننا والتزمت العائلات التي نما إليها حال أبنائها الصمت والحذر ولم تخطر الرأي العام. وتناهت الى سمعنا أخبار أحداث يونيو 1981 والسخط الشعبي الذي كان وراءها وراودنا الأمل في تحول ما... وجاء الشتاء في موعده، وفيما نحن نشحذ أسلحتنا لمواجهته راجت الأخبار في بنايتنا، مصدرها الحارس فلاش، تقول بأن مدام الطويل نانسي (تورية) الأمريكية الجنسية وزوجة الليوتنان طويل مبارك من سلاح الطيران، ستغادر المغرب للإقامة النهائية في أمريكا من أجل الدفاع عن زوجها. وقد كانت هذه السيدة الجريئة والوفية لزوجها أستاذة للرياضيات بالقاعدة الأمريكية بالقنيطرة حيث التقت بالطويل قبل قِرانها في سنة 1970 بعد أن اعتنقت الإسلام. في ماي 1972، أنجبت طفلا سمياه أمين. وبعد مرور 3 أشهر، اعتقل امبارك وأدين بـ 20 سنة سجنا في قضية الطائرة الملكية، وبالرغم من الفترة الوجيزة التي قضياها في العش العائلي، فإن حبهما كان قويا، وهو ما دفع نانسي إلى الكفاح من أجل الإفراج عنه وانتظاره بكل وفاء مُعْتنيَة بالطفل وتربيته، بما هو ثمرة عواطفهما الجيّاشة والصادقة. أما هو، فمافتيء يتذكرها ويحن إليها ويتحدث عنها باحترام وحب. وإن كان يأسف لابنه، ولطالما حدثني قائلا:

- أنا متأكد بأن ابني سيتلقى تربية حسنة، فأنا أعرف زوجتي. لكنني كنت أفضل الاعتناء به شخصيا قبل بلوغه المراهقة حتى أطبعه بميسمي وأصقله في «قالب» العناد.

حدثني قليلا عن هذا القالب السحري الذي يصنع «الأشاوس»؟

- هذا بسيط! كل أسبوع يقطع 15 كلم مشيا على الأقدام وقد حمل على ظهره كيسا مليئا بالرمل، وبين الفينة والأخرى ينام في الهواء الطلق بالجبل».

ذكرني هذا بوصايا بلكبير الى زوجته بخصوص ابنهما: «خذيه دائما إلى الجبل»، وليركب المطايا والدواب أو يمشي حافيا في الطريق الشائك، ولتوكلي إليه بين الفينة والأخرى أعمال الحقل الشاقة وادفعيه إلى معاشرة كل الطبقات في المجتمع، أريد أن أجد عند خروجي رجلا

كامل الرجولة وليس «أومليطْ».

نبأ الطويل أذهله فلم يصدق ما سمع، لكنه سيتأكد فيما بعد من طرف السارجان شاف سعيد. فقد جاء هذا الأخير وفتح الباب واقترب من الطويل وهمس له: «يبدو أنك ستخرج قريبا من هنا. زوجتك أمريكية أليس كذلك؟» بعد جواب الإيجاب أضاف: «لقد أخبرنا المدير نفسه بذلك. فقد تلقى برقية تخصك، ومن الممكن أن يزورك شخصيا من أجل بعض المعلومات الاضافية» تساءل الطويل بحذر: «عن أية معلومات تتحدث لاعلم لي بأي شيء!».

طمأنه الحارس القاسي بالقول: «على كل فهذه أنباء سارة لك» وقبل أن يغلق الباب أسر له مبتسما» «امرأتك شجاعة. والأمريكيون يطالبون بك سيخرجونك من هنا بالقوة، بون شانس أمازيع أشْ» شيء آخر هزنا وسرى فينا مسرى التيار الكهربائي وبعث فينا حرارة الامل، ذلك عندما علمنا أن جريدة «لوموند» نشرت مقالا حول تازمامارت معنون ب «شهادات من معتقل تازمامارت» وقد جاءنا الحارس بنسخة من الصحيفة. توقعنا حصول تفتيش وتنكيل واستنطاقات وتعذيب، لكن أي شيء من ذلك لم يقع كما لو أن الأمر تافه وعادٍ.

مساء الواحد والثلاثين من دجنبر *1981*، والعالم يستعد للاحتفال برأس السنة، دلف مدير السجن الكومندان القاضي الى داخل البناية مرفوقا بالحراس. فتحوا الزنزانة رقم *15* فوقف المدير أمام الطويل الذي كان اسمه يدل عليه لان قامته بلغت *1,86* م. نظر الى السجين وعيناه في عينيه مثل منوم مغناطيسي، ونظر اليه السجين نظرة ضعيف البصر لأنهم اخذوا نظاراته. سأله المدير: هل انت الطويل مبارك؟» اجابه: «نعم مون كومندان».

هل كنت ليوتنان ميكانيكي في القاعدة الجوية بالقنيطرة؟» اكد الطويل أقواله فأضاف: «ماهي عقوبتك؟» اجاب الطويل: «*20* سنة سجنا» تأمله وسرح بصره من أخمص قدميه الى رأسه وتأكد بأن البضاعة التي يبحث عنها سليمة وان الطويل الذي أقام الامريكيون الضجة من أجله حي يرزق. ثم ذهب دون ان ينبس ببنت شفه. وقد اخذته العزة بنفسه من نجاح مهمته الجهنمية: ذهب لانه سيجد الوقت فيما بعد لتذوق ما فعلت يمينه، بل لعله سيفزع عندما يرى لغلو. وبالرغم من الحالة المزرية للطويل فانه لم يكن العينة الحقيقية التي تعكس بالفعل ما مر ويمر علي الرفاق او يكشف المعاملة التي هدت حياتنا. غير ان هذه الزيارة

المفاجئة والغامضة قد زادت من حيرته وظل لغزها ساكنا مخيلته لمدة طويلة، وكان عليه ان ينتظر ثلاث سنوات اخرى ليعرف الهدف الحقيقي من ورائها.

انتهت سنة 1981 بحصيلة رهيبة وكارثية. اذ اننا في الفترة الفاصلة بين 7. 8. 73 و 31. 12. 81 فقدنا 19 رفيقا. توفي منهم 16 في البناية رقم 2 و 3 في البناية 1 - 15 من المتوفين انهوا عقوبتهم قبل موتهم بمدة طويلة.

كانت سنة 82 استثنائية، اذ لم يمت فيها احد ولم يتحسن نظام السجن أو لاح أمل ما في الأفق، مر نصفها الأول «عاديا» أي بنفس الامراض والهذيان والجنون .. وفي 13 يوليوز 82، ونحن في عز شهر رمضان، وقعت الواقعة، كانت الساعة تشير الى الثانية صباحا والحراس يوزعون «السحور». قام حيفي دون أدنى حيطة أو انتباه لوجود لاجودان شاف بن إدريس بتسليم مجلة ضخمة ملفوفة في قميص الى جاره ميمون، لاحظ الحارس الحركة وطلب تسليمه «الأمانة» لينظر ما فيها. لما وجد المجلة صاح برفاقه «تعالوا لتنظروا عملكم الجيد، مجلة في المعتقل والسادة الكرام أصبحت لهم مجلات ويحصلون على الممنوعات ونحن لاندري، أين هي المراقبة إذن؟» اندهش الحارسان وتبادلا النظرات، توجه ابن إدريس الى الرفيقين المعنيين بالسؤال: «ديال من هاد المجلة؟» فأجاباه في نفس الوقت «ما عرفناش».

شكون الحارس اللي جابها ليكم؟

+ ما عرفناش.

توجه بن ادريس بالحديث الى حيفي: «أنت اللي عطيت المجلة لصاحبك شكون جابها لك أو عطاها لك؟»

«لقيتها فوق الدالا» قال حيفي غير آبه، وتدخل لاجودان مولاي علي بقوله: «ما تعييش راسك أمون جودان، هادوا راهم حمق وما كيعقلوش».

رد عليه بن ادريس في الحال: «ايلا كاين شي حمق راه هو أنا، يا الله اسيدي غلقوا البيبان حتى الصْبَحْ ونشوفو هاد القضية»، انسحبوا مخلفين وراءهم صدى الأبواب وهي تغلق وخيم الصمت في البناية لمدة قبل أن يصدح صوت سافر متسائلا: «أيها السادة القراء، عروا عن وجوهكم، دافعوا عن أنفسكم، ألم نحذركم من الكتب والمجلات مرات عديدة، ألم نقل لكم بأنها غير آمنة، ألم يترجكم الرايس ومنصت والطويل وغلول حتى تكفوا عنها وأنتم تدفعون «بقتل الوقت

والتثقيف».

تعالت الأصوات ولم يتورع بعضها في القذف والتنابز وأعاب العديد منا المغوتي على استخفافه عندما سلم المجلة لرفيق فقد عقله. وتدخل أحد الرفاق الرصينين وقال «ليس الوقت وقت خصام بل علينا أن نستعد لعمل الحراس وعليه لابد من اتلاف كل ما نملك حتى لا نقيم علينا الحجة أو إخفاء ما يمكن إخفاؤه لنفس الغرض. احذروا إننا في عز الصيف وقد لا يترددون في خلع ملابسنا من أجل التفتيش. لا تخبئوا شيئا بين الفخذين أو الوركين» بدأت عملية الإخفاء والدس.. دخل بن ادريس مصحوبا بالسارجان شاف سعيد ولاجودان مولاي علي وكل يحمل مصباحا كهربائيا في يده، دخلوا الزنزانة الأولى وفتشوها، لم يجدوا شيئا، مروا الى الزنزانة الثانية التي يقيم فيها لغلو، وكان مشلولا ممددا على البلاطة، فرفعوه وفتشوا زنزانته بدقة وفتشوا ما بين فخديه. دخلوا الزنزانة الثالثة حيث بلكبير. طال التفتيش وجدوا أشياء عديدة: كتابان من الكتب الدينية، مجلتان، أدوية مختلفة، ترانزستور وبطاريات. خرجوا دون نقاش مادامت الحجة دامغة. فتشوا غرفة الصفريوي ولم يجدوا شيئا. وقد كان بنعيسى رفيقه قد أحسن اخفاء الأشياء حيث وضع كل ما بحوزتهما في جيوب ورفعها «بالصنارة» التي كان يمدني بالاكل بواسطتها، في ثقب السقف! وصلوا إلى زنزانتي فخاطبني بن دريس بقوله: «الرايس نحن نعرف بعضنا البعض سنة 1958، وأعترف لك بالاستقامة ولهذا فإذا كنت تملك أشياء ممنوعة سلمها لي دون علم الحراس، لأننا سنقدم تقريرا للمدير وكل من خالف سيعاقب، أجبته وأنا أمد القرآن الكريم نحوه: «لا أملك سوى القرآن الكريم. خذه أو اتركه وقد حفظت ما فيه عن ظهر قلب».

ألم يعطك رفاقك أدوية

- لا! ولا علم لي بما تقول

إذن لا تملك أي شيء لا كتب؟ ولا راديو؟...

من أين لي بذلك وأنا سجين هذه الجدران.

تدخل مولاي علي وخاطب رئيسه بالقول، إن الرايس فقير مثلنا ولن يمكنه إيجاد شريك وانه يسعل باستمرار، كما أن مشيته تدل على إصابته بالروماتيزم. وختم قوله: «أنت كاتعرفوا بحالي، طبعوا خايب وما عمرو يدير صاحب لا في الجنة ولا في جهنم» ثم انفجر ضاحكا. أما السرجان سعيد فقد التزم الحذر ولم يدخل زنزانتي ربما لأنه لم ينس

شجاري معه وتهديدي له بالقتل. والحارسان نفسهما لم يجرؤا على تفتيش جسدي، تحت الإبطين مثلا أو ما بين الفخدين. ربما كان ذلك احتراما لي لأنني كنت مدرسهما سابقا أو خافا من غضبي.

واصل الحراس التفتيش وبدأت أصوات رفاقنا الغاضبة تتعالى وتتهم. هكذا صاح مرزاق: «نحن مسلمون مثلكم لماذا تعاملوننا بهذه الطريقة» وتبعته أصوات عديدة تطالب بالإنصاف أو الموت بسلام. فأجاب لاجودان مولاي علي: «أنا ملاك الموت في الأرض... غادي تشوفوا».

تدخل حشاد صلاح بكل هدوء وثقة وقال: «ماتقومون به غير إنساني وخسيس. هذا عمل الكفار». فرد عليه السارجان شاف سعيد «أنت بَعْدا انا غدي نتكلف بك شخصيا». وكانت تلك غلطته لأنها دفعت حشاد إلى الاستعداد والتفكير جيدا في الرد.

كنت أراقب من ثقب الباب ما يفعله الحراس وما جمعوه من الزنازن من علب الفروماج وكتب ونسخ من القرآن وعلب عود الثقاب الخ. وقد كان مولاي علي «ملاك الموت» مصابا بمس من الجنون وكان يخضع للعلاج النفسي والعقلي. أخذ جهاز مذياع صغير وشغَله فنهره بن ادريس وطلب منه وقف التشغيل. فأجابه مولاي علي: مون أجيدان شاف أنا صايم ومن الصباح ماكميتش، ماكانشوف غير الضباب وبغيت نسمع شوية ديال الموسيقى. وها أنت اتشوف. أنا كانجري بْحال لحمق نوزع عليهم الماكلة وهما كايسمعوا الموسيقى وأنا متيقن أن عندهوم «الروج»، قلبوا مزيان غادي تلقاوا الشْراب مْخَبّي» أخذ علبة البقرة الضاحكة ثم واصل تعليقه: «إنهم يسخرون منا. انظر مون أجيدان حتى بقرتهم تسخر منا وتضحك بدورها». وختم حديثه بالقول: «في نظري من نجح في الحصول على ترانزستور يستطيع الحصول على الخمر».

وصلوا أخيرا الى الهدف المتوخى عندما بلغوا الزنزانة 29 لصلاح حشاد.

كان القبطان واقفا بالداخل ينتظرهم. فتش بن ادريس ومولاي علي الزنزانة تفتيشا دقيقا وقلبوا أعلاها سافلها، خاب أملهما وخرجا مطاطئي الرأس. أما السارجان شاف سعيد فلم يعلق على هزيمته بل وقف في وجه السجين وظل يحملق فيه، بادله حشاد النظرات وهو هادئ وغير آبه. بدأ السارجان شاف بتفتيش ثنيات ملابسه والأجزاء الكثيفة من ملابسه ثم أمره بخلع سرواله ففعل، فتشه بدقة ثم طلب منه نزع

التبان (السليب ـ صنع محلي) ونفذ السجين العملية بهدوء ورباطة جاش وخاطبه قائلا: لكن السارجان شاف سعيد واش نديرو بالحشمة؟ واش انت بهاذ الموسطاش اتبارك الله وتدير يْديك في (....) بلا ما تحشم؟» لم يجبه الحارس وواصل تفتيشه، لم يبق سوى «المكان المحرم»، وكان حشاد يعرف أن الحارس لن يتردد في «غمس» يده هناك، لذلك استعد من قبل حيث أنه كان قد حَزَم بقوة جانبي الجزء الأسفل من سرواله على مستوى الكعبين بخيط رقيق يكاد لا يُرى. ثم أخذ ماله (نصف مليون سنتيم كورقات نقدية جديدة) ولفه جيدا قبل أن يربطه ويخبئه بين فخذيه، ثم وضع ورقة نقدية جانبا في المكان إياه. صرخ فيه السارجان شاف «اسرع، ليس لدي الوقت الذي أضيعه. أنا متأكد أنك تملك المال. وأؤكد لك بأنني لن أخرج حتى أحصل عليه. تظاهر حشاد بأنه «ينزل» تبانه بيده اليمنى فدفع باللفافة الى أسفل السروال بيده اليسرى. «أدخله» السارجان يده فأخرج الورقة النقدية (100 درهم). لمعت عيناه وهو يخرج غنيمته ونادى على رفاقه: «تعالوا. لقيت 100 درهم. ياك كولت ليكم أن حشاد ما فيه ثقة. آه عاندوا حتى ماطْلا. فتشوها» والمقصود «بالماطلا» هو ما صنعه حشاد من قطع الغطاء والبقايا والشعر وعلب الدواء الفارغة والفروماج... إلخ.

أنهى الحراس التفتيش حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال، ثم نادوا على أحد مساعدي المدير ليعرضوا عليه ماغنموه. اندهش المساعد بحجم الممنوعات ونصحهم بعدم إطلاع المدير أو غيره على ما وجدوه.

فسأله بن ادريس «كيف يمكننا التخلص من هذا؟» وهو يعلم أن غضب المدير سينزل به لا محالة باعتباره المسؤول عن حراسة البناية 1، فضلا عن قرب تاريخ تقاعده الذي سيضيع منه لو علم رئيسه بالحادثة. نصحه المساعد بقوله: «ضعوا ما وجدتم في الساحة وسأعطيكم عشرين لترا من البنزين لتحرقوه ثم عليكم بدفن الرماد، واحذروا إخبار المدير لأنه سيعاقب أول من يخبره. وانت بالضبط ـ آمولاي علي ـ عندما تسكر تصبح ترثارا فاحفظ لسانك». (وهو ماسيتم بعد سنة تقريبا).

كان الجدول الزمني لرمضان خاصا للغاية بتازمامارت. في الساعة الثانية صباحا نحصل على مغرفة من العجينة، ثم يذهب الحراس إلي أهلهم بالريش ولا يعودون قبل الخامسة مساء ويوزعوا الماء والخبز والحريرة والقهوة. كان هذا هو النظام الغذائي: وجبتان عوض ثلاث وجبات طوال الشهر الأبرك. كانت الاغلبية الساحقة منا تصوم إيمانا

واحتسابا. بعضنا، وهو قليل، كان يكره على الصوم نظرا لانعدام الأكل، وثلاثة رفاق كانوا يفطرون بدعوى الشروط اللا إنسانية وسوء التغذية واعتبار الصوم في مثل هذه الظروف شبيه بالانتحار.

في اليوم الموالي جاءنا «الحمامة» و«فلاش» على حين غرة وطلبا منا تسليمهما أي شيء قد يضر بنا، لأن البناية ستخضع لتفتيش جديد يشارك فيه حراس البناية الثانية أيضا، وهكذا شارك كل الحراس يوم 23 يوليوز في التفتيش مما يعني أن الجميع كان على علم باستثناء المدير! لم يجدوا شيئا لكنهم عاقبونا بسحب «الماطلات» التي صنعناها من نشار الغطاءات والشعر وعلب الادوية التي تطلب جمعها مجهودات وسنوات ! اعتقد الحراس بأنهم نالوا منا أي منال وأن التفتيش سلبنا كل مانملك والحال أننا احتفظنا بثلاثة أجهزة راديو لمتابعة الاخبار ونسخ من القرآن الكريم للمراجعة في حال النسيان، والمرايا لجلب النور، خبأناها في ثقوب السقف أو في حفر حفرناها في جانب المراحيض.

يوم 12 نونبر كان يوما سعيدا - إلى حين! - لأن بعض الحراس أدركهم سن التقاعد وغادروا المعتقل للحياة المدنية، ويبدو أن المدير طلب الاحتفاظ بهم لأنهم عادوا بعد 3 أشهر من رحيلهم والحراس المعنيون بهذا القرار هم بن دريس، والسارجان شاف سعيد وباغازي والسارجان شاف أحمت الوقدمة لقرار نهائي في قضيتنا وعلامة على أن حالتنا ستحل بطريقة جماعية، لقد بدأوا بي وغدا سيأتي دوركم».

أعجب الرفاق بالحكاية والاجراء المتخذ من طرف المسؤولين باستثناء قلة قليلة خالفتهم التفكير معتمدة على الوقائع والتحليل المنطقي وقد كنت من هذه الفئة التي رأت في قصة الطويل حالة خاصة وحلا فرديا يلزم الطويل وحده وقد يفرج عنه الآن أو في تاريخ لاحق، وربما سيظل معنا سنين أخرى مع تمتعه بنظام خاص، والكل مرتبط بالظروف السياسية، بالضغوطات، وخصوصا بالتسوية مع المخزن. كل رفيق كان يعطي وجهة نظره، باختصار، وكل واحد كان يفكر بطريقته الخاصة انطلاقا من مزاجه. بالنسبة للمتفائلين لم تكن المسألة س

وكان الأهم هو المراسلة مع زوجته وابنه أمين المزدادفيطلة الصفريوي الذي عاب على الطويل ميزه ونعته ب «القوالبي»، رفض الطويل التهمة وأحس بالاهانة فطلب نقله الى البناية الاخرى لأسباب شخصية

وإنسانية وكانت تلك فرصة لتغيير المكان ومساعدة رفاقنا في البناية 2، امضى 24 ساعة فيها قبليئا رغم البحث المضني.

- ربما أكلها الجن والعفاريت.حكي لنا ما يسمعه في الإذاعات بحذافيره.

هكذا مرت أيامنا، تتأرجح بين الحزن العميق والضحك الطارىء. أحيانا كنت أبكي وأحيانا أخرى أضحك. أتذكر ما حدث ذات يوم للطويل. فقد جمع وخزن قطعا من الصالحكيم لليوتنان الزموري وهو رفيقه وخريج فوجه، الذي هدّأ من الغضب ولام رفيقه على هذا الغل والضغينة والتمييز الناجم عن بعلاء قد بدأوا فعلا يكرهونهم لادعاءاتهم ومغامراتهم الكاذبة ونفثهم للسموم وتجذيفهم وأنانيتهم. لقد كان علي ثرثارا يحكي باستمرار عن مغامراته العاطفية ونصبه واحتياله. كان يتحدث دون إحساس بذنب أو ندم عن غشه وعن خداعه للناس الطيبين .. مدحت الذي كان من المفروض أن يكون جديا، كان لا يكف عن الحديث عن مجونه واحتيالاته.

كان فيما مضى من الأيام، أحد المساعدين الأقربين لشخص أرجنتيني يتاجر في السلاح.

وهو رجل أعمال ناجح استقر في المغرب للاستثمار وإنشاء المقاولات، لكنه أجبر على الرحيل بسبب زوجته التي خانته وهربت مع عشيقها.

لم يستطع هذا المهرب الكبير الذي كان يبيع السلاح للجزائر في الخمسينات ولدول أخرى أن يتحمل الصدمة، لقد رحل بعد أن قال لمدحت:

«لقد كنت أخاطر بحياتي في العمليات الخطيرة من أجل إرضائها وتلبية مطالبها. فما جدوى كل الحياة الآن؟». أما بايزيد فقد كان يتحدث باستمرار عن الجن والكنوز المحروسة من طرف العفاريت. وقد حكى عن فقيه بالرباط زاره ذات يوم وأخبره بوجود كنز في الناحية، لكنه لا يستطيع استخراجه بدون بايزيد، لأن الطلسم الغامض للفقيه يرتكز أساسا على اسمه (بايزيد) الذي يمثل مفتاح السر. اقتنع بكلام الفقيه المشعوذ ودفع مقدما بضعة ملايين للفقيه من أجل الاستعداد وأبدى موافقته للنسبة التي طلبها الفقيه. وفي ليلة معلومة حددتها حسابات الفقيه توجها إلى مغارة على شط البحر. بدأ الفقيه في تلاوة كلام غامض وبايزيد يحفر في المكان المحدد. وفجأة، يقول بايزيد - ظهرت عدة أكياس فصاح مبتهجا فثار غضب الفقيه ولام بايزيد على كلامه، لأن

الكنز تحول إلى رمل! بعد ذلك، طمأن الفقيه بايزيد بوجود كنوز أخرى في أماكن أخرى، وطلب نفس المبلغ بعد أن ألح على بايزيد بالصمت وتعهد هذا الأخير بالتزام الصمت بعد أن دفع المال. ومن سوء حظه لم يمض شهر واحد حتى اعتقل، وجيء به إلى تازمامارت بمعية أخويه.

مضى عقد من الزمن وظل بايزيد يؤمن بهذه الخرافة، وينتظر الخروج للاتصال بالفقيه لإخراج كنوز القراصنة ويصبح غنيا.

لقد مضى عليهم 4 سنوات عندما كبرت شعورهم واتسخوا أكثر منا. لقد كانوا سليطي اللسان لم ينج من نقدهم لا المغرب، ولا تونس ولا فرنسا، لأنهم في الواقع مثل المرتزقة عباد المال. ما انفكوا يجذفون مما تسبب لهم في كراهية الآخرين.

لم تشهد 1985 أية وفيات، لكنها كانت سنة المرض الذي سينتهي بالموت في السنة القادمة، خلال سنة 85، بدأت صحة السوليوتنان أزندور بوجمعة تخونه. لم يبدأه الشلل فقط، بل فقد السيطرة على حركة أطرافه، حيث انفصل الساعد عن الدراع واختلت الأطراف السفلى. والواقع أن أعضاءه السفلى والعليا كانت تتحرك في كل اتجاه بدون تنسيق. كان من الضروري أن يطعمه أحد ما ويضع الأكل «مطحونا» في فمه لاستحالة الهضم واللوك! لقد كان المسكين جثة بدماغ حي تعاني من القبض الدائم، وأجبر الحراس على ترك بابه مفتوحا ليتسنى للرفاق المتطوعين مساعدته وتنظيفه.

لقد كان ذلك يتم بدون علم المدير الذي غالبا ما كان يتوجه إلى مكناس ليسهر وينادم، وغالبا ما استغل الحراس هذا الأمر وسلمونا أباريق إضافية من الماء أو تركوا الباب مفتوحا طوال الصباح حتى ننظف زنازننا ونساعد المرضى، ذلك لأنهم تأثروا للامتيازات التي كان يتمتع بها الطويل وحده.

وللأسف رغم المجهودات التي بذلها الطويل والرفاق الآخرون، توفي أزندور بوجمعة في 1986 . وقد كان الفقيد من قبيلة مغراوة بين فاس وتازة، أبوه رجل عسكري نقل الى مراكش، حيث حصل الرفيق على الباكالوريا ثم التحق بالأكاديمية العسكرية بمكناس سنة 1967 حصل على رتبة سوليوتنان سنة 1969 ، أدين في قضية الصخيرات بـ 5 سنوات سجنا.

صور أبنائي

كان للمذياع اهمية قصوى في المعتقل، بفضله نطلع على ما يدور في العالم، وقد كان بحوزتنا ابتداء من 1978 جهازان للراديو، وبعد مرور 3 سنوات حصل الوافي ومرزاق على جهازين آخرين، كان رفاقنا الأربعة يتناوبون على نقل كل ما سمعوه وما يدور خارج تازمامارت. ولا احتاج إلى القول إن التواصل كان مشفرا لصرف نظر الحراس المتطفلين، وقد كان لسعودي الباع الطويل في مجال الحكي، إذ عشنا معه، يوما بيوم مثل مسلسل تلفزيوني الثورة الإيرانية واحداث زيمبابوي واضطرابات ناميبيا، كان حشاد نؤوما يقتصر على برامج إذاعة الرباط لأنه لم يكن يسهر أو يستيقظ باكرا عكس الآخرين، كنا نعرف ان الحراس يتنصتون علينا بامر من المدير، لهذا انشانا شفرة تجعل كلامنا غير مفهوم. وتبين من بعد أن الحراس انقطعوا عن التنصت معتقدين أننا اصبحنا مجانين.

مرت ايام سنة 86 وبدات اعتاد تدريجيا على وجودي الجديد، اخفي مخاوفي وقلقي في اعماق روحي، لم تعد نظرات الحراس تتوجه إلي واصبحت بدوري غير أبه بهم، لقد صرت جزءا من الديكور وفرحت لكونهم نسوني، غرقت في ذكريات الماضي، اندهشت لعودة بعض تفاصيل حياتي الماضية واحيانا كنت اتنبأ بمستقبلي واتصور نفسي حرا، وقد كان هذا ياخذ بلبي الى درجة أن كياني كان يهتز لهذا الأمل، وكم ليال قضيتها سهرانا اعد قطيع خرفان في نفق ما لعلي انام، وكانت محاولاتي تبوء بالفشل، لأن الكثيرين منا جفاهم النوم، بعضهم يسعل بشدة أو يئن لفرط الألم، بعضنا الآخر كان يسهر ويدردش هامسا حتى لايوقظ النائمين، توالت الأيام ولم يحصل تغيير، اللهم بعض التبدل في موقف الحراس الذين اشمأزوا لتفضيل الطويل، كنا نقرا في اعينهم هذا الميز الذي يتمتع به زوج امراة امريكية، لم يخف عني أحد الحراس مشاعره وقال لي ذات يوم: لقد طلبنا من المدير وضع الطويل في مكان خاص، لأننا لم نتقبل اعطاء سجين دجاجة كل يوم في حين أن رفاقه يتناولون «البصارة». وقد أجابني بالحرف لادخل لكم في هذا قوموا بواجبكم وكفى. كان عليهم ايضا أن يتزوجوا باجنبيات حتى يتمتعوا بنظام خاص، من الآن فصاعدا غطوا طبقه، نعم نحن منفذون طيعون لكن ما يتمتع به الطويل يعني أن نساءنا بلا قيمة، وهذا يثير غضبنا.

تركت مخاطبي ينفس غلواءه لكنني كنت أعرف انه مستعد لتنفيذ أي أمر صدر من المسؤولين، لهذا أجبته بهدوء ومنطق «ليس كون الطويل متزوجا بامريكية هو الذي منحه هذا الامتياز، بل لأن المغرب خضع لطلب أمريكا لاسباب جدية وقوية. جاري الطويل أصبح بوابة لاتفاق محدد يرضي الطرفين، لكي يحصل المغرب على المال والدعم الامريكي لابد من تلبية طلب أمريكا، إن تحسين وضعه ليس هو المشكل بل المشكل هو اطلاق سراحه، وهذا معناه اطلاق سراح كل المعتقلين، ومن هذا المنطلق يصبح الامتياز والنظام الخاص حلا للمعضلة وهكذا الأيام».

وعلى كل كان من نتائجه غضبهم أن حصل نوع من الارتخاء والتساهل اللهم من جهة بن إدريس الذي ظل عدونا المعلن على عكس مولاي علي - ملك الموت على حد قوله - الذي أصبح صديقا تقريبا حيث اتفق مع الحمامة على ترك ابوابنا مفتوحة مدة طويلة او

السماح لبعض المتطوعين منا بتنظيف الكولوار بالماء مرة كل شهر دراء للروائح الكريهة للاوساخ. وانا متيقن جدا بانه لو لم يحصل الطويل على النظام الامتيازي لما وقع هذا التساهل.

قررت انا وغلول إعادة ربط الاتصال بالعائلات ونجحت خطواتنا الماكرة تجاه الحمامة، لقد اقنعت انا وغلول، منصت بالقبول بهذا الاتصال لفائدة الجميع، وبعد شهور من التردد استسلم «الحمامة» وقبل ان يقوم في بداية الامر برحلة الى القنيطرة من أجل الحصول على الدواء وثلاثة آلاف درهم لفائدة صندوق البناية لدعم المعوزين. ثم ان يقوم بعد ستة اشهر برحلة خاطفة للإتصال بعائلات اخرى شريطة ان يوضع ثلث المبلغ لفائدة المعوزين، وقد كان الاكتتاب إجباريا لأن رد الفعل إذا حدث سيمس الجميع، في تلك الفترة كنت أعاني من التهاب رئوي حاد وأسعل كثيرا، لكن ما كان يقلقني أكثر هو الحمى الدائمة التي تذيب جسدي. كنت أتصبب عرقا وأحس بالنار في صدري وأسعل ليل نهار متسببا في ازعاج النائمين. في البداية كنت أتحرك بصعوبة لاستيلام حصتي من الماء والطعام الذي يضر بأمعائي، بعد ذلك بدأت أزحف باذلا مجهودا جبارا حتى لا أسقط في فخ الجمود الذي يشل الجسد. خشيت من تفاقم حالتي فصنعت من قطع غطاءاتي وملابسي وبعض ملابس رفاقنا الموتى شبه مخدة أضعها على صدري لعلها تقيني من البرد، وأصبت بإسهال حاد أجبرني على ارتياد المرحاض في كل لحظة، وكنت أقذف ما يشبه الماء الساخن، ثم لاحظت سائلا لزجا يثير الاشمئزاز يشبه القيح، فقبلت عرض «الحمامة» وحشاد القاضي بشراء الدواء المضاد للإلتهاب والإسهال على أن اتخلى عن الاتصال بالعائلة وأؤجله الى تاريخ لاحق، قبلت لانقذ نفسي وقد كنت على صواب، خصوصا عندما أفكر في آلام الآخرين وفي لغلو الذي ظل مشلولا ونائما على جنبه الأيسر منذ 1978، وفي بن رضوان التيجاني الذي خبا مثل شمعة. وعندما كان السعال يستبد بي كنت أحس بخوف شديد من الموت يعتريني.

حصلت على الدواء ورضي الجميع بمن فيهم رفاقنا في البناية 2 الذين حصلوا على المال والأدوية.

تابعنا خلال هذه السنة اقصائيات كأس العالم بمكسيكو وأحسسنا بالزهو والافتخار لما حققه فريقنا الوطني الرائع، آه لو كان فريقنا يدري أي مشجعين كنا، وأي جمهور كان يصفق له ويشجعه من الاقبية!

كان الصفريوي عبد العالي (رقم 4) يشكو منذ مدة من آلام في البطن، وبالرغم من الأدوية المرسلة من طرف عائلته في 1987 فقد استمرت الآلام وانتفخ بطنه، فقرر أن يرسل بواسطة الشويبني عينتين من فضلاته وبوله وضعهما في انبوبين معدنيين - حتى تحيلهما العائلة على مختبر طبي لتحليلهما! نصحته شخصيا بصرف النظر عن هذه الفكرة، لأن الشويبني عجوز ماكر وفضولي وسوف يفتح الأنبوبين لامحالة ليرى ما فيهما، وعليكم أن تتصوروا موقفه عند ما يرى فضلات بشرية سيعتقد أنها مزحة سمجة وسيغضب لامحالة ويرمي بالكل بما في ذلك بريدنا.

ومن جهة ثانية اعتبر فالا سيئا إرسال أشياء مقرفة، بعد أن عارض الرفاق أقوالي أبديت تخوفي من ضياع الاتصال المرتقب، والحال أن الشويبني بعد عودته من عطلته فوجئ وهو يرى أشياءه ومتاعه قد نقل الى مقهى أحد أصدقائه بأمر من المدير، ولم يعد له مكان في المعتقل. لأنه استغل فرصة ثقة المدير استغلالا سيئا، فسرق جزءا من غلة الضيعة وباع وقود جرارات مديره... وبسبب هذا فقد الصفريوي رسوله.

تميزت سنة 87 بمزيد من التساهل من جهة الحراس، مما سمح لرفاقنا برؤية بوريكات

الذين وجدوهم في حالة يرثى لها. واكتشفوا أن الاخوة الثرثارين الادعياء مجرد أقزام مشوهين جسديا ومختلين تقريبا بسبب الاعتقال. لقد تحدثوا عن علاقاتهم مع الدوائر العليا وقضايا تخل بالحياء في أوساط العائلات الارستقراطية، لكنهم تفادوا الحديث عن سبب اعتقالهم، وقد تبين لي فيما بعد انهم لم يتحدثوا أبدا عن محاولة فرارهم سنة 1976 من «سجن / بوان فيكس 3» الرباط بمعية عقة ورفاقه، ولاعن لقائهم الصدفوي في نفس المكان مع المجرمين الفرنسيين الاربعة الذين شاركوا في اغتيال الزعيم المهدي بن بركة.

كثيرا ما جاء الليوتنان كولونيل (ف) من أجل التفتيش والمراقبة، لكنه في يوم 22 شتنبر 85 قام بزيارة خاصة لمقابلة الاخوة بوريكات، حيث أخرجوا، بالتناوب الى الساحة حيث استنطقهم الضابط القادم، بعد التحقيق عادوا الى الكاشو وظلوا صامتين مدة طويلة، في المساء نادى علي أخويه ليتاكد من وحدة تصريحاتهما كما هو متفق عليه.

وتبين بان بايزيد أخلف وعده ولم تعجب شهادته أخويه اللذين بدأ يوبخانه وينهرانه وتبين من حديثهم أنهم يؤاخذانه على ما قال فكان يرد دفاعا عن نفسه «أنا بريء وبسببكما أوجد هنا في السجن. لقد كنت طوال حياتي تاجرا ولم أمارس أعمالا مشبوهة... لقد اغرقتموني في أحابيلكم».

عرفت السنة وفاة جديدة حيث فاضت روح «القادم الغامض» يوم 10 اكتوبر 87 بعد أن عاش في عزلة تامة والصمت المطبق. كانت السنة في البناية 1 سنة بصيص الامل، كما كانت سنة السعد بالنسبة لي منذ 1973. إذ لمع نجمي وحصلت على اتصالي مع العائلة وعندما سلموني الرسائل ارتعشت يداي ولم أستطع القراءة لضعف بصري. قرأ الطويل الرسالة واغرورقت عيناي بالدموع. وبكيت في صمت وأنا أنظر الى صور أبنائي الذين لم أتعرف عليهم. كبروا وقد تركتهم أطفالا صغارا. وبالرغم من أنني لم أتبين ملامحهم بوضوح كبير فقد لاحظت الحزن في نظراتهم مما ينبئ بانهم عانوا أكثر مني.

حدثتني زوجتي في الرسالة عن أطفالي، عن أمي وعن نفسها، وكم كانت سعادتي كبيرة وأنا أعلم بأنها احتفظت بعملها لتربية الاولاد وبلغت سعادتي أوجها لما علمت أن ابنتي إلهام تتابع دراستها الجامعية في كلية العلوم وابني يشتغل في وزارة الصحة، قلت في نفسي: تبا وماهم ما وقع لي أو سيقع مادام أبنائي كبروا وانهم وصلوا الى بر الامان.

انتظرت الى أن تسلل الشعاع المنعكس على المرآة وبدأت أقرأ بنفسي الرسالة. كنت أقرأ وقلبي تتسارع نبضاته ودموعي تسبقني، شردت في أحلامي صامتا فتقاذفتني الاحزان أحيانا والذكريات الجميلة أحيانا أخرى، فرح الرفاق لهذه الاتصالات حتى أولئك الذين لم يتوصلوا بانباء عن عائلاتهم، باستثناء صدقي عبد الرحيم الذي انهار عصبيا ولم يقبل باي تفسير أو تبرير. وهددنا بإفشاء السر للحراس الآخرين. رغم توسلات أصدقائه والذين لم يحصلوا على شيء أبدا، أصر على موقفه فكان علي أن أواجه الحديد بالحديد والنار بالنار فلجأت الى الخدعة قائلا: «اسمعوا أيها الرفاق لقد أرهقتنا أنانية البعض الذي يفكر في نفسه فقط. إنها المرة الاولى التي أربط فيها الاتصال منذ سنين، وهناك من لم يربط اتصالا قط. في حين أن صدقي توصل 3 مرات ببريد العائلة، أنا حققت هدفي الى الجحيم وليس لدي ما أخسره لأنني محكوم بالمؤبد، إذن سافضح الكل وأقول للحراس بان صدقي يملك ترانزستور والمال وأنه ربط اتصالا مع الخارج يكشف فيه رعب تازمامارت.

بعض رفاقي المتبصرين فطنوا للعبتي ومثلوا أدوارهم بإتقان حين ترجوني وطالبوني بالعقلانية والرصانة، وعندما حل منتصف النهار وجاء وقت توزيع الطعام لم يبح صدقي بشيء للحراس.

وكما اتفقنا اخذ حشاد إدارة عمليات الاتصال لأنه وضع 3 آلاف درهم في صندوق البناية، فبلغ الرسل بطلبات الرفاق ثم قام بتوزيعها بعد الحصول عليها.

لم يسبق للبناية ان كانت بمثل هذا التنظيم، لاننا في الواقع «كمونيين. مانعطيوا الريحة حتى نتحكوا » اما انا فقد كان لتوصلي بانباء عائلية بمثابة البعث والراحة الذهنية، فقررت العناية بنفسي وعدم الاستسلام للاهمال، فاصبحت، باتفاق الجميع، المفاوض الوسيط بين الحمامة ورفاقنا. وفي هذه السنة قرر الحراس غرس اشجار مثمرة، واعتبرنا ذلك مبادرة شقية احزنتنا كثيرا، لان معنى هذا انهم ينوون اكل ثمارها ومعناه كذلك ان مقامنا سيطول في السجن، لقد غرسوا شجرة زيتون وشجرة مشمش وشجرة لوز وشجرة تين، والانكى هو شجرة الثمر مما يدمر معنويات جيش بكامله وينفد معه صبر الجمال، وهيئت المساحة امام باب بنياتنا لزرع الخضروات لان سعر العيش ارتفع وعم الغلاء.

في هذه السنة ايضا قرف لغلو من ابتلاع المضادات الحيوية والمقويات والفيتامينات بلا نتيجة، فطلب مني ومن غلول التدخل لدى الرسول لكي ياتيه بدواء تقليدي يصنعه عشاب مشهور في منطقة تافيلالت، قبل «الحمامة» بعد تردد وبعد ان وضع المال في جيبه. بعد شهر حصل المريض على مراده، وهو دواء مصنوع من 84 نوعا من انواع العشب مخلوطة بالعسل والتمر والسمن. وبما ان العديد من السجناء الطيارين لم يسبق لهم ان راوا لغلو فقد اغتنمنا الفرصة وطلبنا من الحارس ان يدعهم يزوروه، ولما لبي الطلب فجعوا لما رأوه من فظاعة، كانوا يتوقعون وجود كائن بشري ممدد ارضا، لكن لغلو كان مجرد هيكل عظمي بلا حياة تقريبا او قل ركام عظام مشوهة، بوجه مشوه وعينين غائرتين، كان لغلو يحمل في يده شمعة لعله يرى الزوار او يتعرف عليهم، لكنه من سوء الحظ لم يدرك ذلك، تسمر الزوار في اماكنهم مذهولين للمنظر الفظيع، لما سالته إن كان قد تعرف على الواقف امامه، فاجاب بالنفي فتدخل حشاد قائلا: «اهلا لغلو هل نسيت وجهي بهذه السرعة؟» انفجر لغلو ضاحكا وقال له: «لم تعد حشاد الذي اعرفه، انك اشبه ما تكون بذلك العجوز الذي يقود العربة في الفيلم التاريخي المصور في المغرب سلومبو *salombo*».

المعجزة التي لم تكتمل

جيء للغلو المشلول بدواء تقليدي، وتوجه الرفاق المتطوعون لرؤيته وطلب الذين لم يسبق لهم أن التقوه زيارته. فكان لهم ما أرادوا.

فغر فاه كل من رآه وتملكني الانطباع أن الرفاق المذهولين يشبهون المنومين مغناطيسيا. هالهم المنظر الفظيع لحالة المريض وجسمه الذي أنهكته الثقوب الناجمة عن الجراح المتقيحة، بدا المسكين لغلو مثل

«شرويطة» بشرية، رغم أن هذا الرجل المسلح بشجاعة تفوق قدرة البشر ورغبة لاتقهر، كان مفعما بالايمان والامل، ثقته في العناية الالهية لاتحد، ينتظر المعجزة، سألني حشاد خلسة وبنبرة حزينة:

- انت من عرف لغلو قبل المعتقل، صفه لي؟

اجبته بعد تنهيدة طويلة:

- كان وسيما للغاية، صبوحا، فاحم الشعر، ابيض الاسنان تشع منها الابتسامة ساحرة.

فجاء رد حشاد حزينا: «لقد جعله نظام تازمامارت شخصا ذميما وإذا قدر لنا وطال مقامنا فسننهار أكثر من لغلو».

كان هذا الاخير يتناول دواءه بانتظام وبعد مضي ثلاثة اشهر حظيت بفرصة مشاهدة معجزة طال ترقبها، حدث ذلك ذات يوم بعد تنظيفه وعلاجه، إذ ناداني غلول:

- هل تريد رؤية معجزة؟ ومشاهدة «منظر سيطربك؟» ولما رأى حيرتي ودهشتي واصل قائلا: «ادخل لتر لغلو وعدني بألا تحدث أحدا بالموضوع، لأنني أريد أن أفاجئ الرفاق بمفاجأة كبيرة، دخلت الزنزانة رقم 2، فاندهشت وطار صوابي، خلت أنني أحلم، جحظت عيناي وشردنا وأنا أرى لغلو جالسا القرفصاء فوق بلاطته، يحرك أعضاءه حسب هواه. تبعني غلول وسلمه مكنسة وأمسك بكتفه: «هيا أيها الخامل، لقد زفت ساعة النزهة»، بذل المريض، وهو باسم، مجهودا خارقا ليقف وحده وبدأ يخطو ببطء خطوات شبيهة بحركات الروبو أو حركات امسترونغ على سطح القمر، كان المنظر غير قابل للتصديق، إن لم يكن مستحيلا. فرح غلول مثل طفل، ثم خاطبني وهو يفرك يديه: «انظر جي كي كا jQk هذا ما يسمى بالارادة والصبر، كنت دائما أقول أن من يريد يستطيع»، لاتحزن، قريبا سيمشي «الشليح ديالنا» كما يحلو له، أنا متيقن...»

ومن سوء الحظ أن المستقبل كان يخبئ لنا مفاجآت غير سارة بينت أن كل الجهود تذهب سدى. ذلك أن «الحمامة» غادر المعتقل بسرعة، وبشكل مفاجئ ونهائي، ولم يستكمل صديقنا علاجه، وراح ضحية إحباط بسبب انقطاع الاتصال.

خيم اليأس مرة أخرى على البناية، ولم يمض أسبوعان حتى عاد لغلو الى وضعه الاصلي... الى الابد. ولأنه كان عاجزا على مقاومة الدورة الثابتة لطعام قليل وغير نظيف ولدواء غائب وشمس نائية، بدأ لغلو يحتضر مثلما تجف شجرة بها قشرة اسودت بفعل تقلبات الجو والزمن

وهي تنتظر ساعة الموت. والمثير حقا في هذا الرجل، أنه، حتى وهو في أحلك الاوقات، لم تنم عنه أية صرخة أو صدرت عنه تنهيدة، كان المسكين يكتم الامه ومكابداته في أعماقه حتي لايحزن رفاقه، لم ينهزم أبدا والحال أن الحياة في تازمامارت شبيهة بسد، لابد للمعتقل من فتح السكور (محور لتصريف المياه).

حتى ينخفض مستوى ماء الالم، وإلا تصدع الجدار، وكان ذلك هو الخطأ القاتل للغلو،،، بعد أن هزل وضعفت مقاومته للبرد القارس وللصوت النافذ للأبواب الحديدية والصدى، أضحى المريض الاعزل وجها لوجه مع قدره الخاص الكئيب.

لقد كنا جميعا ضحايا التلوث السمعي الذي مثل مشكلة حقيقية لنا، فيما أن الموقع الجغرافي لتازمامارت ووضعه وسط الجبال، فإن السقف المزدوج للبنايتين المصنوع من القصدير كان يهتز باستمرار لحركة الرياح او يعكس صدى التساقطات مما يفرض علينا صمتا تطول مدته أسابيع طويلة، هكذا يتعذر علينا الاستماع الي بعضنا البعض وإن كنا ننسى مؤقتا أنين رفاقنا المرضى وضرب المجانين للابواب، شخصيا كثيرا ما أصابني الصداع بسبب التقيح في الاسنان الذي يثير أعصابي 3 و 4 أيام أقضيها متألما وجائعا، مقابل هذا كان بعض الشجعان منا يطلبون من الحراس أثناء الوجبات السماح لحشاد بنزع السن المصابة، وكان يقوم بذلك مستعملا السبابة والابهام وعندما يتعذر ذلك يلجأ الى قطعة خيط..

وزيادة على الامراض المذكورة أعلاه، ظهرت البثور والدمل على أجسادنا ولم أنج أنا أيضا من هذه الظواهر، فقد تفتقت البثور في جسدي كله ورأسي وتضخمت الغدة الدرقية (كواطر = سلعة)، وأجبرني الروماتيزم علي المشي منحنيا بعد أن نفخ مفاصلي التي تسببت لي في آلام حادة ودائمة كلما هممت بالحركة.

كانت أمراضي تلزمني «الفراش» لمدة طويلة وياما حدث أن عجزت عن الحركة، أيام البرد القارس، فكنت أقضي حاجتي في سروالي.. ولم يكن الذين يتبولون في سراويلهم يخفون ذلك، لأنه لم يكن بيننا سر.

وكثيرا ما كانت آلامنا مصدر ضحك وتفكه، فقد حدث أن خاطبني بوحيدة الذي كان ينطق السين شينا قائلا

- أتعرف، البارحة لم يغمض لي جفن، لأنني جي بيشي، كرانط شي فوا» (تبولت 46 مرة)!

- هل لي أن أعرف السبب؟
- لقد انتفخت «حلي العائلة» وصارت مثل بيض النعامة،
- لماذا لاتصنع منها «أو مليت»؟
- انت تمزح لكن أعرف أن ذلك يحزنك»

وقد كان على حق، لكن ذلك لم يمنعنا من الاستغراق في الضحك، بعد وفاة الصديق ميلودي الرجل الغامض يوم 87/10/10 دون أن ينبس بكلمة، عادت الامور الى نصابها في البناية أ واستمر شراء الدواء بالتناوب، وكلما سنحت الفرصة كنا نغتنمها لقص شعورنا من طرف حلاقينا المفضلين بوحيدة وشاوي، ونرتق نعالنا من طرف الاسكافي مجاهد وحياكة صدريات وتبانات وأقمصة وطاقيات وجوارب عند الخياطين ماغوتي، غلول وشاوي وحشاد وبوحيدة، وكل هؤلاء قدموا خدمات حبا في الله لايحبون جزاء ولا شكورا. شخصيا لم أكن أجيد شيئا على المستوى اليدوي. لكن مهمتي كانت تكمن في خلق لحظات استرخاء كإعادة سرد الافلام أو النوادر أو رفع معنويات الرفاق.

حدثت حركة كبيرة في المعتقل مما لم يكن في صالحنا، فقد نقل «الحمامة» وأحيل مولاي علي على التقاعد بسبب السن وحل محله حارس كنا نخشاه لقسوته وصرامته ولقبناه سير - فير. عم اليأس من جديد وخبا أمل أكثرنا تفاؤلا. لكن شاءت الصدفة أن تفاقم إصابتي بالسعال الى درجة أصبحت تهدد حياتي، وبالرغم من كوني لست بمقامر أو لعب بوكر فقد اتخذت قراري بطرح كل أوراقي (طابي) فغضضت الطرف عن كل الاحتمالات ودسست ورقة من فئة 50 درهما وورقة كتبت عليها «سيموكلين» في يد الحارس الجديد، تردد (سير فير) هنيهة وأخذ أمانتي وذهب، فبدأت أنتظر أسوأ الاحتمالات وأنا على أحر من الجمر، طرحت ثلاث فرضيات: إما أنه سيخبر المدير بحثا عن مكافأة، أو أنه سيأخذ المال دون أن يأتي بالدواء أو أنه سيقوم بالمهمة دون تعليق وقد كانت حظوظ الفرضية الثالثة ضئيلة للغاية، في يوم الغد، ساعة توزيع الماء، نفد صبري وتسارعت دقات قلبي حتى خلت أنني سأسقط مغشيا علي، فجأة فتح باب الزنزانة وفوجئت وأنا أرى الحارس يسلمني المضادات الحيوية. لقد تصرف معي باستقامة حيث سلمني الدواء واحتفظ ب 15 درهما لنفسه. بعد مرور أسبوع خفت إصابتي ولاحظ كل زملائي تحسن حالتي، كنت سعيدا بمغامرتي وسرعان ما وضعتهم في الصورة.. وقد طلب مني الحارس أن أخبرهم باستعداده لشراء الادوية لفائدتهم شريطة

التزامهم بالسرية درءا للخطر، مع ذلك ظل العديد منهم حذرا وطلب مني القيام بالوساطة وقد مضى على زمن طويل أسلمه المأمورية ثم أعمل على توزيع البضاعة بعد التسليم.

عرفت البناية الثانية بدورها بعض التغيرات لعل أهمها تقاعد باغازي وتعويضه بالسارجان أحمد العملاق لطول قامته ومشيته المتهدلة وصوته الاجش، وقد كان أحمد الغول من منطقة البرانس بتازة، درس في الكتاب قبل التحاقه بالجيش، ورغم إيمانه وشدة تدينه فلم يمنعه ذلك من دفن موتانا بلا غسل أو وضوء أو تقديم المساعدة لمن هم في حاجة إليها.

هكذا دخلنا سنة جديدة وكلنا أمل في تغيرات لفائدتنا، واحتفظنا بالامل المترنح مثل شمعة تتراقص في مجرى الهواء، كنا ننتظر المعجزة ونحن ملتفين في غطاءاتنا المهترئة، قارئين للقرآن، ناسين الشتاء القارس الذي شل أطرافنا دون أن ينال من إيماننا، منذ سنة مضت وريح الامل يهب من ناحيتنا، وأحسست أنني أسبح في اكسير افراح قريب ورأيت نفسي في المنام أفر من المعتقل سابحا في الاعالي نحو جزر غريبة ساحرة تغمرها الشمس وتزينها الطبيعة. وكنت أستملح هذ الحلم حتي بعد اليقظة وأظل في أطيافه أتجرع كؤوس حريته المنعشة.

في تلك الاثناء استغل امبارك الطويل خرجاته الطويلة الي الساحة أثناء قراءة البريد أو كتابة الرد على الرسائل، وأقنع أحد الحراس بربط اتصاله سريا مع زوجته نانسي (ثورية)، ذلك لأن الرقابة كانت تمنعه من قول كامل الحقيقة عن المعتقل، لقد اقتنع بأن عليه أن يكف عن الكذب علي نفسه وزوجته، فقرر قول الحقيقة، كل الحقيقة في الرسالة السرية، وقد وصلت رسالته الى الولايات المتحدة دون المرور بالقناة الرسمية بواسطة زوجة أحد المعتقلين، تمت العملية برمتها دون علمنا، لأننا فقدنا منذ نهاية 1987 أي اتصال بالعائلات، فعمد الطويل وشريكه بلكبير الى خرق بنود الاتفاق بيننا مما أثار ذلك حفيظة الجميع الذين اعتبروا الامر خيانة، اطلعنا على الامر بعد وقت طويل، بعد أن أخبرنا «المبعوث» نفسه بسبب غضبه من الاستقبال الجافي الذي قابلته به العائلة وهزالة المبلغ الذي تسلمه. نعتنا الطويل ورفيقه بالمتواطئين والمتامرين والانانيين، أدرك الطويل خطأه بمحاولة للالتفاف على رفاقه وحاول فيما بعد إصلاح نفسه عبر ربط اتصال لفائدة الجميع، وقد كان يعلم بأن أدنى حركة غير محسوبة يمكن أن تؤدي الى الوشاية به، والحق أنني كنت أول من يفعل ذلك لو أنه حاول أن يخدعنا من جديد!

كي يهدئ من غضبنا وعدنا بالقيام بالواجب مع «المبعوث» السري لربط اتصالاتنا في الشهور القادمة، وكدليل على حسن نيته أقنع مبعوثه وبا أحمد بترك أبوابنا مفتوحة زوالا خلال تنظيف ومعالجة لغلو ومن حسن الحظ أن مدير السجن نسي إعطاء أمر مضاد لوقف العلاج.

بدأت العجلة تدور، مرت سنة 88 بسرعة لأننا كنا منكبين على بلورة تاكتيك جديد لنيل تعاطف الحراس، باستثناء بن دريس الذي ظل بلا ترويض، ومن حسن الحظ أنه كان مجبرا على الغياب بسبب مرضه العضال.

شهدت البناية (2) نفسها بعض التساهل بفضل حارس عطوف بذل مجهوده لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وبالرغم من يقظة أحمد «الغول» استطاع مد المرضى بالادوية وقليل من الصابون وقطعة من الفروماج للواحد. حاولنا بواسطة الطويل ومبعوثه السري أن نمدهم بالمال والعديد من «الاشياء» مثل الفيتامينات والمرايا وعلب الجبنة و «الصناعة المحلية» لاننا كنا متقدمين عنهم أرسلنا إليهم مقصات بدائية مصنوعة من علب السردين والحليب التي رمي بها الطويل واستعادها الشاوي، وقد كان الحراس قد سئموا الروتين ونال منهم تعب السنين فطلبوا من رفيقنا هذا أن يوزع الوجبات ويغسل الطناجر بدلهم، وبعد أن كنا نكتفي في السابق بأشواك النخل أو سلك الحديد نرتق بها الملابس أصبح بإمكاننا فيما بعد أن نرسل إليهم إبرا حقيقية!

بفضل هذا التساهل أصبح بإمكاننا أن نلتقي في الكولوار رغم أن الضوء الشاحب كان يمنعنا من تبين ملامح بعضنا، ومازلت أتذكر اليوم الاول للقائنا بعد سنوات الظلام، حيث عانقني السعودي معتقدا بانني بلكبير وحياني قائلا: «بونجور مون كابتان» لقد تغيرنا كثيرا وصارت الاصوات وحدها طريقتنا في التعرف على بعضنا، تأملت هؤلاء الرجال وهم يبحثون عن حرارة إنسانية تقلص من المهم، بعضهم بكى فرحا للقاء رفاق البؤس، دهشت لشجاعة ومثابرة أصغرنا سنا، الذين حافظوا، رغم شيخوختهم المبكرة على ابتساماتهم الرائعة.

التقينا في الكولوار، إذن، وعَنَّ لي أن أختبر إيمان البعض منا، سألتهم فيما يشبه الاستنكار : «لقد نفدت عقوبتكم منذ مدة طويلة ومازلتم تعانون بدون وجه حق رغم أن الله رحيم بعباده فلماذا يعذبكم؟» أجابوني كلهم : «إن البشر هو الظالم الغاشم، يستعمل سلطته في

القضاء على إخوته»، وحاججتهم عمدا «لكن الله علي قدير ويمكنه وقف الظلم؟»، أجابني أحدهم : «أنت على حق، لكن الله يمهل ولا يهمل. فهو يترك للجائر وقتا للتوبة وإصلاح النفس، ومن جهة أخرى يختبر إيماننا وقوة عقيدتنا. وأيا كان قدرنا فنحن نرضى بمشيئة الله، والله لا يضيع أجرنا في هذه الدنيا أو في الآخرة. وإذا خسرنا هذا العالم سنربح الجنة». أصغرهم سنا أجابني بابتسامة صادقة : «بالنسبة لي تمثل تازمامارت مدرسة تعلمت فيها التفكير والصبر والرضى بالقدر. وعلى كل، فمادمت هنا لن ارتكب المعاصي التي تغرينا في الخارج من ملذات ومحرمات وأفعال شيطانية».

كل هؤلاء المعتقلين كانوا صادقين فيما يقولون لأنهم ربحوا روحيا أكثر مما خسروا . والآن، ابتعدوا عن طريق الضلال.

في المعتقل كان دليل الزمن الوحيد في يدنا هو زقزقة الطيور وآذان الصلاة ومجيء الحراس وتوقف محرك الكهرباء في المعتقل. كانت العتمة تجعل كل الأشياء تتحرك أمام أعيننا باستمرار. وبالكاد كنا نتبين ملامح الوجوه. لما خرجنا إلي الكولوار لاحظنا نفس العطانة التي تفوح في الزنازن ونفس الأوساخ تغطي الجدران وتغطي أجسادنا لتنضاف إلى الرائحة النتنة المنبعثة من أسمالنا وأظافرنا التي نبتت فوق بعضها وانغرزت في لحمنا، لقد انتبهنا إلى أننا نمشي مثل العجزة، ومنا من لا يستطيع حراكا، اكتشفنا أن مرزاق كان يمزق ملابسه ثم يرفوها من جديد، تجزية للوقت.

كان خروجنا الوجيز إلى الكولوار يسمح لنا برؤية أصدقائنا وتبادل الآراء بيننا. حدث مثلا أن أحد أصدقائي المجربين الناضجين أسر لي بالقول : «شخصيا لا أريد الخروج من المعتقل بعفو».

سألته : لماذا؟

أجابني : «ما الفائدة من الخروج لرؤية الشمس وقد دمرنا وأهننا، لن تهمني الشمس أو الهواء إذا كنت سأفقد حقوق المواطنة.». عقبت على الفور.

- «إن الخروج يعني الافلات من الموت القاسي ومعاشرة الأحياء وقد جئنا إلى العالم من أجل الحياة وليس من أجل البقاء رهن الاعتقال.». قاطعني بحدة: «إذا كان علي أن أخرج ذات يوم لكي أتسول وأعيش عالة على عائلتي، بلا مورد عيش أو تعويض، فأنا أفضل أن أقضي هنا في تازمامارت، لست متشائما وأنا أؤكد أننا سنغادر هذا المكان عاجلا أم

اجلا، وستعرف انني كنت على حق»
وحصل ماتنبأ به، إذ بعد سنوات أصبحت حرا والتقيته سنة 94 في احدى المدن الكبرى، وقلت له بأنك كنت على حق لأن الحرية بدون حقوق ولا وسائل عيش أنكى من التسول.
وفي سياق الحديث عن الآراء الحميمية المتبادلة، سألت أحد الضباط المتورطين في قضية الصخيرات عن رأيه في الأنظمة السياسية في العالم، فكان رده انه ضد الانظمة الدكتاتورية ورغم انه متهم بانقلاب ،فقد قال : «أنا ضد جمهوريات الحزب الوحيد ومع الملكية في المغرب لانني اجد فيها متسعا لحريتي، حيث لايفرض عليك لا التطبيق الصارم لفهم ديني، ولا ايديولوجيا معينة كما في الدول الاشتراكية. وعموما انا مع نظام ليبرالي...» مضت سنوات والتقيته سنة 1994 بالرباط ووجدته على ارائه، يبحث عن السلم والحرية ولا يبحث عن حقوقه.
اغتنمت نفس الحميمية في الكولوار وسألت أحد رفاقي كان يدلك رجليه بقطعة شحم عم سيفعله بعد الخروج، فأجابني بلا تردد: سأعيش وحيدا في الجبل، بعيدا عن المجتمع لأنني لا أريد أن أخدع مرة أخرى وانا لعلمك مازلت أتساءل لماذا أدنت بـ 3سنوات سجنا ودفنت هنا ولم اكن على علم بشيء؟».
- لكنك مولت الطائرات بالاسلحة
- لقد اعتدت ذلك يوميا دون أن أعرف مهمات الطيران، انا مجرد سارجان ينفذ الأوامر».
- رغم أننا لم نربط أي اتصال سنة 88 لكن الظروف كانت إيجابية لأن الطويل تقدم في مساعيه حيال الحارس الذي بدا مسحورا بالمال لكنه يتردد. لقد كان في حاجة للنقود لاستكمال بناء منزله، لكنه كان يخاف المخاطرة. أما «سير فير» فقد ظل عمليا في مايخص العمليات المحلية رافضا السفر بدعوى الجهل. وحصل أن فقد الوافي كل اسنانه فسلمه «سنين من الذهب» لبيعهما لصائغ وشراء أدوية لعلاج الكبد، وبطاريات للمذياع والجبنة لمقاومة الجوع. قام بما طلب منه الوافي، وكان ان العديد من الرفاق فقدوا بفعل الهزال جسر اسنانهم (بريدج)، منهم بلكبير الذي سلمني جسر أسنانه لأسلمه للحارس قصد بيعه. وقد كان بلكبير قد عزف عن القيام بالعملية شخصيا لأنه كان يعرف أن الحارس مخادع سبق له أن خدع صدقي، بعد أسبوع جاءني الحارس وخاطبني قائلا: «إن الجسر الذي سلمتني لايساوي شيئا، لأنه من الفضة وليس من

الذهب مثل ماهو طاقم الوافي».
أجبته: اسمعني ياصديقي لاتحاول خداعي، ليس هناك في العالم من يضع طاقما من أسنان مغلفة بالفضة لاسيما قبطان!»
- لكن الذهب أحمر.
- إن الجسر الذي سلمتك من الذهب الأبيض وهو أغلى من الذهب الأحمر فرد متظاهرا للمفاجأة «لم أعرف هذا من قبل أبدا، لقد أراد الصائغ خداعي، سأعود إليه وأوبخه.
- لنقل أنك أنت الذي أراد خداعنا، حذار.
- لا تغضب يا «زيد شوية» (وهو اللقب الذي أطلقوه علي بسبب شراهتي في الأكل) ، غدا سنلبي طلبك. وكذلك كان.
ذات ليلة من ليالي الصيف الخانقة، والبعض نائم والآخر يرتل القرآن بصوت خاشع تتخلله حشرجات البكاء، في تلك اللحظة تعالت صرخة حادة هزت كياننا وارتعدت لها فرائصنا، كانت صرخة لغلو المشلول الذي سقط فجأة من على البلاطة، لأن المتطوعين الثلاثة الذين عالجوه ونظفوه مساء نفس اليوم نسوا وضع السندات الجانبية التي تمنع سقوطه، قبل وقوعه صاح المشلول بكل مافيه من قوة : «وداعا يا إخواني»، ثم أغمي عليه. ناديناه، ولا حياة لمن تنادي، فبدأنا نضرب الأبواب بقبضات أيدينا ونحن نصرخ «النجدة». ومضت نصف ساعة قبل أن يدخل الحراس إلى البناية. حكينا لهم ما جرى وطلبنا منهم فتح الباب بسرعة لإنقاذ المعتقل، لما فتحوا باب الزنزانة 2 وجدوا لغلو جاثما على الأرض وسط بركة ماء سببها سقوط الدلو. عزفوا عن الدخول بسبب الرائحة وطلبوا من بوحيدة وغلول والشاوي رفع المريض، في تلك الأثناء غضب السرجان موحا القادم الجديد الذي عوض أحد المتقاعدين وصرخ فينا : «جبتونا في نصاصات الليل على ود محابسي طاح من ضالتو، الحماق هذا» تعالت الأصوات، هذاك راه بنادم وبشر اموحا وانت مسلم وعليك تسلكوا». رد موحا وقد جرح كبرياؤه : «واش مايمكنش تستناوا حتى لصبح علاش هذا الغوت على ود محابسي مشلول!»
أجابه أحدنا : «هذاك راه مشلول من 78 عشر سنين هذي ويلاخليتوه مرمي في الما غادي يموت».
كان جوابه الأخير: داكور اسيدي ولكن ماكانش عليكم اديروا هاذ الغوت .. أنا راه شت شحال اديال الناس كايموتوا قدامي كلاوهم الضباع. ماشي غير انتوما اللي كاتموتوا».

انهي رفاقنا عملهم ورحل الحراس صامتين باستثناء حمو الذي غادر البناية مزمجرا، وقد كان موحا هذا أحد المحالين الجدد على السجن وسائق المدير أيضا، ربما شهد في حياته موتا كثيرا فاصبح لايهتم لمنظره، وكم أجبرنا على تحمل سخريته وقساوته المرة أثناء توزيع الطعام، إذ كان يأمر السجناء المرضى بقوله: « نوض الفنيان اللي بغا ياكل خصو ينوض ليها». وحدث أن دار بينه وبين أحد المرضى الحديث التالي بعد أن امره بالحركة :

قال المعتقل: أنا مريض ومقعد لا أستطيع الحركة.

+ على حد علمي المرضى لايأكلون. ممَّ تشكو بالضبط؟

- اشكو من الروماتيزم وقرحة المعدة.

+ وأنا كذلك. ومع ذلك اتحرك وامشي. لعل احسن علاج هو «قرعة ديال الروج» هل تريدها؟

- لا، لقد حرمها الاسلام.

+ وأنا كذلك، مع ذلك اشرب النبيذ، وعلى كل أمامك 15 يوما وإلا...؟

ومن حسن الحظ أن ذاكرته مثقوبة وكان كثير التنقل جانب المدير.

كلما فكرت في تلك الليلة الخاصة بلغلو اصابني الغثيان من قسوة الانسان، لكن مع ذلك يفتر ثغري عن ابتسامته عندما أفكر في بوحيدة وهو غاضب ويضرب بكلتا يديه ويصرخ «أوشكور،...أوشكور Au se-cours كثرة الهم تضحك » كما يقول المثال.

مرت سنة تقريبا على تقاعد الحارس مولاي علي ، ومع ذلك ترك في اذهاننا ذكرى رائعة. فقد طاف علينا قبل رحيله، كل في زنزانته، لتوديعنا بالعناق الحار وعندما وقف بباب زنزانة لغلو أوقد طرف شمعة واقترب منه وعانقه طويلا. ثم أجهش بالبكاء طالبا الصفح والعفو. «اسمح لي واصفح عني يا أخي واغفر لي كل الألم الذي تسببت لك فيه في البداية عندما كانت الغشاوة على عيني. لقد فتحت عيني وبدأت أصلح نفسي وللأسف سأرحل إلى الأبد. وداعا وعفوا مرة أخرى» رحل بعد أن طلب العفو والمسامحة.

شقاء تلك السنة كان أفظع من سابقيه، كنا نرتعش تحت الغطاء عاجزين على وقف اصطكاك اسناننا، ليلة 2 - 3 يناير1989 كان بردها خاصا، لم يغمض لي جفن ليلتها بسبب البرد ذاته. صباح يوم 3 يناير 89 كان بوحيدة يوزع القهوة والماء ودخل الزنزانةرقم 2، ألقى عليه التحية «صباح الخير ألغلو» . أجابه الصمت، ناداه مرات عديدة ولاحياة

لمن تنادي. رج جسده المريض فوجده باردا برودة الموت. وقد مضت عليه ساعات ارتبك فخرج يبكي ويصرخ «شاف! شاف! لغلو مات»، ذهل الجميع للنبأ، طلب الحراس من الطويل أن يتأكد. فجاؤوه بمصباح ومراة وضعها قرب فمه لعل بخار الحياة يتكثف في زجاجها. لاشيء.

وهنا تدخل لاجودان شاف لعربي، والدراع الايمن للمدير وطلب من الحراس أن يعينوا أحدا آخر أعقل وأرزن، تألمت لهذه الملاحظة وإن كنت أعلم باننا نعاني من اضطرابات نفسية لا محالة. لكن كيف له أن يتجرأ على مثل هذا؟

على كل جاء حشاد وتحقق من موت لغلو. فجاء الحراس بالنعش والكفن وتطوع أربعة رفاق لغسله ثم وضعوا الميت فوق النعش ثم نادوا الحراس الذين جاؤوا ليواروه مأواه الأخير.

تابعت بمرارة الموقف الاحتقاري للحراس وهم يضعون المناديل على انوفهم التي ازكمتها رائحة الموت، ورأيتهم يشيحون بوجوههم وجثة محمد لغلو الملقاة امامهم. مات لغلو بعد *11* سنة من الشلل والنوم علي جنبه الايسر، بعد كل العذاب الذي قضاه لم تصدر عنه أية نأمة او أنين او يجهش بالبكاء.

لقد لبى نداءربه وقضى الامر. لغلو الذي لقبته ب «اوشن»، اي الذئب، مات بنفس الطريقة التي مات بها الذئب في قصيدة الفريدو فينيي، اي بتلك الروح الشجاعة العالية التي تتعالى عن الألم. اغمض عينيه ومات بدون ضغينة أو ألم.

الليوتنان لغلو محمد من مواليد سنة *1943* ببولمان من عائلة بربرية فقيرة، التحق بالجيش كضابط صف سنة *1961* مات وهو أعزب بعد ان حكم عليه ب *15* سنة في قضية الصخيرات لانه قاد الفرقة الخاصة، انهى عقوبته سنة *1986* ودفن بجانب رفاقه في الساحة الملعونة حيث كبرت الحشائش وغطت القبور. كان الفقيد على وشك الزواج يوم تم اعتقاله لكنه ووري الثرى قبل ان يتحقق حلمه.

أغرقنا موته في حزن عميق، وكم كنا نأمل ان يظل حيا الي ان يفرج عنا لعرضه في متحف العار والحقد لكي نجسد من خلاله الوحشية الانسانية. سنحت لي الفرصة ورأيت صور المعتقلات النازية، لكن حالة لغلو تنذر حتي في الخيال، وقد رأيت من بعد روبورتاجات حية عن شعوب جائعة واشخاص مشوهين واناس مرض لكني لم ار قط الحالة التي وصل اليها لغلو.

حالة لغلو تمثل الغُلُوّ في الرعب والبشاعة وعندما افكر في هذه الوضاعة البشرية، أتيه في متاهات العبقرية الوحشية، لم أكن أتصور أن الإنسان قادر على تحقيق «تحفة» من الذمامة والتشوه البشري، لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، لكن تازمامارت كانت معملا لتحويل الجمال إلى قبح، ولا أحد من الموتى شذ عن هذه القاعدة. لقد كان المدير وحراسه يعون ما يفعلون رغم أنهم ما فتئوا يرددون أنهم مجرد منفذين.

بعد أسبوع من الحداد اضطررنا الى العودة إلى أرض الواقع، لأن مصيرنا سيكون مشابها لهذا المصير إذا ما نحن التزمنا موقف المتفرج، «كان علينا نضربو الحديد ما حدو سخون» ولهذا طلبنا من الطويل اقناع الحارس الجديد بربط اتصالنا مجددا بالعائلات فلبي طلبنا على أساس أنه سيتصل بعائلتين فقط نظرا لقصر مدة عطلته وكل من أراد منا الاتصال بعائلته عليه أن يرسل بريده عن طريق العائلتين «المحوريتين». شخصيا أرسلت بريدي عن طريق قناة القنيطرة. سافر المرسول يوم 20 يناير 1989 وأذكر أنه كان يوم تعيين جورج بوش رسميا رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية (...) بعد أسبوع عاد المرسول ببعض الرسائل فقط وتوصل نفس الأشخاص بالجواب. أما نحن فقد وعدنا باتصال قادم، وقد كانت العائلتان المحوريتان تقدمان الوعود تلو الأخرى دون أن تفيا بها. كان علينا أن ننتظر 6 أشهر طويلة نغذي أملنا بوعود مشبوهة، بأمل لا حظوظ له، «واللي عضو الحنش تيخاف من الشريط» كما يقال. وبالرغم من كوننا نعيش في نفس المعتقل، فقد كانت آراؤنا مختلفة حول المقاومة وحول أهدافها. كان المحظوظون يراهنون على الزمن، ويخوضون حربا استنزافية ضد الموت مسلحين بوسائلهم (الدواء والمال) في انتظار عفو محتمل. كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا في وعود عائلاتهم.

ومادامو يملكون الوسائل التي تساعدهم على الصبر والتحمل لماذا يغامرون ويخاطرون بما يملكون وبراحة عائلاتهم، كانوا صبورين مثل قط وحذرين مثل غراب. اما الذين كانوا في وضع معوز، فقد كانوا يرون ان الوسيلة الوحيدة لانقاذ أنفسهم هي اطلاع العالم الخارجي ونشر مأساتنا في كل مكان وإرسال إشارة النجدة قبل وقوع الكارثة. والمرضى من بيننا وعوا بأن الدواء لن يفيدهم في الشروط التي يعيشون فيها و أن ما يلزمهم مصحة كاملة، لم يعد بإمكانهم الانتظار فانضموا إلينا يدافعون عن حلنا.

لم أصدق كيف أن الجلادين يتركون كائنات بشرية تتاكل وتتعفن دون ان يحركهم وازع وينقذون منا من هو قابل للانقاذ. كانت العاصفة قوية، ويح لمن أضاع المجداف، وكان المجداف هو الدواء والمقويات لدرء الهزال والموت البطيء. كان كل واحد منا يدافع عن «بيفتيكه» الخاص. ولست ممن يقفون موقف المتفرج. وبالرغم من كوني كنت حانقا ومعنوياتي في الحضيض بسبب عدم توصلي بجواب العائلة، فإنني مع ذلك ساكون من الكذابين إن لم اعترف بأننا حصلنا على متبغانا بعد ان التزم المحظوظون ببنود اتفاقنا حيث حصل كل واحد منا على حصته من المال لقضاء اغراضه من الثلث الذي دفعوه الى الصندوق الجماعي.

كان المعوزون يعرفون استحالة المقاومة الطويلة ولهذا كان خلاصهم يتطلب إطلاق اشارة الانذار في الاتصال القادم. وكانت تلك نيتي ايضا إذ قررت الالتفاف على العائلات المحورية وإيجاد وسيلة أخرى للافلات من رقابتها. كانت هذه العائلات تحجم عن خلق ضجة وطنية او دولية. وكنت لاأرى رأيها وأظل انتظر المعجزة او الامل، الامل لاياتي وحده.

ولعل أكثرنا حظا كان هو الطويل، حيث بذل كل لباقته ورقته تجاهنا وتجاه الحراس لتفادي الاصطدام او سوء التفاهم الذي قد ينعكس سلبا على اتصاله عبر القناة الرسمية. لم يكن يغضب أو ينفعل أو يطالب. لقد شحذ أدبه ودماثة خلقه في تعامله مع الحراس ومعنا، وجعل منهما سلاحه الفعال في خلق التعاطف معه أو تحييد العناصر المقلقة التي قد تضر به. وبما أنه حذر بطبعه فقد كان يعلم بأنه سيأتي ذلك اليوم الذي قد تلغى فيه كل امتيازاته تبعا للتحولات السياسية. لهذا كان يتابع باهتمام الأخبار ويخص العلاقات الأمريكية - المغربية والانتخابات في أمريكا ونشاط سفير الولايات المتحدة بالرباط بعناية فائقة. كان يدري أنه سيفقد امتيازاته عندما يغادر الجمهوريون البيت الأبيض.

لهذا بذل كل الجهود لربط اتصال سري مع زوجته، كان بريده يصل يدا بيد الى إحدى السيدات بفاس التي كانت ترسله الى شخص ما في فرنسا. وكان هذا الأخير يوصله الى أمريكا، وكان الرد يأتي بنفس الطريقة.

حسنا فعل الطويل، باستباقه الأمور قبل أن يفوت الأوان. حسنا فعل أيضا لإنقاذ نفسه وإنقاذنا نسبيا، لأن بريده الرسمي بدأ يقل ونظامه الغذائي يتدهور. لهذا اضطر الى مخالفة التعليمات التي أعطيت له من شخصيات سامية في الرباط والأوامر الصارمة التي بلغه إياه الكومندان

«ف». وتجاهل توصيات المدير قاضي. لقد كانت مبادرته مبادرة جيدة تستحق التصفيق والتنويه، أعطت ثمارها بسرعة وانعكست إيجابيا على الجميع.

لقد أطلع الطويل زوجته على الحقائق الخفية وكشف لها فظاعات تازمامارت. فثارت ثائرتها واتصلت بالدوائر الأمريكية العليا لوضعهم في الصورة، وإن كنت شخصيا متؤكدا من أن المخابرات الأمريكية كان أكثر اطلاعا من هذه السيدة الشجاعة.

لقد كنا نعرف أمورا عديدة، وراودنا أمل كبير بمناسبة المائوية الثانية للثورة الفرنسية واجتماع الدول الفرانكفونية بباريس، لكن هذا الأمل سرعان ما ذهب أدراج الرياح، كما ذهب من قبل الأمل الذي راودنا بعد وفاة الجنرال الدليمي، إذ لم يغير خلفاؤه من نظام الاعتقال.

بقينا نخضع لنفس العذابات، والحال أن رفاقنا في البناية الثانية قاوموا بشكل فردي دون الأخذ بعين الاعتبار ببعض مبادىء التعايش والتفاهم والاحترام المتبادل. لقد كانوا يعيشون الفوضى بالمعنى الحرفي للكلمة، والفوضى تقود حتما الى الكارثة. من جهتنا، قررنا أن نرسل إليهم حصتهم من المال الذي اكتتبناه، بالرغم من أن الاتصال أصبح يزداد بصعوبة يوما عن يوم بسبب حرمان الطويل من الخروج الى الساحة، كما في السابق. لكنه - بذكائه - وجد الطريقة التي يخدع بها يقظة الحراس. لقد كان يغسل الطنجرات، لأنهم خمولون، أو يغتنم تنقية الحشائش لفائدتهم أو نشر ملابسه لتجف (كان الوحيد الذي يتمتع بهذا الحق)، فيرسل على طريقة البيزبول - صرة بها مال أو الأدوية والمقويات، ويضيف الى ذلك رسالة صغيرة الى «الحمامة» يطلب فيها منه بموافاتهم بما يودون ابتياعه. والأعظم من كل هذا هو العطف والحنان الذي أبداه المعوزون منا مع رفاقهم في البناية الثانية. إن من يملك أقل يعطي أكثر، ومن حسن الحظ أن سخاء البعض كان يعوض بخل الآخرين. وأذكر أنني زرت ذات يوم المرحوم لغلو بعد ترخيص من الحراس وفزعت حقا لما رأيته يرتعد، كما لو أن تيارا كهربائيا مسه، وقتها لم يكن الشلل كليا، لكنه لم يكن يتحكم في ذاته وحركاته، فناديت الرفاق لإنقاذه، واستجاب العديدون بسخائهم وتضامنهم. لكن أغرب ما حدث جاء من الصفريوي صديقه الحميم الذي كان يتوصل بالمال والوسائل، فأرسل إليه قرصا واحدا من الفيتيل، في حين أن بنعيسى سلمه 7 أقراص من نفس المقوي، أما حشاد، فقد أرسل إليه 4 حلوات. ومن حسن الحظ أن الطويل كان

دائما إلى جانب لغلو لمساعدته والعناية به.

إن الناس يقاسون بأعمالهم وليس بأقوالهم. وقد وجدت الدليل على ما أقول في السجن. كان هناك سجناء دافعوا قبل ربط الاتصال والحصول على المراد، عن المساواة وعن المحرومين ومن أشد المساندين للعدالة الاجتماعية وضد الأنانية والمحسوبية وعابوا على «البارونات» رفضهم للتضامن والمساندة. لقد كانوا يمثلون الصورة المثلى للديمقراطية، لكن ما إن حصلوا على المال والدواء، حتى صاروا إقطاعيين حقيقيين، يرفضون الحوار والتشاور. وقد لقبناهم «بالفراعنة».

تشكلت هناك مجموعة جديدة سمينا أفرادها «بالوصوليين» وهم أولئك الذين حصلوا على اتصال حديث. وقد كان المحرومون يبتزون «الأغنياء» ويهددونهم وعادة ما كان هؤلاء يخضعون ويستسلمون بعد نقاشات عاصفية، لكن الوصوليين كانوا متطفلين، يهددون البعض ويبتزون البعض الآخر.

وقد انتبه المرسول الجديد الى الخلاف العام وسوء التفاهم المتكرر وخشي وقوع فضيحة تقوده الى الهاوية. سأل بعضنا، فأجابوه بأن السبب هو الاتصال الذي طال انتظاره. فقبل، أمام هذا الوضع الحرج أن يقوم «بقفزة»، حسب قوله، فجاءنا بالورق والأقلام والشموع، فشرعنا على التو في كتابة خطاباتنا.

بدأ الرحلة في شهر غشت بعد أن نبهنا إلى ضرورة التكتم وكنت أقلهم صبرا، لأنني كنت أنتظر منذ *1987* اتصالا مباشرة مع العائلة. وطوال فترة الانتظار عشت القلق وسكنتني الهواجس وخشيت خيبة الأمل مجددا. لم يخني حدسي إذ أنني لم أتوصل بأي شيء بعد عودة الحارس. ولتبرير هذا النقص، كذب الحارس وقال بأنه لم يجد الوقت الكافي للذهاب الى الرباط، وأن الإشاعات الرائجة لدى بعض العائلات تقول بأن عائلتي غيرت مقر سكناها. هددته بالوشاية به إن هو تمادى في إخفاء الحقيقة. بعد تفكير وتردد، اعترف بأنه سلم بريدي الى إحدى العائلات بالقنيطرة، لكنها لم تقم بالواجب. في ختام حديثه قال: «أنصت اليّ إن العائلات ترفض التعاون. لقد لاحظت وجود خلافات فيما بينها. وأن العائلات أنانية مثلكم، لأنكم هنا تتشاجرون وتصطدمون مع بعضكم البعض بربط الاتصال. هذا خطر علي».

في الواقع كان المفروض أن يكون بينكم تضامن وبين عائلاتكم تفاهم. لتساعدوا بعضكم البعض، لأنه يتعذر عليّ أن أتصل بالجميع. تركني

وهو غاضب وأنا حانق عليه رغم كل أقواله التي لم تهدىء من ثورتي، إذ بعد الحديث بقليل، أجريت نقاشا حادا مع كل من حشاد وبلكبير انتهى بالسب والقذف واللغة الساقطة.

وبالرغم من تدخل بعض الفضلاء الذين فعلوا ذلك حفاظا على السلم وبعض المنتفعين الذين فعلوا ذلك حفاظا على امتيازاتهم، فإن شجارنا طال واستطال. ولم نعدم وسيلة أو مناسبة لنحييه، شكا المرسول الجديد لبعض المعتقلين، فنصحوه بإعطائي وعدا عن اتصاله قريبا بعائلتي. وكذلك كان فهدأت من ثورتي والتزمت بالميثاق بيننا.

الطيران في الظلام

طلب مني بعض المعتقلين إقناع المرسول بقبول ما رفض القيام به في السابق، أي شراء بعض الحاجيات قبل شراء الأدوية، شريطة ألا يتجاوز المبلغ 300 دهـ. كلفني بجمع المال وتحديد تسلسل الطلبات حسب أصحابها بالتناوب. هكذا أصبح لدينا مبعوثان لا يعرفان ما يفعله كل منهما. من جهة أخرى، انتبه الحارس «سيرفير» إلى أننا نملك أوراقا نقدية جديدة أصدرتها الدولة حديثا.

طلب من الطويل أن يقدم له تفسيرا لذلك، ولم يكن أمامنا، للأسف، سوى قول الحقيقة، فقرر الطويل أن يقامر «الكل في الكل»، فأخبره بأنه أول من اتصل به الرفاق، وبما أنه رفض لجأوا إلى غيره. ولما طلب اسم الحارس الآخر أجابه الطويل: أنت تحرص دائما على التكتم لنفسك، لماذا تريد أن نفشي اسمه؟

تعاقبت أيامنا وتسارعت وتيرتها كلما انغمسنا في اليومي. من الأشياء التي آلمتنا حقا وفاة السارجان مولاي علي الذي توفي بسبب نبتة سامة أشار عليه بها أحد العشابين، حسب قول حارس من حراسنا.

لقد حزنت لوفاته رغم أنه قد سبق له وأن أدلى بشهادة ضدي عندما تشاجرت مع الطويل ذات يوم، وهو الشجار الذي جاء بعد أن طلبت من أحد الحراس «الحمامة» أن يسمح للطويل، في إحدى فترات الانفراج بنشر ملابسي في الساحة، وهو ما كان، وفي منتصف النهار، طلبت من الطويل مباشرة بأن يأتيني بملابسي، فأجابني بأسلوب غير سليم وبطريقة متعالية، فجاء ردي جافا وغاضبا.

- لا داعي لمثل هذا التكبر والعزة، فلو كنت متزوجا بأمريكية لنلت ما تنال. وعلى كل، مازلت سجينا مثلي، إلى إشعار آخر، فانزل من برجك الوهمي واعتبر نفسك في منزلتنا». فأجابني:

- أنا لست خادمك.

- لو تركوني أرى الشمس لأصبحت خادم كل الأصدقاء المعتقلين، أحس بالإهانة فأجابني:

- من الآن فصاعدا احتفظ بوسخك في زنزانتك، لقد سئمت القيام بالسخرة. وإذا كنت أرى الشمس وأخرج الى الساحة فلست صاحب الأمر. وعلى كل، أنا أعرف بأنك تغار من وضعيتي الخاصة. أجبته

بصدق: «نعم أنا أغار كذا من وضعيتك ولست أحسدك. غير أنني أشفق عليك جدا، لأن بإمكانك أن تستمر وضعك لتحقيق المعجزات لتنقذ نفسك وتنقذنا معك! لكنك يا أخي، تكتفي بالأكل والنوم».
- ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟
- لو كنت مكانك لقمت بما ترددت في فعله. يجب أن تكون شجاعا لذلك. هل تنتظر انتهاء عقوبتك لتخرج؟ يا عيني عليك. إنهم يسخرون منك لأنك ساذج، تؤمن دوما بوعود المخزن؟ لن تغادر هذا المكان. وماذا عن مرؤوسيك المحكومين بـ 3 سنوات فقط؟ هل سيقبعون هنا، في حين ستصبح حرا وأنت رئيسهم؟ الذريعة الوحيدة أن سيادتك متزوج بأمريكية...».

أسرع «الحمامة» ومولاي علي لتهدئة غضبنا. حكيت لهما ما وقع فقاطعني مولاي علي بغلظة «أنت المخطىء»، فأجبته: «أنت على صواب أنا المخطىء، لأنني لا أمنحك الأدوية والمقويات المستوردة من الولايات المتحدة».

ودرءا لتطورات غير محمودة لهذا الجدال، أغلق الحارسان الباب وأسرعا مبتعدين.

حل الخريف وعرى الأشجار من أوراقها، كما عرى حيفي من عقله وروحه: إذ بعد سنوات عديدة من العذاب والجنون توفي صديقنا الطيب يوم 10 أكتوبر 1989. لقد حكم عليه بـ 20 سنة سجنا في قضية الصخيرات، لأنه كان ضمن الذين دخلوا القصر الملكي واستولوا على وزارة الداخلية. قضى منها 14 سنة في تازمامارت سجين الجدران والجنون معا. لقد كانت معاناته مزدوجة، فيما هو مشترك معنا وفيها الجانب الآخر المتعلق بالعالم الوهمي الذي استولى على ذهنه بأحلامه الخارقة وتهيؤاته السوريالية. فتحول الشاب الجميل، بشعره السلس والأشقر، وابتسامته الساحرة وحركاته الموزونة إلى بقايا إنسان لا يعي عالمه، عرضة لاختلاط الصور والأفكار، عيناه تائهتان تكاد تكونان منطفئتين. بعد أن نال منه التعب والمرض، أصبح ملقى على الأرض، كان أحد أصدقائنا يسهر على تنظيفه بعد أن أقعده المرض، فبدأ يقضي حاجته في سرواله. مهمة صعبة ولاشك!.

وضع لحيفي «جيبا من البلاستيك» حتى لا يلطخ ملابسه وتصعب مهمته. ذات مساء، اضطر رفيقنا إلى الإسراع في عمله. بعد أن أجبره الحراس المتعجلين على ذلك، واكتفى بمناولته قرصين من الدواء خلسة

وعاد الى زنزانته وقد نسي طاقيته بجانب المريض.

بعد رحيل الحراس، نادى رفيقنا على المسكين حيفي.

- «صافا حيفي؟ كيما ديما، القضية في الطاكية».

أجابه المريض: «نْعام. هاذ الشي اللي كاين».

كان رفيقنا يريد أن يقول بأنه نجح في مناولته الدواء رغم تواجد الحراس وحذرهم، ومعنى ذلك أن القضية حسمت. أما بالنسبة لحيفي فقد أعطاها معنى آخر. بعد مضي ساعة، نادى رفيقه قائلا: «القضية في الطاكية بَصّحّْ». وصباح يوم الغد، عاد رفيقنا لمساعدة المريض، دخل الزنزانة وسأله: «كيف حالك، ياك نْعَست مزيان؟».

- نْعام. نعست مزيان ولكن ماشي هنا، حيث البارح مشيت للهند عند نهرو.

- أما أنا. دوزت الليل كل فايق، راسي كان عريان وانسيت الطاكية ديالي عندك، فين هي.

- «طاكية ديالك تحت الدالية».

فعلا كانت «الطاقية» أسفل البلاطة، وعندما أخذها رفيقنا لاحظ بأنها مليئة بالبُراز. فقد قضى فيها حيفي حاجته. غضب الرفيق لكنه تماسك وبدا ينظر بإمعان الى حيفي السابح في عالمه الآخر.

- علاش (خ.....) في الطاكية وأنا كانغطي بها راسي من البرد.

أجابه المريض المسكين بصوت هادىء، صوت من لا ذنب له:

- أنت اللي كلت لي القضية في الطاكية، أنا درت داك الشي اللي كلت لي وأنت خليتها هنا بالعاني!

لقد نسي حيفي المسكين عبارة دارجة متداولة عند المغاربة للتعبير عن الرضى عن عمل ما. لما علم السجناء بالأمر، سخروا من أمرهم، وكلما كان أحدنا يلمح للقضية كان الجميع يضحك بمن فينا الذين كانوا على فراش الموت. الضحك في تازمامارت سخرية من الذات، لأن كل واحد كان معرضا لكي يقوم بما فعل حيفي وأفظع منه، لا أحد هنا يفاجىء أحد، لأن الأمور العادية لا وجود لها أو انقرضت منذ زمان. لقد تحولت سلوكاتنا ولم يعد لها ما يبررها، ولم نعد نبحث عن علّة الشيء وغايته، كان همنا الأساسي هو المقاومة من أجل البقاء عوض الحفاظ على الفضائل.

ذات يوم من أيام تازمامارت، دخل الرفيق صاحب الطاكية الى زنزانة حيفي وألقى عليه التحية «السلام عليكم». لكن حيفي كان قد فارق الحياة

ولن يجيبه قبل اليوم الآخر. قمنا بالشعائر المعتادة لدفن جثمانه، أما عقله فقد غادره من قبل ليشرد في المجرد ويتيه في العدم.

لقد شوهوا جسده وأضاعوا عقله وخربوا حياته ووجوده لكن روحه احتفظت دائما بصفائها ولمعانها مثل الماء الزلال. لقد كان حيفي طيبا، خدوما ورفيقا رائعا وكذلك ظل الى حين وفاته. لقد سلبوه كل شيء، إلا أنفته التي ظلت كما هي.

لقد توفي وهو عازب ولطالما حلم المسكين بإنجاب الأطفال. وقد اعتاد قبل اعتقاله، على ملء جيوبه بالحلوى يقدمها للأطفال الذين يصادفهم في طريقه. لما حدثت أبنائي عنه، فيما بعد، حزنوا لحكايته وقال أكبرهم سنا: «مازلت أذكر الليوتنان الوسيم والأنيق والمحبوب الذي أركبنا في سيارته الرمادية بعد أن سلمنا الحلوى» والآن رحل ذلك الرجل الوسيم وكنت أتمنى أن أكتب علي شاهدة قبره: «هنا يرقد الرجل الذي جاء الى العالم دون أن يريد ذلك ورحل عنه دون أن يعرف ذلك».

انتهت سنة 1989 بحدث كبير لفائدتنا. لست أذكر لا اليوم ولا التاريخ بالضبط لكن النبأ حفزنا وهزنا حيث التقط أحد رفاقنا إذاعة أجنبية محسوبة على أطراف معادية تحدثت عن تازمامارت قرأ المذيع رسائلنا وقدم تقريرا مفصلا عن المعتقل. قضينا ليلة بيضاء نتناقش، أبدى كل واحد رأيه. بعضنا تنبأ بعمليات انتقامية قادمة، بعضنا الآخر رأى بأننا سنرحل، طرف ثالث أبدى تخوفه من إعدامنا. في يوم الغد ساورنا الشك من أمور فظيعة لأن الحراس بدوا غاضبين ومتوترين وظهرت علامات القلق على وجوههم الشاحبة. فتح أحدهم باب زنزانة فارغة وقد أمسك بمصباح في يده وبدأ يقيس طولها وعرضها. بعد أن أنهى عمله خرج والدهشة على محياه وخاطب زملاءه الذين كانوا ينتظرونه بصبر فارغ «هؤلاء الأوغاد على علم بكل شيء. فالمقاييس مضبوطة. والقبطان وحده يمكنه إخبارهم بهذه المعطيات، من أين جاءتهم ياترى؟» يا له من ساذج! هل اعتقد بأن نظام الحراسة لا يخر منه الماء!

حل شتاء 89، مثل سابقيه إن لم يكن أقسى لأن الماء كان يتسرب من شقوق السقف وأغرق زنازننا. وكان أن المسؤولين، بعد سنوات عديدة طويلة، قد خضعوا للأمر الواقع وجاءوا بمرممين لإصلاح السطوح. وعندما كان هؤلاء يعملون كان الحراس يفرضون علينا الصمت المطلق وحرموني حتى من تبادل الحديث الهامس. كان خرسا تاما لمدة شهر بكامله!

وجاء نبأ آخر رفع معنوياتنا. فقد أثارتنا الحركات الغامضة والنفسيات المتوترة للحراس فطلبنا من مرسولنا أن يوضح لنا ما يجري بالتفصيل. فأخبرنا بأن الأمر يتعلق بضابط دركي مرفوق بمرؤوسين آخرين جاؤوا لإلقاء القبض على لاجودان شاف عصام الكاتب الخاص للمدير ورجل ثقته محمد قاضي. بعد التعرف عليه واستنطاقه، وضعت الاصفاد في يديه وأركب سيارة «جيب» وأرسل الى الرباط لاستكمال التحقيق والاستنطاق وعلمنا في ما بعد أنه أودع سجنا عسكريا في انتظار محاكمته.

لم يخبر الدركيون ولا عصام بتفاصيل النازلة، ولكن المدير استدعى موظفيه الى لقاء عام لاطلاعهم على الوقائع غير المنتظرة وقد كان أول من فوجئ بما رواه له الدركي. ما إن اجتمع الحراس حتى بدأ القاضي حديثه الغاضب: لقد خانني عصام واستغل جهلي وجعلني أمضي على تقرير مفصل خاص بظروف المعتقل متهما شخصي بما يقع. لقد اتهمني بسرقة عتاد الدولة والفساد والشطط في استعمال السلطة والمعاملات السادية والإجرامية حيال المعتقلين. وقد أرفق بالتقرير وثائق مزورة تتهمني باختلاس الأموال. لقد وقعت بيدي صك إعدامي بدون وعي مني. وأنتم أيضا اتهمكم بالمعاملة القاسية تجاه السجناء، إذن احذروا التصريحات وكونوا يقظين وشجعانا، فقريبا ستحل بنا لجنة خاصة للتحقيق. وكما يقول المثل الفرنسي «إيتربون، إيتر كون *ETRE CON ETRE BON* (*ETRE CON*). لقد أعطيته كل شيء ومتعته بكل الامتيازات، لقد دللته...) وفي اعتقادي أن عصام تحرك ضميره بعد أن ظل يغض الطرف عن تجاوزات رئيسه وهذا العمل الذي يقود بشرا الى الموت المجاني.

فلم يعد يطيق المشاركة في هذه الجريمة ومواصلة تدبيج تقارير كاذبة وتنفيذ أوامر مدير قاس ومشاركته في التصفية الجسدية لأناس أنهوا عقوبتهم. فقرر كتابة تقرير وإرساله الى المكتب الثاني لفضح كل الأسرار. وقد وقع خلاف - حسب ما وصلنا من بعض الحراس - بين من دافع عن لاجودان عصام وبين من أراد معاقبته لإفشائه أسرارا مهنية. وفي الأخير توصل الطرفان الى حل وسط بحيث نقل الى أكادير لطي الملف. وعلى كل لقد كانت قضية عصام مفيدة لنا. أولا لأن تازمامارت لم يعد سرا مكنونا، ثانيا لأن المدير عين السارجان شاف علي كاتبا جديدا له. وهكذا قدم لنا خدمة كبيرة دون أن يشعر. فقد شهد لسعيد هذا بتعلمه وشبابه وفطنته. وقدرته على مراقبة الحراس قبل المعتقلين، كما

اشتهر بالانضباط والصرامة في المبدأ وعدم تساهله في أي إهمال. وقد هدد أحد المعتقلين الهزيلين بالضرب لأنه تجرأ وتحدث عندما كان عمال البناء يرممون السطوح.

استعادت الحياة مجراها الطبيعي وكان الخاسر الوحيد هم الحراس بعد ان كانوا يستفيدون من عدة أيام عطل بدون رخصة أو تصريح حرمهم القاضي من ذلك بعدما قام به الفتى الشجاع عصام.

للأسف جاءت الأيام الأخيرة من ربيع 1990 بمأساة لم تحدث من قبل، مأساة هي الأفظع من بين كل آلامنا حدثت في فاتح يونيو 90. لقد ذهلنا واندهش الحراس وهالهم ما رأوا. لا أحد كان يتوقع ما كان: انتحار أحد السجناء بعد أن فقد أي أمل في الخروج. لقد حكم على نفسه بالموت ونفذ الحكم قبل أن يموت الميتة التي هيأها له أصحاب المعتقل. لقد انتحر ميمون فاغوري المزداد سنة 1951 باسيتزر بإقليم ميدلت غير بعيد من المعتقل. التحق بسلاح الجو سنة 1969 وتلقى تكوينه كقيم على الاسلحة بامريكا، عاد قبل 4 أشهر من انقلاب الاربعاء 16 غشت 1972 (أوفقير)، أدين بـ 3 سنوات سجنا انتهت يوم 75/9/13 لكنه ظل معتقلا في هذه الظروف الجهنمية التي رفض التعايش معها واختار وضع حد لحياته في صمت شبه كلي أمضى وقته كله يفكر في مأساته، فشرد في عالم خاص لا فرق فيه بين الواقع والخيال، عالم الجنون. وحدث أن توفي صديقه الحميم شجاعي، ولم يمض شهران على هذا الحدث المؤلم حتى فقد صوابه، في دجنبر 91 كان الكل في البناية ينصت لمرزاق احمد يرتل القرآن ترتيلا تخشع له القلوب، فانبرى فاغوري وطلب منه أن يتوقف عن ذلك، لأن الشيطان أمره بذلك وإذا لم يستجب له سيحرقه!

ظل ميمون ملتزما الصمت طويلا، ثم بدأ يحدث نفسه بصوت عال أو يبكي ويصرخ بلا توقف، ليل نهار والى أن يغمى عليه، رغم تهديدات الحراس وتوسلات الرفاق، لم يكن ينصت لأحد لأنه، حسب رأيه، ينفذ أوامر سيده الجني. كان يطالب بحريته وظل كذلك الى أن مات، بل حاول ذات يوم، كما أسلفنا، أن يهرب بعد أن أمسك بـ «خصيتي» ابن ادريس لعله يسقط مغشيا عليه مما يسمح له بالهرب. مع مرور الأيام أصبح ميمون أقل عنفا ولم يعد يصرخ واكتفى بالهذيان.. ومع كل هذا الألم والمأساة حافظ على لغته المهذبة وأسلوبه المهذب والصبور! وعندما تنتابه أزمته، كان يكفي أن يتدخل الطويل باعتباره كان رئيسه من قبل أن أتدخل باعتباري أكبره سنا، لقد كان المسكين أشدنا أدبا، لكن الألم

جعله يغرق في شرود جعله فاقد الإحساس. وقد حضرت ذات يوم نزع ضرسه من طرف حشاد ورأيت كيف أنه لم يتألم أو يبد أدنى حركة، بل انهى حشاد عمله وميمون ينتظر منه الشروع فيه! لقد تبين أن فكرة واحدة استبدت بفكره وهي: لن نغادر تازمامارت أبدا والطريقة الوحيدة هي ترك الجسم مكانه وهروب الروح نحو البعيد والسبيل الوحيد الى ذلك هو الانتحار وفي الخارج تنبعث الروح ونعيش حياة جديدة بلا ماض لأنه مؤلم. أخبرناه باستحالة أفكاره، وبتحريم الانتحار من طرف ديننا الاسلامي، وفي الواقع لم نأخذ كلامه بجدية: لكن صباح ذلك اليوم، لاحظ مجاهد بأن جاره ميمون لم يظهر ويتناول قهوته وحصته من الماء اعتقد أنه نائم، فدخل زنزانته ونادى عليه، لكن ميمون لم يجبه، انتبه إلى أنه شنق نفسه، فأخبر رفاقه بالخبر الأليم.

انتحر رفيقنا ميمون فاغوري وتم إخطار لاجودان شاف مزيان (المسؤول الثاني بعد المدير) للمعاينة، قطع الحبل واحتفظ به مزيان كدليل على الانتحار، سأل بدوره عن سبب إقدامه على فعلته هذه، فأجابوه بأن العلة تكمن في سوء التغذية والسجن الانفرادي الجائر الذي خضع له منذ 1975 . وعدنا بتحسين ظروفنا، وهو ما لم يقم به قبل ماي 1991 ، ولم يكن ذلك بفعل الانتحار بقدر ما كان السبب هو الضجة الاعلامية الدولية حول المعتقل.

عاد الصيف بحرارته وحشراته وزواحفه ومائه الساخن. وككل صيف، قل ماء السجن فجيء لنا بمياه النهر، وككل صيف، لسع بعضنا من طرف العقارب... غير أن اتصالي 1989 سمحا لرفاقنا بالحصول علي المال للعلاج، لكن المعوزين الستة فضلوا شراء «الترانزستور» وهو الشيء الذي أثار حفيظة «برجوازيي» المعتقل، الذين اعتبروا الأمر غير مقبول إذ استنكروا علي المرضى الاستماع الي الموسيقي، ورد المعنيون بأن الاثر النفسي والمعنوي للمعتقل أكبر من العذاب المادي والجسدي.

دار الحوار بين الطرفين وقد بدأه أحد «البارونات» بالقول:

- انصتوا إلي جميعا، لقد اشترى البعض أجهزة مذياع. والحال أن المال منذور للدواء وليس للطرب! من الآن فصاعدا لن أساهم في الصندوق، لأنني لا أريد المخاطرة بنفسي وعائلتي، وأدفع ثمن تهور البعض.

عقب أحد المعتقلين المستهدفين:

- إن الخطر مشترك والمسؤولية جماعية، وبدون موافقتنا وصمتنا، لن

يتم أي تبادل أو اتصال في هذه البناية، ولولا البعد الذي يدفع المرسول الي العزوف عن الذهاب الى البادية، لما كنت تحت رحمتك، لقد اشتريت الترانزستور بنصف مبلغي وأحتفظ بالنصف الثاني للادوية والبطاريات، إذن ما ضرك؟ لماذا تحشر انفك في شؤوني؟ لماذا تحتفظ بجهاز كبير؟ هل فكرت في حملة التفتيش؟

- طبعا وقد حفرت مخبأ»

اخذت المناقشة حجما أكبر عندما تدخل معتقلون آخرون وادلوا بدلوهم فدافع البعض عن الاجهزة ونافح آخرون عن الدواء. وفي الاخير اتفقنا على أن يصرف كل ماله في ما يحلو له مع التزام الحيطة والحذر.

سمحت لنا أجهزة الراديو بمتابعة أحداث العالم، هكذا علمنا يوم 2 غشت 1990 باجتياح العراق للكويت، وفي نفس ذلك اليوم غادر فرخ حمام عشه في سطح المعتقل وسقط في الكولوار وتعذر عليه الطيران من جديد لأنه كان بلا ريش تقريبا، ومكسر القائمة. رآه ريجالي واخطر الآخرين، تطوع مرزاق للتكفل به إذا لم يلحظ الحراس وجوده.

ومن حسب الحظ أن مرسولنا «سيرفير» هو الذي فتح الأبواب، لم يلاحظ شيئا لانشغاله بتوزيع المشتريات لأصحابها قبل وصول رفاقه، اغتنم مرزاق الفرصة وأخذ فرخ الحمام بيديه المرتجفتين غبطة، ووضعه برفق في «طاقيته» ثم فوق غطائه. ثم رقص طربا لأنه اعتاد منذ صغره على العناية بالحيوانات والطيور.

هكذا اعتنى به فأطعمه وأشربه واقتسم معه طعامه وصنع له عشا من نشارالصوف وقطع الثوب التي اقتطعها من ملابسه. لم يعد مرزاق وحيدا في زنزانته حيث استطاع تدجينه بقليل من الصبر والارادة. شيئا فشيئا اعتاد فرخ الحمام على الظلمة والوحدة ، طلبنا من مرزاق أن يسميه فأطلق عليه اسم «الفرج» تيمنا، لأن هذه الطيور بالنسبة له رمز للسلام والحرية.

كان مرزاق يحكي لنا يوميا عما قام مع «فرج» قبل أن يسرد على مسامعنا أخبار حرب الخليج، بدأ فرخ الحمام يكبر شيئا فشيئا بعد أن عالج مرزاق قائمته المنكسرة ومنقاره المشوه والهش. عندما كان يصاب بالحمى كان مرزاق يناوله اسبرين وفيتامين «س» بعد إذابتها في الماء. لقد فقد صغير الحمام أمه فوجد في مرزاق الحنان والعناية، وعلمه الطيران في الزنزانة المظلمة، كما حصل له على علبة كرطون، بواسطة المرسول من أجل حمايته، لقد غير السجن من طباعه فبعد أن كان خمولا

يقضي اناء الليل وأطراف النهار في النوم والكسل، أصبح ديناميا نشيطا ومنظما يتبع جدولا زمنيا دقيقا: التمارين الرياضية، قراءة القرآن، الغناء بصوت مرتفع جميل دفعنا الى تلقيبه بـ«البلبل، حياكة، رفو» والغريب في كل هذا أنه كان يجد متسعا من الوقت لنظم الشعر بالعربية والمسرحيات التي كان يحفظها في ذاكرته حتى لا ينساها، هذا دون أن ننسى حكاية روايات نجيب محفوظ والأفلام المصرية التي شاهدها من قبل.

كان مرزاق يخصص كل الوقت «لفَرج» دون أن يغفل الممازحة والضحك، لأنه كان محبوبا من طرف الجميع لطيبوبته وميله الى الهدوء. كان الرفاق يلقبونه أيضا بالغراب الأبيض، لأنه يشاطرني التشاؤم. والحق أنني أنا ومرزاق والزموري لم نكن متشائمين قط، بل كنا نجبر على معاكسة المتفائلين الذين كانوا يغالون في تفاؤلهم كلما اقتربت الأعياد الوطنية أو الدينية، ويكفي أن يروج الحارس «فلاش» مثلا بعض الشائعات حتى يستبد بهم الوهم من جديد. ربما كنا أكثر تشاؤما منهم لكننا كنا منطقيين مع أنفسنا، إذ كنا نأمل في دلائل مقنعة أو مؤشرات دالة حتى نؤمن بما يؤمنون.

ركزنا كل انتباهنا هذا الصيف على حرب الخليج، نسينا شروط حياتنا الخاصة وتأسفنا لكل من كانوا يموتون ظلما، أشفقنا على الأبرياء الذين أضاعوا حياتهم بسبب طموحات قادتهم.

لقد جعلنا الظلم نعادي العنف وإراقة الدماء في حل الخلافات، لأن الحوار أحسن وسيلة لذلك. ورغم أننا تلقينا تكوينا عسكريا في البداية، فقد علمتنا حياة المعتقل معارضة العسكرتارية، لأن كل الأنظمة العسكرتارية قادت شعوبها الى الكارثة. وكثيرا ما كانت طبيعة أحاسيسنا تتحكم في الألقاب التي نطلقها على الحاكمين والدول. هكذا لقبنا بومدين بالذئب والقدافي بالفتى المرعب والسادات بالشاوش وحافظ الأسد بالضبع وبوكاسا بالرجل صاحب العربة الذهبية وصامويل الليبيري بسرجانتو وتيتو بالعنيد، في حين لقبنا سنغور بالنحوي وجيسكار ديستانغ بالأصلع وميتران بالرشاش إلخ...

لقد كنا نتابع كل ما يقع في العالم، لاسيما القضية الفلسطينية ومعاناة أفغانستان وجنوب إفريقيا والحرب الأهلية اللبنانية التي أفجعتنا، كما أن كتاب «آيات شيطانية» لرشدي أثار غضبنا من هذا المارق الذي انتقد بني الإسلام. إن القرآن يدعو للسلام والرحمة، لهذا

كنت اتساءل لماذا هذه الهجمة والتكالب؟ لقد أظهر لنا انهيار الشيوعية حدود الأنظمة البشرية وعظمة التعاليم الربانية.

لقد كنا ننظر للأمور من باب الاعتدال والتفاهم، وكنا نتساءل عن السر الذي يمنع السياسيين من حل المشاكل العالقة (...).

كبر فرج وأصبح طائرا جميلا بريش جميل واجنحة قوية. وأصبح صخبه يزداد، لأنه يطالب بحريته، والحال أن سيده السجين لم يكن يريد ذلك. فقرر الطائر الهروب وخرج من الباب الكبير، عندما حان وقت توزيع الطعام، لكنه لم يجد مخرجا الى الهواء الطلق فظل يتنقل من مكان الى اخر الى أن امسك به مرزاق وأعاده الى الزنزانة. عندما كان الحراس يسمحون لنا بالخروج الى الكولوار لتنظيف أو علاج مرضانا، كان «فرج» يحصل على حقه في النزهة، فيحلق فوق رؤوسنا ثم يحط على كتف احدنا أو ذراعه الممدودة. وفي كل مرة كان يغير المكان حتى يرضي الجميع، وكانت ثقته فينا كبيرة، يأكل من راحة ايدينا ويستريح فوق أكتافنا أو ينام. لم يكن الطائر وسيلة للترفيه أو تزجية الوقت، بل كان رفيقا في الاعتقال، شاهدا على مأساتنا. عندما قدرنا أنه كفيل بالحياة وحده، أطلقنا سراحه متحسرين على فراقه. وفي يوم الغد، عاد إلى جوارنا وحط على السياج. أمضى بضعة أيام بجوارنا قبل أن نجد أنفسنا مجبرين على الإمساك به وتسليمه للطويل من جديد ليطلقه في الساحة. ومع ذلك أعاد الكرّة مرة أخرى وجاء بالقرب من زنزانة مرزاق يتطلع الى أدنى حركة من حركاته، قبل أن يرحل إلى الابد وأخذ معه ذكرى موتى - أحياء.

قررنا إعادة الاتصال من جديد بالعائلات وكلفنا الطويل بإقناع المرسول الذي قبل، شريطة ألا تحدث مشاحنات، كما في المرة السابقة. قبل الجميع، سوى أنا لأنني اشترطت اتصاله المباشر مع عائلتي وإلا رفضت. تم الاتفاق على هذا الأمر، ورحل مبعوثنا مع نهاية أكتوبر. في يوم الغد، فرحنا لنبأ محلي طالما تمنيناه واستجاب الله لدعائنا بموت لاجودان شاف بن ادريس بعد مرض الكبد الطويل. لم يأسف أحد لموته بمن في ذلك الحراس، لأنهم كانوا يكرهونه مثلنا. لم يكن قاسيا فقط، بل منافقا وحقودا. لقد خالف الأوامر التي أصدرها المدير، والتي تسمح للمرحوم لغلو بالعلاج والنظافة في الساحة متمتعا بالشمس لمدة نصف ساعة. فبدل الأوامر وأمر الحراس بأن يعالج في زنزانته ثم أغلق الباب وراء ؛ رفاق متطوعين. وتطلب الأمر تدخل بعض الحراس وتوسلات

الطويل لكي يتراجع عن قراره والسماح للغلو بتلقي العلاج في زنزانته مع ترك الباب مفتوحا.

لم نكن نتمنى موته بفعل سادية ما، بل لضرورة لها أحكامها. لن نغفر له جرائمه، فقد اتخذ المبادرة الفردية واشترى من ماله الخاص المسامير اللولبية لإغلاق كوات زنازننا، وهو الذي أمر اللّحام بتلحيمها.

بعد أسبوعين، عاد مرسولنا حاملا بريدنا، من ضمنه بريدي الخاص وقد نجح المرسول في «ابتزاز» العائلات المحورية، عندما رفض تسلم إرسالياتها إذا لم يكن طردي ضمنها، فأجبرت على الاتصال بعائلتي بالرباط. بلغ فرحي أوجه عندما سلمني علبة صغيرة تضم أدوية ومقويات وصورا ملونة لكل أفراد العائلة، الأم والزوجة والأطفال الستة، ورسالة طويلة لم أفلح في قراءتها رغم شعاع المرآة و3 شموع. أجبرت على انتظار الغد حتى أستعير من بلكبير المرآة المكبرة لكي أستطيع القراءة. قرأتها وأعدت قراءتها مرات عديدة، عاودني حنين الماضي. تمليت طويلا صور أبنائي الذين كبروا بعد أن تركتهم صغارا، زوجتي خديجة التي كان عمرها 24 سنة وقت اعتقالي أصبحت سيدة ناضجة بمظهر امرأة وقورة، أمي بلغت من العمر عتيا. كلما نظرت الى الصور، شرد ذهني وزارتني الذكريات القديمة وتوالى شريط أيامي أمام عيني. لم أستطع مقارنة الوجوه المنحوتة في ذاكرتي منذ زمان ووجوه الصور. اغرورقت عيناي بالدمع ولم أستطع القراءة في الأول ومن كثرة الدمع أصبحت صعبة القراءة، كانت الرسالة مفعمة بالأمل والتفاؤل، لكن بما أنني رجل ارتيابي، لم أصدق ما فيها وكنت أعلم أنهم لن يخبروني بالأنباء غير السارة. والمهم بالنسبة لتوصلي بها هو كون عائلتي توصلت برسالتي وهذا هو المهم! وآه لو كانت لدي الوسائل التي كانت لدى بعضنا. كنت سأقيم الدنيا وأبذل كل ما في وسعي لأطلق إشارات الإنذار قبل حدوث كل هذه المآسي من موت وجنون. تذكرت ما قاله ذات يوم السارجان سعيد بخصوص العائلات المطالبة بالمقاومة والكفاح ليل نهار وتذكرت استنكار أحد الحراس الذي تساءل: الآن وحمى الديمقراطية وحقوق الانسان تتملك العالم الثالث لماذا تنتظر عائلاتكم صامتة؟

توصل كل سجين ببريده وفرحت لكل من بوحيدة وبوعملات اللذين توصلا أيضا بطرديهما. وبعد كل ما كتبناه لا أعتقد بأن العائلات ستظل مكتوفة الأيدي. وتمنيت أن تصل بعض رسائلنا الى أياد سليمة، الى

«أمنستي» الدولية والمنظمات الحقوقية المغربية حتى تتوفر لديها الحجج الكافية للقيام بالواجب..

مع نهاية دجنبر *1990*، أحيل السارجان شاف بابا أحمد على التقاعد، أسفنا رحيله لاستقامته، لقد كان يقوم بعمله دون إفراط في الاجتهاد، بل كان يصب لنا ماء إضافيا خلسة، ويجمع الأزبال قبل الوقت المحدود ويسهر على النظافة. كان يعرف أننا نعطف عليه لهذا كان يمازحنا أو يحكي لنا عن حياته الخاصة. لقد كان هذا الرجل المسن قد تجول في دروب الحياة منذ طفولته البئيسة الى أن عمل حصادا ثم بناء في سد بين الويدان قبل أن يكون راعيا ثم بائعا بالتقسيط والالتحاق بالجيش الفرنسي، وبعد الاستقلال أدمج في القوات المسلحة الملكية قبل أن يحال على التقاعد.

وطالما أقسم المسكين أنه يتعذب لعذابنا وأن نومه تتخلله الكوابيس لفرط ما يشاهده في تازمامارت، وكثيرا ما يستيقظ فزعا في منتصف الليل..

لم يكن باستطاعته ما يمكن فعله، وكان يكتفي بالتضرع الى الله لكي ينقذنا. وقبل رحيله صافحنا الواحد تلو الآخر طالبا الصفح.

«لغتنا» الخاصة

تغير التأطير بعد أن أصبح السارجان شاف علي الكاتب الخاص للمدير وعوضه السارجان شاف ميمون الملقب بـ «الغليظ»، بعد أن رأى هذا الأخير عدد الموتى والظروف التي نحيا فيها حاول تجنبنا أقصى ما يستطيع ولم يخطر له أبدا أن يهددنا أو يهيننا. لقد كان «لغليظ» ذكيا، إذ حافظ دائما على موقع المتفرج وشاهد العيان غير المسؤول عن المأساة. أما بن ادريس وبابا أحمد فقد عوضا بلاجودان شاف عبد الرحيم ولاجودان حسن. وقد ظلا طوال حراستهما بالمعتقل مهذبين ولبقين وإنسانيين. أحسسنا منذ البداية أن هذين الشخصين يتأففان من هذا العمل الذي أجبرا على القيام به. كان ذلك تخفيفا نفسيا أرخى أعصابنا وأراحها. ويسهل عمل المرسولين، لاسيما منهم سيرفير الذي بدأ يعمل في كل أمان بعد أن كان هؤلاء الحراس يفضلون البقاء في الساحة.

لقد حدست أن اختيارهم كان متعمدا، غضًا للطرف.

يوم فاتح يناير ١٩٩١، سقط الثلج على تازمامارت وغطى المنطقة برمتها مدة أسبوع بكامله، كنت صباح ذلك اليوم قبالة باب الزنزانة أراقب ندفه البيضاء تتساقط على قبور رفاقنا في الساحة. وأنا أتملى هذا المعطف الأبيض الهائل، كنت أتساءل عمّ يجعل الثلج وراء الجوار في قمم الجبل الصغير ناصعا أكثر وأكثر بياضا من ثلج الساحة. وكلما أمعنت النظر، ظهر الفرق واضحا وجليا، وخلصت الى أن ثلجنا كان في حداد. فإذا كان البياض رمز الصفاء والطهارة، فإن ثلجنا كان لونه ميالا الى الاصفرار وباهتا، سرعان ما أصبح فيما بعد بنيا وبدون لمعان، لأن بياضه خجل من إخفاء جريمة الإنسان.

وبعد أسبوع، تهاطلت أمطار غزيرة جرفت هذا الثلج الملطخ وجعلت الساحة أكثر حزنا، تلك الساحة التي أصبحت خاوية على عروشها جرداء وصامتة، بعد أن اشترى المدير ضيعة ولم نعد نرى الماشية ترعى العشب على حوافي القبور ولا الدجاج أو الديكة الهندية، وهندة ذاتها غادرتنا. على الأقل، أصبح بإمكان موتانا أن يرقدوا بسلام. أما نحن الموتى الأحياء، فقد كنا بدورنا نحب الصمت والهدوء، لاسيما بعد الاتصالات الأخيرة في أكتوبر ١٩٩٠، حيث أصبح العديد منا يتوفرون على أجهزة مذياع لطرد التهيؤات المفزعة وتزجية الوقت.

خلف هذا صراعا، كما سبقت الإشارة الى ذلك، بين من كان يود صرف المال في الدواء وبين من اشترى المذياع. وقد كان «الأقل حظًا» لا يتوفرون على الدواء، في حين أن المحظوظين يتوفرون على أدويتهم الخاصة. وكان من المنطقي أن يحصل المرضى على الأولوية. والحال أن البعض ادعى بأنه أشد مرضا. أحدنا أقسم بأغلظ الإيمان بأنه مصاب بالسرطان، والحق أن بطنه كان منتفخا والقيح ينز من مؤخرته وصرته، مثل الجميع على كل حال، لكنه كان يعتقد بأنه أسقم من لغلو وبيتي والحال أنهما ماتا قبله، في حين مازال حيا يرزق ويعيش حياة راضية بفيلا جميلة وثلاثة محلات لبيع الأحذية.

مازلت أذكر أيضا الحديث الذي دار بين الحارس بوكبش وبن ادريس. لقد قال الأول:

- مون أجودان شاف، المساجين ديالنا بحال السّعّايا اللي كايدورو في الزناقي، لو كان نقلبوهم نلقاو الفلوس يالفلوس.

- واش أنت احمق، منين غايجيبوهم واحنا عاسين عليهم؟

- أنا ماشي واحد مجرب بحالك، وماحاربتش في لاندوشين، لكن لو

تسمح لي نقلبهم غادي نلقاو لفلوس باش نشريوا جوج ديال لكباش للعيد!». انفجرا ضاحكين، ومن حسن الحظ أن بن ادريس استخف بكلام مرؤوسيه، لأن المعتقل رقم 29 وحده كان يملك قدرا مهما لشراء قطيع بكامله!

في الرابع عشر من دجنبر 90، اندلعت أحداث فاس وتابعناها باهتمام، ونحن ندرك أن حيوية الخارج تعطينا الأمل في الانفراج.

يوم 31 دجنبر 90، احتفل الناس بأعياد رأس السنة، فيما نحن ملتفون في أسمالنا والأمل حجبته سحب سوداء كثيفة من اليأس.

بدأت سنة 1991 بالأمطار الغزيرة والثلوج. ذات ليلة من لياليها القارسة لم يغمض جفن لأغلب الرفاق، أثار انتباهنا أحد الرفاق التقط إذاعة سرية، بطريقة فرحة، وحنحن تأكيدا على أنه يحمل نبأ سارا.

- «انصتوا إليّ جميعا وأيقظوا النائمين منكم لقد تحدثت ضيعة عنبر عن بوطاغاز» حاصره العديد منا بالأسئلة، نفس الأسئلة في نفس اللحظة مصحوبة بالدهشة وبنوع من الشك، لأن ما قاله كان جميلا الى درجة لا تصدق حتى المتفائلين منا أسقط في يدهم! يا للإنسان، كم هو معقد وغير مفهوم: يتوسل يتضرع ينتظر، ولما يحصل ما يأمله ينتابه الشك. أكد رفيقنا بأن الأمر يتعلق فعلا «ببوطاغاز» وأضاف «بل إنهم بثوا «ليما - إيكو - طوغو» وتقريرا مطولا عن «برافادوس» و «الرجل صاحب الشبشب»، أحدنا طرح السؤال هل خصوا بالحديث فعلا «سيبويات»، فكان الجواب «نعم تحدثوا عن سيبويات الحمام وسيبويات الصخر». فبلغ فرحنا أوجه، لم نصدق ما سمعناه. ولو سمع غيرنا هذه اللغة لاعتقدها لغة الطرشان أو المجانين، كما حصل للحراس الذين انصتوا ذات يوم فبلغوا المدير بأننا فقدنا صوابنا. لقد كان «بوطاغاز» هو اللقب الذي أطلقناه على تازمامارت. وقصة هذا اللقب هو أن أحد المسؤولين بالراشدية اتصل بالمدير وأخبره بأنهم قد عثروا على شخص يرتدي أسمالا وشعره طويل وأشعث ومتسخ وقدماه حافيتان كان ينتظر سيارة ما تقله، وما من شك في أنه هارب من تازمامارت، لأنه بلا مال ولا وثائق تثبت هويته. قام المدير بإعلان حالة الطوارىء وأمر حراسه بالتفتيش في الزنازن فجاؤوا بمصباح «البوطاغاز» وفتشوا كل الزنازن بعد أن اطمأنوا نقلوا للمدير تقريرهم وطمأنوه بأن العدد هو نفسه. وقد تركوا البوطاغاز في الزنزانة الأولى إلى جانب النعش والأكفان الثلاثة.

ولابد لمن أراد فك رموز لغتنا أن يتوفر على شبكة لذلك، أما النبأ الذي

استمع إليه رفيقنا في الإذاعة السرية وأراد تبليغنا به فهو كالتالي: انصتوا إليّ لقد تحدثت الإذاعة السرية عن معتقل تازمامارت وبثت إحدى رسائلنا، (وتلا ذلك حديث مطول عن المعتقل وعن المدير (صاحب الشبشب) والحراس»، وأما جوابه عن صديقنا الفضولي معناه «نعم لقد خصوا بالحديث المعتقلين العسكريين المشاركين في انقلاب الطائرة الملكية والصخيرات».

تلك كانت لغتنا ورموزها طوال مقامنا في المعتقل، كان كل شيء مرموزا ومقنعا، نحن بدورنا كنا نتخاطب بأسماء مستعارة والحراس ينادوننا بالأرقام ونحن نخاطبهم بالألقاب. كل شيء كان مزورا، لأن تازمامارت نفسها كانت سرية، مكان لا علم للعدالة أو الشعب به، مكان لا مكان له، غير معترف به. شخصيا أحسست انني غريب في نفسي وعنها، لا افهمها، ولا أجد لي موقعا في العالم. أصبحت شخصا اخر مع مرور الزمن. غالبا ما كنت أنسى الشخص الذي كنْتُه ولا افْلحُ في تصور الشخص الذي سأكونه... بعد لحظات الفرح بنبأ الإذاعة، عادت المياه إلى مجاريها، إلى أن اهتزت الساحة ذات يوم بالحركة الدائبة، فأصوات العمال والات الحفر الصاخبة. فوجئنا أول الأمر واستبدت بنا الحيرة بسبب هذه الحركة غير المألوفة، رفض الحراس مدنا بأي تفسير وزيادة في الحرص والتكتم، منعوا الطويل من الاقتراب من الباب الكبير، وبعد ان كان هو من يخرج الى الساحة لسقي خضر الحراس وغسل الطناجير، أصبحوا يقومون بذلك. وبما أن الطويل إنسان متشكك وارتيابي فقد بذل كل ما في وسعه لكشف النقاب عن سر هذه الحركة الطارئة، لكن مجهوداته باءت بالفشل. ومن حسن الحظ أن الحراس نسوا ذات يوم إغلاق باب عقا بلمجدوب. فقام هذا الأخير بتسريب مرآة أسفل الباب الكبير لعلها تعكس جزءا مما يحدث في الساحة. لم يستطلع شيئا ذا بال أو يكشف سر الآلة الصاخبة. وبعد تردد، صرح لنا قائلا: «غريب ما رأيت، بل هو أمر لا يصدق» بعد الدجاج والماشية والكلبة هنده جاء الآن دور الفيل ليدخل الساحة. تعالت الأصوات مستنكرة: هل جننت؟ هذا أمر لا يصدق! أضاف آخرون «فيل؟ هل هي حديقة حيوانات أم معتقل؟ أصر عقا على أقواله مضيفا: «نعم لقد رأيت الفيل، لكني رأيته من الخلف، وهو يأكل العشب». عقب عليه غلول: «مستحيل، لأنه لا وجود للفيلة في المغرب».

عدّل عقا من قناعته: «على كل شيء ما يشبه الفيل، لونه رمادي».

في اليوم الموالي، حاول الطويل مع أحد الحراس الذين اكتفوا بالقول بأنها عملية حفر لقنوات باطنية، حاول سيرفير أن يستغل المناسبة ويعرض على الطويل كشف السر إذا ما هو كشف له عن المرسول الآخر. رفض الطويل ورفض هو. وظل فيل «عقا» يحفر وصوته الذي يصم الآذان يزيد من ضيقنا وضنكنا، أخبرتني حاستي السادسة أن شيئا ما يحاك ضدنا، وتملكني الإحساس بأنه الجرس الأخير يدق لنا: وكلما ازداد استماعي لهذا الضجيج، زاد حزن قلبي، إذ لا يوجد حفر من أجل الحفْر، لاسيما في أرض صخرية لا تنبت سوى الحشائش الضارة وأزهار الشر، مقابل ذلك يكون الكد من أجل هذه العملية لدفننا جميعا في قبر جماعي. تمثلت نفسي مثل شاة في المجزرة وانتظرت دوري بصفاء ذهن وصبر. ما همني الآن أن أموت أو أظل حيا، لأن الهدف بالنسبة لي قد تحقق يوم وصلت رسالتي الى وجهتها.

وفي الوقت الذي واصل فيه فيل عقا عمله، نزل علينا نبأ مفرح أثلج صدورنا. عبر الراديو، مفاده أن مدام نانسي الطويل قد تقدمت بطلب الى مجلس النواب الأمريكي تحتج فيه على الظلم الذي يعانيه زوجها و 28 رفيقا آخرين في معتقل الموت بتازمامارت. وبعد أن روت المعاملة اللا إنسانية والنظام الجهنمي في المعتقل، طالبت بلجنة تحقيق حول الموضوع لتسليط الضوء على هذه القضية الغامضة. بلغ الفرح مداه، وقضينا أزيد من أسبوع نعلق على هذا الخبر، ونقلبه ونمحصه في حين التزم الطويل الصمت ورفض إبداء أي تعليق. وأظهر لامبالاة مثيرة اتجاه الأمر، لأنه كان يعلم المدى الحقيقي والمعنى البعيد لهذا الطلب، خصوصا وأنه منذ 1985، اعتبر نفسه سجينا عابرا، وإذا حدث وأن طرح سؤالا ما، فلكي يعرف اسم السفير الجديد للولايات المتحدة بالرباط أو مصير الانتخابات الأمريكية، آملا أن يظل الجمهوريون في البيت الأبيض.

حصل انقلاب في الوضعية، إذ توقفت آلة الحفر عن عملها بعد ثلاثة أيام من سماع النبأ ورخص للطويل بالخروج الى الساحة، فلاحظ بأنه لم تعد هناك حفرة أو ما شابهها بعد ردم كل ما حفر، وانتهى أمر الدفن أو القبر الجماعي. وبالرغم من تكتم الحراس وحرصهم على طمس العملية لاحظ الطويل بعد تمحيص دقيق بأن الأشغال بدأت انطلاقا من قبر المرحوم ميمون فاغوري الذي انتحر. بعد هذه الأحداث، بدأ التفاؤل يغذي أملنا وإن ظل في حدود المعقول خوفا من الإحباط والخيبة، بعد أن

نسوا الطويل أو تناسوه سنوات عديدة، حلّ فجأة الكولونيل (ف) على متن طائرة مروحية وسلمه رسائل زوجته وطلب منه الجواب فورا. ومن جهة أخرى، ظهر المدير الرهيب من جديد في بنايتنا بعد غيبة دامت سنين طويلة، وما من شك أن الرسالتين اللتين بثتهما الإذاعة السرية قد هزتاه. وقف أثناء توزيع الغذاء أمام زنزانتي بلباسه الرسمي وقد وشح صدره بنياشينه، كذلك فعل مع الآخرين، يلقي نظرة على الداخل ثم يشيح بوجهه.

وبالرغم من بث الرسائل والرحيل المفاجيء لفيل عقا، فإن النظام الغذائي لم يعرف أدنى تحسن، إلى أن حل شهر رمضان فناولونا التمر (من النوع الرديء) وبيضة مسلوقة مرة كل أسبوع خلال السحور وبرتقالة صغيرة. أما اللحم، فقد بدأنا نحصل على قطعة هزيلة منه كل 15 يوما عوض شهرين، كما في السابق. وزعوا علينا أيضا قطعا من الصابون.

هذا التحسن الطفيف حرك آمالنا النائمة في الأعماق. وما من شك أن رسائلنا الشخصية التي بثتها الإذاعات واحتجاج مدام الطويل كان لهما وقع مهم، لكن الذي سينقذنا في الواقع هو التقرير الذي تقدمت به «أمنستي» الدولية وحركت به العالم، هذا دون أن ننسى المبادرات الطيبة لبعض الناس ومساعي المنظمات المدافعة عن حقوق الإنسان. وقد أفلحت مساعي كريستين دور السرفاتي في خلق صدى واسع سرعان ما أعطى نتائجه.

في الرابع من مارس 1991 توفي القبطان حميد بندورو بعد سنوات طويلة من الجنون. ولد بن دورو بالرباط سنة 1936 من عائلة ميسورة، التحق بالأكاديمية العسكرية بمكناس سنة 1956، رقي إلى رتبة سوليوتنان سنة 1958 وتلقى تدريب ضابط دركي في مولون MELUN، قبل أن يلحق بالمشاة في 1970 وينقل الى المدرسة العسكرية الملكية باهرمومو ويعتقل يوم 10 يوليوز 1971 ضمن المتهمين في قضية الصخيرات. أدين بعشر سنوات سجنا وظل سجينا حتى بعد أن قضاها سنة 1981، لم يستطع بن دورو الرياضي القوي البنية، صاحب الخطوات الجبارة والنظرة الفاحصة لصقر، أن يتحمل العزلة التي ذهبت بعقله ولا النظام الجهنمي الذي هده، كان المرحوم صاحب رأي حازم وطبع صعب المراس مما صعب معه ربط علاقات ودية مع مرؤوسيه سابقا في البناية الثانية أو مع الإخوة بوريكات، فاعتزل عنهم طواعية

وتقوقع حول نفسه يقضي وقته في ترتيل القرآن والصلاة وازعه الديني حي وقوي وتقوى اكثر، وأخلص صاحبه لله يتفكر أمره ويفكر في يوم القيامة وحده، وقد حافظ على الصوم يوميا باستثناء الأعياد الدينية منذ دخوله وإلى أن توفاه الله، طمعا في التقوى وتطهيرا لروحه، وبالرغم من نصائح رفاقه الذين طالبوه بوقف الصوم لما له من عواقب وخيمة على الصحة، فإنه لم يستجب لهم متعللا بأنه يريد أن يكون مثل نبي الله داوود، كان المرحوم يحتفظ بالأكل للمساء لهذا كان يتناول طعامه باردا مما أضر بجهازه الهضمي، وزاد الطين بلة أن أصابه الروماتيزم وزاد من انتفاخه وشحوبه، وقضى مجمل أيامه ممددا على الأرض بلا لحاف أو وسادة، بدأ المسكين يهذي معتقدا أن زنزانته ملأى بأجهزة «الميكرو» اللاقطة والأنكى، خيل إليه بأن أحدا ما يمشي فوق السطوح ويوزع الأدوية على المعتقلين فيصرخ طالبا حصته، هذا الرجل القوي البنية تحول في رمشة عين الى رجل مريض وهزيل هزالا مفزعا.

عندما أخرجناه من زنزانته لوضعه فوق النعش كان يشبه ركام عظام بلا لحم. في الشهور الأخيرة لوفاته، بلغ به الهزال حدا تعذر عليه فيه النطق! كان جيرانه يتناوبون يوميا على تنظيفه وغسل ملابسه الملطخة بالدم والفضلات ويحاولون اطعامه لكن للأسف حصل له ما حصل لحيفي، إذ فقد القدرة على المضغ! واكتفى بلقمتين في المساء ليبقى على قيد الحياة ويستمر عذابه، وبالرغم من قوة عزيمته وشجاعته اللتين لاحد لهما، قضى نحبه من كثرة الأمراض والجنون الذي مسه بسبب قسوة الإنسان وشراسته.

بعد غسله وتكفينه ووري التراب في الحفرة التي كنا سندفن فيها جميعا لولا الرسالة التي نشرت في أمريكا.

بعد أن عالجت التهابي الرئوي قررت شراء جهاز راديو حصلت عليه يوم فاتح ماي، تملكني احساس غريب وأنا انصت للموسيقى من جديد، واحسها تتسرب الى عروقي مثل اكسير، اهتز كياني وأحسست أنني أحلق نحو البعيد، وارتخت عضلاتي وفهمت لماذا تعطي الأبقار الحلوبة مزيدا من الحليب عندما تسمع الموسيقى، ولماذا فضل بعض الرفاق الراديو على الدواء، بعد أسبوعين ارسلت مذياعي الى غلول ليدخل عليه بعض التعديلات ويتسنى له التقاط بعض الموجات، انفصلت عن جهازي وأحسست بالحزن مثل طفل نزعوا منه لعبته. وفي الثامن عشر من ماي ١٩٩١، والساعة تشير الى منتصف النهار والنصف كنت ممددا على

البلاطة ساعة القيلولة، فجأة سمعت الطويل يدق على الجدار بكل قوته ويخاطبني باللغة المشفرة المرموزة أن «اسمع إذاعة فرنسا الدولية «RFI» لم أحرْ جوابا.

وظلت الحيرة تفترسني وأنا أعرف أن كل الذين يملكون أجهزة راديو ينصتون وبما أنني بلا جهاز فقد انتظرت على أحر من الجمر انتهاء البرنامج وأطلع على ما دفع الطويل إلى الإلحاح عليّ بالإستماع، فجأة تعالت صيحات الاستحسان من هنا وهناك، ثم سألني الطويل.

□ الرايس أأنصت الى برنامج «افريك ميدي»؟

اجبته بعصبية واضحة.

■ لا لم اسمع شيئا لأن جهاز الراديو معطل.

□ لقد تحدثت ابنتك إلهام عن تازمامارت زكت تدخلات أخرى أقواله، قبل ان يأخذ غلول الكلمة ويضيف: «نعم لقد أدلت ابنتك إلهام بتصريح في برنامج «أفريك - ميدي» في إذاعة فرنسا الدولية وقد قالت بالحرف: توصلت بعدة رسائل من أبي المسجون منذ سنة 1973 في معتقل الموت بتازمامارت آخر رسائله مؤرخة بتاريخ 10 اكتوبر 90 يثير فيها الشروط اللاإنسانية للمعتقل وأمراضه العديدة التي أقعدته، مثل الخفقان وارتفاع ضغط الدم والإلتهاب الرئوي والروماتيزم، إنه مريض للغاية يقضي وقته ممددا، والحياة في المعتقل لاتحتمل. مات العديد من رفاقه بسببها، لم ير أبي الشمس منذ 73/08/7 لأنه حبيس قبر مظلم رطب ... الخ».

تعاقبت التعليقات والتدخلات، شارك فيها الكل وحتى أولئك الذين اعتدنا على تكتمهم مسهم التيار، بعضنا توقع انتقام الإدارة، البعض الاخر أبدى لامبالاته ازاء ما قد يحصل .. وطوال أسبوعين انتظرت زيارة تفتيشية وأنا انقب عن المبررات لحماية مراسلنا لأنني لم أكن أريد التسبب في أي ضرر لأي كان، وكلما امعنت في البحث عن الأجوبة الملائمة للأسئلة التي قد يطرحها المحققون، كانت أفكاري تختلط عليّ ويتشوش دماغي، وكلما أجد جوابا ما أجد معه ثغرة أو خطأ في التحليل، كنت مستعدا للتعذيب، المهم ألا يمس سوء ابنائي وزوجتي والمبعوثين من الحراس، ولأنني كنت دقيق الملاحظة فقد انتبهت الى تغير سلوك الحراس حُيالي، إذ بدأوا يختلسون إليّ النظر أو يتفادون الحديث إليّ حتى لايتهموا بالتعاطف معي.

انتظرت المستجدات وأنا مستعد للمفاجآت، وكثيرا ما رأيت كوابيس

ايقظتني في عز الليل، إذ كنت أرى نفسي مقيدا يرميني أناس غرباء في المحرقة، أحيانا كنت ابتسم لأنني لست لاسيدنا إبراهيم ولا جان دارك، استولت عليّ فكرة كون العائلة ستدفع الثمن بدلي واستبد بي هذا التفكير الوخيم الذي كان يترسخ أكثر فأكثر في ذهني، وكنت أتضرع الى الله في صلاتي كي لايمسها سوء، ومن حسن حظي أن الله رحيم بعباده!

بعد أسبوع كنا في لحظة قيلولة طويلة عندما جاء الحراس وفتحوا الابواب بطريقة صاخبة، فوجئنا لزيارتهم لأن وقت العشاء (5 والنصف مساء) لم يحن بعد، خطرت في ذهني أسئلة عديدة وقبل أن أجيب عنها امر أحد الحراس زميله بفتح الزنزانة رقم 14، قلت في نفسي «لاشك أنهم المحققون في قضية إلهام ابنتي»، فتح الباب ورأيت لاجودان شاف العربي، نائب المدير صحبة بعض الحراس وشخصين لم يسبق لي أن رأيتهما ظهرت عليهما الطيبوبة واللباقة، فاتحني المسؤول - أهلا الرايس وقد كان يخاطبني باسمي لأنني كنت مدرسه خلال فترة التكوين لإعادة التأهيل بأهرمومو.

■ أهلا مون ادجودان شاف. قلت وأنا حذر.

□ قل لي مم تشتكي.

■ من كل شيء .. من الأمراض، من الأكل، النظافة، النوم، من كل حقوقي المسلوبة كسجين.

ابتسم ثم أجابني

□ لا أنا أطلب منك أن تحدثني عن أمراضك فقط، لأن بصحبتي ممرضين لمعالجتك.

عقبت قائلا:

■ لكن أمراضي تتطلب نقلي الى مصحة متخصصة وفحصا جديا من متخصصين اكفاء.

□ «نعم، ولكن في الوقت الراهن سنقدم لك العلاجات الاستعجالية الضرورية وسنرى فيما بعد بالنسبة للباقي»، ثم التفت الى الممرضين «طيب بإمكانكما الشروع في عملكما»، دخل ميمون لغليض ووضع مصباح الغاز وسط الزنزانة ثم خرج فاسحا المجال للممرضين، تقدم هذان الأخيران والذهول باد عليهما من هول ما رأيا. كم تمنيت أن أراهما والمرحوم لغلو أمامهما، لا أشك بأنهما سيهربان أو يغمى عليهما، لقد ذهلا للحالة التي وجداني عليها وتقدما نحوي بحيطة، لأنهم أخبروهما بأننا مجانين، كما قرأت في نظراتهما مزيج الحذر والطيبوبة والشفقة

من هذا الوضع المزري! رفعا غطائي عني وخاطبني الممرض (ماجور) موحا بصوت حنون وهو يمد يده نحوي: «سأبذل ما في وسعي لمساعدتك، قل لي ماهو مرضك؟ قل لي أنا انصت إليك!

■ أعاني من الحمى دائما وأوجاع الراس وأحك عيني وأسعل باستمرار وأشكوا أيضا من الاسهال والمغص والخفقان والروماتيزم في الظهر والقدمين. أتألم أيضا بسبب الإلتهاب الجيبي والذمل والسعلة (غواطر) إضافة الى الإفراط في التبول والدوخة ..

□ طيب سأسلمك أولا ميزان الحرارة ثم سأحقنك لأتأكد إن كانت لديك حساسية ازاء البنسلين. بعد هاتين العمليتين التفت ناحية مزيان قائلا: «اعتقد أن عليَّ أن انتقل الى السجين الموالي ربحا للوقت، ثم سأعود لأفحص نتيجة الاختبار والحرارة».

هز مزيان رأسه علامة على الموافقة. بعد أن انفردت وحدي، بدأت أضرب أسداسا في أخماس دون الوصول إلى جواب، إن لم أقل أنني زدت تيها. والحق أن كل الحلول التي عرضتها كانت ممكنة: هل هي تباشير تحسن قادم؟ هل هي بداية نظام مخفف؟ أم تراها استعدادات إفراج قريب؟ لم أجد جوابا شافيا رغم حدوث بعض التغيير في الآونة الاخيرة مثل حصولنا على الصابون والتحسن الطفيف في الطعام وتوزيع أحذية رياضية بدل نعال «العجلات» وتغيير الغطاءات قبل الوقت، ثم العلاج الطبي الآن. لم أنه بعد تفكيري عندما دخل الممرضان للاطلاع على نتيجة الاختبار وقياس الحرارة. فبادر موحا المكتنز والبشوش الذي تجاوز الثلاثين من عمره، وإن كانت النظارات تجعله يبدو كطبيب عركته المهنة: «هل تحس ببعض التنمل في الذراع» أجبته أن نعم وأنني حككت موقع الحقنة بدون شعور، أما رفيقه السارجان علي الطويل القامة والنحيف المنحدر من عائلة من منطقة تازمامارت فقد قال:«حرارته 39 درجة و 2. فوصف لي موحا الوصفة شفهيا:« سنعطيك 4 اسبرين و4 فيتامين و6 اقراص غانيدان و6 من الباريغوري أما بالنسبة للروماتيزم، فاستعمل هذا المرهم «الجيبان». قل هل تريد أن أحقنك بحقنة ضد الالتهاب الرئوي، فأنا أتوفر على مضادات حيوية قوية» ثم أشار إلى قنينات فلوكسابين وطوطابين قبل أن يضيف:« بإمكانك أن ترفض، وإذا قبلت عليك أن تقبل النتيجة أيا كانت وأنت المسؤول!»... اعلنت قبولي فحقنني على الفور.

خصص زوال ذلك اليوم للزيارات الطبية إذ مر الممرضان بكل الزنازن

قبل أي يغادرا السجن وقد هالتهما الفظاعات التي رأياها أو سمعا عنها. لقد وزعا كل ما جاءا به من أدوية، ثم عادا بعد ثلاثة أيام وجاءا بمراهم لعلاج العيون. لقد أحسا بأن الأحداث تتجاوزهما والمهمة صعبة بالنسبة لهما، فماذا كان بوسعهما أن يفعلا أمام ظواهر لا يمكن لغير المتخصصين أن يعالجوها؟ مثال ذلك السجين الذي خلع تبانه ثم عرض خصيتيه المنتفختين حتى عادتا مثل بيض النعام، قائلا: «منذ أربع سنوات وأنا أعاني من هذا الانتفاخ الذي يزعجني أيما ازعاج»، أو زميله الذي كشف لهما عن عقدتين صلبتين مثل حجر» ظهرتا بين الفخذين وأسفل البطن، بعضنا الآخر أراهما مناديل ملطخة بالدم أو اسفنجات لطخها القيء.

ولاشك أنهما أحسا بالغثيان ولم يجرؤا على رفع أعينهما ووزعا الدواء صامتين.

في منتصف نهار يوم 28 يونيو 91 وقد استلمنا غذاءنا الهزيل واغلقت أبواب زنازننا، دخل الطويل من الساحة مهرولا وبعد استرجاعه لأنفاسه، نقل إلينا أوامر الحرس وهو ينتقي كلماته لتوجسه ربما من رد فعل غاضب:

- انصتوا إليّ، سيحصل زوال هذا اليوم تبادل الإقامة، حيث سيقيم رفاق الصخيرات في نفس الصف أي جهة الساحة في حين سينتقل سجناء الطيران الى الحي المحاذي للجدار. وقد أمركم الحراس بالاستعداد قبل عودتهم في الساعة الثانية زوالا للسهر على تبادل الزنازن. عم السخط لأن العديدين رفضوا مغادرة زنازنهم التي ارتبطوا بها. ولسائل أن يسأل: كيف لمعتقل أن يولي كل هذه الأهمية لجزئية من هذا القبيل؟ كيف له أن يرتبط بقبوه المهيئ لوفاته والإصرار على مكان لا فرق بينه وبين آخر؟ والحق أن هذه الجزئية مهما صغرت لها أهمية قصوى في المعيش اليومي للمعتقل؟ ذلك أن الإقامة، من طول العزلة في ذات الديكور، كان لها تأثير قوي في أنفسنا وخيالاتنا. لقد رفضنا تغيير المنازل لأننا لاشعوريا أصبحنا من أنصار الاستمرارية. إن مطالبة سجين بتغيير زنزانته تشبه مطالبة لاعب بوكير بتغيير المكان الذي حالفه الحظ فيه: لهذا احتج العديد من المعتقلين على هذا القرار لأن الأمر لم يكن يقتصر على رحيل في المكان بقدر ما كان تشويشا ذهنيا. وشخصيا كنت أحس بالرضى والراحة في زنزانتي والتواجد في مكان آخر سيسبب لي الشقاء! لطالما انتابني الإحساس بأننا متفاهمان، أنا وهي لأننا خلقنا

لبعضيئنا. فهي المكان الذي كنت أحس فيه بطعم الفرح والإحباطات معا، لحظات اليأس وسراب الأمل. لقد كان من الصعب فعلا تغيير مكان صار اليفا، وشخصيا مثل صندوق فولاذي (كوفرفور)! وهذا التحول لم يكن ليحسن من الامور، وقد وجد البعض انه سيتضرر إذ بالرغم من كآبة السجن ككل، فإن بعض الزنازن كانت لها ميزات معينة مقابل سلبيات زنازن اخرى. هناك أولا، الموقع. فالأقبية الموجودة في الجهة الشمالية كانت رطبة وباردة ومظلمة على الدوام لأن دورة الشمس لم تنصفها.

مقابل ذلك كانت زنازن الجهة الجنوبية تتعرض للاشعة من الخارج. وعندما تكون الشمس في كبد السماء يتسرب شعاع من ثقب السقف.

يخفف من عتمة المكان ولو أن ذلك لم يكن يدوم سوى ساعة أو ساعتين حسب الفصول. أما الزنازن الوسطى الواقعة قرب الباب الكبير، فقد كانت أقل تلوثا وأكثر تهوية من زنازن الداخل العفنة والاقل تهوية من الأخريات.

ومن ناحية أخرى، كانت هناك زنازن مشؤومة، مات فيها رفيق أو اثنان، دون الحديث عن الزنازن المليئة بالبق أو تلك التي حولتها العقارب الى مأوى أو الأفاعي الى حقل لاصطياد الفئران.

اما زنزانتي فقد كانت تتوفر على بعض الامتيازات لأنها كانت في الوسط في الجهة المقابلة للباب الرئيسي تقريبا. ولعلها هبة ربانية في تازمامارت أن ترى السماء الزرقاء ثلاث مرات في اليوم أثناء توزيع الطعام، حتى ولو كانت مجرد إطلالة عابرة. وأقول بالمناسبة أنه لم يسبق لي أن تمليت بجمال السماء وأعجبت بروعة النجوم، في الثانية صباحا وقت السحور، واستنشقت بلذة وعمق لفحة الهواء النقي، كما فعلت في تازمامارت. لقد كان لزاما أن أحرم هذا كله لكي أحس بقيمته. هناك أيضا شيء آخر مرتبط بحب الاستطلاع والمراقبة لدي، إذ كان موقعي يسمح لي بمشاهدة كل ما يجري ويدور ومتابعة دردشات الحراس وأحكيها فيما بعد لرفاقي الذين لم يكونوا يرون شيئا أو يسمعون مجرد وشوشات بعيدة، بفضلي كان الرفاق يعلمون كل شيء، بما في ذلك ثمن الطماطم في السوق الى درجة أنهم سموني وكالة «رويتر».

ومازلت أذكر الحديث الذي جرى ذات يوم من أيام يناير 1984 بعد الاحداث التي عرفتها الناظور، الحسيمة وتطوان ومراكش، وهو الحديث الذي دار بين مولاي علي وبن دريس. إذ سأل الاول الثاني:

- مون لاجودان، علاش الناس المدنيين كيديروا الفوضى، آش باغين بالضبط؟
- علاحقاش ماعندهومش ماياكلو، العيشة غلات والعمال طردوهم وعلى ود هاد الشي كايديرو الفوضى ويخربوا كاع اللي جات في طريقهم.
- آش غادي يوقع لو ما كيضربوهومش ويقضيوا على الفوضى؟
- غادي توقع الكارثة والفوضى لكبيرة كيما وقع في الكونغو عام 60 وانا حضرت هاذ الشي.
- وما كاينش غير الخدامة، كاين بول الطلبة والصغار.
+ هاذ قضية أخرى، هاذوك راسهم سخون، كانوا باغيين اللي بغاو، هادوا في الحبس.
- وايلا وقع لاقدر الله وجاو لتازمامارت آش مصيرنا؟
+ انظن ايلا يحبسونا.

طاطأ مولاي علي رأسه، أطرق مليا قبل أن يجيب:«ايلا وقع ما وقع انتمنى نكون في الزنزانة 14 (زنزانتي) وأنت في 15 (الطويل) هادوك على الأقل فيهم شوية لهوا والضوء».

انتفض بن دريس وهو غاضب ونهى صديقه طائر الشؤم على هذا الحديث (...).

جاء الحراس في الثانية زوالا وأمرونا ببدء الرحيل، مر كل شيء في رمشة عين فيما أنا واقف أمام باب الزنزانة، جاء الشاوي عبد الكريم للإقامة في زنزانتي، لكن زنزانته دخلها صدقي الذي رفض تسليمها لي، فرفضت بدوري مغادرة مكاني، تدخل «الحمامة» وأقسم لي همسا بأن الوضع مؤقت لأن الإفراج عنا سيكون بعد شهرين. ساعدني الشاوي على الانتقال الى الزنزانة (2) زنزانة المرحوم لغلو، التي رفض الجميع دخولها، لكن قبلتها لعدم إيماني بقضية الاشباح، لم أصدق أقوال «الحمامة» أيضا لكنني لم أرد وضع الحراس موضع الحرج وإن عاتبتهم بالقول إن كان عليهم أن يقرروا في الأمر ويسهرون على حسن تنفيذه.

تدخل ميمون لغليظ:
- ماذا تقصد بتلويحك هذا؟

عوض الجواب طرحت عليه السؤال:
+ قل لي من فضلك ما هو الأمر الذي أصدرته؟

لقد أمرنا الطويل باخباركم بتبديل الأماكن، على أساس أن يكون الطيارون في جهة والمشاة في جهة أخرى.

+ إذن لم تحددوا الجهة .. المهم هو الفصل بيننا.

- أي نعم.

تدخل «الحمامة» بالقول: «لم يكن لنا أن نحدد المكان بل تنفيذ أوامر المدير الذي أمر بوضع أصحاب الصخيرات في جهة وأصحاب الطائرة في جهة أخرى، لكن أين الخلاف؟».

أخذت الكلمة وتحدثت بهدوء لأكظم غيظي:

- كنت أفضل اشرافكم على العملية، كان ذلك أفضل.

+ لم أفهم!

- سأشرح لك سبب غضبي! لقد أخذ الطويل المبادرة وأمر بأن ينتقل أصحاب الصخيرات الى الجهة الشمالية والطيارون الى الجنوبية أو تدري لماذا؟ لكي يحافظ على زنزانته وما لا تعرفونه هو أن الجهة الجنوبية أكثر رطوبة.

+ لكن ماهمك من هذا؟ صدق ما قلته لك.

لما رأيت ابتسامته الساذجة بادلته إياها وعقبت «هنا مثال امازيغي يقول «ما تقول ديس (10) حتى تجي في التلّيسْ» أو كما يقول المثال الفرنسي يجب ألا تبيع فرو الدب قبل قنصه.

ما أغضبني يومها هو خيانة الطويل وأنانية صدقي الذي استولى عنوة على زنزانة الشاوي التي تعود إليَّ، لكن «الحمامة» ربت على كتفي وتطوع رفيقان بتنظيف زنزانة المرحوم لغلو من الدم والأوساخ، لأنني كنت أتحرك بصعوبة بسبب آلام الروماتيزم التي أجبرتني على الاتكاء على مكنسة دائما، لقد مضى ذلك العهد الذي كنت فيه المدرس، الرياضي، المشاء الكبير، المتطوع الدائم في الجولات التأديبية.

طوي الملف، وبدأت الاسئلة تتناسل: لماذا كل هذه الحركة؟ لماذا فصلونا عن بعضنا البعض؟ هل هي مقدمة ترحيل قادم لوضع الطيارين في سجن يختلف عن سجننا؟ ربما أرادوا تنقيلنا الى حيث يصفونا جسديا بعد الشائعات والرسائل المنشورة، ربما مازال فيل عقة يحفر قبرا في مكان آخر.

استولت علينا الحيرة بسبب هذا الأمر الطارئ، توقعنا الأسوأ. ومن حسن الحظ أن «الحمامة» كان أقل تكتما من زملائه، إذ أخبرنا بأن المدير استدعي على جناح السرعة الى الرباط وبمجرد أن عاد، دعا الى

اجتماع الحراس وأخبرهم بأن لجنة رسمية ستزور السجن قريبا للاطلاع على وضعية السجناء وتغيير النظام السجني، وأضاف بأن الرفاق الأربعة الذين مازالوا أحياء في البناية الثانية سينتقلون للإقامة في بنايتنا، وأن الإخوة بوريكات وحدهم سيمكثون هناك.

فوجئنا بعودة رفاقنا بقدرما فرحنا لها، حاولت، في انتظار وصولهم أن أسترجع ملامحهم القديمة، هيأتهم، بل خلت أنني أسمع أصواتهم المميزة .. انتظرناهم على أحر من الجمر، وعلمنا فيما بعد أنهم كانوا كذلك، بعد أن أخبروا بترحيلهم، تلهفوا للقيانا لأن الخروج من جحيمهم الخاص، رغم بقائهم في تازمامارت، كان بمثابة هبة من السماء وبصيص أمل، صاح أحد الحراس: «هاهم قادمون! افتحوا أبواب الزنازن» ثم دخل «حفار القبور» بن طالب حاملا متاع سجين خلفه، لم يستطع هذا الأخير صعود الأدراج، فهب بعضنا لمساعدته على ذلك، كان يمشي الهويني، بصعوبة واضحة للعين، جسده مثني ويداه تتأرجحان كما لو أن جسده مفكك، لاتنسيق في حركاته أوضبط، تجشم عناء كبيرا في المشي، فبدت مشيته شبيهة بدبيب أو حركة جمل منهك، وكلما خطا خطوة تراقص جسده رقصة مجنونة، يقوم فيها جزؤه الأيسر بحركة دائرية تارة، وتارة أخرى يتأرجح الى الأمام والخلف، فيما أطرافه السفلى «تتقافز» بلا توقف، عندما يتوقف مثل سحلية، لقد تشبوه جسده بفعل سوء التغذية والجمود، ونقص طوله بعدة سنتمترات، كان مدبوغ الجلد، لحيته كثة وشعر رأسه مسدل، مرتديا قميصا متسخا و «شورت» كله ثقوب، حافي القدمين، يكاد يشبه «فقير»، جسده نحيل نحافة هيكل عظمي، عيناه جاحظتان من شدة تحديقه في الظلمة، كان منظره فظيعا باستثناء ملامح وجهه التي احتفظت بجمالها مثلها في ذلك مثل الابتسامة. رغم محنته وجد القدرة على الابتسام، لم أكن أعرفه لأنه طيار، لكن حدثوني عنه طويلا وللأسف لم يكن هناك وجه للمقارنة بين ما سمعت وما رأيت، كان في السابق طويل القامة، قوي العضلات، مثل رياضي، انيق، فحولوه الى كائن مشوه، متسخ، وذميم، نصف ممسوس، تعذر على رفاقه أنفسهم التعرف عليه، أفزعني هذا المشهد الجدير بأفلام الرعب وسألت بوحيدة عن اسم رفيقه فأجابني والدمع في مآقيه: «إنه بوشعيب سكيبة أو ما تبقى منه ...» وهو من مواليد 1947 بالدارالبيضاء، أدين بـ 3 سنوات سجنا سنة 1972، رغم تعليمات الحراس سارع العديد لمصافحته وعناقه مرحبين بمَقْدَمِهْ.

حَوَل، حَدْبة وزغاريد!

رحل رفاقنا للإقامة معنا في البناية1، ولكن أول من وصل منهم هو سكيبة الذي أودع الزنزانة 23 التي توفي فيها المرحوم ديك سنة 1980، تلاه سجين أبشع منظرا من الأول، كما أن جسده تلقى هزات زلزالية، مشيته تشبه مشية «روبو» مفكك الأوصال. جسده بلغ به التشوه أن انطوى نصفين وظهرت على ظهره حدبة وبدأ يمشي كعجوز متكيء على عصا. هذه السنوات الكابوسية أفقدته أسنانه وشعره وأصابه الحول. فقراته المتكومة وجسمه المتقلص جعلاه يبدو كقزم يمشي متذبذبا مثل حرف «w» – عموديا. شاب شعر رأسه نحل جسمه وتجعد جلده وشحب. هكذا أصبح الليوتنان الداودي عبد العزيز المحكوم عليه بـ 10 سنوات في قضية الصخيرات. هب الجميع للقائه ومعانقته وشرع الذين يعرفونه في ممازحته. عندما حان دوري عانقته عناقا طويلا، ابتسم وهو ينظر إلى صامتا، شعرت أنه لم يعد يذكرني لأنني تغيرت كثيرا ولاشك فخاطبته.

– دا–وو–دا–وو ألم تتعرف علي؟

– لا.. حدق في كثيرا ثم أكد نفيه وأضاف معتذرا «هذا علما أن ذاكرتي كانت ثاقبة في ما سلف من الأيام». ورددت علي مسامعه عبارة سرية اعتدناها في ما بيننا وسرعان ما صاح مهللا: «آه لقد عرفت من أنت. جي.كي.كا. كيف حالك يا عزيزي؟ لقد تغيرت كثيرا» تبادلنا بعض الكلمات ثم أودعوه ا لزنزانة رقم 1 إلى جانب زنزانتي. في تلك الاثناء كان الناجي الثالث قد لاح في عتبة الباب الكبير، عندما نظرت اليه اقشعر بدني لأنني لم أتصور أبدا أن أراه على هذه الحال، بمثل هذا التشوه، وقد احدودب ظهره وأمسك بعصا في كل يد، جدعه وقدماه متعامدان، يجر بصعوبة قدميه الرخوتين الهزيلتين تكاد تكونان جامدتين. نظر إلينا باسما و هو يبحث عن معارفه. عيناه الضاحكتان غارقتان في حاجبين كثين، تأملت الوجوه المختلطة،، ثم تعالي صوته «آه منصت، صفريوي، سعودي، يا للمفاجأة» استقبل بنفس الحفاوة و الحب اللذين استقبل بهما الآخرون، ثم حدد له أحد الحراس الزنزانة

رقم 7 التي توفي فيها شجاعي سنة 1979، همس لي سعودي صاحب النظرات الفاحصة الفضولية: لا أصدق ما أرى، لم أتخيل أبدا انني سأرى بين بين على هذا النحو. لقد كان من كبار الممارسين للرياضة وأكثر أفراد فوجنا حيوية ودينامية، لا يكل في «المارش» التأديبي. انظر الى مشيته التي تشبه مشية عائد من الجحيم. أتساءل هل هو بين بين أم شخص آخر؟» رغم أنني كنت أحس بذات الضيق والاشمئزاز فقد أخفيت دموعي حتى لا أحط من معنوياته، وقد شاهدت العديد منا والدموع في ماقيهم لهذه الفظاعة. وبين بين عبد العزيز الملقب ببانبان من مواليد 1945 بمراكش من عائلة برجوازية معروفة في المدينة، استنكر أبوه فعلته عندما علم بأنه مشارك في الصخيرات ورفض أي لقاء به. أما أمه، الحنون الرائعة التي أغمي عليها في المحكمة عندما استمعت الحكم الذي أدان ابنها ب.. سنوات سجنا، فقد كانت إنسانة متعلمة مراقبة مالية. لهذا تلقى الابن تربية عصرية تأثر بأجوائها منذ نعومة أظافره. كان بين بين مظليا مثل الدوادي يحب الرياضة وحياة الحانات، وبما أنه كان جميلا وأنيقا فقد حالفه الحظ مع النساء، حولته الظروف الحالية الى شخص آخر بأسمال رثة وجسم مشوه يمشي ببطء كالحلزون.

جيء بآخر الرفاق الأربعة الناجين من البناية2، وقد استند الى أحد الحراس يساعده علي صعود الادراج، فيما اتكأ هو على «عكازته» يجر رجليه، كان الرابع هو غاني عاشور أكبر المعتقلين سنا. وقد تعرفت عليه بسرعة لأن الشيخوخة لم تنل منه كثيرا رغم ظروف المعتقل الرهيبة شعره بالكاد وخطه الشيب. كما أن التسوس لم يمس أسنانه. بدا عاشور الأسمر منتفخ الجسم بفعل البرد والروماتيزم لا تظهر عليه تشوهات كبيرة وإن علمت فيما بعد أنه مثخن بالامراض الباطنية ويعاني نفسيا، وضع يده أفقيا فوق جبينه ليميز المنادين عليه، لم يتذكر بعضنا وخلط بين أسماء آخرين، تحدث هناك شخص يهذي ونظراته تائهة وقد أدهشه هذا الترحيل المفاجئ.

عاشور من أصل أمازيغي من زمور، عاش في البادية يرعى الغنم الى أن بلغ سن العشرين وانخرط في صفوف الجيش الفرنسي، شارك في حرب الهند الصينية قبل أن يفر ويلتحق بجيش التحرير ثم يندمج في القوات المسلحة الملكية، كان سائقا مجموعته قبل أن يصبح ضابط صف. وقد نسي المسؤولون والجنود أنه كان سائقا وهذه جزئية ستكون لها أهمية كبيرة فيما بعد تجعل من قصة «عاشور» قضية غريبة.

عندمـا كان اعـبـابو يـهـيء للانـقلاب لم يـفكر أحد في هـذا المعـتـقل رغم حـاجـتـه الـى سـائق إضـافي، وعـاشـور دفـعـه حـبـه للاسـتطلاع إلا أن يطرح السؤال: الى أين ستتوجـهون بكل هذه السيارات والشاحنات؟ فأجابوه: إننا ذاهبون من أجل مناورة بن سليمان بالقرب من الدار البيضاء.

توجـه عـاشـور مـبـاشـرة الى لاجـودان شـاف ديك المشرف على المراب ليعرض عليه خدمته. فأجابه ديك: «هذا جيد فأنا أريد سائقا بارعا ولعله حسن الحظ الذي جاء بك، أنت هبـة سقطت علي من السماء، لقد نسيتك تماما».

- أنا أيضا أود السـفـر والـتـجـوال لأنـنـي أخـتـنق في هـذه الـقـريـة التي تنعدم فيها الملاهي».

هكذا وجد ديك سائقه ووجد عاشور فرصته للتجول.

ولو أن عاشور، في الصخيرات، التزم بدوره كسائق ووضع يديه على المقود في انتظار العودة لوفر على أمه وزوجته وأبنائه الخمسة الصغار عـقدين من المأساة والشقاء: لكن الرشقـات الرصـاصـيـة والانفجـارات والصراخ والاوامر، كل هذا أيقظ فيه نزوعات حرب الهند الصينية، فقفز من سيـارة «الجيب» ثم أمسك بـالرشاش AA52 وقلد عقـا بحيث وضع الخراطيش على صدره مثل زاباطا المكسيكي ولزم العملاق عقا مثل ظله.

في ما بعد عندما أرخى الليل سدوله على مقر القيادة العامة ووقعت المواجـهة بين الجنرال بشير البوهالي وعدوه اللدود الكولونيل اعبابو، أعطى كل منهما الاوامر باطلاق الرصاص، توفي على الفور الجنرال على إثر ذلك ولحق به اعبابو كما هو معروف. أمام المحكمة نفى كل من عقا وعاشور تهمة، اغتيال الجنرال، وبين التشريح أن الرصاصات القاتلة اطلقت من رشاش AA 52 الذي كان بحوزة كل منهما. كما أنهما كانا الى جـانب الكولونيل الانقلابي. فأدانتـهمـا المحكمـة العسكرية بالقنيطرة بالمؤبد، لقد أدينا معا لأجل نفس التهمة.

أفهم أن عقا شارك في الحرب العالمية الثانية والحرب الصينية، وشح مرات عديدة لمشاركته في المواجهات الشرسة لجبل كاسيف بايطاليا وفي هانوي، شـارك شخصيـا في القبض على الرجل صاحب الفـاس «البطل الثـائر الذي نعتـتـه الصحـافـة الاسـتـعـمـارية ب «قـاتل تادلة» البطل الحنصالي وكلف بحراسته خلال ترحيله، كما شارك في قمع انتفاضة كاريان سنطرال، بالبيضاء سنة 1955 وأبان عن فظاعة خاصة في قمع المقاومة المغربية باعتباره ضابطا في «الكوم» وأفهم أنه كان الذراع

الايمن لاعبابو. لكن ماذا عن عاشور؟ ألم تكن مهمته هي السياقة؟ وحسب رايي، فإن هدفه الوحيد وأمنيته الوحيدة كانت هي تغيير الاجواء وزيارة البيضاء إذا أمكن، لكن القدر أراد غير ذلك وماهو «مكتوب» لابد أن يقع.

الآن أراه أمامي يمشي على مهل، يبتسم ويحدث البعض ويمازح البعض الآخر ويربت على كتف طرف ثالث، كان يعتمر عمامة على الطريقة الامازيغية وصدرية مرتقة وبنطلون قصير يصل الى ركبتيه مثل سراويل قراصنة أعالي البحار، وقد كان عاشور قرصانا حقيقيا.

وقف أمامي مبتسما وقال: كيف تجدني يا صابر؟ (كان صابر الاسم العائلي الاول).

أجبته: «أراك مثل زاباطا بلباس لاعب هوكي» لم يفهم ما قلته لكنه ابتسم.

بعد توزيع الطعام وإغلاق الابواب، رحل الحراس وتركونا وحيدين نتجاذب أطراف الحديث طوال الليل. حدثونا عن مآساتكم وأطلنا الحديث حول الاخوة بوريكات ومغامراتهم، كما حدثناهم عن كل مجريات العالم ولزمتنا عدة أسابيع والحق أنهم كانوا معزولين أكثر منا، أشبه ما يكونون بأهل الكهف كما يلوح ذلك من خلال اندهاشهم لرؤية الأوراق النقدية الجديدة.

وهبناهم أيضا أجهزة المذياع ليستأنسوا بالأخبار والموسيقى، بعد أن حدثناهم عن منجزات الفريق الوطني في مونديال 86 بالمكسيك وعن الثورة الخمينية والحرب الأهلية بلبنان وعن الرؤساء الذين ماتوا وحرب الخليج وصدام حسين والسيدة الحديدية وموت تيتو وأطفال الحجارة وحدثناهم مطولا عن نلسون مانديلا والابرتايد والأحداث الوطنية، اكتفى المساكين بالانصات وكل يوم كانت دهشتهم تزداد.

يسعدني جدا هنا أن أحكي عن الاكتتاب الإضافي لصالحهم الذي شارك فيه الجميع على مستوى البناية، بكل روح تعاونية وتعاطفية، ولعل ماهو أروع هي مشاركة الأكثر تضررا الذين اقتسموا معهم رأسمالهم الهزيل لابد للمرء من المرور بتازمامارت لكي يختبر نفسه ونبله، وإذا كان التضامن فضيلة تولد مع الإنسان فإنه أيضا شيء يتعلمه المرؤ عندما يكون قد قضى أياما صعبة وسنوات شقاء طويلة يرجو فيها المساعدة دون أن يجد من يساعده، وهذا الإحساس بالتخلي والنسيان والصرخة المرة التي تطلب الانقاذ يخفيها الكبرياء،

استشعرناه لدى رفاقنا وفهمناه دون أن يعبروا عنه، ودون أن يطالبوا بشيء لبينا ما جال في خاطرهم.

منذ اليوم الأول لوصولهم اقتسم معهم الطويل طعامه المميز وابتعنا لهم الأدوية والمقويات، عندما سلمنا الحارس المرسول طلباتنا مع الإلحاح على استعجاليتها بعبارة «من أجل الرفاق ! استجاب سيرفير بسرعة غير معهودة، بل انتشر وخاطبنا: «مادمتم قد فكرتم في هؤلاء التعساء سأقوم أنا بدوري بتلبية الطلب بسرعة البرق .. أنا أيضا أريد أن أجازى بالجنة .. أنتم فعلا رائعون». ولم تمض إلا بضعة أيام حتى بدأ بين وبين وداودي ينقلان إلينا الأخبار التي التقطاها، وكانا يفعلان ذلك بلغتنا المرموزة «سليدكس» *SLIDEX*. نجحنا في استمالة الحراس الذين تساهلوا معنا وتركونا نتجول في الكولوار، ومن حسن الحظ أن فريقين منهم كانا يتناوبان على الحراسة، وكان كل فريق يطلب منا التكتم على ما يقوم به وعدم إخبار الثاني، فاغتنمناها فرصة واستفدنا منهما معا.

تميز شهر يوليوز بتراخ شامل للحراس، كما أنه كان حارقا، حرارة وأحداثا حيث عرف التهيئ لزيارة قريبة للجنة، فقام الحراس بمساعدة بعض المعتقلين بتنظيف المكان مستعملين مواد التنظيف المعروفة للقضاء على الرائحة الكريهة المنبعثة منه، كما وزعوا علينا قطعا صغيرة من الصابون لتنظيف أوساخنا.

تنقية الساحة من الأعشاب والإصلاحات هنا وهناك وتنظيف الطاجر تنظيفا حقيقيا، كانت كلها أعمال تجعلنا نعتقد بأن الشائعات الرائجة صحيحة: مما زاد من تفاؤلنا تلك الأخبار التي كانت تفد علينا كل لحظة، إضافة الى ما يأتي به الحارس سيرفير، ما انفك الرفاق من السادسة صباحا إلى العاشرة ليلا يتناوبون على اخبارنا بعد قطع دردشاتنا: كيك ليكيكس! جاءتنا بعض البذور من ضيعة باطا تخص بوطاغاز ... إلخ، وكيك - ليكيكس رمز متعارف عليه لأخذ الكلمة وفرض الصمت وإثارة الانتباه، وقد أخذناه من النطق الخاطئ لأحد المسؤولين للعبارة الاستفهامية ما هذا (*Qu'est ce que c'est que ça?*)، إذا فككنا الشفرة فالعبارة تعني: «انصتوا جيدا، لقد التقطنا بعض الأخبار من إذاعة سويسرا تخص تازمامارت ..» أو عبارة أخرى: «كيك - ليكيكس، إليكم بعض هشيشات معدة في فرن الريفية» (إذاعة فرنسا الدولية «إر.إي.في» «*RFI*») أو ميني جيب (انجلترا) أو با سيدي با «بي.بي.سي» *BBC* أو

زبيدا والمقصود بها هولندا ... إلخ، وافهم الآن لماذا كان الحراس يعتقدون بأننا مجانين، وقد كنا قاب قوسين أو أدنى من الحمق فعلا بعد كل سنوات العزلة والظلمة والعذاب، ومازلت أذكر ليلة وصول رفاقنا، كنت ليلتها وحيدا أفكر في حالتنا وفي مواكب الرعب تتوالى أمام عيني، ولعل ما أثارني أكثر هي الحالة النفسية لبعضنا، صباح اليوم الموالي مثلا، استيقظ سكيبة مبكرا ليرتل القرآن بصوت مرتفع غير عابئ بالنيام ودون أن يتعمد ذلك طبعا، وبعد القرآن انطلق يغني أغاني شعبية ختمناها بزغاريد ولا زغاريد النساء! لقد كان ذلك مؤلما للغاية ويثير الاشمئزاز، عاشور نفسه كان يحكي الأشياء خيالية يعتقد أنها واقعية، أما بين وبين وداودي فقد حافظا على أنفتهما السابقة لكن تشوهات جسديهما جعلتهما عنيدين، لأنها صدمتهما. لقد احتفظ رفاقنا الأربعة، الناجون الوحيدون من جحيم البناية 2 بعض آثار الفزع واليأس، لأنهم ظلوا بمحاذاة الموت طويلا ولأن الخوف نسج شباكه في أعماقهم، لاحظنا جميعا عنادهم، لهذا قررنا عدم معاكستهم أبدا، حتى عندما طلب المتطوعون منا من الداودي وبين وبين تسليمهما غطاءاتهما قصد تصبينها رفضا بدعوى أنهما قادران على ذلك، والواقع أنهما كانا جد منهكين، وعلى الغطاءات كان الرفاق المحتضرون يتوسلون للحراس تسليم أغطيتهم بعد موتهم للرفاق الأكثر تضررا من البرد لعلها تدفئ عظامهم، وياله من فعل إنساني رفيع لأناس مشرفين على الموت، لقد رحلوا بعد أن قاموا بفعلة نبيلة لن تنمحي من الذاكرة.

أذكر أن غسل غطاء عاشور تطلب مجهودات 4 متطوعين بدلوه على فترات! ولعل عمليات النظافة في تازمامارت كانت من أصعب الأشغال!

لعل حالة بوشعيب اسكيبة كانت أغرب الحالات الأربع لرفاقنا «الجدد» إذ رفض، رغم إلحاح كل المعتقلين أن يحلق لحيته الكثة أو شعره الطويل، كما أصر على ارتداء قميصه و«شورته» الكاكي، شتاء وصيفا.

كان يفضل المشي حافي القدمين رغبة في الاحساس بالالم وممارسة «اليوغا» من أجل التركيز وراحة النفس. كان يفعل ذلك بنكران ذات أو هذا ما كان الأصدقاء يعتقدون. لكن الحقيقة هي التي اكتشفتها ذات يوم لما طلبت منه بأدب «انصت إلي، أنت انسان طيب جد مهذب، لكن ما لا يعجبني هو هذا الاهمال التام من جهتك. انظر الى الرفاق، كلهم يرتدون بنطلونات وسترات ونعالا. إذن افعل مثلهم واحلق شعر رأسك ولحيتك

وانتعل نعالا».

اجابني بهدوء وقد اطرق مطئطئا: «أعرف انك على حق» لكن «الآخر» يرفض، ويمنعني من القيام بما تقول» وأشار بيده إلى الزنزانة ثم اضاف «انه لا يريد ذلك وهو يتملكني» تركني وتوجه الى مكانه يؤرجح ذراعيه نحو الأمام منحني الرأس مائلا قليلا نحو اليسار. وقد نسي ولاشك محادثاتنا. تسمرت في مكاني مذهولا غير فاهم. تدخل رفيق ثالث وطرح علي السؤال التالي:

- هل فهمت ما قال

لا، لا ابدا

فعقب قائلا:

- انا بدوري فاتحته في الموضوع ورد علي نفس الرد. الححت عليه بالشرح فقال بأن «الآخر» هو «الجني» الذي تعقبه إلى هنا وأمره بأن يظل علي حاله كشرط ليلهمه حكمة البوذيين.

لم اجد جوابا، والتزمت الصمت أفكر في المصير المؤلم لبوشعيب الفتى الطيب، فيما واصل محدثي كلامه.

صراحة، إن رفاقنا في البناية 2 كلهم غريبو الأطوار».

اما انا فقد شرد ذهني وتراءى لي موكب المجانين الذين مروا بالمعتقل. بعد محاولات عديدة وإصرار قوي من طرفنا قبل أن يفعل ما طلبنا منه مضيفا: «أنا موافق لكن إذا ما غضب» الآخر عليكم أن تتدبروا الأمر معه. انتم المسؤولون عن مأساتي» ثم أشار بأصبعه إلى الزنزانة: «اذهبوا وسووا الأمر مع الآخر».

ذات صباح من أيام آخر أسبوع شهر يوليوز أخبرنا رفيق كان يستمع لبرنامج إذاعة فرنسا الدولية بأنه في هذا اليوم، في الساعة الثانية عشرة والنصف زوالا، ستحل إلهام الرايس ضيفة اليوم. انتظرنا تلك اللحظة بفارغ الصبر، بعد توزيع الغذاء ورحيل الحراس أصغى كل الرفاق باهتمام. من جهتي انتظرت اللحظة التي سأسمع فيها صوت ابنتي لأول مرة منذ 7 غشت 1973، وذهني شارد يحلم ويسترجع الماضي البعيد بعد أن مزقه النسيان. فالتمع وجه ابنتي الملائكي تبعا لمراحل نموها، تراءت لي بشعرها الكستنائي المجعد وبشرتها السمراء، باسمة دائمة الثورية وبسيطة وتلقائيه.

كان عمرها 8 سنوات ساعة اعتقالي، ورغم صغر سنها وقتها كانت تبدو ناضجة الفكر تحب مناقشة الأشياء الجدية. كانت تتعلق برقبتي

قبل أن تقبلني قبلات طويلة. كل صباح تقول انها رأتني في أحلامها الطفولية ... تحبني وأنا أحبها.

شردت في الحنين والذكريات الراسخة في الذاكرة، إلى أن نبهتني موسيقى البرنامج، ليبدأ الحوار. كانت ميراي بومبو تسأل وإلهام تجيب، متوترة تارة وهادئة متفائلة تارة أخرى. لم أتعرف على صوتها، لأنه صوت امرأة وليس صوت الصغيرة التي عرفت. كانت تتحدث وقلبي ينبض بشدة وسرت في جسدي قشعريرة سبب لي الدوار. انتفض حبي الأبوي قويا ولم أتمالك نفسي فانهمرت دموع حرى على خذي المجعد. اهتز كياني كله وبدأت أرتعد كورقة، ضاعت كلمات عديدة لم أسمعها لأنني كنت أنتحب وأهذي، نحيبي جمع بين فرحة الانصات لابنتي والحزن. كنت أنصت وأبكي لتلك الرهافة التي كانت إلهام تتحدث بها والتي كانت تنفذ الى قلبي. كنت أسمع أنفاسها، ترددها وهي تبحث عن الكلمة المناسبة، تنهداتها المفعمة بالأسى. لما سمعتها تقول بأنها قامت بكل شيء لإنقاذي وأنها مستعدة للتضحية بنفسها لتحقيق حلمها، أحسست بتوتر شديد أصابني بالدوار، أحسست بأن موجة عاتية تحملني نحو العدم، لم أعد أنصت وأضحى كل شيء أمامي ضبابيا وأغمي علي مدة من الزمن دون أن انتبه.

حكي لي الرفاق فيما بعد كل تفاصيل الحوار وتأثر كل الرفاق لما وقع لي بل إن بعضهم بكى لبكائي ومما رواه لي الرفاق أن الجميع هلل بعد انتهاء البرنامج وبدأوا ينادون عليَّ لتهنئتي، لكنني لم أرد لأنني كنت في .. السحاب، ولما استعدت أنفاسي كان الصمت مخيما على البناية لأن الوقت وقت قيلولة رغم أنني كنت متأكدا بألا أحد نائم.

مساء نفس اليوم جرت مناقشات جدية، فقررنا، لأسباب أمنية، اخفاء كل أشيائنا التي قد تفضحنا، وقد كنا هيأنا أماكن لاخفائها، والحال أنني شخصيا، أي الهدف رقم 1 الأكثر تورطا في القضية، لم أكن أتوفر على مخبأ لجهاز الترانزستور والأدوية والرسائل والصور العائلية والنقود، كان الأمر خطيرا على الجميع، لهذا قبل بعض المتطوعين اخفاء أشيائي.

تحدثت إلهام مرتين على أمواج إذاعة فرنسا و«البي.بي.سي» وراديو سويسرا ولمحت مرات عديدة الى جنود الاتصالات السرية، بإعطاء أكبر ما يمكن من التفاصيل حول ظروفنا وأمراضنا وموتانا، مما يسبب الحمي الصفراء للمسؤولين والسكتة القلبية لمدير السجن.

تغير الحراس وأصبحوا أكثر حذرا وانطواء وعدوانيين أحيانا وأصبحت مثل مصاب بالجذام ينبذني الجميع، وتفادى الحراس الاقتراب مني أو الحديث إليَّ، خوفا من أن أشي بهم في حالة التحقيق، خاف «البارونات» و «الفراعنة» في البناية من استغلالي للحادثة والانتقام منهم بتوريطهم معي واتهامهم بكل ما وقع. وحدهم «المعوزون» صفقوا لمبادرة إلهام وقد تجرأ الطويل ولاحظ بوضوح:

- لقد أفسدت ابنتك كل ما بنيناه وسنضيع جميعا، ليس من مصلحتنا أن تكتشف كل ما تعرف، لأنها كشفت عدة أسرار، ولاشك أن اتصالاتنا ستنقطع ونكون عرضة للانتقام.

أجبته:

- لايمكنك أن تقلي البيض دون تكسيره.

لم يكن عليها أن تكتشف كل الجزئيات لأن ذلك ضار بنا وبك.

- أنا لم أكن معها لأمنعها من فعل ذلك، وعلى كل لقد سبق السيف العذل.

لماذا أنت عنيف في حوارك، نحن نتناقش فقط.

- السبب أن كل واحد منا يبحث عن انقاذ نفسه دون الاهتمام بالاخرين، ولاتنس أن زوجتك تحدثت عن حالتك فقط، أما إلهام ابنتي فقد تحدثت عنا جميعا، ولعله الحل الوحيد لإنقاذنا، وأنت تعرف أن المعركة استنزاف ضد الموت لم تعد تجدي لأننا نفقد كل سنة 3 رفاق، ماذا نفعل؟ هل ننتظر دورنا، وختاما سأقول لك عبارة بالدارجة لاشك انك تعرفها «اللي كاتشطح ما درق وجهها» غادرني الطويل دون أن يجيب تفاديا للمواجهة معي، ولم يفتأ العديد من الرفاق يطرحون السؤال حول تعاملي مع المحققين إذا ما أرادوا معرفة طريقة اتصالي، أحسست بأن هذه القضية تشغلهم إلى درجة الازعاج فكشفت لهم عما يدور في خلدي.

انصتوا جيدا، لاتحزنوا لأنه سبق وفكرت في الأمر درءا لكل الاحتمالات، مادام ابن إدريس قد توفي بعد ربطنا للاتصالات سأقول لهم بأنه هو الذي كان يقوم بذلك منذ مدة، والحراس كلهم يعرفون بأننا نعرف بعضنا منذ 1958، وعليه فهو صديق لي ولا أحد سيكذب ما أقول، لأن الموتى لايتكلمون، والعائلة نفسها لاتعرف المبعوث لأن الاتصال يتم ليلا بواسطة شخص نكرة»، رضي الجميع بالجواب ومرت الأيام بلا خوف أو أحداث وخفت حدة التوتر. بعد أسبوعين ثابر المرضون على

زيارتنا بانتظام، وظل سيرفير يخدمنا كالمعتاد غير أبه بما قد يجر عليه ذلك، كما كنا نتابع كل ما يحدث في العالم، من قبيل ندوة جنيف حول حقوق الإنسان (وقد علمت فيما بعد أن إلهام ابنتي حضرتها للدفاع عني)، والكشف عن وجود المعتقل السري من طرف مدام كريستين دور السرفاتي وتنقلاتها في كل مكان دفاعا عن قضيتنا، تصريحاتها الجريئة ضد الظلم، كنا نصفق بحرارة لشجاعتها ونضالها لفك الطوق عنا، وتاثرنا كثيرا لمعركتها وأصبح اسمها كالنار على علم مما زاد من اعجابنا، والحق اقول إنها تستحق كل التقدير كبطلة لأنها كانت سندا معنويا كبيرا لنا في اللحظات الصعبة التي يخبو فيها الأمل، مرات عديدة جرفنا اليأس لكن مساعيها كانت تبعثنا من الرماد مثل طائر الفنيق، لقد بذلت كل ما في وسعها لإنقاذنا ونجحت في ذلك لقد قامت بما عجز العديدون عن القيام به، نحن مدينون لها بالحياة لن ننكر جميلها وسيظل اسمها منحوتا في ذاكرتنا الى الأبد، ألف، ألف شكر لها، فبفضل الضجة الإعلامية والحملة المناهضة للمعتقل بدأ السجانون يفكرون في المستقبل.

ذات صباح من الأيام الأولى لشهر غشت جاءوا مبكرا وفتحوا الأبواب وطلبوا منا بمحض ارادتهم الاقتراب من الباب الكبير لاستنشاق الهواء الصافي الذي حرمونا منه منذ غشت 73. ورؤية الشمس. بعد ذلك حدث مرارا أن سمح لنا الحراس بالجلوس على الأدراج لمدة عشر دقائق للاستمتاع بالشمس (حمام شمس) والتملي بزرقة السماء والإحساس بالضوء والدفء الطبيعيين. وقتها، لم أر جلدا شاحبا مثل جلودنا ومجعدا مثل جلودنا. من رآنا يظن أننا نعبد «فيبوس». والحال أن الشمس والهواء، إلى إشعار آخر، كانا دائما بالمجان، لماذا حرمنا منهما كل هذه السنين وأكادير مشهورة سياحيا بأنها مدينة الـ 300 يوم شمس؟

بخصوص الإخوة بوريكات، كنا نراهم جالسين بدورهم أمام بنايتهم، كنا نتبادل الإشارات الودية عن بعد، إشارات فيها الكثير من التعاطف والود، نتواصى بواسطتها بالصبر والشجاعة.

ذات صباح صيفي سمح لي ميمون لغليظ بالخروج أمام الباب للتشمس، فالتحق بي كل من اعكاو والماغوتي. رأينا فوق الجبل الذي يطل على المعتقل على بعد 400 متر طيف شخص ما واقفا وقد أمسك بيده شيئا لامعا. لاحظ الماغوتي الذي كان طيارا وظل محتفظا بحدة

بصره أن الشخص المعني أبيض البشرة طويل القامة، يرتدي قميصا أزرق وبنطالونا فاتح اللون. أما الشيء الذي يلتمع من البعيد، فقد كان آلة تصوير. لاحظ الحارس ميمون ذات الشخص المجهول الذي غامر بالاقتراب من البناء خارقا التعليمات وملتفا على الحراسة الدقيقة، فطلب منا الحارس العودة الى أماكننا ثم أسرع بإخبار المدير. وقد علمت فيما بعد بأنه صحفي فرنسي كبير جاء الى عين المكان بحثا عن الحقيقة وخاطر بحياته ليلتقط صورا للمعتقل عن قرب. عندما علم رفاقنا بالأمر، سرت فيهم الحمى وسعدوا بالأمر، لأن ذلك يعني أننا لم نغرق في النسيان، لأن أناسا ما يهتمون بنا.

زادت حرارة الصيف وأدفأت حرارة الأمل قلوبنا التي أعياها الملل وانتظار الحرية... «تهاطلت» الأنباء السارة من كل حدب وصوب واعترتنا رعشة الأمل الكبيرة، ونفد صبرنا في انتظار الشعاع الذي سيمزق سدف الليل. أمطرنا الحارس سيرفير بالأسئلة عن اللجنة المنتظر وصولها. حدست بما يشبه اليقين بأن جديدا ما سيحصل بعد أن اطلعنا على خبر إطلاق سراح 14 معتقل رأي منتمين إلى منظمة «إلى الإمام» التي سبق لها أن أصدرت بيانا يطالب بإطلاق سراحنا، ويوم 13 شتنبر 1991، بثت كل محطات العالم النبأ الذي تيقنا بواسطته بأن دورنا يدنو بخطى حثيثة. كان النبأ نبأ إطلاق سراح ابراهام السرفاتي الذي رفع معنوياتنا.

بعد ذلك استطاع الطويل الذي نال تعاطف الحراس أن يأتينا بنبأ أكثر سرورا، إذ دخل علينا البناية، وطلب منا التكتم على ما سيقوله قبل أن يكشف لنا أننا سنغادر تازمامارت قريبا.

مغادرة الجحيم

أخبرنا الطويل بمغادرتنا لتازمامارت قريبا، لم نصدق الخبرمن فرط ما كان خبرا مفرحا وجميلا، لكن الوقائع الملموسة كانت أمام أعيننا، لأن كل هذه الضجة العالمية لا يمكن أن تذهب هدرا. عم فرح لايوصف وانتشينا انتشاء لا مثيل له. بعد أن عاد الهدوء توجهت الى غلول بالقول، بعد أن طلبت صمت الجميع. «أيها الصديق العزيز أريد منك أن تزور عائلتي بالرباط وتواسي أسرتي. سلم على والدتي وزوجتي وأبنائي وقل لهم بأنني مازلت حيا أرزق، ومعنوياتي مرتفعة، قل لهم أنني أفكر فيهم دوما وأحبهم كثيرا وربما سيأذن الله لنا باللقاء يوما ما». تعالت الاحتجاجات وسخط البعض وصاح فيّ آخرون غاضبين «سنخرج جميعا، فلا تكن متشائما» أجبتهم: أعتقد ذلك، هل نسيتم قضية إلهام؟ إن المخزن ينتظرني في أول منعطف وسيكون انتقامه قاسيا».

يوم *14* شتنبر كان يوما مثل كل الأيام. بنفس الطقوس والأحداث. مساء ذلك اليوم، كان المعتقلون يعلقون على الاخبار أو يرتلون القرآن الكريم، جفاني النوم، بسبب الناموس والبق، هاجمت هذه الحشرات عنقي ويدي طيلة الليل فحرمتني من النوم، في السابق كان طردها سهلا، أما اليوم أصبحنا نستعمل لهب الشموع لطردها، قضيت الليل في مطاردتها في كل ركن وإحراقها لعلي أنام قليلا في الليلة الموالية، صباح يوم الاحد *15* شتنبر *1991* كنا ننتظر يوما عاديا. أي نستيقظ فنتناول قهوتنا، نسمع الاخبار، نعلق عليها وننتظر ما ننتظره منذ *18* سنة و*39* يوما، فنحن أصبحنا متسولي المعجزة ويتامى الأمل ومنسيي العالم، ذات يوم، بعد توزيع الماء والقهوة كان الحراس على أهبة إغلاق الأبواب عندما جاء لاجودان شاف مزيان نائب المدير العارف بخبايا الأمور، وأمرهم بترك الأبواب مشرعة، ثم توجه إلينا بالقول. «انصتوا جيدا. سنوزع عليكم الصابون لتغتسلوا ثم سنسلمكم سترات وبنطلونات (عسكرية) وقميصا كاكيا وأحذية رياضية جديدة، لترتدوها عوضا عن أسمالكم التي سنجمعها ونحرقها. ثم ستضعون في الزنازن الفارغة كل دلوه وأشياءه غير القابلة للاستعمال. يجب أن تفرغوا زنازنكم مما فيها بما في ذلك

الأغطية التي سنشعل النار فيها في الساحة. اسرعوا إذن لأننا في عجلة من أمرنا»، امطروه بالأسئلة لكنه ظل يردد: «ليس في وسعي اخباركم بأي شيء في الوقت الراهن» ألح بعضنا: «لماذا إذن، هل هناك جديد؟ هل ستصل اللجنة اليوم؟» أجابنا، «لاعلم لي، لكن صدقوني هذا الأمر فيه خير لكم وستحل قضيتكم اليوم بالذات والكل مرتبط بمواقفكم وأجوبتكم». لم يقل شيئا محددا وظلت أجوبته فضفاضة. وغامضة وإن كان تفاؤله وابتسامته دليلا على حسن الطالع، لم يصدقه البعض منا، مع ذلك، ولما لاحظ هذا الأمر طمأننا بأن اللجنة ستصل وأن هناك احتمالا كبيرا بأننا سنرحل من هنا، وطرح كل واحد منا على نفسه الأسئلة التالية: الى أين سنذهب؟ الى بيوتنا أم الى سجن آخر؟ أليست هذه لعبة جديدة لاخفاء هذه الأسطورة؟». ظلت أسئلتنا عالقة، لكنهم وزعوا علينا الصابون والملابس وشفرات الحلاقة، كنا نسابق الساعة وحراسنا أكثر عجلة منا وأكثر توترا، ألفنا أن الزمن لاقيمة له في تازمامارت، والحال أن الجميع اليوم صار عبدا له. منذ عقدين والزمن ملكا لنا، كان أمامنا الوقت الكافي لنتعفن ونموت ببطء ، والآن علينا أن نسرع.

خلعنا اسمالنا واغتسلنا ولبسنا الملابس الجديدة وحملنا «اشياءنا» الى الزنازن الفارغة، كانت هناك 29 زنزانة ونحن 28 معتقلا حيا من أصل 58 سجنوا في غشت 1973 ، مرت الصبيحة وسط ضجيج لايطاق وحركة دائبة. والاستعداد لشيء لانعرف مغزاه.

وخلافا لكل الوجبات التي كنا نتناولها في السابق جيء لنا وقت الغذاء بسلاطة متنوعة، ولحم الضأن بالسفرجل (الذي نسيت أنه موجود!) وبرتقالة. أمر لا يصدق، ختموه بالشاي المنعنع!

في الساعة الثانية زوالا، جاء الحراس وجمعوا اغطيتنا ليحرقوها في الساحة، رفضنا من قبل ارتداء الملابس الجديدة التي لا تقينا البرد، وطلبنا أن نأخذ أشياء نستدفئ بها، رفضوا رفضا قاطعا وذكروا لنا بأننا سنخضع للتفتيش قبل الرحيل، أصر أحدنا على موقفه «أنا أرفض هذه الملابس ولن أخدع مرة أخرى بما حدث في 1973، مادمنا سنرحل الى سجن آخر من الأفضل أن تتركوا لنا مزقنا»، رد عليه لاجودان مزيان:

من قال بأنكم سترحلون الى سجن آخر؟ اقسم لكم بأنكم ستنقلون الى مستشفى لأجل العلاج. فهل أنتم راضون الآن؟ إذن اخلعوا كل ملابسكم الداخلية المتسخة، ألا ترون بأنكم أشبه برواد الفضاء» ضج المكان بالضحك، الذي زاد بسبب النبأ السار. انصاع الجميع باستثناء بلكبير

لأنه لم يعد يثق في أي كان بالرغم من أن مزيان أخبره، وكان الوحيد الذي أخبره بأننا سنذهب الى منازلنا.

أفرغت الزنازن قبل السادسة مساء واحرقت الأغطية ودفن رمادها كي لا تشهد على ما عانيناه: لم يعد هناك أدنى دليل على ما وقع باستثنائنا نحن وآثار الندوب علينا. تم تنظيف الزنازن من آثار الدم والقيح وسويت الساحة، فغابت الشواهد على ما وقع، حتى شهادات المعتقلين سيكون التهديد كافيا لإسكاتها.

مكثنا في زنازننا وحيدين كما في اليوم الأول لدخولنا. كنا نجهل الهدف من الترحيل، لم نكن نعرف بالضبط وجهة هذا السفر الليلي.

مع حلول الليل جيء بثلاثة مصابيح لإنارة الكولوار المظلم، وبدأ الانتظار الفتاك الذي زادت حدته بفعل الصمت المطبق، حوالي الثامنة ليلا سمعنا أصواتا في الساحة، كلما كانت تقترب كان نبض القلب يزداد عنفوانا، ويالها من تجربة مرة يختلط فيها الخوف بالشك. سمعنا وقع خطوات سريعة وحازمة تقترب، فتح الباب واكتسحه زوارنا الغامضون. كان كل المعتقلين واقفين خلف الأبواب مثلي، يتلصصون على ما يقع، مصيخين السمع لأدنى همسة. لاح لنا الكولونيل (ف) المشرف على عملية فلورانس مرتديا لباس «عفريتة» زرقاء (سالوبيت) ويعتمر قبعة «غولف» بنفس اللون، وبيده لائحة أسماء، ظهر قوي البنية رغم تجاوزه سن الستين، محافظا على ذات الديناميية والحيوية. سأل بلهجة الأمر: أين زنزانة بلكبير؟ - أجابه الحارس بأنها الزنزانة رقم4 . قادوه إليها فأمرهم بفتحها.

نفذ السارجان بوكيش الأمر، كان (ف) يعرف بلكبير جيدا، إذ كان برتبة لاجودان شاف عندما كان المعتقل برتبة ليوتنان. لم يجد أمامه الرجل الوسيم العملاق والأنيق الذي كان يداوم على العدو والتنس بل وجد عجوزا احدودب ظهره بالكاد يحرك قدميه. سأله:

ما اسمك؟

عبد اللطيف بلكبير، أجاب الآخر بصوت هادئ وواثق.

استدار الزائر المسؤول نحو مرؤوسه وصرخ فيهم:

لماذا يرتدي جوارب مدنية؟ انزعوا عنه ذلك! ما هذا الذي ترتديه تحت القميص؟

أجاب بلكبير غير أبه بالسؤال.

- أسمال أقي بها نفسي من البرد.

اخلعـهـا، ثـم اسـتـدار نحـو الحـراس» لم تقـومـوا بواجـبكم لهـذا ستعاقبون. لقد قلت لكم بعدم إخراج أي شيء من هنا ولو كان منديلا!» ثم التفت الى السجـين.

ماذا في جيبك؟

بعض أقراص الاسبرين وغاندان ومرهم مضاد للاكزيما.

سلم كل ذلك للحارس، فلن تحتاجها بعد اليوم أبدا!».

على جانب الكولونيل (ف) وقف رجل طويل القامة، قوي البنية عمره يربو على 40 سنة يرتدي وزرة بيضاء وبيده قبعة حمراء. تدخل بصوت هادئ ليوضح كلام الدركي الذي حيرنا جميعا خصوصا وقد ذكرنا بما وقع منذ عقدين عند ما طلب أحد المعتقلين نظاراته، فأجابه المسؤول: «لن تحتاج نظرا أو حياة بعد الآن!» شرح الواقف الذي تبين أنه طبيب عسكري برتبة كومندان، كلام (ف):

لا تحزن للامر، ستذهبون الى مكان تتلقون فيه أحسن علاج وسنتولى أمركم!».

لاحظ الكولونيل (ف) بأن بلكبير يتأبط قطعة خبز، فنهره بقوله «هل تعتقد أنك ستموت جوعا، سلمه للحارس!».

بعدما تقدم شاب أبيض البشرة عريض المنكبين يرتدي نفس اللباس الذي يرتديه رئيسه واقترب من السجين وبلطف شديد وحركات مدروسة وضع قطعة قطن على كل عين ثم وضع عصابة سوداء قبل أن يضع في الاخير نظارات سوداء كبيرة يشدها خيط بلاستيكي جهة العنق، ثم طلب منه الخروج من الزنزانة ومغادرة الكولوار.

مشى بلكبير كيف ما اتفق وهو مستند على الجدار، في منتصف الطريق تولاه اخر وألبسه جلبابا غطى «قبه» وجهه، في الخارج كانت شاحنات مصفحة تنتظرنا وبما أن الكولونيل كان على علم بتدهور حالتنا الصحية فقد هيأ لنا نظاما معينا للركوب ويتجلى في سلم على شكل لا معكوس بأدرج للصعود وأخرى للهبوط. تطلب الأمر مساعدة 3 دركيين لوضع بلكبير في مكانه.

بعد بلكبير جاء دور غلول، وهكذا دواليك الى أن جاء دور القبطانين حشاد والوافي، شك الكولونيل في هويتهما، ففحص لائحته مجددا ثم طلب منهما ترديد اسميهما، بعد أن اطمأن، بدأ يتأملهما وقد افتر ثغره عن ابتسامة تكاد لا ترى. لقد عرفهما سنة 1972، وكان مسؤولا عنهما منذ اعتقالهما الى أن رحلا الى تازمامارت ولم يرهما منذ 7 غشت 1973.

قبل أن يسلمهما لمرؤوسه تبادل معهما كلاما عاديا، ثم تركهما يتوجهان الى الشاحنة تواصلت العملية، الواحد تلو الآخر. بدءا بالاعلى رتبة الى الأقل رتبة" من الضباط الى ضباط الصف. عندما ما جاء دوري فتح الحارس باب زنزانتي ووجدت نفسي وجها لوجه مع الرجل الوسيم صاحب المنكبين العريضين الذي قابلني بابتسامة مفعمة بالتعاطف، قبل أن يشرع في عمله بكل لطف وعناية، ابانت أنه ولا شك متعود عليها لأنه كان يقوم بها بدون تعجل مثلما. يفعل حلاق مرن. قبل ذلك كان الكولونيل قد سألني عن اسمي الشخصي والعائلي، لما أجبته استدار نحو الطبيب ثم همس له بشيء ما، فماذا قال له بالضبط؟ لماذا نظرا إلي تلك النظرات؟ هل قال له: هاهو ذا المحكوم بالاعدام من طرف المحكمة لم يفلح النظام الجهنمي لتازمامارت في القضاء عليه، أم تراه قال له هذا هو الوغد الذي نجح في إرسال اسرار تازمامارت الى ابنته التي تقيم كل هذه الضجة في الاعلام العالمي؟ كنت مازلت غارقا في فك هذا اللغز عندما وجدت نفسي في الشاحنة، بعد أن رفعني أربعة دركيين ووضعوني بلطف مثل طرد كتب عليه «سريع العطب». لم أفهم لماذا لم يتركوني أصعد الأدراج، ربما كان ذلك بسبب قدمي المنتفختين اللتين جعلتا حركتي متباطئة، قيد معصمي الأيسر الي معصم أحد الدركيين والأيمن الى جاري المعتقل. منعنا الكولونيل من أدنى نأمة ولو كانت انينا، بعد ذلك جاء شخصيا لاعطاء التعليمات الأخيرة. بعد أن أركب معتقلي البناية *1* انتقلوا الى الاخوة بوريكات بالبناية رقم *2*. وقد كان التعب قد نال منهم فجيء لهم بآلة خاصة لنقلهم، بعد أن وضع مدحت على آلة حدباء تم اغلاق الباب من الخارج. كانت الساعة تشير الي حوالي التاسعة لأن المؤذن كان قد أذن لصلاة العشاء، بعدها مزقت الصفارة الصمت الرهيب وانطلق هدير المحركات وغادرت الشاحنات معتقل الموت الواحدة تلو الأخرى ... وبدأت الرحلة الكبرى نحو المجهول، نحو وجهة أخرى ولغز آخر.

النوم على سرير ناعم

سارت الشاحنات بسرعة محدودة على طريق غير معبدة لمدة طويلة قبل ان تصل الى طريق افضل. وطوال هذه الرحلة الشاقة توقفت القافلة مرات عديدة، كان الصمت الرهيب والانتظار يزيدان

من قلقنا. فيما بعد أخبرنا العديد من الرفاق انه كلما كانت الشاحنات تتوقف ويسمع صوت الاسلحة، كانوا يعتقدون بأنه الاعدام الشامل.
والحال ان هذه الاستراحات كانت لاسباب امنية ولسلك طريق ثانوية، كما يبدو من الاهتزازات المتواصلة طوال السفر، مما زاد من ألمنا ودفعنا الى الانين والزمجرة رغم التعليمات الصارمة. شخصيا ألمتني مفاصلي وزاد ألمها فلم يغمض لي جفن وشرد ذهني، لم استطع التركيز في ما سيأتي وإن اقتنعت بلاجدوى ذلك. فما وقع قد وقع ومهما تكون الوجهة الجديدة ستكون أفضل من تازمامارت، حتى المقبرة ستكون أحسن. وهذا مؤكد، لأن الكولونيل (ف) فاجأ دغوغي وهو يزمجر احتجاجا على الوضع المتعب لرحلته بسبب الحدبة في ظهره ، فهدده بإرجاعه الى تازمامارت إذا هو ظل على حاله. ويتضح من هذا أن (ف) الخبير بالأمكنة يعلم انه لا وجود لمكان أبشع وأنتن من تازمامارت.
عند منتصف الطريق أراد مدحت بوريكات ان يتبول فطلب الإذن من الحراس فرفضوا. وبعد ان تعب من التوسل والانين والاحتجاج والصراخ، لأن متانته كانت على وشك الانفجار قرر ان يبول في الشاحنة، وعندما كان يحاول فتح سلسلة السروال حذره الحراس. وبما أنه كان ممددا قبالتي فقد نبهته الى أنه قد يمسني ببوله، قائلا: «حاول ان تجد طريقة أخرى، فقد مر عقدان وهم يبولون علي». وقد فهت بهذا عمدا لإجبار الحراس على التصرف. وسرعان ما صاح به الدركي «أنتظر سأعطيك قنينة فارغة» ، احتج آخر، «إنها قنينتنا نتبول فيها» فأجابه الاول:
- لو تركناه يبول على الارضية فستزكمنا رائحة بوله، وعلى كل لقد احتج أحد رفاقه» ولما سلمناه القنينة علق أحدهما «أنا متأكد ان بوله أكثر نتانة من بول ثعلب».
سار الموكب طوال الليل ولم يصل قبل فجر اليوم الموالي الى المكان المقصود الذي عصبوا اعيننا كي لانراه ويظل مجهولا. كنا صباح يوم الاثنين ١٥ شتنبر، وكنت أتلهف للنزول لأنني كنت أخر من وصل دوره، اعطيت الاوامر لرفع القيود. ولما أطلقت يدي تنفست الصعداء، لقد تزامن رحيلنا مع أذان المؤذن وصادف وصولنا صياح الديكة، فقلت في نفسي «لعلها بداية طيبة».

امسك دركي بذراعي بلطف وخاطبني بأدب جم: الآن جاء دورك، قف بهدوء ولا تخشى السقوط، لأنني بجانبك «في الواقع كان هو الذي حملني لأن الارتجاج هدني. كان كل مرة يطلب مني رفع قدمي ويعدد الادراج التي سأصعد: بدأنا بدرجين، كلاهما مكان منبسط قطعناه في خطوات قليلة ثم صعدنا درجين آخرين ثم مشينا قبل ان نصعد عشرة أدراج أخرى: كان ذلك هو الطابق الاول، تعالى صوت «ف» الرهيب يشق الصمت الصباحي:

- ما اسمك؟

- الرايس محمد، وقد انقطعت انفاسي بسبب الجهد المبذول في هذه التنقلات.

- ضعوه في الغرفة 12.

قلت في نفسي هذا فأل حسن، لأنه قال «الغرفة» ولم يقل «الزنزانة» وما من شك انه مستشفى. طلب مني الحراس ان ابذل مجهودا صغيرا واحث الخطى، لكنني كنت أزحف مثل حلزون فاضطروا الى حملي ووضعوني فوق سرير في غرفتي الجديدة. احسست بيدين تفكان العقدة خلف عنقي لرفع النظارات السوداء الكبيرة، ثم تفكان العصابة وتنزعان قطعتي القطن. لما فتحت عيني وجدت الرجل الوسيم صاحب المنكبين العريضين يبتسم في وجهي، ابتسامة صادقة. خلفه وقف رجل كهل، أبيض البشرة يضع نظارات طبية وقد شبك يديه خلف ظهره وراح يمعن النظر في دون ان ينبس بكلمة. كان يرتدي بذلة برجوازية ويعطي الانطباع بأنه رجل متعب! اعتقدت انه الطبيب الرئيسي والحال انه كان - حسب ماقيل - الكولونيل (س) المشرف على عملية الترحيل. انصرف، ولم أره منذئذ، وبعد انصرافه حدثني الرجل الوسيم بقوله، هنا غير المكان الذي كنتم فيه، واحمدوا الله ان انقذكم. ستلقون هنا علاجا جيدا وتغذية لائقة. هناك كان الجحيم لقد كانت هذه المرة الاولى التي أراه فيها والحق «برافو»! للمقاومة.. سأدعك ترتاح .. الى اللقاء!. وكان ذلك بالاحرى وداعا بل لقاء لأنني لم أره بعدها.

بعد إغلاق الباب وجدت نفسي وحيدا في غرفة طولها 8 امتار وعرضها 4 امتار. مهواة ومضاءة جيدا، مطلية بطلاء اصفر شاحب، بمصباحين في السقف وصنبورين ومرحاض وثلاث نوافذ تطل على البهو وكوة دائرية قطرها 30 سنتمترا على الجدار المقابل من

اجل التيار الهوائي.

ولعل ما اثارني اكثر هو السرير الناعم الذي وضع فوقه لحافان جديدان وغطاءان جديدان ايضا إضافة الى الوسادة التي حرمت منها في تازمامارت.

بعد تعب السفر ووعثائه، تمددت على السرير لانام واتذوق طعم الراحة. دون تفكير في الحاضر او المستقبل، تمددت واسترخت عضلاتي فأحسست بأني اركب موجة تحملني نحو الافق اللازوردي. احسست احساس صبي في مهده او شخص طال انتظاره لأمنيته.

نمت نوما عميقا، ولاشك لان شعاع الشمس غمر غرفتي، لاحظت ايضا ان المصابيح ظلت مضاءة لانني لم أقم باطفائها بسبب انقطاعي عن هذه العادة لمدة عقدين من الزمن. بعد لحظات فتح الباب الذي لاحظت فيما بعد بأنه بدون مقبض من الداخل ويقفل من الخارج بواسطة قفل وقد تم طلاؤه فظهر مثل باب غرفة فندقية.

دخل رجل يحمل طبقا في يده، كان شابا طويل القامة وسيما يرتدي وزرة زرقاء. وضع الطبق فوق الطاولة وخاطبني خذ فطورك. كدت اصاب بالغيبوبة او اطلق صرخة «هذا مستحيل، لا يصدق» فطوري كان يشمل كأس قهوة بالحليب، وقطعة خبز جيد وزبدة ومربى وقطعة فروماج (البقرة الضاحكة) بعد ان التهمته كله، نمت على الفور. مع بداية الزوال تكرر السيناريو ذاته حيث وضع الشخص نفسه طبقا يضم اكلا لم اصدق عيني عندما رأيته. نسيت وضعي وخلت نفسي في مطعم فخم، فارتميت على الوجبة دون غسل يدي، ليس فقط لاني كنت جوعانا طاوي البطن بل لأنني كنت نسيت غسل يدي منذ زمان بعد ان صارت الاظافر مثل تشجرات عروق نبتة. بعد ان تناولت السلاطة انغمست مثل أكل لحوم والتهمت قطعة لحم البقر ثم الخضر من بطاطس وجزر وجلبان ثم جاء دور الجبنة والياغورت والاجاص. لقد مضى علي عقد ان لم اشف غليلي بهذا الشكل. لقد اكلت بسرعة مثل انسان بدائي لأنهم ارادوني كذلك. عاد «النادل» واخذ الطبق، اما انا فاستغرقت في النوم مجددا! كنت تعبا لا محالة، لكني ايضا كنت اتفادى اي تفكير او تركيز، مستسلما لتيار هائل يجرفني، حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال جيء لي بقطعة خبز وبيضة مسلوقة وكأس شاي. بعد ان صليت وقرأت القرآن حمدت الله حمدا كثيرا لانه انقذني من المعتقل وافاض علي من

نعمه. كان الوقت غروبا عندما دخل احد الدركيين وضغط على الزر قائلا والابتسامة تعلو محياه. الا تحب النور؟ اي لذة نجد في الظلمة؟

بلى انا احب النور لكنني نسيته منذ مدة!!

رد علي بقوله؟ اذن اغتنمها فرصة، وعندما تذهب الى النوم اضغط عليه مجددا» ثم اغلق الباب. اغتنمت الفرصة لكي امشي قليلا مستندا الى الجدار واستأنس بنور الكهرباء. كنت ارى الاشياء مضببة وكانت نقط سوداء تتراقص امام عيني كما لو انها سابحة في الهواء، كنت انتقل بصعوبة، تسارع لهاثي فكنت استريح بين الخطوة والاخرى لأتملى بقمم الاشجار وراء الزجاج سبحان مبدل الاحوال! اذ ان الديكور هنا، خلافا لتازمامارت حيث كل شيء و سخ ومظلم ومقزز، ديكور نظيف ولامع اضافة الى تهوية وانارة رائعتين.
طوال مقامنا كان الحراس نزيهين، لا يشي سلوكهم باية عدوانية، لكنني لم اكن مطمئنا واحتاط من كل شيء. فأصيخ السمع لكل الاصداء والاصوات في الخارج. كنت اتمشى وانا افكر في كل الاحتمالات والمفاجآت غير السارة التي قد تكون في انتظاري. او كنت ارتاح وانا افكر في هذه الحرية غير المؤكدة. فاذا بالمؤذن يخرجني من شرودي. كانت الصلاة صلاة العشاء ومعنى ذلك ان الوقت متاخر وربما لن يكون هناك عشاء. ومن الافضل ان اذهب للنوم. اديت الصلاة واطفأت النور واسرعت نحو السرير، تلك اول ليلة لا انام فيها على البلاطة. وقد مرت عشرون سنة حرمت فيها من احساس مثل هذا. تمددت ووضعت رأسي على الوسادة القطنية الناعمة فكدت ابكي، ومثل طفل كنت اتقلب لاتلذذ بطعم الغطاءات الناعمة على جلدي المتجعد! اه لو كان لي مثل هذين الغطاءين بتازمامارت، لكنت قاومت اكثر وتعذبت عذابا أقل.

احسست بانتعاش ودفء الأغطية الناعمة، فاستغرقت في نوم عميق، كنت متاكدا أني لن أرى كوابيس هذه الليلة، لكنني استيقظت بالرغم عني، عندما فتح الباب وأشعل الضوء، كان «ف» واقفا أمامي بلحمه ودمه، مرتديا بيجاما وماسكا بين أصابعه سيجارا طويلا .... نظر إليّ وقال: هل نمت بهذه السرعة؟ طيب استيقظ، واخلع كل هذه الملابس، سوف نعطيك غيرها، ستبقى عاريا وسنعطيك جلابة لتستر عورتك، استعد إذا للاستحمام.

أحد رجال الدرك المرافقين له، ساعدني في خلع ملابسي وألبسني الأخر الجلابية، بعدها طلب مني التوجه الى غرف الاستحمام حيث ساعدوني على خلع الجلابة. الطبيب «مبروك» راقب بنفسه حرارة الماء، فيما سارع ممرضان أجلساني فوق كرسي، حيث أخذا في دعكي بالماء والصابون وغسلا شعري بالشامبوان، بعد أن انهيا عملهما ساعداني على تجفيف جسمي بالفوطة، ألبسني الدركيان الجلابة وطلبا مني الاسراع بالتوجه الى غرفتي حتى لا أصاب بنزلة برد.

سألني دركي أخر، ألا أفضل أن يحملاني الى هناك؟ مضيفا: سيكون ذلك أسرع، بشرط أن لانسبب لك أي أدى، قبلت اقتراحهما فحملاني على أذرعهما القوية، وأسرعا الى الغرفة هناك، كان بانتظاري سكرتير «ف» كان في العقد الرابع من عمره، طويلا، نحيفا ومائلا للسمرة، وكانت عيناه العسليتان الصغيرتان تنفث شرارة وقسوة، أشار الى السرير قائلا: «هذه ملابسك ارتديها بسرعة، وسأعود بعد قليل»، فوق السرير وجدت جميع تلك الأشياء التي كانت ممنوعة في تازمامارت، بيجامتين واحدة زرقاء والأخرى حمراء، فوطة، شبشب، صابونة صغيرة، معجون أسنان وفرشاة. تذكرت سعودي الذي كان يقول لي: «الشيء الوحيد الذي أتمناه عندما أصبح حرا أن انظف أسناني بمعجون أسنان» كما وجدت طاقية لتقي رأسي من البرد، ذلك لأن أغلب الرفاق كانوا قد فقدوا شعرهم بعد كل هذه السنين.

عاد السكرتير، حاملا معه صدريتين وتبانين ومنديلين لم أستطع أن أخفي ابتسامة عندما شاهدت كل ذلك، لكنها كانت ابتسامة مشبوهة بالمرارة والتقزز والسخرية، ارتديت الملابس وأنا أقول بصوت خافت: «الآن فقط أدركتم أننا بشر؟».

عندما كنت أتأهب للإسترخاء فوق السرير الناعم، هلّ «ف» فجأة، وألقى نظرة على المكان للتأكد أن كل شيء على أحسن ما يرام وسألني: هل استحممت؟ نعم سيدي، أجبته بطريقة متعمدة كأنني لم أعرف أنه دركي، وأن كل هؤلاء الرجال الذين كانوا يرتدون سراويل «سالوبيط» زرقاء والذين كانوا كلهم من قوات الدرك، مجهولين بالنسبة لي.

- طيب، أضاف «ف» غدا سيزورك الطبيب والحلاق، لكن لاتنم الآن سنأتي لك بالعشاء. بالمناسبة كيف وجدت وجبة الغداء هل راقتك؟

أجبته بصراحة: أجل لقد كانت جيدة، غادر الغرفة وبعد لحظة سمعته يعطي بعض الأوامر، ولم تمر سوى لحظات قليلة عندما تم احضار

وجبة العشاء التي لم تكن تقل جودة عن وجبة الغداء، طاجين بلحم العجل، قطعة من الجبنة، دانون، قطعة موز، وكان الخبز مصنوعا من الدقيق الممتاز.

كنا مدللين وساعلم بعدها أن «ف» كان يتناول نفس الوجبة، وكذلك الأطباء ورجال الدرك، منذ أن التحقت بالجيش، كانت المرة الأولى التي أرى فيها عونا صغيرا يأكل من نفس الطعام الذي يتناوله كولونيل كما كانت كذلك المرة الأولى التي أقضي فيها ليلة، دون كوابيس مرعبة. في تازمامارت كنت أرى نفسي وقد تحولت الى عصفور صغير تطارده مجموعة من الحيوانات المفترسة أو أفاعي الكوبرا، وغالبا ما كنت أصحو في منتصف الليل مرعوبا والعرق يتصبب مني، معتقدا أنني نجوت بأعجوبة من ذبابة كانت ستدوسني.

في تازمامارت وخصوصا خلال فصل الشتاء كنت اضطر للاستيقاظ مرات عديدة في الليلة الواحدة للتبول في المرحاض أو في قنينة بلاستيك، لكن هذه المرة نمت ملء جفني ولم استيقظ إلا بعد أن طلع الصبح.

في ذلك اليوم 17 شتنبر، ولأول مرة منذ ذلك الثلاثاء البعيد، 7 غشت 1973 نظفت لأول مرة أسناني بمعجون الأسنان والفرشاة، وأنا أفكر في كل هذه المدة التي ضاعت مني هباء. وابتداء من ذلك اليوم أصبحنا نحصل في وجبة الفطور على جبانية من الشوكولاطة، بيضة مسلوقة وقطعة من الخبز، بعد ذلك وفي الساعة التاسعة

بالغرفة طبيبان مرفوقين بأربعة ممرضين مجهزين بجميع الأدوات التي يحتاجون إليها وذلك لفحصي. كان الليوتنان - الطبيب المساعد للقبطان الطبيب «م»، شابا في مقتبل العمر، نحيفا، أسمر البشرة ويحمل نظارات طبية. أثارت إنتباهي طيبوبته وإنسانيته ولباقته. كما كانت طريقته في التحدث تعكس حساسيته المفرطة رغم محاولته إخفاء ذلك.

بعد أن طلب مني خلع جميع ملابسي والتمدد فوق الطاولة، بدأ الفريق الطبي في مباشرة مهمته النبيلة. أحدهم الذي فحص الضغط لم يستطع أن يكتم استغرابه وحيرته: كان الضغط جد مرتفع: 23 - لم يصدق الممرض ذلك فأعاد نفس العملية، لكن النتيجة كانت نفسها. بعدها تم فحص درجة الحرارة: 38,7. واصلا عملهما بفحص جميع أجزاء جسدي. الرئتان - القلب، وما بين الإليتين. واستمر ذلك ساعتين كاملتين قبل أن يعطي الطبيب «م» توجيهاته لأحد الممرضين بصوت

مرتفع والذي سجل المعلومات التالية: ضغط جد مرتفع: 23 ثلاث حبات من أدالات في اليــوم. إلتــهــاب رؤي: حــقنتين من المضــاد الحــيــوي فلوكسايين، كل يوم صباحا ومساء. نبض سريع: حبة من رسيوردان 10 ملغ توضع تحت اللسان. بالنسبة للجهاز الهضمي، كيس أكتابولجيت في الصبـاح وأخـر في المســاء، بالإضـافة إلى كيس فـوسـفـالوجـيل في الظهيرة. أما بالنسبة للروماتيزم، حصة يومية من التدليك بواسطة مرهم «الجوبان» والأشعة ما تحت الحمراء، وبالنسبة للعينين، قطرة في الصبـاح وأخـرى في المسـاء. ومن الضـروري إجـراء عـمليـة جـراحـيـة لاستئصال الغدة الدرقية.

أعطى الطبيب تعليمات أخرى، تقضي بوضع تقرير عام عن حالتي الصحية، تحاليل للدم والبول وفحص بواسطة الأشعة، كما أعطى تعليمات دقيقة لأخضع لنظام حمية خاصة وعدم تناول الملح. وبعد ذلك في الساعة الحادية عشرة، غادر الفريق الطبي الغرفة لمواصلة جولته على باقي الغرف.

كنت أستطيع أن أخمن مدى استغراب واندهاش الفريق الطبي عندما سيقوم بفحص بعض الرفاق الذين أصبحت أجسادهم في حالة يعجز اللسان عن وصفها. في الثانية عشر زوالا قدموا لي وجبة بدون ملح وابتداء من 18 شتنبر 1991، أصبحنا جميعا تحت المراقبة الطبية. كان الأطباء قبل كل وجبة أكل، يراقبون حرارة وضغط كل واحد منا قبل أن يوزعوا علينا الأدوية التي كانت تختلف حسب كل حالة ومقويات وفيتامينات متشابهة بالنسبة للجميع، ثم أخذ عينات من الدم وارسلوها بسرعة إلى مختبرات التحاليل بالرباط، ويوم الخميس 19 شتنبر سيزورني الحلاق، الذي على عكس عادة الحلاقين، لم يكن ثرثارا، لأنه كان أيضا دركيا. وفي اليوم التالي سيأخذ النظام طابعه الروتيني. فقد ظلت وجبات الأكل المقدمة إلينا جيدة، وكان الأطباء يتكلفون بإعطاء التوجيهات اللازمة لتقديم وجبات صحية ولذيذه، وفيما ظل «ف» يمر على الغرف، مرتين في اليوم ليراقب سير الأمور. كان مطلعا على كل ما يحدث، حيث سألني في نفس اليوم:

لماذا أنت الوحيد الذي له ضغط مرتفع؟ لا أعرف سيدي، لكني الوحيد الذي أعاني من وجود غدة درقية، ربما كان هذا هو السبب» أجبته.

– بالنسبة للغدة الدرقية، ستجرى لك عملية جراحية فيما بعد. لقد أخبرني الممرض المكلف بالتدليك بأنك لا تستطيع القرفصاء ولا

الجلوس، فكيف كنت تفعل هناك؟

هناك قضيت العشر سنوات الأخيرة، إما ممددا فوق البلاطة التي كانت بعلو 80 سنتمترا. أو كنت أظل واقفا. فلم أكن أستطيع أن أجلس أو أتمدد على الأرض، وكنت أقضي حاجتي واقفا.

عندما سمع ذلك، توجه إلى الدركي الذي كان يرافقه والذي كان يشبه هرقل: اذهب وآت بمقعد ليقضي حاجته في المرحاض مرتاحا»، وبسرعة ذهب العملاق فأحضر كرسيا خشبيا ووضعه فوق كرسي المرحاض. طلب مني «ف» القيام بتجربة للتأكد من أن كل شيء على ما يرام، بعد ذلك سألني إن كنت محتاجا لشيء آخر، فأجبته على التو أني أريد نسخة من القرآن من الحجم الكبير. في اليوم التالي عاد محملا بثماني وعشرين نسخة ووزعها على الجميع.

يوم السبت 21 شتنبر، قررت القيام بعملية استكشاف للمكان. منذ اليوم الأول لوصولي، حاولت أن أتعرف على المكان الذي حملونا إليه، وذلك بالنظر إلى زجاج النوافذ، لكن للأسف، لم أر سوى سقوف حمراء لبعض المنازل باتجاه الشمال - الشرقي. أما باتجاه الشمال، فقد كانت أشجار باسقة تحجب الرؤية. فلم تتبق سوى الجهة الجنوبية. لكن للأسف، لم يكن هناك سوى ثقب صغير خاص بالتهوية في الركن الأعلى من الحائط. وضعت الكرسي الخشبي فوق المنضدة، واعتمدت على المغسل للتسلق، وعندما جلت بنظري، رأيت بانوراما معتادة. بما أنني كنت أتواجد بالطابق الثاني، كانت زاوية النظر تتيح لي إمكانية تحديد الموقع. فتأكدت أننا كنا نتواجد بالمدرسة العسكرية السابقة بأهرمومو، والتي أصبحت «رباط الخير» منذ 1973، أي المدرسة التي كنت قد درست فيها مدة طويلة. لقد كنت أعرف المنطقة جيدا ولا يستطيع أحد حتى لو كان «ف» نفسه أن يؤكد عكس ذلك. بعد أن تركت موقع الرؤية، توجهت صوب النوافذ لمشاهدة القرميد الأحمر الذي يغطي البناية «أ». لقد كنا إذن متواجدين بالبناية «ب» التي كانت تطل على «وادي زلول» والمرتفعات المشجرة لـ «العزيب» و «آدرج» أمام قمة «بو إبلان» بالأطلس المتوسط بالمنطقة التي تقيم بها قبائل «بني وراين» و «آيت شغروشن»، والذين شاركوا رفقة الماريشال «جوان» والماريشال «غيوم» في معركة «مونتكاسينو» بإيطاليا.

عندما جاؤوا بنا الى هنا، كانت رائحة الصباغة تملأ المكان، وعمليات تغيير حديثة مست هندسته. وبعد أن تأكدت أننا كنا بأهرمومو، أدركت

أن العنابر تم تحويلها الى غرف صغيرة. ولهذا السبب كانت هذه الغرف أطول وأقل عرضا من المعتاد، وكانت الصنابير تحدث الكثير من الضجيج. كان واضحا أن العمل قد تم إنجازه بسرعة من أجل هدف خاص. فتذكرت ما حدث بتازمامارت ثلاثة أشهر قبل ذلك، منها عزل الطيارين عن المشاة وترحيل أربعة ناجين من البناية الأخرى. وهكذا فقد تأخر ترحيلنا الى أهرمومو نظرا لأن الأشغال لم تكن قد اكتملت بها بعد.

في تلك اللحظة عادت بي الذاكرة الى الوراء، قبل 20 سنة، وشهرين وخمسة أيام، عندما غادرت هذا المكان في صبح صيفي جميل، شابا وسيما مليئا بالحيوية والأمل، لأعود إليه وقد هرمت قبل الأوان والأمراض تنخر جسدي بدون أمل، بدون مستقبل وبدون حرية. والحقيقة، فقد كنت الى حدود تلك اللحظة، أجهل ما ستأتي به الأيام القادمة، كنت متأكدا فقط من شيء واحد، أننا كنا كبضاعة معروضة للبيع، تنتظر نتائج المفاوضات ليتم تسليمها أو الاحتفاظ بها لوقت أطول أو تخزينها الى الأبد.

كان للخريف تأثيره الواضح على أحاسيسي وأصبحت رومانسيا. كنت أقضي النهار في مشاهدة الأشجار الباسقة عبر النافذة، وأطل عبر الموقع الذي اكتشفته لرؤية السماء الزرقاء ورحلات السحب التي لا تنتهي، كما كنت أشاهد دوار «لعزيب» وقرية «سيدي يحيى» التي تحيط بها أشجار الزيتون من كل جانب، فيما كانت المناطق المحيطة بوادي «زلول» تثير لدي ذكريات مؤلمة. عندما كنا في ذلك الزمن، نقوم بالمناورات. من هناك كنت أرى تلك الأماكن التي كنا نقضي فيها أوقاتنا ومجاري الماء التي كنا نرتوي منها... كل تلك الذكريات التي محتها سنوات تازمامارت الطويلة عادت هكذا فجأة وشكلت بالنسبة لي فرصة للاستمتاع بأحلام سعيدة، لأن وجود «ف» كان يعني اتخاذ الحذر الكافي والاستعداد للكوابيس.

كان كل شيء طبيعيا، ولم يطرأ أي تغيير على وجبات الأكل والعلاج، وكان سلوك رجال الدرك معنا عاديا. لكن «ف» ظل محافظا على مسافة بينه وبيننا، وكان من الصعب معرفة أي خبر عن طريقه.

منذ أن جاؤوا بنا الى هنا، ظل نفس الشخص يقدم لنا وجبات الأكل، فيما كان رجال الدرك يواصلون دوريات المراقبة بأركان الممرات، بينما الآخرون الذين يحملون رتبا أعلى، كانوا طوال الوقت يمرون بالقرب من الغرف. كان «النادل» الطويل القامة والوسيم واللبق هو الوحيد الذي

يملك إذنا بالاقتراب منا، كان يلبس بذلة زرقاء وحذاء من الجلد وساعة يدوية ثمينة وخاتما جميلا. وهو ما أثارني. وعلى الخصوص سلوكه الذي كان ينبيء أنه يقوم بعمل لا يرتاح له، كنت كلما حل بالغرفة، أظل أراقب تصرفاته مما كان يزعجه، وكنت أستغل أية فرصة لتبادل الحديث معه وكان يرحب بذلك، وقد فكرت أنه جاء أصلا من أجل هذه المهمة: التحدث إلينا.

يوم السبت 21 شتنبر، بعد أن قدم لي وجبة الأكل، بادر بالتحدث إلي. وجه إليّ سؤالا «دركيا» بعد أن صوب نحوي نظرات حادة «إن لك طريقة غريبة في النظر إلى الناس، لقد لاحظت أنكَ تظل تراقبني طوال الوقت، كما لو كنت تعرفني قبل الآن أو أنك تريد أن تبوح بشيء يزعجك».

أجبته بهدوء وأنا أنظر في عينيه: أنت في الحقيقة ضابط وتتخفى في زي نادل.

- يبدو أنك مغرم بالروايات البوليسية، هل أنت من هواة التشويق؟
- لا، لكن لي حاسة سادسة قوية.
- لقد خانتك هذه المرة. أردف قائلا.

الكرسي المتحرك..

اقترب عيد المولد النبوي، وأصبح الانتظار مقلقا أكثر فأكثر. و كلما انفتح بابي، أرى رجلا يرتدي لباسا أزرق يشير بإشارات ودية ويبتسم لي. هذا الاحد، 22 شتنبر فعل كل ما بوسعه ليمرر الى رسالة ميمية، وضع أصبعيه على كتفه، ثم رفع ذراعه ليشير الى إدارة الغرب، أي الرباط. فهمت ان أحد الليوتنونات ذهب الى الغرب فيما بعد فهمت أنه يريد ان يقول لي ان الليوتنان الطويل ذهب الى الرباط، أي تم إطلاق سراحه يوم الاحد، تماما قبل ذهاب الملك الي الولايات المتحدة الامريكية في زيارة رسمية.

يومان بعد ذلك، علمت أنه تم تحويل زوج الامريكية، أولا الى السجن المركزي بالقنيطرة ليقضي الليل هناك من 22 الى 23 شتنبر على فراش وضع عمدا في البهو أمام مكتب المدير. في اليوم الموالي، أعلنوا إليه العفو الملكي، ثم اقتادوه الى عامل الخميسات حاملا في يده بيان

الخروج الذي كتب فيه المدير «اطلق سراحه بعفو ملكي يوم 23 شتنبر 1991» كان المعتقل لم يغادر هذا السجن منذ نونبر 1972. إذن، لم يكن معتقل تازمامارت سوى شبح جحيم عشش في ارواح مليئة بالهذيان. المدير محمد شيت يوقع على تصريح بالإفراج عن شبح لم يعرفه ابدا. ترك الطويل هذا المسمى سجنا محاطا برجال الدرك. ثم التحق بعائلته عن طريق السلطات المحلية التي اعطته أوامرها الصارمة بعدم مغادرة الحدود الترابية للاقليم. أما بالنسبة لجواز السفر الذي سيسمح له باستعادة زوجته وابنه في الولايات المتحدة الامريكية، فتلك قضية أخرى. المخزن يحب كثيرا الكتمان . عيد المولد النبوي يمر بشكل عاد. وقد حملوا إلي لحافا ثالثا لأن «ف» لاحظ، اثناء لحظات مروره، انني أسعل بقوة بالرغم من المضادات الحيوية. انزلوني الى الطابق السفلي ثلاث مرات وعرضوني على جهاز فحص الرئتين، لأن التهابي الشعبي كان حادا جدا.

الطقس الرتيب لحياتنا اليومية كان يتابع سيره العادي. بعد الفطور، والعلاجات، وتنظيف الامكنة من طرف رجال الدرك، بعض الرفاق ينشدون الالحان، والبعض الأخر يرتل القرآن، اما أنا، فأبدأ في تمريناتي الرياضية الصعبة لأتدفأ قبل قدوم المدلك. فجأة ، بدأوا في فتح ابوابنا، الامر الذي لم يكن عاديا الا في لحظات الاكل. كان الصمت مطبقا. أصخت السمع لأعرف من اين تأتي كل هذه الاصوات الغريبة التي تحدث كثيرا من الضوضاء. كان كلاما مقطوعا بموجات من الضحك، غرباء يتحدثون ويمزحون. لم أفهم ماذا كانوا يقولون، ولكنهم كانوا فرحين . دخلوا الى الغرفة رقم 14 ، التي كان فيها علي بوريكات. خمس دقائق بعد ذلك، خرجوا ليدخلوا الى جاري غاني عاشور، ظلوا هناك بضع دقائق. ولم استطع ان أكشف رموز هذه المحادثة.

كنت مستعجلا لمعرفة هدف هذه الزيارة المباغتة. وأخيرا جاء دوري. أول من دخل هو «ف» ، السيكار في اليد وعلامات المرح بادية عليه، كان يبتسم ويمزح مع أحدهم، ثم تبعه ستة أشخاص، من بينهم اثنان كنت أعرفهما من قبل: الطبيب مبروك ومساعده. بعد استراحة قصيرة. كانوا يحاولون فيها التركيز وانتظار المتأخرين، قنبلني «ف» بأسئلة قبل ان يطلعني على الهدف الرئيسي لهذه الزيارة المباغتة: «إذن، كيف الحال؟ هل تأكل جيدا؟ هل تنام جيدا؟ هل تعالج جيدا»؟ .

«نعم ياسيدي» ، أجبت حذرا. « - هل حصلت على المصحف الكريم،

ولحاف إضافي؟». «نعم يا سيدي» أجبت.
«كرسي المرحاض مريح؟». «نعم ياسيدي». «طيب - قال متابعا - الآن انصت الي جيدا، لقد عفا عنكم كلكم صاحب الجلالة نصره الله بمناسبة عيد المولد النبوي. ملكنا متسامح، وقد سامحكم كلكم. وبدءا من هذه اللحظة، اعتبر نفسك ضيفنا. لم تعد سجينا. انس محنتك. لقد اعطيت اوامري لتظل الابواب مفتوحة بشكل دائم . لم يعد لدينا الحق لحبسكم. اننا نستبقيكم هنا للسهر على علاجكم . لقد أرسل لكم سيدنا حفظه الله أطباء مختصين لعلاجكم . ما اطلبه منك هو ان تنسى الماضي، وان لاتفكر سوى في الاكل والنوم والعلاج لتخرج في أسرع وقت ممكن. خروجك من هنا يرتبط بسرعة شفائك. فما إن تشفى حتى اطلقك لتلتحق بمنزلك. لاتنس ان اطفالك ينتظرونك..».
بينما كان «ف» يتحدث، كنت كالمنوم، انصت دون انتباه. أحدق في الفراغ دون ان أرى، لا محدثي ولا المساعدين الآخرين. كنت مصعوقا بهذه الكلمات المنغمة التي تمطرق بدون انقطاع مخي. لم أكن انتظرها. فاجأني «ف». لم أكن مستعدا لهذا النوع من المفاجآت. لم يكن وجهي يحمل اي تعبير عن الفرح، سحنتي الكئيبة ظلت كما هي بعد إعلان العفو. لاحظ الكل غياب رد الفعل من طرفي. كان يمكن لرجل عاد ان يظهر لا شعوريا علامات الرضى. بقيت جامدا، لأنني لم أصبح بعد رجلا عاديا. لايفكر الهارب او الفار من الجحيم في البداية سوى في شيء واحد: ان لايعود الى هذا الجحيم، ولايهم بعدها ان يكون حرا او لا. وقد عرفت ذلك أياما بعدها بواسطة الطبيب النفسي الذي كان حاضرا أثناء المحادثة، والذي كان يسألني بدون انقطاع اثناء كشوفاته وزياراته الليلية عن السبب في بقائي غير مبال وغير مهتم. في اليوم الذي اطلعني «ف» عن نهاية شقائي؟ لم أجبه بصراحة. وهو، للأسف، لم يصدقني مطلقا. تحدثت عن ذا ، بتفصيل فيما بعد.
عندما أعلن «ف» العفو الملكي، كان ينتظر ربما ان اتفوه ببضع كلمات. وحين لاحظ تصرفي الغريب وذهولي، انصرف متبوعا بمساعديه.
وفي اللحظة بالذات رأيت ، في حديث ودي مع المكلف بالاعتناء بنا الذي كان يرتدي هو الآخر زيا مدنيا، كان الامر يتعلق بالليوتنان حليمي، الرجل المساعد الذي كان يحظى بثقة «ف» الرهيب. وقد تأكدت من هذا الامر عندما سألت مرؤوسيه. كانت مهمته هي ان يتالف معنا وان ينجح في كسب ثقتنا ومودتنا من أجل الحصول على معلومات تخص

اتصالاتنا السرية من داخل تازمامارت.
ومع مرور الوقت ، كان مستعدا لخدمتنا من أجل كشف علاقاتنا القديمة التي كانت تربطنا بعائلاتنا.
وقد وضع العفو الملكي الآن حدا لمهمته. ثم انه في منتصف النهار، عندما كان أحد الدركيين يأخذ مكان دركي أخر، كان هو قد شرع في إعطاء الاوامر لبعض الدركيين المساعدين. وفي اليوم الموالي بدأ المتخصصون في القيام بزياراتهم الطبية. تقدم مني قبطان أسمر اللون وذو شعر ذهبي مختص في أمراض القلب. فحصني بعناية وكتب لي وصفة دواء طويلة، تلاه قبطان أخر طلب مني أن أخلع ملابسي ثم فحص صدري وظهري وطلب مني ان أسعل بقوة. في النهاية أخبرني بانني أعاني من التهاب صدري مزمن، وأمر رئيس الممرضين بان يحقنني مرتين في اليوم طيلة شهر. وقدم لي كميات كبيرة من المضادات الحيوية. وقد كانت كل تنقلاتنا الى الدوش والى إجراء التحليلات او الى طبيب العيون او طبيب الاسنان تجري بنوع من السرية التامة ومحاطة بتدابير أمنية مشددة. كنا دائما نرتدي جلابيبنا ونغطي وجوهنا حتى لانرى شيئا ولايرانا أحد. كنت أتنقل بواسطة كرسي متحرك يحمله أربعة دركيين بصعوبة بالغة صعودا او نزولا. وخلال عرضنا على الاطباء، كانت تقفل جميع أبواه الممر ويتم التأكد من غطائنا بواسطة رجال الدرك. ورغم أن أبواب إقامتنا كانت مشرعة على الدوام، غير أنهم كانوا يمنعون عنا منعا كليا الاقتراب منها. وكانوا يفحصون وزننا على رأس كل أسبوع.
وبالفعل، كان وزننا يتزايد بسرعة كل يوم. كان «ف» يملك قوة سحرية تجعله يهزل او يسمن الناس بسرعة مذهلة في زمن قياسي.
وحين تم عرضي على الطبيب المختص في الروماتيزم، وفحصني بدقة بالغة، لاحظ وجود تورم حاد في المفاصل والعضلات، وانتفاخا للمناطق الحساسة، كما لاحظ ان أصابع الرجلين شبه مشوهة فضلا عن تورم المفاصل والركبتين والرجلين، وفسر ذلك بأني حين كنت ممددا لمدة طويلة ، لم أكن أستطيع رفع ساقي. وهكذا طلب مني أن أجلس «متربعا» على الارض، الشيء الذي كان مستحيلا تماما بالنسبة لي. وعندما حاولت ذلك بقيت محصورا وعاجزا عن التحكم في بعض أعضائي. وهكذا قرر الطبيب أخذ بعض الصور للركبتين ولحوض ظهري وامر بوضعي فوق الكرسي المتنقل نظرا لإصابتي الشديدة

بالرماتيزم. فقد كنت أمشي مقوسا مثل غوريلا هرم لم يعد يصلح لشيء، او مثل دب مصاب بتعفن كلوي. وكنت أتنقل بالكرسي المتحرك لإجراء حصص التدليك بالاشعة ما تحت الحمراء، او لاجراء الفحوص الطبية والتحليلات. وشيئا فشيئا اصبحت زيارات الاطباء المختصين أمرا مألوفا. وقبل كل وجبة كان المرضون يوزعون علينا الادوية والمقويات و الفيتامينات بكميات كبيرة. وقد كانوا يتخموننا بمادة الكورتيزون حتى ننتفخ ونبدو بمظهر مقبول وبالفعل، فان الكورتيزون فعل فعله، فضلا عن التغذية الجيدة التي ردت الينا نقاهتنا المفتقدة في جحيم السجن. وقد نالت الوجبات التي كانت تعد لنا إعجابنا وكنا نتناولها باشتهاء. ومن حين لآخر، كان يزورنا الحلاق لحلق لحينا. ورغم تدخل «ف»، فقد ابى رفيقنا المتعصب مجوطي ان يحلق لحيته الجميلة محتجا بكون الاسلام يفرض ذلك، وانه من واجب كل مسلم حقيقي ان يحافظ على لحيته. وكان الليوتنان بوعبيد، طبيب الاسنان، وهو رجل اشقر ذو قامة قصيرة وعينين صغيرتين ضاحكتين وودودتين، يمر في مناسبات عديدة لفحص اسناننا التي أتلفها التسوس. كما وضع لائحة تضم اسماء الذين يتعين عليهم وضع طاقم للاسنان، او الذين عليهم فقط قلع بعض الاسنان ومواصلة الدواء. وقد حاول أطباؤنا، الذين كانوا واعين بتدهور صحتنا ونفسيتنا ومعنوياتنا، إنقاذ ما يمكن إنقاذه في أقرب وقت ممكن. حاولوا اصلاح ما لا يمكن اصلاحه. وقد بذلوا فعلا جهودا جبارة في هذا الاتجاه. ونتيجة لارتفاع ضغطي، لم يستطع طبيب الاسنان اقتلاع الاسنان الفاسدة، علاوة على الحمى التي دامت لمدة طويلة. بعد ذلك جاء دور التحليل النفسي الذي تكلف به الكومندان فجري، ولم تلتزم زياراته بوقت محدد لكي لا يربكنا. وكان في أغلب الأحيان ينتهز فرصة مرور «ف» لمرافقته. لكنه جاء في احد الايام مساء بمفرده ليتجاذب اطراف الحديث معي بهدوء:

مساء الخير، ألم تنم بعد؟

لا يا دكتور. لم اعتد بعد على هذا النظام الجديد. يلزمني بعض الوقت لضبط استعمال الزمن اليومي

هل كنت تعيش لحظات من الارق هناك؟

لقد احدث السهر الكثير، خلخلة في طريقة نومي

هل كنت تقوم باحلام مزعجة او كوابيس؟

نعم، في مناسبات كثيرة

ثم طلب مني ان احكي له احد هذه الكوابيس، فرويت له اكثرها ترددا:
«كنت ارى دائما في احلامي انواعا من الحيات الخطيرة والوحوش الضارية كما كنت اراني مقطوع الرأس، ورأسي وحدها تمشي على الطوار بجانب الطريق. وحلمت انني اغرق أو أرمي داخل محرقة. وفي غالب الاحيان كنت احلم انني احلق عاليا او اهرب من جحيم السجن متحديا جميع العقبات والحراس..»

حدثني عن افظع كوابيسك؟

كنت مقيدا من طرف مجهولين اخذوني ورموني داخل حفرة مليئة بالحيوانات المتوحشة. وعندما أحسست أنيابها تمزق جلدي، ارتعدت فرائصي، وقمت مذعورا اصرخ وانا اتصبب عرقا.

هل هناك احلام احزنتك؟

نعم، كل الاحلام التي كنت ارى فيها أسرتي وابنائي. وقد حدث ان استيقظت في منتصف الليل. وحين اكتشف انني وحيد داخل زنزانتي وبعيد عن ابنائي، كنت ابكي في صمت الى الفجر».

«اعتقد الآن انك لا تقوم بأحلام مزعجة؟»

«لا يادكتور»

«الاحظ انك حزين، لقد انتهت معاناتكم الآن بفضل العفو الملكي. ينبغي ان تفرح وتنسى الماضي» لكنني سرعان ما أجبته:

«لا يادكتور، لقد اصبح الماضي جزءا لا يتجزأ من وجودي، لا يمكنني ان انكره، والا سوف اقتطع جزءا مني وقطعة من جسمي. افضل المعاناة على ان اقبل بتشويه حياتي. فداخل هذا الماضي الحزين، هناك مرحلة شباب ضائعة الى الابد. اجد فيها الحنين اليه، كما ان هناك مشوارا محطما بسخافة. وفي هذا الماضي نفسه يوجد مستقبل غامض، وفيه مصدر تؤملاتي و ملاذي».

بعد ذلك، اضاف الكومندان فجري قائلا:

«اريد ان اطرح عليك سؤالا محددا، لاحظت ان خبر العفو الملكي لم يحرك فيك شيئا، بقيت غير مكترث ولا مبال . ترى ما هو السبب؟»

«ستعتبرني رجلا «احمق» ومع ذلك سوف اجيبك، لقد كان اصبعي الصغير، كما يقولون الفرنسيون، يخبرني بأنني لست معنيا بهذا العفو الملكي. فانا مازلت معتقلا ولن يفرج عني».

انا متاكد من ان مخاطبي قد اذهله جوابي. غير انه تصرف كما

يتصرف عالم نفس حكيم، وتظاهر بعدم الاندهاش وبعدم الاكتراث لما اقول. ثم واصل اسئلته قائلا:

«ارى انك تتكلم بنوع من اليقينية والثقة في النفس. أمازلت واقعا تحت تاثير هذه الكوابيس التي ترى فيها نفسك وانت تطير دون ان تصل الى وجهة محددة، ام لأنك محكوم بالمؤبد؟»

كلا، كلا، ليست هذه هي الاسباب الحقيقية، لكن ما يمكنني قوله لك هو ان المخزن لا ينسى ابدا ولا يهمل اي شيء» وسرعان ما غير مجرى الحديث قائلا:

«كيف حال رجليك؟

» - «في تحسن متزايد»

«أمازلت تسعل كثيرا؟»

«لا. نقص الامر عما كان عليه في السابق»

- «حسنا، سأودعك الآن وسأعود بعد اسبوع، لكن لا احب ان أراك جالسا فوق هذا الكرسي، هل تعدني؟»

«أعدك دكتور، ليلة سعيدة»

قبل ان يخرج التفت قائلا:

اه، قبل ان انسى، غدا سأبعث لك بنوعين من الدواء، اقراص تتناولها في الصباح، وقطرات في المساء قبل النوم. تصبح على خير».

وحين عاد فيما بعد لم يجد الكرسي المتحرك بالفعل، لكنني كنت أعتمد على عكازين، انه تحسن ملحوظ. وقد كانوا ينظفون ملابسنا كل اسبوع في المصبنة، ويغيرون اغطية السرير كذلك، زارنا «ف» رفقة كاتبه ليطلب منا عناوين اهلنا، وذلك لان البلاد، حسب قوله، تغيرت كثيرا، واصبحت القرى مدنا كبيرة. ولهذا فإننا قد نتيه اذا خرجنا لوحدنا. فمن اللازم ان يحضر احد من افراد عائلاتنا لمصاحبتنا يوم مغادرتنا. بعد ذلك بأيام قليلة جاء الخياط ليأخذ مقاساتنا دن أجل صنع معاطف وسراويل لنا، كما تكلف السكرتير باخذ مقاسات الاحذية. وفي الصباح جاء دور المصور من أجل إعداد صور لأغراض ادارية.

وقبل مجئ المصور، وزعت علينا بدلات رياضية متشابهة. كنا في الاسبوع الثاني من شهر اكتوبر، عندما دخل علي «ف» في الصباح رفقة سكرتيره. وبعد أن وجه إلي اسئلة كثيرة حول وضعيتي العائلية وحول بعض المعلومات المختلفة، دخل في الموضوع. وقال لي:

«ستلتحق قريبا ببيتك لتعيش في سلام وطمانينة بين اهلك وذويك.

وبطبيعة الحال سوف ياتي الناس لزيارتك، وسوف يطرحون عليك العديد من الاسئلة عن المعتقل. لا تقل لهم شيئا، وبالخصوص اولئك الذين لا ينتمون لعائلتك. قل لي أ الرايس، ما اسم المكان الذي كنت فيه؟»
كنت معتقلا في سجن تازمامارت آسيدي».

- «حسنا، ابتداء من هذه اللحظة انس هذا «الزمر»، لأنك اذا بدأت في الحديث عنه، سوف تجد نفسك مرة اخرى داخل «زمر» حقيقي. احذر الاجانب، و احذر بصفة خاصة رجال الصحافة، فهم ماكرون يحملون في جيوبهم ميكروفونات صغيرة، وآلات تصوير صغيرة في خواتمهم، كما يحملون معهم اقلاما وساعات يدوية «مخدومة» ومتقنة لتسجيل العديد من الامور».

وكانت ابوابنا مفتوحة على الدوام، ورجال الدرك يقومون بحراسة الممر. ومن حين لآخر، حين كانوا يملون، ياتون ليتجاذبوا اطراف الحديث معنا، او لأخذ معلومات عن المعتقل. وفي أحد الأيام سألني احد الدركيين:

- «هل انت بالفعل هو الرايس؟» فاجبته:
«هذا ما تبقى من الرايس»، ثم اضاف قائلا:
«اعرف انهم اهلكوكم هناك، فهل تعرف الآن هذا المكان؟»
«نعم، انا في اهرمومو»
فقال مندهشا: «كيف عرفت ذلك مع أن رفاقك يجهلون»؟
اجبته: «لقد كنت مدربا عسكريا هنا طيلة سنوات»

بعد مرور بضعة ايام عاد «ف» من الرباط وقام بجولته المعتادة حيث زارنا بعد تناول العشاء. اخبرنا «بأن الدولة ستدفع لكم جميعا تعويضات و ستمنحكم ايضا معاشات وعملا في الولاية، وسيتم اخبار كل الولاة والعمال المعنيين عندما يحين الوقت المناسب لاستدعائكم وتوظيفكم. الآن انصحكم بالراحة! ستحصلون على كل حقوقكم وقد عفا عنكم «سيدنا» وصفح عن اخطائكم».

تضاعفت الفحوصات الطبية وازدادت، واضحى طبيب الاسنان يعمل ليل نهار لانهاءمهمته، كما ازدادت جلسات التدليك وطالت مدتها اكثر فاكثر، كما اقام طبيب العيون مكتبه في الطابق الاول وبالضبط في غرفة الطويل السابقة. وقد وصف لنا نظارات لكل واحد منا وعدنا «ف» بشرائها ولم يف بوعده حتى رحلنا، وقد اغتنم الكومندان فجري زيارتنا لطبيب العيون واخضعنا لجلسات نفسية وطبنفسية، بحضور

الطبيب. عندما جاء دوري ابتسم قائلا: «آه هاهو «الفينومين» الظاهرة. كيف حالك؟»

اجبته: كيف ما اتفق..

فعقبت قائلا: كيف؟ ألستم في حال جيد تأكلون جيدا وتتلقون علاجا جيدا وقريبا سيفرج عنكم. فجاء ردي على الشكل التالي:

اننا نتناول غذاء جيدا بعد تجويع دام سنين طويلة وكيف يمكن الحديث عن العلاج وصحتي مازالت متدهورة ومازلت احمل ندوب التعذيب النفسي والجسدي. والنوم على سرير مدة شهر ونصف لن يعوض ابدا عقدين من النوم على البلاطة الباردة. اما الحرية فتلك قصة اخرى».

أفصح من فضلك

في حالة الافراج عني ساقضي حياتي غريبا فوق هذه الارض. سأعيش في وسط آخر، لانني نسيت كل شيء بعد 18 سنة وشهرين من العزلة وعلي ان ابدأ من الصفر والتعلم من جديد للاندماج في مجتمع كان مجتمعي. والمأساة في تازمامات التي تضاف الى التعذيب النفسي والجسدي هي الجهل لأن من لا يتقدم يتراجع. وفي كل سجون المملكة يتعلم السجناء ويتدربون على المهن، اما في تازمامارت فيلقون بك في غياهب الظلمة الى أن تصبح بدائيا».

تدخل الطبيب النفسي قائلا: «نعم، لكنكم سرعان ما ستندمجون والمسألة مسألة إرادة

لكن الاندماج يتطلب الوسائل

هذه الامور تأتي من بعد وليست ضرورية للغاية

الامر لاينطبق علي، فانا فقدت ثلث حياتي كما انه لم تعد لدي الرغبة في حياة اصطناعية.

ماذا تقصد بهذا؟

اجبته بهدوء وبصوت يشوبه الاسى:

اقصد بذلك الوجود الجديد الذي يريد الناس فرض علي بعد سجني، لانني لن أعود ذلك الشخص الذي كان من المفروض ان أكونه لولا تازمامارت.

- اتمنى انك لا تقصد انك يائس

لا، بل محبط

انبهر مخاطبي والتفت جهة طبيب العيون الذي لم يكف عن مراقبتي

بانتباه.

تبادل الرجلان النظرات دون حديث، وقام كل منهما بحركات تشي برغبتهما في الاستماع الى المزيد، فواصلت الشرح.

لقد خاب ظني من شراسة اشباهي ومعاملتهم المتوحشة واحساسهم اللاانساني واللذة التي يجدونها في تعذيب اخوانهم والانشاء الذي يمتح من عذابات الآخرين. نعم انا محبط بفعل هذا الماضي الكئيب الذي لم يرحمني وهاأنذا الآن مثل مومياء، بلا نسغ حياة، جافة احاسيسي. فاين الدفء الروحي لكي احب الحياة كما كنت احبها في السابق؟ لقد نزعوه مني».

عقب الكومندان فجري على الفور:

ما وقع قد وقع وعليك ان تنسى الماضي اعترف ان الامر صعب نوعا ما لكن عليك طي الصفحة والشروع في حياة جديدة.

لكنني اخبرتك يا دكتور بأنني غير آبه بالمستقبل الغامض الذي ليس في ملكي بل مفروض علي. ليس هو المستقبل الذي كان من المفروض ان يكون استمرارا لماضي قبل تازمامارت، حيث ان المعتقل الآن هوة سحيقة تفصل بينهما. بكلام اوضح فان المستقبل الذي تحدثني عنه يا دكتور اصطناعي وسطحي لان جذوره في الفراغ والفراغ هنا هو تازمامارت».

- لكن الحياة استمرارية، ومتوالية من الفرح والترح، هناك ما يسمى بحوادث الطريق وعلى الانسان ان يتحداها، وسقوط العداء خلال مسابقة ما لا يعني انه خسر السباق. لا يكفي السقوط بل على الانسان ان يتعلم النهوض افهمتني؟

نعم دكتور، لكنني لم اسقط بل أسقطت عمدا.

ساد الصمت وظل الاثنان يراقبانني باهتمام بالغ، وهما واعيان بالصدمة العضال التي اصابتني والجروح الذي لم تلتئم وهذا التمزق اللا يعالج، ثم اضفت قائلا كما لو أنني احدث نفسي ليعطوني الوسائل لتحريري لان الافراج عني غير كاف بل يجب مساعدتي على الاندماج في المجتمع».

أخذ الكومندان فجري الكلمة ووضع حدا للدردشة اعتقد اننا ثرثرنا بما يكفي، سأراك مرة اخرى قبل رحيلي، والحال انه لم يرني ابدا فيما بعد. وقد كان الاختصاصيون قد بدأوا الرحيل ولم يبق معنا سوى مساعد مبروك الذي مكث بيننا للاشراف على العلاج. اخرج بعض الرفاق الى الساحة ليستأنسوا بالمشي العادي والتشمس. فاصابتهم

ضربة شمس ادت الى إغماء بعضهم، فألغيت العملية. بعد مضي ايام علمنا بان «ف» ذهب الي الرباط لتهييء الرحيل، فتم توزيع البذلات والقمصان والاحذية والجوارب من طرف سكرتيره، وقد انفجرت يومها ضاحكا عندما سمعت جاري في الغرفة // ادريس شريبق (زنزانته في تازمامارت كانت تحمل نفس الرقم. يا للمصادفة) يطلب من الدركيين تغيير بذلته: شاف، من فضلك، اريد تغيير بذلتي».

هل تريد قياسا اطول ام اقصر

لا البذلة على المقاس وما اريد تغييره هو اللون فانا افضل البني عوض الرمادي.

قلت لنفسي «ايها الظاهرة، انت لم تتغير حتى تازمامارت لم تنل منك» لقد نسي جاري بسرعة اسماله التي رتقت مرات لا تحصى ولا تعد وبلا لون سوى لون الوسخ.

ظلت الحال على ما هي عليه رغم الغياب المطول ل «ف» ورحيل الاختصاصيين وتولى أمورنا الليوتنان حليمي الذي جاء صباح ذات يوم الى غرفتي مصحوبا بالحلاق. كان مرتديا قميصا جميلا أخر صيحة وسروال جينز وحذاء رياضيا ثمينا، سألني بلباقة، هل انت مستعد لحلق اللحية، فالحلاق موجود.

نعم مون ليوتنان

لم تند عنه اية حركة لكنه ابتسم ابتسامة ماكرة

يوم الاحد 20 اكتوبر 91 تكدر مزاجي وتوترت اعصابي دون ان اعرف السبب. جس الممرض الرئيسي النبض والضغط، فصاح مندهشا «هذا غريب لقد بلغ ضغطك اليوم 23 درجة. ماذا هناك؟ هل تواجه متاعب؟ او منغصات؟ بعد ان اخطر الطبيب، جاء حالا ولاحظ توتري وعصبتي الظاهرة سألني.

ما الذي يشغلك؟ لقد قيل لي بان ضغطك ارتفع؟

لست ادري يا دكتور. لكن حدسا ما ينبئني باننا سنرحل الى مكان اخر اكثر فظاعة من تازمامارت.

انت احمق؟ الا تعلم بان العالم كله علم باطلاق سراحكم؟ وان جلالة الملك قد عفا عنكم لا تشغل بالك، فقريبا ستذهب الى بيتك!»»

اجبته بصدقك أنا اصدقك لانك طبيب لكن سلوك الحراس اثار حيرتي.

يوم الاثنين 22 اكتوبر جمعوا ملابسنا لتصبينها و غير ذلك مر اليوم عاديا او تقريبا لولا الحركة الدائبة في الكولوار طول الليل.

فجر يوم الثلاثاء 23 اكتوبر ايقظني هدير المحركات اسفل النافذة تلته خطوات حازمة في البهو اعتدنا سماعها عندما يمشي الدركيون الشبان، وما اثارني اكثر هو صدى خطوات متباطئة واخرى يجرها اصحابها جرا، وحدست من هذه الاصوات بأن الامر يتعلق برحيل مفاجيء وسري. خلت انني سمعت صوتا غير غريب عني، ثم صوتا آخر زاد من يقيني ، فارتجف قلبي لسماع أصوات اصدقائي وخطواتهم. لم ادر الى اين يقودونهم، هل يرحلون الى منازلهم ام الى اللانهائي؟ سمعت خطواتهم وهم متجهون نحو باب الخروج. وكنت متاكدا من ان العصابات على اعينهم والحراسة مشددة عليهم، لكن ما لم اعرفه هو هل كانوا يعاملون كأناس احرار ام كانوا يدفعون دفعا مثل مجرمين. وهذا ما ظل يشغلني طوال الزوال الى أن اقسم لي أحد الدركيين الطيبين بان رفاقنا قد أفرج عنهم، وواساني بأن دور الباقي سيحين غدا زوالا. فتشابكت الافكار في رأسي واختلطت الا مور علي فما دريت إن كان علي أن أصدق أم أكذب.

تناولت دوائي واستغرقت في النوم، ويوم الغد الاربعاء 23 اكتوبر بعد ان تناولت كأس الشوكولاطة وبيضة مسلوقة جاء الممرضان للعلاج. وطلب مني المكلف بالتدليك ان اتبعه الى الطابق السفلي من أجل الترويض الطبي، اغتنمت الفرصة ورفعت «القب» قليلا ورأيت ابواب رفاقنا الطيارين مغلقة بأقفال، مما يعني انها فارغة، وأن ترحيلا ليليا قد حصل في منتصف النهار، تناولت غذائي وبعده بلحظات جاء الدركي الذي اعتاد الدردشة معي خلال حراسته وسألني عما افعل اجبته بود: «ها انت ترى بأنني استعد للقيلولة، فلا تعول علي ان كنت تريد تجاذب أطراف الحديث».

- لا داعي لذلك - قال - لانكم ستغادرون المكان في الرابعة بعد الزوال.

• انا متيقن انها دعابة.

- لا هو الامر الحق وانا أحدثك بمنتهى الجدية وانا على علم بأنك تعرف ان رفاقك الآخرين رحلوا، ولأنك أغرب شخص عرفته».

قضينا لحظة زمنية نتبادل الحديث فسألته:

- هل انت متاكد بأننا فزنا بالعفو؟

اجابني باندهاش: «يا له من سؤال . لقد عفا عنكم جلالة الملك بل الاكثر من هذا انه صفح عنكم لأن ادريس البصري شخصيا جاء ليتاكد

من حسن العلاج والتغذية. وقد راجت عدة إشاعات تقول بانكم كنتم ستترحلون الى الخارج قصد العلاج لكن اطباءنا العسكريين طمأنوا الوزير واكدوا له أهليتهم للقيام بذات المهمة». وقد علمت فيما بعد من مصدر موثوق بأن الدركي قال الحق وبأن سوء تفاهم وقع بين «ف» والاطباء حول اتصالاتهم معنا. وقد كان الكولونيل يريد ان يكتفي الاطباء بعملهم دون طرح الاسئلة، لكن الكومندان الطبيب فجري عارض هذه التعليمات. فجأة طلب مني الدركي الابتعاد عن الباب لانه سمع اصواتا تقترب، وقد جاء فعلا الليوتنان حليمي مصحوبا بمساعده الحلاق كريم، ودخلوا الغرفة جميعا. و كانت تلك أول مرة يخاطبني فيها باسمي: الرايس هيء نفسك للرحيل. هاهو ذا الحلاق سيحلق ذقنك. بعدها ارتد ملابسك وضع اشياءك الخاصة في هذا الجراب، اسرع لأن الوقت لايرحم».

بعد ساعة كنت مستعدا، انتظر ساعة الرحيل لأهرب من هذا المكان، عاد الضابط فيما بعد للمراقبة والتفتيش . واغلق الباب، فحيرتني هذه الفعلة وتفاديا للتفكير بدأت أدندن بصوت خفيض وانا اذرع الغرفة. فتح الباب وظهر المروض الصحي الذي جاء لاستعادة العكازتين، خاطبني قائلا: «لقد جئت لاستعادتهما لانك لن تحتاجهما بعد الآن، لكني انصحك بشيئين اثنين المشي والحمام البلدي». جاء الليوتنان الطبيب بدوره وسلمني قرصين: «خذ هذين القرصين ضد القيء خلال السفر، تناولهما الآن». ثم أضاف بنبرة حبية متعاطفة: «ها انت ترى الان بانه لا مجال للشك في انك ستعود الى بيتك الآن.. هل انت راض الان».

- أجبته: لا أحير جوابا مادمت لم أعد الى بيتي، وبكل صراحة مازلت مترددا.

• إذن انت لا تصدقني؟ ولا تثق بي؟»

لما لاحظ بانني لم أجبه، هز كتفيه وهو ينظر الي مليا ثم رحل بعد ان اغلق الباب، مرت نصف ساعة قبل ان يعود حليمي متبوعا برجاله دخل ممسكا بعصابة ونظارات سوداء. وقف امامي وخاطبني بالقول والابتسامة لا تفارق شفتيه: عندما رفعنا العصابة كنت انا أول من رأيت والآن انا آخر من ستراه قبل وضعها..» وضع المساعد العصابة ثم النظارات ثم أرخى علي «القب» وأمسك بيدي ودعاني الى المشي. قطعت نفس الطريق الذي قطعته يوم الاثنين 91/9/16، في الاتجاه

المعاكس. اركبوني سيارة مصفحة بدون ادراج ولا أصفاد انطلقت السيارة في الساعة الرابعة بعد الزوال في اتجاه الرباط. مد إلي الدركي الجالس الى يميني جرابا وهو يقول: «خذ شرائح اللحم والجلبان والتفاحة والماء المعدني»، طلبت منه ان يحتفظ به الا ان ينتصف الطريق. فقبل طلبي، وهكذا صارت بيننا علاقة ، وعلمت بواسطته ان رفاقي في الرحلة هم عشور، مغوتي، وزموري وشخص رابع لايعرفه

قال مخاطبي «اعتقد اننا بفاس، هنا تركنا البارحة اصحاب الفرق 1 و2 و4 وانا اتساءل لماذا لم يستقبلكم الكولونيل انتم ايضا قبل السفر رغم انه كان في مكتبه. وقد سمعته يقول لليوتنان بانه سيلتحق بنا فيما بعد». اثار هذا القول حيرتي وتبين انني كنت على صواب في القلق على مصيري خصوصا لما أخبرني الدركي بأن الكولونيل حليمي قد طلب منهم المرور بالقنيطرة. والحال ان الماغوتي يقطن باب تازة، في الشمال، فما الذي جاء به الى الغرب وعاشور الذي كان من المفروض نقله الى الخميسات لماذا اتجهوا به وجهة جديدة؟ هذا معناه ان وراء الاكمة ماوراءها. وقد حاولت طوال مدة السفر ان أجد حلا لكن الغموض لف كل شيء وكلما فكرت زاد اللغز سرية. لما رأني الدركي شاردا مد لي الاكل وقال: اعذرني لقد كدنا نصل الى وجهتنا، كل بسرعة». وفيما كنت التهم طعامي طرحت عليه السؤال:

- قل لي هل سلمتم رفاقنا البارحة الى عائلاتهم مباشرة ؟

• لا لقد سلمناهم الى أناس لانعرفهم.

- هل هم أناس قساة، متجهمون مثلا؟

• هم أناس صارمون نوعا ما».

أجاب الدركي غير آبه، لكني القشعريرة سرت في بدني ومسني تيار كهربائي وشل فكري للحظة. وتأكدت شكوكي وبدأت خواطري تجول في حلقة مفرغة وتهت في متاهة بلا قرار. فجأة، حادث السيارة عن الطريق الوطنية وسارت في طريق مليئة بالاحجار . سألت الدركي:

- أين نحن؟

• في غابة معمورة

- كم الساعة؟

• إنها التاسعة ليلا ».

بالرغم من الارتجاجات القوية، واصلت السيارة طريقها مبتعدة عن الضجيج، بعد لحظات توقفت وشلني الصمت الرهيب المطبق. فزعت

وأنا أسمع صوت «ف» يأمر بإطفاء الاضواء. خيم الصمت، ثم سمعت هدير محرك يقترب منا، وقفت السيارة بالقرب من سيارتنا. بدأ النزول وكنت آخر من نزل، أركبونا سيارة أخرى بدون عنف او تشنج، انطلقت سيارة الدرك..

انطلقت السيارة وبعد مرور بضع دقائق غادرت الغابة وسلكت الطريق الوطنية وزادت من السرعة. بعد ان وصلت المدينة خففت من السرعة كما وقفت أمام الشارات الحمراء كلما صادفتها، قبل ان تتوقف اخيرا امام باب حديدي كبير له صرير وأزيز. دخلت وقامت ببعض الدورات قبل ان تتوقف نهائيا. مرة أخرى عم الصمت، صمت مخيف. تمالكت نفسي بعد ان كدت انهار بسبب التوتر العصبي. تساءلت مع نفسي، لماذا كل هذا الانتظار، لماذا حركة الذهاب والإياب العبثية؟ وهذه الوشوشات المثيرة للاعصاب؟ لماذا كل هذه الاحتياطات رغم أننا أحرار؟ ركزت تفكيري لمعرفة الموقع الذي نحن فيه، قلت ربما نحن الآن في معسكر بانيار (اوشخمان حاليا) بحي العكاري على بعد كيلومترين من منزلي. حلت اللحظة التي طال انتظارها، تلك اللحظة التي سيأخذ فيها قدري وجهة جديدة او يخضع لقرار حاسم: إما الحرية وإما مغادرة جديدة. قلت، ماهي الا هنيهة واعرف الحقيقة ويسدل الستار ليسمح لي بالذهاب الى حيث أحصل على عناق طويل وحار وقبلات مفعمة بالحنان والحدب من طرف ابنائي ولهم ولزوجتي وامي الذين كانوا ينتظروننا لا محالة، او أصادف مفاجآت أخرى اكثر احباطا. فجأة أمسك أحدهم بيدي برفق وطلب مني ان اتبعه.

تساءلت كيف لشخص يقوم بعمل مريب وسري مثل عمله ان يكون مهذبا ودمثا ولم يمنعني ذلك من مجاراة خطواته طوال البهو ، ثم الباحة قبل ان يحثني على الدخول الى غرفة ما. خلال هذه الرحلة راودتني عدة أفكار وتصورت الاستقبال الذي تهيئه عائلتي لي، بل كدت المس جسديا تلك الحرارة العائلية التي حرمت منها من زمان. رأيت، فيما يرى المسوس، الابتسامات الملأى بالعطف وسمعت الكلمات الطيبة لأهلي، ولم يفتأ قلبي ينبض ويهتز لتلك اللمسات الحنونة الخيالية لعائلتي الصغرى، بل اغرورقت عيناي وأنا أعيش هذه التهيؤات. اما الآن، وقد وصلت، فقد بدأ ذهني يدور في حلقة فارغة، ولم أعد أفكر في شيء لشدة ما تسارعت الاحداث في ذهني وتشابكت، تسمرت ولم أعد احس بشيء، لا لمسات حنونة ولانبضات

قلبية، سمعت صوتا نافذا وأجش يطرح الاسئلة حول هويتي وحالتي العائلية واسم الابوين والعنوان والوظيفة. بعد لحظة، كما لو أنه الصوت يسترجع أنفاسه او يفكر في ما يقول، جاء السؤال:

- لقد أدنت بالمؤبد، أليس كذلك؟

تدخل «ف» للتصحيح: لقد حكم عليه بالاعدام اولا في قضية الصخيرات قبل ان يتحول الى المؤبد بأمر من جلالة الملك.

استأنف الرجل، الذي لم أكن أرى وجهه، كلامه:

- طيب، للمرة الثانية يبدي سيدنا عطفه عليك بمناسبة عيد المولد النبوي، إذ تحول المؤبد الى 30 سنة سجنا، وبما أنك قضيت 20 سنة فلم يبق امامك سوى 10 سنوات ستقضيها هنا في السجن».

أجبت على الفور: لكن ياسيدي لقد قال لنا الكولونيل فضول منذ شهر تقريبا بأهرمومو ان جلالة الملك قد عفا عنا جميعا وأنني سأعود الى البيت بمجرد شفائي. هذا أمر لايصدق..».

- نعم، هذا مضبوط لأن تحويل المؤبد الى 30 سنة سجنا عفو، وقد استفدت منه بعد ان تحولت عقوبتك الى عقوبة محددة وقد يفرج عنك ذات يوم. عليك ان تشكر الله وجلالة الملك على الرأفة بك».

لاشك انه لاحظ الحزن على قسمات وجهي، والخيبة اللانهائية التي تحولت الى غضب داخلي هز كياني الذي رفض هذا الظلم:

- لكن ياسيدي لقد كنت في معتقل عشرون سنة فيه بمائة عام وعذبت أكثر مما يعانيه مسجون عاد الف مرة. لقد خضعت لنظام جهنمي و عليّ الآن ان انتظر 10 سنوات أخرى؟».

أجابني الصوت -الذي لا وجه له:

- انصت اليَّ جيدا لا اعتقد أنك ستقضي عقوبتك كلها: فإذا ما أنت احسنت التصرف والسلوك فأعدك بأنني سأطلب التخفيف من عقوبتك. وهذا رهين بسلوكك واندماجك مستقبلا».

طوال هذا الحديث كنت أحس ان الارض تميد من تحتي. احسست نفسي أعزل محبطا كما لو ان دوارا أخذني في اعصاره نحو الهاوية. تمالكت نفسي واستجمعت كل قوتي وأجبته:

- لكن سيدي لست سجينا من سجناء الحق العام لكي احتاج الى إعادة الاندماج والتكيف، لست محكوما من أجل السطو او الرشوة، بل انا مدان في قضية الصخيرات.. لا اقل ولا أكثر».

رد على الصوت ببروردة هائلة:

ـ انصت ، ربما تسرعت والحق أنني حاليا لا أتوفر على أية وثيقة رسمية وكل ما لدي أمر شفهي للاحتفاظ بك الى إشعار آخر، إذن اعتبر نفسك في اعتقال احتياطي.. خذوه الآن وسأعطيكم التعليمات غدا صباحا».

أخرجوني من المكتب، وقادوني الى آخر. خلع احدهم جلبابي ورفع اخر النظارات والعصابة. لما فتحت عيني اعماني الضوء وبدا كل شيء مضببا حيث تراءت لي اطياف ترتدي بذلات زرقاء سماوية.

كنت لازال تحت تأثير الصدمة من فعل الاحداث التي جرت ذلك المساء والكلمات التي سمعتها. ومكر المسؤول الذي اخفى عني الحقيقة وأوهمني بالكلام المعسول قد اشعل سعار الغضب في، وربما كنت سأتحمل الصدمة بشكل افضل في لحظة اخرى غير اليوم، لكنها الآن اشبه بكارثة جسدية ومعنوية، عصفت بكل آمالي وأحلامي. وقد كنت منذ اقل من ساعة أحلم بالذهاب الى الحمام، بمعية احد ابنائي لأدفئ جسدي وأدلك عضلاتي قبل التهام وجباتي المفضلة الجميلة المهيأة لي خصيصا من طرف زوجتي وأمي.

بدأت اتبين ما يحيط بي رويدا رويدا، وجدت نفسي في قاعة للمداومة نصب بها جهاز الاتصال والارسال الهاتفي، طاولات عليها ملفات عديدة، وكراسي عتيقة في كل ناحية. كان حارس السجن ببذلته الزرقاء يراقبني بإمعان ثم اقترب مني قائلا: لقدسبق لي ان رأيتك. انا متأكد من هذا لأن وجهك غير غريب عني.

لم ترني اي مكان واتمنى لو أنني بقيت حيث كنت حتى لا أرى أحدا».

لقد أجبته بلهجة جافة وعدوانية لانني لم أكن ارغب في الدردشة، اما هو فقد غض بصره دون كلام وابتعد عني. لقد جرحته لكنني كنت منهارا. كنت مثل ثور في ساحة كوريدا اصابوه في مقتل. كانت الكوريدا مازالت سارية رغم 20 سنة من العذاب والعزلة في العتمات. لقد خدعني «ف» ونزل علي خبر العقوبة الجديدة كالصاعقة، كما ان الصوت الغامض أهانني عندما قارنني بسجناء الحق العام وقد قضيت في تازمامارت ابشع العذابات والاهانات. هل يوجد سجين واحد في المغرب كله قاسى ما قاسيته من معاملة لا انسانية، حرم خلالها من ابسط حقوقه، حتى من الشمس والهواء المجانيين.

تضخمت مقارنتي بالثور اكثر فأكثر، فقد عانيت مثله من الضيق

والظلمة وتحملت مثله الضربات الجارحة والقاتلة. والهجمات العشوائية للمروضين. وأنا أحاول الهروب او ايجاد مخرج نحو الحرية.

لقد كان المخزن هو مروضي القاتل، اجده حيث لا أظن اني ملاقيه.

هزمت وفقدت سلاحي، وهبت نفسي للغد الذي سيكون مهما كان، احسن من ماضي الكئيب. وبدون عناء ألقيت نظرة سرعان ما جحظت لها عيناي وأنا ارى تازمامارتي اخر جالس على كرسي، سحنته حزينة ووجهه شاحب، تعيسا مثلي ومنهارا مثلي ينظر الى الفراغ نظرة زجاجية تشبه نظرة ميت. ما من شك انهم قتلوا فيه كل ما ساعده على البقاء حيا طوال عقدين: الامل. لم يعد يأمل شيئا الآن لأن المخزن سلبه هذا الشعاع: كان غاني عاشور ببذلته الرمادية وقميصه الابيض وحذائه الاسود ينظر الي مندهشا. هز رأسه وابتسم ابتسامة مليئة بالاسى والمرارة وقال:

- لقد ضعنا تماما

اجبته بصدق

- لا، عاشور انت هنا مؤقتا، وانا اتساءل لماذا احتفظوا بك ايضا اردت اضافة شيء، لكن شخصين آخرين يرتدي كل منهما جلبابا وشبشبا جاءا من القاعة الاخرى، اقتربا منا وهما يبتسمان، احدهما ربت على كتفي وخاطبني قائلا:

- أهلا الرايس هل تذكرني؟ ثم التفت نحو رفيقي».. وانت عاشور ارجو انك مازلت تذكرني؟»

اجابه عاشور: لا اذكرك وانا لااذكر شيئا لان ذاكرتي وهنت.

قلت من جهتي: انا اعرفك، انت حسن، حارس شاب وظفت في دجنبر 72 ، انت من امنتنوت مستواك الدراسي الخامسة ثانوي بعد 6 اشهر من تجنيدك فزت في مباراة ضباط الصف».

انفجر ضاحكا وهو يقول: برافو الرايس انت حاسوب حقيقي، وما عليك ان تعرفه الآن هو أنني الآن نائب المدير بالسجن، حاصل على الاجازة في الحقوق، في الواقع لم تشيخا كثيرا كل ما تغير هو المظهر».

سألني رفيقه الذي وخط الشيب شعره

- هذا عرفته وأنا؟

اجبته على الفور: لا اذكر اسمك العائلي لكن اسمك الشخصي هو سي احمد وانتما معا نفس الفوج واعتقد انك من جبالة.

اندهش قائلا: اوه، هذا رائع، كل هذا الوقت ومازالت ذاكرتك حية.
- أين نحن
في السجن المركزي بالقنيطرة
- هل تشتغلان هنا؟

اجاب حسن: نعم، كلانا مدير، سي احمد الصوفي مدير الاعتقال وانا نائبه، لقد تابعنا الدراسة العليا وانجبنا اطفالا، يدرسون في الثانوي الآن. الا ترى - الرايس - بأن الوقت يمر سريعا، مثل ميراج».

همست قائلا: نعم مثل مراج

اخذت لهجة حسن نبره جدية: «طيب سيكون لدينا الوقت الكافي للذكريات. الآن ستخلعون ملابسكم وترتدون ملابس السجن، بعدها ستملأون بعض الاستمارات المهيئة من طرف المدير التهامي» وزع علينا المسؤول عن المخزن الصحون والملابس قائلا: هذه مجرد شكليات فيما بعد ستسترجعون ملابسكم العادية مثل كل المعتقلين السياسيين في القنيطرة.

التلفزيون بالألوان

دعانا المديران إلى مرافقتهما الى مكتب الموظفين. وعند ماكنت أعبر الساحة، لاحظت أن الحال ظل علي حاله، وإن نمت النخيلات قليلا وحال لون النافورة التي لمعت في زمن مضى، وصارت الجدران أقل بهاء مما سبق: أما الأبواب الحديدية التي أصابها الصدأ فقد بدت أكثر كآبة و تنفيرا لمن رآها. كان رئيس المكتب قصير القامة، يتجاوز عمره الخمسين سنة، يضع نظارات، بدا نحيفا وشاحبا ومتوترا بلا سبب، أمعن فينا النظر قبل أن يسألنا عن الإسم والنسب ثم اتجه نحو الإرشيف المغبر والعتيق. بعد لحظات قليلة عاد حاملا ملفينا ووضعهما فوق الطاولة: كانا ملفا سنة 1971، نظر إلى الصورتين ثم حملق فينا طويلا،، لم يستطع إيجاد الصلة بين الأصل والصورة، طلب منا أن نرى صورنا وأن نؤكد له أنها صورنا فعلا! رد عليه المديران في نفس اللحظة. «إنهما هما، ونحن نعرفهما» هز التهامي رأسه وغمغم: «يا للغرابة، كيف يفعل الزمن

بالناس ما يفعله في فترة وجيزة. لقد تغيرا كلية». بعد لحظة تامل وجيزة اضاف «طيب، الرايس محمد، كان رقمك في سنة 1971 هو 18061؟ أليس كذلك؟» أجبت بالإيجاب «وأنت عاشور عبد الغني كان رقمك القديم هو 18044؟» أكد رفيقي بنعم حزينة وواهنة.

«طيب ستحملون هذين الرقمين ذاتهما».

استنكر رفيقاه هذا الاستثناء، لكنه رد بالقول بأنها «تعليمات خاصة صادرة من فوق». بعد أن انتهى العمل توجهنا نحن الأربعة نحو الباب الكبير المفضي الي بهو واسع وطويل. أي السجن بذاته، عندما كان الحارس الليلي يفتح الباب همس الي قائلا «لا تحزن، فهنا، المكان أفضل ألف مرة من الجحيم الذي كنتم فيه. لا مقارنة بينهما، هنا سيحسنون معاملتكما، ومن حسن حظكما أنكما في السجن المركزي لأنه أفضل من كل السجون وستتبين ذلك بنفسك، احمد الله الآن لأنه سبحانه أنجاكما».

كان هذا الحارس انسانا طيبا، طويل القامة، شديد الشقرة، نحيفا ملقبا بـ «العربي مريكان». اعتقدته في البداية إنسانا مدعيا ومحتالا. كان ذلك خطأ إذ علمت فيما بعد بأنه لا يضعف أمام رشوة أو إفساد، وهو من القلة القليلة المجدة في عملها، إنسان مستقيم يحترمه الجميع وكل المعتقلين بمن فيهم القساة وأصحاب الجرائم، انطوائي ومتكتم، دمث الاخلاق وحسن التربية.

دخلنا إلى السجن فاندهشت لكآبة المكان، إذا كان البهو متسخا بشكل مقزز. تفوح من كل جنباته روائح العفونة، والجدران التي غطاها الوسخ، فقد كانت تعكس الإهمال وسوء النظافة. هزني هذا الديكور الكئيب وسبب لي الغثيان، تذكرت أنه قبل ترحيلي السري الى تازمامارت كان البهو دائما يلمع نظافة مثل متحف مرايا جدرانه مطلاة باستمرار وأرضيته منظفة، تفوح في كل متر منه روائح الجافيل والصابون والكريزيل.. الآن «صفعتني» رائحة حيوانية عطنة.

ليلتها كان كل شيء ذابلا وكئيبا. سألت سي حسن أين سيضعوننا. أجابني بـ «في الطابق الثاني على اليسار» صرخت محتجا «عليكم ان تفكروا في صحتنا المتدهورة، في الروماتيزم الذي ينخرنا واقدامنا المنتفخة. شخصيا سأعجز عن الصعود والهبوط كل يوم كل هذه الأدراج» عضد عاشور كلامي بقوله «بالنسبة لي هذا جرف» عرضت على سي حسن ان يودعنا في زنازننا القديمة ما دمنا نحمل أرقامنا القديمة (كما لو أننا لم نغادر القنيطرة) شرح لي سي حسن كيف أن السجن ضاج بمن فيه،

مما أجبره على جمع 3 سجناء في كل زنزانة انفرادية و50 في كل غرفة. كما أن العديد منهم كانوا يقيمون في الممرات نظرا لضيق المكان، سألته: ألا يمكنك أن تجد لنا مكانا في حي «الانفرادي» أو الأوراش (حي جيم وحي أ) رد علي الصوفي: هذان الجناحان مخصصان للإسلاميين والماركسيين. والحقيقة أننا توصلنا بتعليمات لعزلكما عن المعتقلين كي لا تتحدثا عن تازمامارت».

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمشي فيها بدون عكاز، كنت اتحرك مثل غوريلا، اصعد الأدراج خطوة خطوة وأن أمسك بالدرابزين مستندا إلى كتف سي حسن، رأيت الحراس الليليين في كل مكان مما يشير الى الحيطة والحذر الشديدين، علمت فيما بعد بهروب معتقلين (2) في عملية جديرة بالأفلام مثل «بابيون». اذهلتني الأصوات والصخب والموسيقى بكل أنواعها، كنت أتوقع هدوءا شاملا في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فوجدت نفسي في سيرك مفتوح، وفي لحظة ما أحسست أنني أصم، بفعل كل هذا الصخب وقلت في نفسي: بعد الوسخ والعطانة هاهو ذا التلوث الصوتي، لم يكن ينقصني سوى هذا» نظرت للحظة من خلال الكوات المفتوحة فرمقت التلفزيون بالألوان، كانت تلك أول مرة أرى فيها تلفزة بالألوان في حياتي، وأجهزة المذياع والمسجلات وسجناء الحق العام ببذلات رياضية فاخرة يهيئون عشاءهم، بعضهم يلعب الورق ويحتسي الشاي المنعنع، بعضم يدخن ويدردش بصوت مسموع، كانوا يضحكون، يغنون، يتندرون، استنشق أنفي الذي شحذته سنوا ت تازمامارت كل الروائح: بطاطا مقلية، سمك، دخان، شاي، قهوة ورائحة غريبة لم يسبق لي أن شممتها وعلمت فيما بعد أنها رائحة «الحشيش».

فتح الحارس بابنا فدخلنا فيما ظل المديران أمام باب الزنزانة لأنها ضيقة طولها 3 أمتار وعرضها متران، بها سريران، واحد فوق البلاطة الاسمنتية والثاني ملقى أرضا استنكرت محتجا:

☐ هل سنقيم معا في علبة السردين هذه؟

■ للأسف نعم، لأن عدد السجناء يتزايد باستمرار.

☐ لقد عشت دائما وحدي في «كاشو» وعاشور أيضا، ولم نعد قادرين على العيش وسط الجماعة.

أخذ سي حسن اللكمة لتفادي الشنآن.

■ انصت إليَّ الرايس اقضيا الليلة هنا وسنرى مع المدير المركز غدا وقد سبق له أن أخبرنا بأنكما ستمكثان هنا بعض الوقت فقط.

خاطبني الصوفي بقوله: «هل تعرف باننا توسلنا للسجين الذي كان هنا لكي يغادرها وتقيما فيها مدة أسبوع»؟ عقبت مندهشا: «اتوسل لسجين ليغادر سجنا للدولة هذا ما لم يخطر على عقل بشر»!

■ نعم، هذا صحيح لكن هناك بعض الاعتبارات التي لايجب اغفالها. اولا هذا السجين محكوم عليه بالمؤبد قضى منه 10 سنوات هنا، ثانيا لقد انفق مالا كثيرا لترميمها واصلاحها «انظر بنفسك».

وكذلك كان. حيث أن السجين طلى جدرانها بالصباغة الزيتية وهيأ فيها خزانة وكراسي وأباجورات وفصل المرحاض عن بقية الزنزانة بواسطة جدار بناه بنفسه، كانت تشبه شقة في الواقع، وقد علمت فيما بعد أن الإدارة والسجين توصلا الى تسوية ترضي الطرفين علما بأنه كان مهرب حشيش!

قبل أن يودعنا المديران حذرانا من الحديث الى المعتقلين السياسيين الاخرين الذين يعتبرون، في نظرهم، مجرد مدنيين ثرثارين وانتهازيين يفكرون في مصالحهم فقط، لما اغلقا الباب وجدت نفسي بمعية رفيق المحنة في الزنزانة، بعد أن قضينا شهرين في ضيافة «ف» الذي أخبرنا مرارا باننا لم نعد سجناء، كان عاشور جالسا القرفصاء ورأسه مطأطأ، بين الفينة والأخرى ينظر إليَّ نظرات حزينة دون أن ينبس ببنت شفة ولزمنا الصمت طويلا الى أن جاء أحد الحراس وقال: «أهلا .. إن جاركما على اليسار يسأل إن كنتما تريدان الأكل أو الشاي».

اجابه عاشور، «لقد أكلنا ونود لو هناك كأس شاي، شكرا» بعد خمس دقائق جاءنا بكأسي شاي، قضينا الليل كله نتجاذب أطراف الحديث نسب عاشور محنته الى «ف» فأجبته بأنه هنا، مؤقتا بسببي، لم يفهم قصدي فاضطررت الى التوضيح أكثر:

□ انصت إليَ، إن «ف» لاحول له ولا قوة لأنه مجرد منفذ لهذه القرارات الكبرى اما أنت فقد تركوك هنا لكي يخفوا انتقامهم، صدقني سيطلق سراحك في غضون شهور قليلة في أول عيد ..

■ إذن أنا هنا بسبب الخطأ.

□ لا، المخزن لايخطئ، وهو مدرك فعلته، كما يدرك بأنني سربت رسائل سرية من تازمامارت.

□ لست الوحيد بل هناك آخرون لكن أفرج عنهم.

■ أنت على صواب، لكنهم انهوا عقوبتهم ولم يعد الاحتفاظ بهم قانونيا، أما أنا فمحكوم عليَّ بالمؤبد إضافة الى أن إلهام ابنتي أقامت

ضجة إعلامية كبيرة بعد أن توصلت برسائلي واكثرت من الحوارات في الإذاعات الأجنبية، وقد كشفت عن وجود تازمامارت الذي كان يجهله الكثيرون .. والمخزن لم يرق له هذا فانتقم بالاحتفاظ بنا ..

■ لكن أنا ما ذنبي.

□ إذا ما احتفظوا بي وحيدا سيظهر ذلك للعيان ويظهر الانتقام واضحا، وربما احتج الرأي العام العالمي .. لكن بما أن من لم ينه عقوبته مازال سجينا فإن العمل مشروع قانوني.

■ لكن رفاقنا الطيارين المحكوم عليهم بـ 20 سنة يوم 72/09/13 لم يتموا بعد عقوبتهم.

□ نعم، لكنهم استفادوا من العفو بعد أن بقيت أمامهم سنة فقط.

■ هذا ظلم ..

قانونيا لايمكننا أن ندينهم بشيء اللهم الاعتقال في تازمامارت .. لهذا أقول لك بنفسي ما قد تسمعه من فم الآخرين، لأريح ضميري ولكي لا تحقد عليّ، أفضل أن نظل أصدقاء كما كنا دائما.

وتحققت رغبتي فعلا إذ مازلنا فعلا على صداقتنا، اطفأنا النور لكن النوم جفانا، صباح يوم الخميس 24؟ في الساعة الثامنة والنصف، كان الحراس يفتحون الأبواب فبدأ الصخب يعلو وانتشر السجناء في البهو، يتراكضون يسارا ويمينا لأسباب مختلفة.

كان عاشور يراقبهم من وراء الكوة مذهولا، ناداني: «تعال ترى مع من وضعونا»، انزاح عن مكانه فذهلت بدوري لما رأيت وانتابني الخوف من هؤلاء السجناء بصدورهم العارية الموشومة وهم يتبادلون السب والقذف والكلام النابي، بعضهم خطت الندوب وجهه يمشي الخيلاء، مع ذلك ندت عني ابتسامة عندما رأيت شخصا عريض المنكبين وشم على صدره العبارة التالية: «يا نا با لاشانص» (أتراه كان يلمح الى قبحه أم الى وضعه الميؤوس منه؟). كان هناك أيضا سجناء ساهمون غير مبالين بما يدور حولهم يتسكعون في الكولوار... راقبت المشهد ثم همست لرفيقي: من الآن فصاعدا سنكون مكرهين على العيش مع هؤلاء يوميا. ربما سنصبح مثلهم ذات يوم. فمن يدري؟».

فتح السجان باب زنزانتنا، مرفوقا بسجينين، لمناولتنا الفطور فتدخل جاري على اليسار قائلا: «لا تعطوهما سمكم، سأتكفل بالأمر». سلم علينا ثم وضع براد شاي بالنعناع، وعسل وزبدة وزيت الزيتون والبيض المقلي وحلوى. وفيما نحن نأكل، كان نبأ يخصنا قد جال في السجن وسرعان ما

امتلأت علينا الزنزانة والبهو بالفضوليين الذين جاؤوا لمشاهدة الفارين من الجحيم. لقد أصبحنا شيئا غريبا حتى في نظر أولئك الذين لم يعد شيء يفاجئهم! فتزاحموا وتدافعوا بالمناكب وطرحوا الأسئلة تلو الأخرى، واستطلعوا الأخبار، أعقب ذلك السخط والاستنكار، وما أثر فيَّ كثيرا هو الحزن الذي قرأته في أعين السجناء، الذين بكى العديد منهم وهم ينصتون إلى حكاياتنا باندهاش وقلق، أحدهم هزّه ما سمع ورأى منا فقال لي: أنا آسف لما وقع لكم وعانيتم في هذا المعتقل الملعون. لقد أحزنتني قصتكم، إذ لم أكن أتصور أن الإنسان قد يصل الى هذه الدرجة من السادية: أنا هنا بسبب جريمة قتل سببها الحب، ارتكبتها في حالة غضب عندما فاجأت زوجتي مع عشيقها. كنت أعتبر نفسي وحشا وإنسانا وضيعا، واليوم تخلصت من هذا الإحساس ومن الندم على قتل العشيق وجرح زوجتي. لم أعد أوبخ نفسي لأنني أدركت اليوم بأنني لست في مثل سادية جلاديكم الذين كانوا يستلذون فعلتهم، أنا قتلت واحدا فقط رغما عني، وأتضرع الى الله طلبا للمغفرة أما الذين عانيتم على يدهم فمازالوا في ضلالهم يعمهون».

هؤلاء الناس الذين أخطأت في حقهم منذ قليل ونظرت إليهم نظرة يشوبها الازدراء، جاؤوا كلهم لمصافحتي بود وابتساماتهم تنطق بالصدق. منذ عقدين مضيا، كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها كلمات عطف وحنان وطيبوبة. كم كان حكمي خاطئا وخطئي كبيرا. فجأة وقف أمامي شخص عملاق ملتحي وقال لي بلطف، إن المعتقلين السياسيين يودون مقابلتك في أقرب وقت ممكن. قبلت الدعوة وتبعته إلى جناحهم. استقبلوني بحفاوة بعد أن استحممت وزرت الحلاق، ارتديت الملابس المدنية التي منحني إياها المعتقلون السياسيون إضافة الى التلفزيون والراديو وأدوات المطبخ والطوابع البريدية والكتب والمجلات، وهي الأشياء التي أرجعتها إلى أصحابها بعد أسبوع حتى لا أتعود الرفاهية في السجن!

قضيت الصباح كله أتجول في الساحة المشمسة، أتبادل أطراف الحديث مع الرفاق الجدد. أما فترة الزوال، فقد خصصتها للزيارة الطبية حيث جيء خصيصا بطبيب لفحصنا ووصف الدواء المناسب لنا، أخطرت زوجتي هاتفيا بواسطة أخت أحد المعتقلين السياسيين في نفس المساء. وبدلا من الليالي الصامتة في تازمامارت التي يتخللها بين الفينة والأخرى نعيق البوم أو عواء الذئاب، قضيت ليلة صاخبة ضاجة

بالنداءات والموسيقى والصياح. يوم الجمعة 25 اكتوبر، تناولت فطوري، وخرجت إلى الكولوار الكبير أتمشى وأراقب السجناء يتوجهون جماعات جماعات إلى أوراش التعلم.

عندما عانقتني زوجتي...

صباح يوم الجمعة 25 أكتوبر في الساعة 9 و 30 د نادوا عليَّ لأذهب الى مكان الزيارة. كان الطريق طويلا وشاقا من أقصى السجن الى اقصاه.. كنت أدِبُّ وأترنح وقد أمسك بي شخصان. عندما وصلنا الى الباب الكبير سمعت صوتا يأمر مرافقي باقتيادي الى مكتب الأرشيف. أجابه أحدهما: «لكن زيارته في البارلوار، فرد عليه الصوت، سيقوم بها في المكتب، هذه أوامر»، أدخلوني الى مكتب، تسارعت نبضات قلبي من شدة التوتر، كنت أخطو دون تفكير، وأنا أنتظر مفاجأة مع كل خطوة. اقترب مني أحد الحراس فخاطبني:

- تشجع ولا تدع الانفعال يأخذك وإياك والضعف. فهذا أمر هام ومهم»

هذه العبارة شوشت بالي، لأنني لم أكن أعرف السبب الحقيقي: هل هي زيارة عائلية أم استنطاق؟

تقدمت بحذر وحيطة مثل شخص وحيد في غابة. في أقصى المكتب سيدة مرتدية بذلة قاتمة، عمرها حوالي 44 سنة، شقراء وجهها يكاد يكون مستديرا، قامتها أكبر من متوسطة. نظرت إليَّ باندهاش، لاشك أنها تساءلت عمن يكون هذا الشبح الذي يتقدم مترنحا، تبادلنا النظرات دون أن نعرف بعضنا البعض. سبرت أغوار الذاكرة وفتشت في تلافيفها النائمة لكي أتذكر وجها أليفا وأجد له شبها مع وجه هذه السيدة المجهولة أمامي. عثرت عليه، إنها هي، نعم هي من لحم وعظم. هي خديجة الشاوي زوجتي الجالسة أمامي دون أن تتعرف عليَّ. وأنَّى لها ذلك وقد تغيرت كثيرا عما كنت... بين الذي عرفته والطيف الواقف أمامها 20 سنة من تازمامارت.

أمام هذا المشهد التراجيدي والخارق الذي لا يعرف فيه الزوج زوجته ولا هي هو، أخذ نائب المدير عبد الحق الكلمة وكسر الصمت قائلا: «تقدم الرايس وسلّم على زوجتك» ثم تحدث إلى زوجتي بهمس حزين: «مدام الرايس هاذا هو راجلك»، فوجئت خديجة في الأول ثم نهضت وتقدمت نحوي وعيناها الجاحظتان مغرورقتان بالدموع، وقد فتحت ذراعيها ثم رمت بنفسها عليَّ حتى كادت تسقطني أرضا، فتحت ذراعيَّ الواهنين وعانقتها بحرارة. أحسست بجسدها يرتجف، تهزه نوبات البكاء والنشيج، التصقت بي أكثر كما لو أنها خائفة من أن تفقدني مرة أخرى. زاد نحيبها كلما عانقتني وندت عنها حشرجات حزينة وعبارات غامضة. بذلت مجهودا كبيرا لأتمالك نفسي، وأنا أربّتُ بود وحنو على كتف السيدة التي عاشرتني 10 سنوات، والتي عانت ولاشك الكثير، أكثر مني بتحملها للعذاب النفسي والبدني. واسيتها بكلام عادي، لكن هيهات، كان التأثر قويا سبب لها الإغماء. أجلسوها على الكرسي وناولوها الماء، وانتظرنا لحظة حتى استعادت وعيها، نظرت إليها بنظرة ملؤها الحزن والأسى مدركا أنها عانت وتعاني من أجلي. عندما فتحت عينيها المحمرتين والمغرورقتين شرعت في البكاء من جديد، فأجهشتُ بالنحيب بدوري.

أحزن المشهد نائب المدير فغادر الغرفة بعد أن خاطبني:

- علي أن أذهب، سأدعكما وحيدين معا...» ظللنا ننظر إلى بعضنا ونبكي. وما انفكت هي تأخذ وجهي بين راحتيها وتنظر إليَّ مليا وتغمرني بالقبلات على جبيني، على خدي..، ثم شدت على يديَّ بقوة وقبلتهما مرات عديدة، ولسانها يلهج بحمد الله وشكره، لأنه لبى طلبها وحقق لها ما تتمناه، ضممتها إلى صدري وحدثتها بحنو «كفي عن البكاء، لقد انتهى كل شيء الآن، لن يكون هناك كابوس بعد الآن، واشكري الله على جمعه بيننا بعد طول فراق» ردت عليَّ وهي تنتحب:

- لقد صليت لله عقدين من الزمن وتضرعت إليه سبحانه لكي ينعم علينا بهذا اليوم. وأخيرا استجاب لدعائي.

- لماذا تبكين إذن؟

أبكي من شدة الفرح لرؤيتك ولشدة الحزن لحالك، لقد دمروك والموك جدا، أليس كذلك؟

- المهم أنني حي.. كيف حال الأبناء وأمي؟

- أبناؤك في حال جيد وقد كبروا وسيزورونك في المرة القادمة. أما

والدتك فقد توفيت رحمها الله في 1989، أعرف أن الصدمة قوية، لكني آسفة لهذا النبأ...».

ما من شك أن زوجتي واصلت مواساتها لي، لكن لم أكن أنصت إليها، لقد كنت مصعوقا، لم أحر كلاما وكنت أرتجف مثل ورقة بفعل نحيبي الطويل، أما قلبي فقد غرق في ظلمات الحزن.

حكت لي زوجتي من جهتها المحنة التي مرت بها طوال فترة إقباري، حكت عن مساعيها لدى السلطات، بحثا عن أخباري، وعن انتهاك حرمة البيت من طرف الشرطة، وعن اعتقالاتها في المخافر وعن التهديدات المتكررة لبعض رجال الشرطة السرية، وحكت على الخصوص عن عروض طلب الطلاق من أجل الحصول على بعض الامتيازات. تكلمت بمرارة عن سنوات البؤس والحرمان والظلم الاجتماعي والاحتقار، كما روت لي عن نبذ العائلة لها وتنكر الصديقات الحميمات، خوفا من تهمة التعاطف معها! آلمني كل ما قالت وتألمت وأنا أسمع حكاياتها المأساوية.

وكلما كانت ترى الحزن على محياي تتوقف عن الحديث وتقبل يدي باكية. كنت أواسيها وأمرر يدي على شعرها الأشقر وأقبل جبينها. دام لقاؤنا ساعتين وقبل أن ترحل وعدتني بالعودة في الزوال لتأتيني بالأشياء والملابس التي سأحتاجها في السجن. بَرَّت بوعدها وجاءت أقل حزنا من الصباح، دامت الزيارة ساعة كاملة حكت لي خديجة خلالها كيف استطاعت مقابلة المرحوم الأمير مولاي عبد الله والجنرال أوفقير في أبريل 1972، وحكت لي أيضا عن مغامرتها بحياتها لرؤية المرحوم جلالة الملك الحسن الثاني في دار السلام لتطلب منه العفو، وروت أيضا ما تعرضت له من ضرب وتنكيل من طرف الشرطة، عندما ألحت على مقابلة المرحومة والدة جلالته رحمه الله، وأخبرتني كذلك بأن أفراد (الديستي) والاستعلامات أخبروها بالإفراج عني في بداية أكتوبر وطلبوا منها لزوم البيت في انتظاري، وقد تناوبت على ترقبي هي والأطفال، وطال الانتظار وزادت حدته عندما زارت أصدقائي المفرج عنهم وأكدوا لها بقائي على قيد الحياة وقرب الإفراج عني... وساورتها الشكوك لما عاد نفس الأفراد وطلبوا منها أن تقوم هي نفسها بالبحث عني في المستشفيات والسجون.

تحدثنا عن أشياء أخرى قبل أن تغادرني، بعد أن وعدت عاشور بإخطار عائلته في ذات المساء. وقد وفت بوعدها فجاءت عائلته في اليوم الموالي. مرت نهاية الأسبوع عادية وكانت مناسبة لمن لم يزرنا للمجيء.

ودعانا الإسلاميون لاقتسام الشاي معهم ونظم الماركسيون حفلة صغيرة على شرفنا، في حين تطوع سجناء الحق العام لخدمتنا وتنافسوا على من ينظف زنزانتنا أو يصبن ملابسنا. قضيت الأيام الأولى في التجول في الساحة، صباح مساء وأنا أتأمل هذه الحشود التي سأعاشرها مدة 10 سنوات، كانت حشودا مختلطة جاءت من كل أنحاء المغرب، يتحدث أفرادها لهجات مختلفة ويتبعون عادات متباينة، كل واحد من هؤلاء السجناء له قصة خاصة وأسباب خاصة دفعته الى الجريمة، لا أذكر الآن كل ما قيل لي، منهم القتلة المحترفون الذين ترتعد لمرآهم الفرائصْ، وقد أحسست بنفور حاد منهم، لاسيما منهم من يقتل الأصول أو الأطفال، وأشد ما كنت أكره منهم أولئك المثقفين الذين ارتكبوا الجريمة بوعي. كيف يمكنني أن أمد يدي لمصافحة ذلك الطبيب المختص في التوليد الذي كان يجهض الأمهات العازبات ثم يقدم الأجنّة طعاما لكلبه الذي يأكلها أمامه!

لقد كان يستلذ منظر الجنين الصغير والكلب يلتهمه!! كيف لي أن أتعاطف مع مَنْ لا يخشى الله ولا يحترم ما خلقه. هذا الشخص لم أحدثه أبدا، والمحكوم عليهم بالإعدام أنفسهم كانوا يحقدون عليه.

كان هناك أيضا القتلة عن طريق الخطأ أو من شدة الغضب أو السكر وقد أذهلتني حكاياتهم، كما كان هناك أيضا عدد كبير من قطاع الطرق واللصوص ومجرمي السطو، ومن الشواذ جنسيا والمغتصبين، ومنهم أستاذ ناضج، جدِّي ولبق، جمّ الأدب واللطافة حاول مرارا ربط علاقة معي، وقد جذبني حديثه وحكمته، لكن ما إن علمت بأنه اغتصب ابنتيه لتلبية حاجاته الجنسية حتى نفرت منه ونسيته الى الأبد. غير أن ما أثار غثياني كان هو أمر رجل ستيني العمر طويل ونحيف بلحية بيضاء تضفي عليه الوقار والتقوى. كان يتحدث بحكمة ويسدي النصائح، لأنه كان فقيها يبجله كل أهل قريته ويعملون بنصائحه، حكم عليه بالمؤبد، لأنه قتل بوحشية طفلا عمره 10 سنوات بعد أن اغتصبه....

سأل الفقيه، الذي قتل طفلا عمره 10 سنوات بعد ان اغتصبه، عاشور لماذا أتحاشاه و أرفض رد تحيته، فأجابه بأن السبب هو جريمته، فرد الشيخ بهدوء: الخطأ إنساني ولا احد معصوم منه، وان يخطئ المرء مرة في حياته ليست مأساة المهم هو الا يكرر فعلته».

يوم الاثنين 28 في الساعة التاسعة والنصف زارتني زوجتي بمعية ابنائي الثلاثة: ادخلوني الى بهو الزيارة الذي كان ضاجا بالزائرين،

كانت عائلتي في الطرف الآخر من الشباك. لم استطع سماع ما يقولون. اشارت خديجة الى شابين راشدين وفتاة عمرها 22 سنة قائلة: هؤلاء هم ابناؤك لقد كبروا أليس كذلك؟

كان الصخب في اوجه مما فرض عليهم رفع اصواتهم اثناء الحديث. اما انا فلم يكن بمقدوري ان اصرخ بسبب انتفاخ الغدة (كواطر) طلبت منهم الانتظار وتوجهت نحو البهو لاحتج لدى المسؤولين، منعني الحارس من اجتياز الباب المؤدية الى الادارة واخبرني بان المعتقلين السياسيين وحدهم مرخص لهم بالمرور. طلبت رؤية المدير او مدير الاعتقال لانني احتاج الى زيارة عائلية مباشرة نظرا لحالتي الصحية، تدخل العديد من معتقلي الحق العام للدفاع عني، على اساس انني معتقل سياسي عسكري! رد الحارس «انا لا أعرفه، وعلى كل هذا الامر لا يهمكم. وانا أنفذ التعليمات، رد عليه سجين عملاق موشوم الجسد ساخرا: انك تنفذ الاوامر لفائدة اشخاص وزعوا البيانات او كتبوا مقالات في الجرائد، اما هو فلا تعتبره معتقلا سياسيا» فوجئ الحارس بالرد فسأله: ومن اين جاء؟» رد عليه السجناء دفعة واحدة: من تازمامارت.

طلب مني السجان ان اتبعه فقادني لدى مدير الاعتقال الذي ذهب بي عند المدير، عرفت انه «الصوت بلا وجه» الذي حدثني يوم 23 اكتوبر والمسمى الشط محمد، وهو رجل طويل القامة، جميل الخلقة، يبدو مثل مدير بنك اكثر منه مدير سجن. لبق وجد مهذب، يجيد الانصات والمساعدة على حل المشاكل بتفهم و حكمة. افهمني بأن وضعي خاص وعليّ الا اعاشر معتقلي الرأي والاسلاميين، وعائلتي بدورها عليها ان تتحاشى أي اتصال مع العائلات الاخرى لاسباب أمنية، تدخل السيد الصوفي الذي حضر اللقاء وطلب مني نفس الامر فأجبته: لكنني يا سيدي افضل العيش في جزيرة معزولة على ان اعيش معزولا في هذا السجن».

تدخل المدير الحكيم من جهته لتسوية المشكل:

- ما أطلبه منك هو ان تعرف موطئ قدمك. اتمنى أن تفهمني. اما بخصوص الزيارة المباشرة فهي لك على ان تكون في مكان خاص بعيدا عن سجناء الحق العام والسياسيين معا».

هكذا قدر لي ان اعانق لأول مرة بعد 20 سنة ابنائي الراشدين الذين تركتهم اطفالا. لقد كان لقاء كئيبا يرشح بالبكاء و الانين والحشرجات

التي مزقت قلبي المكلوم. وانا اضمهم الى صدري، احسست بهشاشة اجسادهم الضعيفة المرتجفة وانا ارقبهم، لمست بكل حزن ويقين شرود نظراتهم لانهم، مثل خديجة، كانوا مصدومين متأثرين برعب المآسي الناجمة عن تازمامارت، ويحملون ندوبها. كان امامي ثلاثة معاقين ومرضى. فتاة مصابة بداء القلب مشوهة العمود الفقري بسبب مرض في الطفولة، وأبن أصم وأبكم يعاني من داء الربو بعد ان عانى من حمى طويلة هذيانية، واخر يعرج ويعاني نفسيا. هي ذي نتائج تازمامارت التي لم تقتصر على إنهاكنا بل دمرت عائلاتنا. اين المساعدة العمومية؟ اين دور الاعمال الاجتماعية يا ترى؟

بالرغم من غضبي لرؤية ابنائي الثلاثة معاقين وزوجتي موشومة بالألم فان هذه الزيارة الكئيبة زرعت الدفء في روحي وقوت من رغبتي في الحياة. سرى فيّ شغف قوي بالبقاء لأعوض لعائلتي مافات بسبب الالم الماضي.

توالت ايامي الرتيبة في السجن شبيهة باقامة في فندق من خمسة نجوم. نظرا للفرق بين السجن وتازمامارت، مما جعل السجن المركزي بالقنيطرة مثل حامة للاستجمام ممنوع على اصحابها مغادرتها!

استفاد رفيقي عاشور ايضا من الزيارة العائلية المباشرة وتبين له انه اصبح جدا دون علمه، كنت حاضرا لما قدمت له زوجته وبناته الاربع اثنتان منهن متزوجات مرفوقتان بزوجيهما واطفالهما.

حضر كذلك ابنه وامه وعمرها انذاك 95 سنة لم يتعرف عاشور عليهم والأنكى ان شقيقه الاكبر قال بثقة بأنه ليس عاشور بل هو شخص بديل لتضليلهم! اكدت له بأنه اخوه وان الظروف الجهنمية التي مر بها اثرت على جسده ونفسيته عموما. عندما عانق هذا الاخير والدته بحرارة تذكرت امي التي لن ارها فبكيت واذرفت دموعا حارة.

مرت الايام بسرعة وبدأت اتكيف مع وجودي الجديد. في تازمامارت قضيت 18 سنة في العزلة والتأمل العميق والخيال المجنح والاستيهام الاسود، أما هنا فقد أجبرت على العيش في الواقع وسط جمع مختلف، في عالم جديد ملموس لا وجود فيه للمجرد، يدافع فيه كل واحد عن نفسه بكل الوسائل، كان هناك سجناء نزيهون يعملون في ورشات السجن لضمان عيشهم وتعلم مهنة تنفعهم بعد الخروج، وآخرون يبيعون الاشياء المهربة والحشيش (البزناسة) وما اكثرهم، اما الاغنياء او ابناء الذوات فقد كانوا قلة لكنهم يعيشون حياة مرئية بسبب الرشوة

والاحابيل، كما ان الشذوذ الجنسي كان منتشرا في السجن، حيث كان «الغلمان» يبيعون اجسادهم مقابل المال، وكان «الديوتيون» يستغلون هذه الرذائل الشيطانية لتحسين اوضاعهم في السجن. وكثيرا ما كنت اتذكر ما قاله «الحمامة» في تازمامارت عندما كان يردد ان المال في السجن يؤدي الى الدمار، كما تذكرت قول آخر كان يرى ان المال يخفف من المعاناة.

وجد من بين المعتقلين ايضا اللصوص الذين لم يكونوا يرعوون عن ممارسة السرقة، بل تجرأوا على سرقة عاشور عدة مرات ، والذي سالني ، حانقا، لماذا يتكالبون عليه، فأجبته مستفزا، بأن اللصوص يعرفون ضحاياهم وأنه يمثل فعلا هدفا جيدا لهم.

خلال مقامي في السجن تعلمت أشياء كثيرة كنت أجهلها واهملها وافادتني معاشرة معتقلي الرأي بأنهم لم يكتفوا بالتنديد بالظلم بل مستعدون للتضحية بأرواحهم من أجل محاربته. لم يكن الخوف يطالهم ولا الندم، كانوا اقوياء نفسيا وحازمين، كلهم عنيدون وذوو كبرياء. ذات يوم سالني ماركسي عنيد من مجموعة «26.

- بعد ماعشت وعانيت في تازمامارت، ماذا تنوي فعله في المستقبل؟

• الانتقام، العين بالعين..

- لا يا الرايس، الانتقام علامة على الضعف، وعليك ان تكون أقوى من الذين عذبونك.

• لقد جاء في القرآن الكريم ان العين بالعين والقصاص مباح.

- إنك مخطىء، فالقرآن الكريم يتحدث أيضا عن التسامح والعفو عند المقدرة والصفح.. عليك ألا تواجه الشر بالشر لأن ذلك يزرع الحقد في القلوب، والحقد طاعون تصيب عدواه اجيالا وأجيالا إنه شبيه بساق متورمة على الانسان ان يبترها ليسلم الجسم كله.

- إذن، حسب رأيك، على الإنسان ان يغفر دائما لمن ظلموه؟

• لا يجب ان نعفو عما يجب العفو عنه وان نعاقب حسب القواعد والقوانين بدون حقد ولا ضغينة.. يجب الا تستعمل الظلم ضد الظلم الذي عانيته».

بعد ان فكرت مليا أجبته: «أنت على حق، فالانسان عادة ما ينسى العدل؟ كانت لي أيضا علاقات جيدة مع الاسلاميين المعتقلين منذ سنوات في القنيطرة، أغلبهم شباب حيوي مفعم بالنية الطيبة. وكان من بينهم اعضاء اتفاداهم بسبب تعصبهم وتصلبهم، مقابلهم كانت الاغلبية

معتدلة، يدعو أفرادها الى الشريعة والعدالة الاجتماعية والحشمة، وقد نجحوا في تقويم اعوجاج العديد من المعتقلين.

وعلى كل، لقد استطعت ، في ظرف سنة، التعرف على حالات عديدة ومختلف شرائح المجتمع، وبالرغم من منع الإدارة السجنية لمقابلة أصحاب الرأي والاسلاميين فقد كنت أقضي أيامي معهم، اتعلم منهم لان هؤلاء المثقفين كانت لهم آراء نبيلة ومبادىء رفيعة، جذبتني سلوكاتهم النظيفة وافكارهم الفاضلة مثل مغناطيس. وخلافا لما يعتقده العديد من الناس، لم تكن لديهم أفكار دكتاتورية وجاهزة. بل يفضلون الحوار والتبصر. وطالما نهاني المسؤولون ايضا عن الاقتراب من سجناء الحق العام فكنت أصر على معاشرة هذه الفئة المستهجنة لمعرفة أمراض المجتمع معرفة جيدة. كنت استمع بشغف الى حكاياتهم المليئة بالرعب والسادية وأحاول ان أفهم دوافعهم. هؤلاء الناس كانوا يحكون لي قصصهم الحقيقية بما فيها الحقائق التي لم تطلع عليها العدالة ولم يدانوا فيها. كانوا يحدثونني لثقتهم في ولمعرفتهم ان الهارب من الجحيم لن يفشي السر او يخون لأن الشيطان نفسه لن يرشيه! كانوا يعرفون انني محايدا لا معهم ولا مع المخزن. كنت استمع بلا تعليق، ولعلي استطيع كتابة رواية ضخمة عن فظاعاتهم التي كان مجرد التفكير فيها يسبب لي الغثيان.

كنت أتساءل لماذا يبددون حياتهم من أجل التوافه؟ وكيف لي ألا أصاب بالدوخة وأنا أفكر في الطبيب الذي قدم الاجنة لكلبه، والاستاذ الذي اغتصب ابنتيه والفقيه الذي اغتصب وقتل طفلا، او الافظع من كل هذا، قصة ذلك الممرض الذي كان يناول أمه أقراصا منومة، كلما ألم بها صداع او مغص وعندما يأخذه النوم، يباشرها مباشرة الزوج لزوجته. وظل على هذا الحال الى أن حبلت، فعمدت، بناء على نصيحة جارتها، الى نصب فخ لابنها الشيطاني حيث تظاهرت بالنوم ولما تلبس بالجرم اخبرت به بلا تردد. وبعد بضعة شهور أنجبت الطفل.

حكم على الابن بـ 20 سنة سجنا ولعل الافظع هو عندما كانت أمه تاتي لزيارته، من وقت لآخر، مصحوبة بـ «الابن» يا له من جنون!

لقد ضعف الأستاذ والممرض أمام الجمال ونسيا قرابة الدم، واتهما الشيطان، معتبرين أنهما من ضحاياه. شخصيا، وبالرغم من كون الآخرين لم يكونوا يعتبرونهما مجرمين، كنت اعتبرهما افظع من افظع المجرمين وكنت أدينهما أكثر من الطبيب والفقيه...

قضيت بمعية عاشور الشهور الأخيرة قبل اطلاق سراحي في مصحة السجن حيث صادفت المجانين والعصابيين والمدمنين على المخدرات والمرضى المتخلى عنهم. كانوا متسخين نتنين، المجانين منهم يقضون الوقت في الصراخ كلما أصابتهم النوبة، أوينقون القمل بالتحدث إليه! والعصابيون يتشاجرون باستمرار ويجذفون بلا انقطاع، أما المدمنون فقد كانوا يجرحون اذرعهم بشفرات أو قطع الزجاج عندما ينقصهم المخدر، وقد كان الطبيب النفسي يزورهم صباح كل خميس ويناولهم الحصة الأسبوعية من الفاليوم والمهدئات الأخرى، ولعل الأكثر مدعاة للتقزز هو وضع المرضى المتخلى عنهم الذين يحتضرون ببطء بدون علاج أو إغاثة، والحال أن الأطباء الاختصاصيين كانوا، نظريا، يزورون المرضى يوميا، للأسف كان المحظوظون هم المستفيدون وقد حدث أن حلت لجنة تفتيش وزارة العدل للتحقيق في تهريب الأدوية، ولاحظت بسرعة سوء التدبير بين الممرضين والحراس والمرضى الوهميين.

كان للسجن سيارتان مخصصتان لنقل المرضى إلى الرباط من أجل الخضوع للفحص من طرف البروفيسورات أو الفحص بالأشعة والخضوع للتحاليل، والحال أن نفس السجناء هم الذين ينقلون لأسباب محيرة. عوض المرضى الحقيقيين. نظرا للتواطؤ بين الممرض الرئيسي وسكرتيره والسجناء أصحاب المال. ظاهريا كان كل شيء يبدو سليما والحق أن الكل مزور و«مخدوم» فمن غير المعقول أن ينقل السجين نفسه مرتين في الاسبوع الي الرباط من أجل «العلاج» في حين أن جسمه جسم جاموس في حين يظل المريض الحقيقي منبودا في ركن من المصحة بلاعلاج.

كنت أشاهد هذا يوميا وكنت شاهد عيان عاجز عن فعل أي شيء. كنت متأكدا من وجود الرشوة والتلاعب الإداري. ولم يخن حدسي ذلك أن لجنة خاصة حلت في ربيع 1992 بالسجن وأجرت تحقيقا دقيقا أحالت على إثره، كل المتهمين على المحكمة مرفوقين بوصفات طبية وهمية وطلبات مزورة وأدوية باهظة الثمن لفائدة عائلات الحراس. وقد جاءت العقوبات قاسية ولعلها كانت ستكون أقصى لو أن اللجنة علمت أن بعض سجناء الحق العام المحظوظين كانوا يرحلون كثيرا الي الرباط لشراء الحشيش وإعادة بيعه لرفاقهم بأثمنة باهضة، أو للقاء بزوجاتهم سرا.

كما أن العزاب أنفسهم كانوا يلتقون بفتيات الهوى بعد موعد مسبق

يمكنني أن أسهب في ما رأيت وعشت، ومن يدري لعلي سأكتب ذلك يوما ما؟ وعلي كل ما عشته في المصحة مأساة لا تغتفر، وقد سألت عاشور ذات يوم:

- ما هي المأساة الحقيقية في تازمامارت؟ أجابني عاشور:

- المعاملة الجهنمية، غياب العلاج، والشمس والنظافة وسوء التغذية أي انتهاك حقوق الإنسان.

- هذا صحيح، لكن ما يؤسف له أكثر هو الجهل والانقطاع عن الثقافة والتعلم والحرمان من تعلم حرفة ما.. وفي هذا المجال راكمنا 20 سنة من التخلف...»

قاطعني عاشور بالقول:

- لكن أنا أمي ولم أضيع شيئا علي هذا الأساس.

- بلى، أنت ضحية أيضا، لو لم تنقل سنة 1973 لتعلمت مهنة أو عدة مهن. الآن نحن شداد آفاق وعالات وبقايا آدمية مريضة. تأمل العالم حولك في ظرف 10 سنوات نجح المعتقلون السياسيون في الحصول علي عدة شهادات، والعديد من سجناء الحق العام حصلوا على شواهد مهنية ستمكنهم غدا من إيجاد شغل بسهولة، أما نحن فلا نصلح لغير التسول.. لعلنا سنكون متسولين سيئين».

- نعم أنت على حق، غدا سنواجه الحياة كالذاهب الي الحرب بغير سلاح...»

وجدنا معا صعوبة جمة في تلقي العلاج خارج السجن، إذ أن المسؤولين مانعوا في ذلك لأسباب أمنية، لكن الضغوط الخارجية ومطالب أمنيستي واحتجاجات المنظمات الإنسانية مكنتني من دخول المستشفى بالرباط وإجراء عملية علي الغدة الدرقية قضيت 3 أشهر في مستشفى ابن سينا من 91/12/25 إلى 92/3/6 من أجل فحص شامل ثم من 92/4/13 إلى 92/5/16 من أجل الجراحة.

طعام نوبير الأموي..

كانت فترة مقامي بالمستشفى فترة زاهية، تميزت بالسلوك الجيد الذي أبان عنه الأطباء والممرضون حيالي، حيث ظلوا في إطار مهنتهم وواجبهم ولم يثيروا قضية الصخيرات ولا ظروف تازمامارت، وقد

دفعهم ضميرهم المهني وحالتي الصحية الى الاعتناء بي بما يتطلب ذلك من جدية باستثناء اختصاصي الجلد «بن.س» في مستشفى العياشي بسلا، فقد فحصني هذا الطبيب وتبين له انني أعاني من روماتيزم يتطلب علاجا طويلا ومنتظما، شرحت له كيف انني امشي بصعوبة واعاني باستمرار، وسألته إن كان من الممكن أن ادخل المستشفى أو على الاقل ازوره مرة في الأسبوع بسلا لممارسة التمارين الترويضية للتخفيف من حدة الآلام، خصوصا وأن عليَّ قضاء 10 سنوات أخرى في اجواء سجن القنيطرة الرطبة، أجابني جواب السياسي ونسي مهنته النبيلة: «ماذا عَسَيَّ أن أفعل، لقد أصبت بالداء في تازمامارت وأنا أعرف أن الجو هناك قاس والنظام السجني جهنمي، لكن كان عليك أن تفكر في هذا قبل أن تذهب «للتبوريدة» في القصر الملكي بالصخيرات. لقد قامرتم وخسرتهم، وعليكم أن تقبلوا بالقدر كما هو الآن، السجن وجد للمعاناة، ولاتنسوا بأن الضحايا تعذبوا قبل موتهم، لاتخف فالروماتيزم لايقتل»، ثم فتح الباب في الحال ووضعني رهن اشارة الشرطيين المكلفين بحراستي. ومن حسن الحظ أن الدكتور الاختصاصي في القلب بنعبد السلام فهم موقف زميله الغريب واغتنم دخولي المستشفى من أجل الكشف على القلب والسرطان بابن سينا فاتخذ المبادرة بالسماح لي بمتابعة علاج يومي لمدة 45 يوما في مصلحة الترويض الطبي، حيث خضعت للتدليك بالأشعة ما تحت الحمراء كما في أهرمومو، كان بودي أن أذكر الدكتور «بن.س» بالعبارة الشهيرة لباستور «لن أسألك عن اسمك ولا عن بلدك ولا عن دينك سأسألك فقط عن ألمك» لقد أجج الألم وترك الجرح ينزف، كان بودي أن أقول له بأن الوقت الآن وقت النسيان والإصلاح وإعادة البناء وليس الهدم، لأن الدفاع عن قضية ما يتطلب أن يعطي الإنسان القدوة.

ذات يوم، سألتني منظفة من منظفات المستشفى بدهاء مستفز:

الرايس، تقول الإشاعات في المستشفى بأنك قضيت 20 سنة في تازمامارت.

- نعم.

هل كان ذلك بسبب قضية الصخيرات أم الطائرة الملكية؟

- قضية الصخيرات.

- ما قمتم به لم يكن طيبا ولا قانونيا، لماذا أردتم اغتيال جلالة الملك؟

بماذا أساء إليكم؟ رغم أنكم كنتم من المحظوظين ..

- من قال لك بأننا كنا نريد قتل جلالته؟

- لماذا فعلتم ما فعلتم؟

- لقد قال رؤساؤنا بأنهم ثاروا ضد المسؤولين الذين كانوا مشرفين على الامور، معتمدين الزبونية والرشوة والظلم، دون أن يكون جلالة الملك على علم بذلك، لقد اخفوا عنه الحقائق في حين كانت له فيهم ثقة كبيرة، نعم، كانت هناك أطر نزيهة ومسؤولون أوفياء للأسف كانوا قلة، وساعطيك مثالا صغيرا على ذلك، قبل أن نغادر المعتقل كان جلالته قد أعطى الأوامر بأن نعالج أحسن علاج ونعامل معاملة خاصة الى أن نشفى تماما، وها أنت ترين أنني مازلت منهكا، كان من المفروض أن تسلم لي نظارات وطاقم أسنان واجراء عمليات جراحية، كما أن المسؤولين اعطونا «الخوردة» عوض ملابس لائقة.

إذن لم يكن يعلم بكل ما يجري؟

- من المستحيل ذلك، فاقل مسؤول لايمكنه أن يعلم كل ما يجري في الحي.

لهذا السبب نجد الأكل هنا غير صحي ومواد النظافة غير كافية، لأن صغار المسؤولين يستغلون الوضعية مستغلن ثقة رؤسائهم. وتحدثنا ايضا عن الأطباء أصحاب الضمير والعاملين بجد ونكران ذات وعن بعض موظفي المستشفى الصغار المرتشين، والذين «يلطخون سمعة المستشفى ويتسببون في الأذى للأطباء».

بعد اجراء عملية الغدة، نقلت مؤقتا الى المركب السجني بسلا في انتظار العودة الى القنيطرة، فرحت لمغادرة هذا المستشفى الذي لولا مؤونة زوجتي لمت فيه جوعا، والذي رأيت فيه بأم عيني طبيبا يصفع شيخا عمره 72 سنة عدة مرات بعد ثلاثة أيام على خضوعه لعملية جراحية، بدأت هذه الحكاية الشنيعة بملاحظة وجهتها سيدة عاملة الى سجين مريض يدعى لزبط الكبير طالبة منه جمع متاعه الشخصي فأجابها:

«لقد خضعت لعملية جراحية حديثة ولا أستطيع الحركة، قومي بذلك بدلي لأنك تتقاضين أجرة من أجل ذلك» أصابتها هذه الكلمات في كبريائها فاطلعت الطبيب في الحال، الذي جاء لتقريعه وتأنيبه قائلا: «أنت هو البليد الذي رفض ترتيب أدواته، اجمع «قْشَاوْشَكْ الحْمَارْ»» لزبط الذي لم يتعرف على الطبيب لأنه لم يكن الطبيب الذي أجرى له

العملية، اجابه بنفس القاموس: «الحمار هو أبَّاكْ الحمار انت!».
احس الطبيب بالإهانة من مريض وسجين فصفعه بقوة عدة مرات وبصق عليه وهو يصرخ «أنت كَاتْسبِّنِي المُجْرِمْ، الحمار، ما كَاتَعْرَفْنِيشْ غادي نْوَرِّيكْ شْكُونْ أنَا».
في اليوم الموالي نقل لزبط الى السجن في كرسي متحرك! هذا السلوك المشين والمجحف من لدن الطبيب، آلم الحضور من ممرضين ورجال امن ومرضى: ولم يكن الطبيب يعرفه هو أن لزبط لم يكن مجرما ولا لصا، بل دخل السجن بسبب شجار عائلي حول الإرث، أضف الى هذا انه مالك كبير يملك 55 هكتارا، وكان بإمكانه بيع جزء منه ورفع دعوى وتوكيل احسن المحامين، لكنه لم يقم بذلك، ولعله احجم عن الأمر لأنه يدعي انه لن يجد شاهدا لفائدته، وحتى انا كنت سجينا مثله وشهادتي لن تجوز.
في سلا، اودعت مصحة السجن في انتظار تنقيلي الإداري بمعية مهربين للكيف ومهرب كوكايين ومعتقلين عن أحداث 84 و 90 ولص شهير عندما استمعت الى هذا الأخير، ومغامراته دعوته الى التوبة والانابة الى الله والسلوك القويم فأجابني بانه ضحية المجتمع، وبانه كثيرا ما عاد بخفي حنين رغم خبرته في المجال: «حدث ذات يوم، يقول اللص، أن ذهبت وزميلي الى محطة السفر لسرقة «لعروبية» .. وسرعان ما رصدت فريستي، وكان شخصا حسن الملبس وضع حقيبته وتوجه لابتياع السجائر، اغتنمت الفرصة لأخذها واطلقت ساقي للريح، عندما وصلنا الى «البرتوش» وضعنا الحقيبة وبدأنا نحتسي الخمر وندخن الكيف في انتظار عودة رفاقنا لتوزيع الغنيمة، عندما جاء رئيسنا اخرج كل فريق غنيمته، عندما فتحت الحقيبة، ظهر منها «كوبرا» ذهلنا جميعا باستثناء رئيسنا الذي أخذ صحنا معدنيا وبدأ ينقره لعله يروض الثعبان، الذي كان شبه مخدر بفعل الكيف والخمر المراق على الأرض، ابتسم الزملاء الآخرون فيما واصل الرئيس «العزف». خرجت مسرعا وذهبت للقاء الشخص «المسروق» كان جالسا على كرسي يدخن، عندما رآني قادما نحوه والفزع باد عليَّ قال مبتسما: «كنت أعرف انك ستأتي إلى هنا .. لقد بدأتم تسرقون مروضي الثعابين».
- من فضلك رافقني وخذ ثعبانك فرفاقي محاصرون.
+ موافق شريطة أن تدفع لي أتعاب التنقل وتعويضاتي وإلا رفعت دعوى ضدكم.
دفعت له ما أراد، وهمي الوحيد هو أن يسترجع ثعبانه ولا يرفع

دعوى، اغتنمت مقامي في سلا، وزرت السجن الذي كان يخضع لنظام اكثر صرامة من السجن المركزي، يمنع السجائر «الشقراء» حتى لايدخن السجناء الحشيش ويمنع زيارة من لايحمل الاسم العائلي للسجين، كما منع المعتقلون من التلفزيون والراديو والمدفآت الكهربائية وشفرات الحلاقة والجرائد والمجلات واللحم والخضر لتهييء طعامهم الخاص، مقابل هذا، كان لكل جناح حمام ساخن ومحل للحلاقة وساحة مشمسة، الحي المسمى «الحي الخاص» كان يضم المهربين من جنسيات مختلفة (اسبان، برتغاليون، إيطاليون، هولنديون، ألمانيون ويوغوسلافيون) الى جانب المزورين والمحتالين والموظفين المرتشين ... إلخ، لكنه كان حيا نظيفا يرتدي نزؤلاه ملابسهم الأنيقة تجعلهم محظوظين كما كانوا في الخارج، في حين كان المعتقلون الآخرون يكتفون بفراش غير لائق والاكل كان رديئا، وكنت قد تركت مؤونتي في المستشفى لفائدة السجناء هناك، ومن حسن الحظ ان النقابي الاشتراكي الكبير نوبير الأموي المحكوم عليه بسنتين سجنا، كان يقتسم معي طعامه طوال مقامي في هذا السجن الكئيب المخصص للمدانين بعقوبة تقل عن 5 سنوات.

في الحي المخصص للعسكريين سمعت من ينادي عليّ باحد الالقاب التي اطلقت عليّ في تازمامارت «ايميك ايميك» (شوية شوية) التفت ووجدت نفسي وجها لوجه أمام أحد الحراس القدامى في تازمامارت مرتديا «كندورة» حليق الرأس يمد يده لمصافحتي.

اهلا «ايميك» هل تذكرني؟

- بطبيعة الحال، انت السارجان علي امزيل، ما الذي جاء بك الى هنا؟

ها انت ترى، انا ايضا نزيل سجن لسبب يختلف عن سببك طبعا.

- ماذا اقترفت يدك، لاشك انه الزنى كما حدث في 1984.

لا الأمر غير ذلك، انا انتظر احالتي على المحكمة بسبب اصدار شيكات بدون رصيد، وكمبيالات غير مؤداة وعدم دفع النفقة لزوجتي التي طلقتها منذ 4 سنوات ..

فوجئت فسألته: «هل طلقت بعد انجاب 7 اطفال وبعد 20 سنة من الزواج.

اجابني وهو مطاطئ الرأس:

كانت زوجتي السابقة كثيرة الطلب، واطفالي جد مدللين وقد اكثرت من الديون.

+ هل نسيت أنك زير نساء وعبد الملذات .. الآن عليك أن تدفع الثمن.
- قل لي ماذا حدث بعد مغادرتنا من تازمامارت.
+ جاءت لجنة في يوم الغد للتحقيق في تسرب الأخبار ثم تم هدم المعتقل في الأسبوع ذاته، أحيل بعضنا على التقاعد ونقل الآخرون الى اكادير عندما كان العمال ينسفون المعتقل اكتشفت مخابئكم قرب المراحيض .. لقد خدعتم الجميع بمن فيهم بن إدريس والشاف سعيد .. عليك أن تدري أننا كنا منفذين فقط.
- لا تخف لا أحد يعاتبك، لقد كنت تقوم بعملك بدون غل ولا حقد، انصت إليّ، لقد غادرت المستشفى منذ 3 أيام فقط وأنا لا أملك نقودا أو مؤونة لمساعدتك، كيف تلبي حاجياتك هنا؟
+ أنا أعيش مع «بزناس» كبير يدعى عياد.
- آه عياد أعرفه جيدا لقد كان بجواري في المستشفى سأطلب منه مساعدتك قدر المستطاع.

وقد وعدني عياد المحكوم بـ 4 سنوات سجنا ومليار سنتيم كذعيرة بتهمة تهريب المخدرات والفساد، بتقديم المساعدة لسجاني أحسست بالفخر وأنا أساعده بعد أن كان يغلق الباب في وجهي ويمنع عني الأكل لمدة يوم كامل .. لقد عملت لاشعوريا بنصيحة المعتقل الصديق الماركسي من مجموعة «26» الذي دعاني ذات يوم الى نسيان الحقد والانتقام واستعمال العنف.

جاك بيرك

عدت الى القنيطرة وفرحت باللقاء مجددا مع رفيقي عاشور الذي كان ينتظرني على أحر من الجمر، لأنه كان يحس بأنه غريب وسط كل هؤلاء المعتقلين المختلفين معه مزاجا. مرت الأيام سريعة دون أن انتبه إليها لانشغالاتي اليومية. كنت أعوض مافاتني بالتشمس والتجول اليومي، مما جعلني أحس بما ينقص جسدي وروحي. كنت كرجل المغارات، لاسيما عندما أفكر في ذلك اليوم في المستشفى عندما جاءنا ممرض يستعير منا حذاء رياضيا للمشاركة في مباراة رياضية واستعدادات

الطاقم الطبي للمشاركة في عيد العرش، وكان قد نسي حذاءه في البيت، تطوعت لتلبية رغبته وخاطبته أن لاتحزن لدي المطلوب، حذاء أبيض جديد. سر الممرض لكنه عندما رأى الحذاء الذي سلمه لنا «ف» في أهرمومو، انفجر ضاحكا وتبعه الحاضرون من مرضى ورجال أمن، ثم أجابني ساخرا: «هل تسخر مني؟ لم يعد أحد يرتدي مثل هذا الحذاء، لقد تجاوزه الوقت منذ مدة حتى الرعاة يستنكفون عن ارتدائه، أه لقد حولوك الى إنسان بدائي»، تدخل شرطي مضيفا «بل قل المتسولين أنفسهم» والحق أنهما كان على صواب، لأنني كنت متخلفا عن الركب بعقدين من الزمن وبصحراء شاسعة من الجهل.

غير أن هذا لم يؤثر في معنوياتي، وماكان يشغلني بالفعل هو وضعي الصحي، لعل دعم بعض المنظمات الإنسانية والشخصيات ساعدني معنويا وأجج أملي في إفراج قريب أو في تحسن وضعي في السجن. كنت أتلقى يوميا عشرات الرسائل تعبر عن دعم و تضامن وتعاطف أناس أغلبهم من أوربا وكانت أغلبية المراسلين من الفرنسيات إضافة الى عائلة سويسرية لن أنسى أبدا أياديها البيضاء وطيبوبتها، كما جاء العديد من الأطباء من أوربا لعلاجنا لكنهم رحلوا مما أثر فيّ. كنت أتمنى لو أن المنظمات المغربية تساهم بدورها سواء ماديا أو معنويا، لكن خاب ظني. فهل كان ذلك نسيانا أم تناسيا؟ لست أدري، لكن ناس المبادئ وأصحاب القيم النبيلة والفضيلة والمدافعين عن حقوق الإنسان والمعارضين للتعذيب كانوا أكثر في بلدنا، ربما كانوا يخشون نعتهم بالتعاطف معنا أو اصطدامهم مع المسؤولين، لهذا تجنبوا الاتصال بنا، وما من شك أننا أصبحنا مثل المصابين بالجذام، أنا وعاشور لبقائنا في السجن.

لقد نستنا وأهملتنا بعض الأحزاب السياسية، كان عاشور واعيا بالأمر وقلقا لوقوعه مما زاد في كآبته وارتيابه، فكنت أواسيه بالقول إن كل المنظمات الإنسانية تبذل مجهوداتها لتحريرنا، وأخبرته أن شخصية معروفة جدا وجد محترمة وتحظى بإنصات جلالة الملك تقوم بمساعيها لدى جلالته طلبا لعفوه، والأمر يتعلق هنا بالسيد جاك بيرك المستشرق وعالم الاجتماع والمؤرخ المشهور الذي عمل إبان استعمار المغرب رئيس إدارة تحديث القطاع الزراعي (*SMP*)، ثم مراقبا مدنيا في ايمنتانوت. لقد راسلني هذا الأستاذ العظيم وأخبرني بأنه كاتب جلالة الملك مباشرة يطلب عفوه عنا. لم يفاجئني ما قام به لأن السيد بيرك اشتهر بعمله

النبيل والإنساني والتفاتاته الفروسية. فقد ساهم في تحسين وضع الفلاح وهو الذي حول سنة 1948 جزءا كبيرا من سجن امنتانوت الى مدرسة ابتدائية وأجبر الأهالي على تسجيل ابنائهم في المدارس مع سجن كل من عارض ذلك من الآباء ودفعه لذعيرة تصرف للمطعم المدرسي، وسهر أيضا على توزيع الأكل والملبس شهريا على الأطفال لتشجيعهم على الدراسة، وكل سجين يعمل في الحقل أو الحديقة يمسك بثعبان كان يخفف عقوبته أو يطلق سراحه، وهو الذي قضى على الرشوة في هذه الدائرة التي كان بعض الأغنياء يحتكرون التجارة فيها بإرشاء المراقبين السابقين أو القايد، وهو الذي أمر «الشاوش» (حارس المدرسة) بضربي وسجني بعد أن هربت من الدراسة مرارا، وبما أنني كنت يتيما فقد ارسلني الى احدى الزوايا لحفظ القرآن، وبفضله تم بناء المستشفى والطرق وازدهرت الزراعة والتجارة.

يوم الخميس 17 شتنبر 92، تناولت فطوري ونظفت الزنزانة والملابس وتهيأت للخروج الى الساحة، وقتها دخل على «سي حسن لكرد» الزنزانة سلم عليَّ وتبادل معي بعض الكلمات قبل أن يخبرني برغبة المدير السيد الشط في لقائي، سألته: بخصوص أي موضوع؟

● هل نشرت رسائل مفتوحة في الصحف الوطنية وإذاعة فرنسا الدولية؟

■ نعم فعلت ذلك.

● اعتقد أنهم سيودعونك في القبو، قال سي حسن مازحا.

■ إذا دام ذلك 15 يوما لابأس لأنني قضيت 18 عاما وشهرين في قبو تازمامارت.

اجابني، «أنا كما تعلم، أمازحك، أما عن سبب اللقاء فسيخبرك المدير بنفسه».

وجدت أمام المكتب المدير، موظفي السجن و 3 من مفتشي شرطة القنيطرة وفرد من الدسيطي وليوتنان دركي ببذلته، طلبوا مني الدخول الى المكتب الذي سمعت فيه، قبل 11 شهرا من هذا التاريخ، «الصوت بلا وجه» ينزل بي حكمه، وجدت المدير ونائبه العجوي والمقتصد، استقبلني السيد الشط بلباقة كعادته، وصافحني ثم طلب مني الجلوس على الأريكة الناعمة المخصصة عادة الى ضيوف الشرف، وخلافا لليلة 23 اكتوبر 91، كنت بلا عصابة ولا أصفاد ولا نظارات سوداء وقبالتي الصوت بوجهه ظاهرا ينظر إليَّ مبتسما:

«السيد الرايس هل تعلم لماذا استدعيتك؟

كنت شبه متيقن بأنه سيحدثني عن الضجة الإعلامية في الصحف الخاصة بالعلاج وبخلافي مع طبيب السجن، كما فكرت في تأنيبه لي بسبب الرسالة المفتوحة التي بثتها إذاعة فرنسا الدولية الخاصة بمطالبي .. لكنني أجبته بالنفي.

استأنف حديثه قائلا:

«طيب لقد انتهت محنتك اليوم، أنت حر الآن، لأن جلالة الملك نصره الله قد أصدر عفوه عنك، لقد توصلت هذا الصباح بواسطة الفاكس بالأمر من القصر الملكي، وسأرفع تقريرا عن الإفراج عنك قبل منتصف النهار، والآن لم يعد أمامك سوى جمع متاعك وأمتعتك والعودة الى بيتك هنيئا لك، وأنا سعيد بإخبارك بنفسي، حظ سعيد ووداعا» مد يده لمصافحتي وبادلته التحية بأحر منها قبل أن انصرف، عدت للتو الى المصحة لجمع حوائجي والنظرات الحزينة والدامعة لعاشور تلاحقني، حزنت بدوري للمشهد، كانت لحظة قاسية بالنسبة لنا معا، لحظة فراق صعب وعنيف، كنت في أشد انفعال بسبب هذا الحدث السابق لأوانه. اعتقدت بأن السيد بيرك سيتردد قبل أن يقر قراره والحال أن الأمركان عكس ما اعتقدت، ومن جهة ثانية عاتبت سي حسن لأنه لم يخبرني من قبل فأجابني باسما بأنه أقسم ألا يفعل ذلك مع المعتقلين السياسيين، وفي مثل هذه الحالات لأنه فعل ذلك مرتين، فجاء الأمر المضاد ليلغي الإفراج فمحت الخيبة ما سبقها من أمل.

تجاوزتني اللحظة ولم استطع جمع ملابسي، فقام معتقلان اسلاميان واخران ماركسيان بذلك بدلا عني، كنت سعيدا بمغادرة السجن لكنني حزنت لترك صديقي رفيق المحنة خلفي، لم تصدر عني أية كلمة، لأن بقاء عاشور سجينا آلمني وأخرسني، كان جالسا أمامي حزينا ساهيا وشاحب الوجه ينظر الى نظرات ملأوها الحزن والأسى، لم يسبق لي أبدا أن رأيته في مثل هذه التعاسة، والإنسانية على كل حال لأنني لو كنت مكانه لأحسست بذات الإحساس، كنت أعرف بأنه في حاجة الى المواساة أو الى كلمة ما بعد أن عانقته طويلا قلت له بصوت خنقته العبرات وعيون مغرورقة بالدموع.

● لاتحزن يا عاشور أعرف أنه الظلم، لكنني اطلب منك الصبر وما من شك أنك ستغادر السجن قبل نهاية السنة.

■ أنت تعرف بأن السجن ليس هو ما يخيفني بل العزلة، أنا سعيد

بحريتك، ولاشك أنني سأشتاق إليك، لأننا قضينا لحظات جميلة هنا، لكنك ستتركني وحيدا، وأتمنى أن الذي اطلق سراحك يطلق سراحي، قفز الى ذهني ما قاله أحد الحراس في تازمامارت عندما أفرج المدير عن «هندة» الكلبة إذ قال: «اللي عتقها يعتقكم».

ودعت كل رفاقي ثم تبعث سي حسن الى مكتب المدير، وبعد أن وقعت بعض الوثائق سلمني التهامي ورقة الخروج، بعد ذلك تم التحقق من بعض الشكليات بحضور الليوتنان الدركي ورجل الديسطي، ليسلمني السيد الشط الى رجال الأمن الثلاثة الذين وضعوا متاعي في الصندوق الخلفي لسيارتهم وطلبوا مني الركوب، والواقع أنني كنت مستعجلا أكثر منهم لأنني كنت أخشى وصول أمر مضاد في أية لحظة، ولم أكن ارغب في الانهيار، انفتح الباب الأوتوماتيكي على مهل فاسحا الطريق للسيارة التي غادرت المكان بسرعة مفرطة نحو الحرية، تخيلت نفسي سمكة أخرجت من أص ورميت في النهر من جديد، التفت الى الوراء لألقي نظرة أخيرة على الجدران الكئيبة والباب الكبير «ملتهم الناس» الذي يلفظهم بقايا بعد مضغهم؟ كنت مثل هارب من الجحيم يهرول باتجاه اللانهائي، لم أصدق أنني حر وبأن مفتشي الشرطة الى جانبي حاضرون لضمان حمايتي فقط إلى أن أصل الى بيتي.

سألني أحدهم:

● هل تستطيع الذهاب الى بيتك في الرباط أو نصحبك إليه؟

■ كلا، شكرا، سأتدبر أمري لوحدي.

بدت لي الأربعين كلم الفاصلة بين القنيطرة والرباط مسافة لا نهائية، كانت هذه المرة الأولى منذ 21 عاما أجد فيها نفسي بلا حارس بلا دركيين، ولا أصفاد ولا عصابات، أحسست بالخفة بعد أن تخلصت من ثقل كبير ومن المراقبة الدائمة، فرحت لانعتاقي من النير، أحسست في الآن نفسه أنني هش ووحيد وغريب.

في ظرف سنة بالقنيطرة اكتشفت حقيقة الحياة والفرق بين الناس، الذين يستحقون منهم العقوبة والمراقبة الشديدة والذين لامكان لهم في هذا السجن، فهم من طبيعة هائلة وقوية، تحت لحائهم يكمن الذهب، كان المقام بالسجن المركزي فرصة لي لمعرفة الناس جيدا وفهمهم وفهم معاناتهم.

في الطريق لم أفتأ أفكر في الذين ماتوا بتازمامارت والذين تركتهم خلف القضبان، عندما وصلت الى الرباط لم اتعرف على مسقط رأسي،

كل شيء تغير من الهندسة الى السيارات مرورا باللباس وطريقة المشي، وأنا اعبر وسط المدينة هالني العدد الهائل للساكنة والسيارات والعمارات والفنادق والمحلات، اعتقدت أنني في عالم آخر، للذهاب الى حي الفتح، مر سائق الطاكسي بحي القديم العكاري الذي ظل على حاله باقواسه وأزقته المتسخة وفوجئت عندما عبرنا دورا الذبغ بوجود دور الصفيح الخالدة يا للتناقض الصارخ مع الأحياء المجاورة!

رقصت زوجتي
وغنت

توقف «الطاكسي» امام العمارة التي تقطنها زوجتي. و جدت الحي خاليا يعمه الصمت. ولعله انسب حي لمن ينشد الهدوء والطمانينة. كان علي ان اصعد الى الطابق الثالث، وكان ذلك امتحانا قاسيا يشبه الصعود الى راس جبل. انقطعت انفاسي من المجهود المبذول، لكنني كنت أنوي مفاجاة اسرتي. وصلت أمام الباب، ضغطت على الجرس عدة مرات. طرقت الباب لكن لم أتلق جوابا. ياه! كنت أنوي خلق المفاجأة غير انني الآن اشخص المفاجأة. عدت أدراجي في الحال لأسأل حارس العمارة الذي اخبرني بانها توجهت الى عملها كما هي العادة. وفي الساعة التاسعة جاء رجلا امن لاستطلاع أنشطتها. انتابتني الحيرة ولم ادر الى اين ايمم شطري ومن حسن الحظ ان البواب دعاني الى كأس شاي في انتظار عودة ابني رشيد. فالضيافة واجب مقدس لدى العائلات الفقيرة.

لما رآني رشيد ارتمى علي بالاحضان وعانقني عناقا حارا وسألني ان كنت هربت من السجن، طمأنته بأنني تمتعت بالعفو الملكي وانني اصبحت من الآن فصاعدا حرا. قبلني مرات عديدة ثم حمل متاعي وقادني الى الشقة.

لما دخلت البيت احسست بأنني غريب في المكان الذي سيكون علي ان اعيش فيه. اطبقت صامتا مدة طويلة وابني ايضا لانه لم يحر كلاما. خطرت علي فكرة مهاتفة المستشفى حيث تعمل خديجة. قيل لي بان شرطيين اقتاداها الى الكوميسارية المركزية. تساءلت لماذا استدعيت زوجتي يوم الافراج عني وكان المفروض ان تكون في السجن لاستقبالي.

في الساعة الرابعة و 30 دقيقة بعد الزوال سمح لها العميد الممتاز بالمغادرة دون ان يحدد لها سبب استدعائها. وبمجرد ان عادت الى مقر العمل اخبروها باطلاق سراحي ووجودي في البيت. اعتقدت، في البداية، ان الامر مزحة من طرف زملائها، لكنهم ألحوا عليها بالاتصال. ولقي ذلك هوى في نفسها، ففعلت. كنت أنا من اجابها، لم تصدق ما سمعت. كان الحديث أجمل من ان يصدق لا سيما بالنسبة لزوجة انتظرت 20 سنة تحقيق امنيتها فتحققت فجاة. كانت معجزة وأمرا لا يصدق بالنسبة لزوجة كافحت بعناد من اجل انقاذ زوجها المقبور في

ظروف غامضة، واذا به ينتظر الآن في البيت بكل هدوء. انفعلت انفعالا قويا ادى بها الى الدوخة. فلم تتمالك نفسها فخرت صريعة على كرسي. قام الزملاء بإسعافها واستعادت وعيها.

مباشرة بعدها استقلت سيارة اجرة للقائي. ومن شدة لهفتها طلبت من السائق الزيادة في السرعة لان زوجها ينتظرها في البيت وهي متأخرة. عقب عليها سائق الطاكسي: «خمسة ديال الدقايق روطار ماشي مشكل. راجلك يمكن يتسنى» فأجابته بقولها «واحد وعشرين عام هاذي وهو يتسنى».

عندما توقف الطاكسي امام باب العمارة، كنت واقفا انتظر السيدة التي ضحت من أجلي واضاعت زهرة شبابها في الانتظار والقلق، صعدت الادراج مهرولة، رمت بحقيبتها اليدوية، وفتحت ذراعيها كصليب وارتمت علي بجسدها المرتجف، قبلتني طويلا وهي تبكي وطال العناق. اعتقدت انها تستجمع انفاسها فإذا بها في غيبوبة بين ذراعي. ساعدني رشيد فنقلناها ووضعناها فوق اريكة. عندما استفاقت انتابها فرح غامر فبدأت ترقص وتغني، ثم رفعت أكف الضراعة الله تحمده وتشكره على ما اسبغه عليها من نعم اللقاء.

سنة قبل هذه اللحظة كان رفاقي قد عاشوا نفس المشهد ونفس الانفعالات وما امتزج بها من بكاء. ولعل اقسى ما وقع هو ان لا احد من رفاق المعتقل تعرف على أهله والعكس صحيح.

اخذ «المخزن» كل احتياطاته لكي يتم الافراج عني في صمت. لكن الجميع علم به في نفس اليوم. وكان أول شخص جاء في الحال لزيارتي وتهنئتي هو الاستاذ عبد الرحمان بنعمرو، رئيس الجمعية المغربية لحقوق الانسان الذي دافع عني ايضا في ملف «الصخيرات» في يناير 1972 .وبينما نحن نحتسي الشاي اتصل رئيس قسم الاستعلامات العامة الذي اراد الاطلاع على ظروف وصولي والتأكد من مجرياته في احسن حال. في الساعة السابعة مساء اتصلت بي مدام كريستين السرفاتي لتتأكد من الاشاعة الرائجة، وتأثرت فرحة لما علمت بصحتها. تلقيت بعدها عدة مكالمات هاتفية من الخارج. وامتلأ بيت خديجة بالزوار من بين اعضاء العائلة والصديقات والاصدقاء والجيران والمتعاطفين. وجاء غير المرغوب فيهم ايضا اولئك الذين لم يطأوا عتبة الباب ابدا بعد اعتقالي، واولئك الذين لم يسألوا عني ابدا أو يساعدوا ابنائي، الجميع جاء اليوم ليحتسي الشاي ويتناول الحلوى ويردد

العبارة المعتادة في مثل هذه المناسبة. «الحمد لله على سلامتك!» والحق انني لم اكن في حاجة لمثل كلامهم، لأن عبارات المواساة لن تخفف من معاناتي او تنسيني كابوسي.

قضيت ليلة بيضاء اجيب خلالها عن الهاتف. وجاء الناس من كل صوب وحدب. واضطرت خديجة الى اللجوء الى صديقاتها الاكثر حميمية لمساعدتها على تنظيم حفل صغير على شرفي. وبالرغم من رفضي المطلق اصرت على فكرتها واقنعتني بها. فأني لي ان ارفض لهذه الزوجة التي عانت الامرين رغبتها في تتويج جلدها وشجاعتها. في يوم الغد طلبت مني الذهاب الى الحمام «البلدي» لأ تخلص من وسخ 21 سنة سجنا وارتداء ملابس جديدة اشتراها ابننا رشيد الذي باع دراجته الهوائية لهذا الغرض. اتصلت هاتفيا بسان جوليان لأشكر السيد جاك بيرك. على مبادرته الحميدة وتصرفه الانساني.

قضيت أسبوعا كاملا أصافح أناسا لا معرفة لي بهم وأرد على مكالمات هاتفية لأشخاص لا أعرفهم، يسألون عني ويتقصون اخباري أو يعبرون عن تضامنهم وتعاطفهم. أغلب المكالمات الهاتفية كان مصدرها فرنسا، وخصوصا منطقة الجنوب وغرونوبل. منذ اليوم الأول لاطلاق سراحي احسست أنني أصبحت مثار فضول الزوار الذين لم يصدقوا ما رأوا. لقد تغيرت كثيرا. كنت أمشي محدودب الظهر مثل عجوز بلغ التسعين من عمره، بجلد شاحب وعينين حمراوين وحركات أعمى وسحنة كئيبة. أثير شفقة الزائرين. صعب عليَّ في الأسابيع الأولى تحمل الصخب والحياة العائلية والوجود الجماعي الذي كان يزعجني، كنت افضل العزلة في غرفتي، كثيرا ما كانت الكوابيس توقظني عندما أرى في المنام أنني مازلت في تازمامارت التي وسمتني الى الأبد.

كنت أتيه في كل حديث وأحملق دائما في مخاطبي، ولاحظ الجميع حركاتي الغريبة وبانت لهم عيوبي، مثلا كنت ازدرد الأكل قطعا كبيرة بدون مضغ، كأن مجاعة المعتقل تأبدت فيَّ. فقدت كل المبادئ الأولية للأدب واللياقة وفن العيش مثل بدائي حقيقي في القرن 20 أفقده المعتقل حسن السلوك. كثيرا ما كنت أنسى حلاقة ذقني أو تنظيف أسناني والاستحمام. لقد علمني تازمامارت تحمل وتقبل الوسخ ونسيان ماهو ضروري في هذا المجال. الشيء الذي أثار انزعاج زوجتي التي كانت تكثر من الملاحظات لتقويمي وتلقيني أسلوب الحياة الحضرية. والحال أن بيني وبين الحضارة صحراء سوداء اسمها تازمامارت. بذلت

مجهودات جبارة لتقويم سلوكي، لكن هيهات! فقد أصبحت لامحت ،لا، فاضطرت خديجة الى البقاء الى جانبي باستمرار واعتدت من جهتي على ملاحظتها الشهيرة: «الرايس، هاذي ما كدارش» او «هاذي ما يْكَلْوهاش الناس»، أحيانا كنت أعاكسها بالقول «وفري عليّ الملاحظات ديالك، واش الناس غادي يديوها في محابسي أو زنزان خارج من تازمامارت؟».

بعد أيام من الراحة خرجت للتجول في المدينة، كنت شبيها بسائح يزور المغرب لأول مرة، بل قلْ كائنا فضائيا من المريخ. لا أعرف أحدا ولا أحد يعرفني، أجد نفسي مختلفا عن الآخرين الذين أصادفهم في الشارع. لاحظت أن المجتمع أصبح أقل حشمة من السابق، الفتيات يدخلن بلا حرج في المقاهي، والمكاتب والحدائق العمومية، ويرتدين ملابس غريبة تبرز مفاتنهن ويجدن لذة في هز الأرداف والمشية المستفزة. من حسن الحظ كانت هناك أخريات محتشمات، جديات وواعيات. وأنا أتسكع في الشوارع صادفت شبانا كثرا يرتدون سراويل الجينز والصدريات السوداء على طريقة المسلسلات وأفلام التشويق، والعديد من الشباب، ذكورا وإناثا، كانوا يتحدثون لغة ساقطة ويتصرفون تصرفا غير لائق. خاب أملي وأنا أرى شبابا منحرفا، لايفكر سوى في الملذات والمخدرات وتوافه الحياة. سنحت الفرصة فيما بعد بدخول منازل فئات اجتماعية مختلفة يغيب فيها الاحترام بين الآباء والأبناء. فلم أحتمل مثلا أن تتزين الفتاة مثل دمية وترتدي سيدة متزوجة لباسا فاقعا وفنطازيا. كنت أعلم أن النمو الديمغرافي مضطرد، لكني مع ذلك ذهلت للحشود الهائلة. تغير كل شيء، من النقود الى طريقة العيش والتفكير فوجدت نفسي أمام مجتمع كثير الطلبات، أناني، طموح ولا يرحم، لاشيء أقسى من فارق الزمن والحال أنني لن أتدارك هذا التخلف. لقد حاولت بصدق أن أندمج في المجتمع، لكنني بعد محاولات عديدة كنت أجد نفسي معزولا ومهمشا ومبعدا. والحق أنني لم أفلح في التكيف، لا مع الكبار الذين لايتحدثون إلا في «البزنس» يحدوهم البحث عن الذهب والثروة، ولا مع الشباب الذين لايفكرون سوى في اللهو، كنت أفضل البقاء وحيدا، بعيدا عن الضجيج وأحاديث الإفك والنفاق والثرثرة. والحضور الوحيد التي كنت أتحمله هو حضور زوجتي التي كنت أجد بالقرب منها الدفء والثقة والسلوان، كان حنانها بالنسبة لي إكسير حياة كما كانت بدورها في حاجة الى ذات الحنان والحدب اللذين حرمت منهما طوال غيابي.

سنحت لي الفرصة كذلك للقاء برفاق المعتقل الذين جاء العديد منهم لزيارتي بعد الافراج المتأخر عني، وتبين أن مأساة تازمامارت أثرت على حياتنا العائلية، فمن الأصدقاء من كان متزوجا قبل الاعتقال لكنه أجبر على الطلاق بعد بضعة شهور من استرجاع الحرية لاستحالة التعايش بعد طول غياب، نظرا لاختلاف النظرة الى الحياة. لقد تطورت الزوجة مع الزمن، لكن نفس الزمن تجمد لدى الزوج منذ وقت طويل، توقف مع بداية الظلمات لقد تكيفت الزوجة مع نمط عيش أكثر تحررا، في حين ظل الزوج تقليديا. كثيرون منا أصيبوا بالخيبة، بعد وهم وحلم، لما وجدوا زوجاتهم طلبن الطلاق وبنين حياة زوجية أخرى، والعزاب من بيننا قرروا بمجرد خروجهم استكمال دينهم، درءا للرذيلة والمجون، والحال أن بعضهم ارتكب خطأ كبيرا عندما اقترن بفتيات عمرهن 20 سنة أي مايعادل المدة التي قضاها في السجن. لأن فارق السن، والعقلية، ووجهات النظر ورؤية المستقبل كان سببا في التضارب والاختلاف حول حياتهم الزوجية الى جحيم فأصبح الطلاق حتميا.

شخصيا وجدت صعوبات جمة في الإندماج في أسرتي الصغيرة، كنت يوميا أحاول التأقلم وفهم أفراد العائلة وطرق تفكيرهم، ولم أنجح أبدا في تحقيق هدفي، إذ فصلت بيني وبين أبنائي هوة سحيقة وحاجز منيع. فلم يعتادوا طريقة تفكيري وحضوري بينهم، ملاحظاتي كانت تصدمهم وكانوا يعتقدون أنني لا أملك أية سلطة عليهم. حيث لا ينصاعون سوى لأمهم التي قامت لوحدها بتربيتهم ورعايتهم. وقد حدث أن أصغرهم وأكثرهم صلافة رد علي ذات يوم قائلا: «لقد قاست والدتنا جدا وعشنا في تعاسة كبرى بسببك. أنت المسؤول عن عذابنا. فقد دفعك طموحك الى المغامرة ودفعنا الثمن وتحملنا النتائج. كان عليك أن تفكر فينا وفي مستقبلنا» لاشك أن كلاما مثل هذا جرحني وأصابني في الصميم، لكنني أحجمت عن الرد لأنني كنت أعرف أنهم قاسوا كثيرا ويحتاجون، من حين إلى آخر، إلى التنفيس عن خوالجهم، زوجتي بدورها لم توفر علي كلامها الجارح، كانت تؤاخذني على تدمير حياتها وضياع شبابها في الانتظار واليأس. لقد اعتادت على تدبير شؤون البيت واتخاذ المبادرات على طريقتها وهواها. واستمرت في ذلك دون استشارتي. كنت أحس أنني عالة، حتى أبنائي لا ينصتون لنصائحي.
بعض اقربائي وأصهاري وجيراني ومن كانوا أصدقائي هجروني وتفادوني لأنني بلا مال ولا وضع قار. هؤلاء كانوا يعتقدون أنني سأمد

يدي طلبا لعونهم وقد اخطأوا لأن إيماني بالله الواحد القهار لم يتزعزع.
بعد 21 سنة من الحجز، وجدت نفسي ملقى في العالم بلا وسائل أواجه مستقبلا غامضا: أجهل ما أنا ملاقيه وغير آبه بقدري. ما هم! لأن اللاحق لن يكون أفظع من السابق. وما أزعجني هو موقف البعض الذين تحاشوني مخافة اتهامهم بالتعاطف معي رغم أنهم كانوا أصدقائي. لم تكن قضيتنا طابو، بل جبل ثلج عائم يخشى الكل الاقتراب منه.
واليوم سطعت شمس الحرية لإضاءة الزوايا المعتمة، ونتمنى أن تلمع دائما حتى لا تبقى هناك أماكن مثل تازمامارت ولا تحدث فظاعات مماثلة أبدا. كثيرا ما كان الناس ينصحونني بنسيان الماضي الذي اعترف بأنه يطاردني باستمرار، إذ كيف لي أن أهرب من الذكريات الفظيعة والرؤى الرهيبة وأنا أفكر في لغلو الذي قضى 11 سنة ممددا على جانبه الأيسر وميمون الذي تاه 13 سنة في متاهات الجنون، من أين لي أن أنسى العذاب الجسدي والنفسي والحرمان من الأكل والماء والتنكيل ببعض الرفاق الهزيلين الذين ينتظرون دورهم في طابور الموت، ونظرات المحتضرين، ونظرات الكلبة «هندة» والليالي الشتوية الطويلة واصطكاك الأسنان المسوسة وليالي الصيف الحارة وأنا أراقب ثعبانا أو عقربا دون الحديث عن البق الذي يمتص ما تركه الاخوان من دمنا. هل يحق لي أن أنسي 30 رفيقا ماتو بدون وجه حق بعد آلام فظيعة وحشرجات تمزق نياط القلب، وأنسى «فيل عقة» الذي ثقب قلوبنا قبل أن يحفر الأرض. مازلت أسمع مجانيننا يصرخون ويهذون دون أن يعلموا أنهم ماتوا قبل موتهم!
صحيح أننا الآن أحرار، وأن الاخوة بوريكات التحقوا بفرنسا والطويل بأمريكا والـ 27 الباقين مازالوا بالمغرب، لكننا أصبحنا يتامى الوطن وضحايا ظلم لا مبرر وبقايا إنسانية طحنها الإنسان. وصحيح أن محنتنا انتهت لكن آثارها باقية تمزق أحشاءنا وتدمرنا رويدا رويدا. كل الموتى. الأحياء في تازمامارت كانوا على شفا حفرة، بعضهم سقط والبعض ظل على ضفة الجنون، واليوم مازال الناجون من موت محقق ينتظرون من يمد لهم حبل النجاة. بالأمس عندما كانوا يائسين عزلا في تازمامارت كانوا ينتظرون ما ليس منه بد، واليوم مازالوا يأملون في حياة أفضل، بالأمس كانوا يقاتلون ضد الموت واليوم يقاتلون بأناة ضد حياة لا ترحم ومجتمع قاهر.
كثيرا ما نلتقي بعضنا البعض ونتحدث عن مآسينا والحياة العابرة.

كثيرون منا اكتشفوا وفاة آبائهم وأمهاتهم، ودمار عائلاتهم، وكثيرون كانوا من فقراء تازمامارت وظلوا كذلك بعد الافراج عنهم لأن اخوتهم استولوا على أملاكهم وأراضيهم لاعتقادهم بأنهم لن يعودوا أبدا، والأكثر نزاهة من الإخوة، تركوا لهم بقعا صغيرة في مناطق صخرية غير خصبة عندما وزعوا التركة.

عندما أفكر في السجناء المرضى، الحمقى الذين تركتهم ورائي في السجن المركزي وأشاهد على الشاشة المذابح التي يرتكبها الأقوياء ضد الضعفاء في البوسنة والهرسك وأرى المأساة الفلسطينية والمآسي والحروب الأهلية والدينية والإيديولوجية أقول إن العالم أضحى تازمامارت كبيرة دون أن يدرك ذلك!

نحن نرث الدمار

اليوم، يرتاح سجانونا المتقاعدون في جلسات الشاي العائلية باستثناء بن ادريس ومولاي علي اللذين كانا ممن طلبا القمر في تازمامارت وأخفيا فظاعتهما خلف كثبان رملية، واللذين اطفآ شعلة الإنسانية ورفعا لواء القتل في ساحة الحرية. أقرانهما الذين دفنوا الموتى بلا كفن في قبور جماعية بلا صلاة ولا طقوس. وأنا أكتب هذه الحكاية المحزنة بذاكرة وروح جريحتين، ذكرى رفاقي الموتى، أحس بقلبي المنهك يتمزق، لأنني رأيت بأم عيني إخوتي يموتون ويسقطون بشجاعة بعد النفس الأخير، بدون بكاء أو شكوى. وتازمامارت المعتقل الفظيع سيظل يسكنني إلى الأبد ويحفر في كياني أخاديد عميقة آهلة بالذكريات الحزينة.

وإذا كان الزمن هنا يتعاقب بموكب المخاوف والرعب، فإنه الآن يسري بكرنفال من الوعود الفارغة والأراجيف التي يراد لها أن تضمد جراحنا وتحد من نفاد صبرنا. لقد اعتقدنا في اندماج سريع ومشرف في المجتمع، وللأسف كان أملنا مجرد سراب. وبالرغم من أنني اجتزت طوال السنوات السوداء محيط النسيان ورماني اليم الى ضفة صخرية، فإنني لم أتخلص أبدا من الضجيج الصاخب للمقابض والأقفال في زنزانة القبر، ولاسيما صوت رشدي بنعيسى الصاعد من بئر، صوت من

وراء الموت الذي يوقظني دوما من النوم. كل هذه الوقائع الحقيقية والمعيشة تزكي حكايتي، التي لا أريدها سياسية ولا ينبغي لها ذلك، بل الغريزة الإنسانية هي التي حفزتني على الكتابة.

يمكن أن يخمدوا أنفاسي، ولكن هل يمكن تكميم الحقيقة؟ التي إذا أخفيتها أصبحت خطيرة. والآن، بالرغم من أن المأساة تشكل جزءا لا يتجزأ من حياتي، وتطاردني دوما، أحاول بنوع من الهدوء أن أفكر في موتانا لأخفف من معاناتي. هيهات! هيهات! كثيرا ما أسمعهم يتحدثون، يهذون ويلفظون النفس الأخير، فيكبر غضبي المكتوم في الحال ويعتريني يأس قاتل... ومع ذلك أكابر، وأحاول منذ خروجي من النفق المظلم أن أجاري التيار، آملا في ألا يطول انتظاري، كما هو الأمر في تازمامارت.

إذا كان تازمامارت قد دمر أو حول الى مخزن تموين، فإنه سيظل أبد الدهر في ذاكرة كل من كافح لهدمه والإفراج عنا من هذا الجحيم. إن مأساة تازمامارت تمس كل الإنسانية أو روحها، لأن هناك روحا واحدة: الروح التي زرعها الله في جسم آدم، وكل إنسان يحمل جزءا صغيرا من الروح الكبرى المشتركة والأبدية. وعليه، لم تكن أرواح الموتى الأحياء وحدها التي عانت في تازمامارت، بل أرواحكم أيضا، أي كل الذين يملكون هذه الهبة.

أعتقد أن الخجل أو المركبات هي التي جعلت المعتقلين السابقين لا يتحدثون عن الجنس حتى لا يحسون بفحولة ورجولة أقل منهما لدى مخاطبهم. وحتى وسائل الاعلام لم تجرؤ في أية لحظة من اللحظات على طرح السؤال المحرج حول الجنس حتى لا تحرجنا أو تصيب كبرياءنا، لأن هذه الوسائل تعلم أنها نقطة حساسة لا تهم سوى المريض وطبيبه. والحال أن القضية لا خجل فيها، لأن المخزن هو المسؤول، وهو الذي يتحمل كامل العواقب. ولربما أن الموضوع لم يثر، لأن الجميع كان يعلم أن فحولتنا وهنت بشكل كبير بعد عقدين من الدفن عرضة لسوء التغذية والحرمان من الشمس والنظافة والعلاجات وغياب الاتصال الجنسي. هل يمكنكم أن تتصوروا وضعا مثل هذا؟ هل يمكنكم تصور شخص نزيل زنزانة انفرادية لمدة عشرين سنة بدون اتصال جنسي، بل دون أن يرى امرأة؟ ألا يبعث هذا على الجنون؟ هذا أمر لا يصدق. في البداية مثلا كنت لا أتصور أنني سأقدر على التحمل والبقاء بدون امرأة... أو سجائر، ومع ذلك حدث هذا. هذه الغريزة الطبيعية التي لا

أحد يستطيع العيش بدونها حرمنا منها وأجبرنا المخزن على تحمل ما لا يطاق، حرمنا من الحاجة التي وجدت مع آدم ومازالت موجودة، وبسبب الجحيم الذي عشناه أصيب بعضنا بالعقم النهائي أثبتته التحاليل الطبية وعجز كل أنواع الدواء، فلجأوا إلى التبني، باعتباره المنفذ الوحيد لبناء أسرة وصناعة العش الزوجي.

لقد قضيت عقدين لا أرى أمامي سوى الرجال وأي رجال: درك وشرطة وجنود. في سنة 1991، عندما عدت مرة ثانية الى السجن المركزي بالقنيطرة، سنحت لي الفرصة في اليوم الموالي لوصولي بان أرى امرأة جاءت لزيارة المعتقلين الاسلاميين. فغرت فمي وأنا أرى امرأة بعد أن غابت كل النساء عن ناظري منذ ترحيلي الى تازمامارت وانعقد لساني وجحظت عيناي وأنا أرى سيدة محترمة أنيقة الهندام تقترب مني بطلب من أخيها وتصافحني وتكيل المدائح لي وتشجعني ثم تطلب مني عنوان عائلتي لإخطارهم بخروجنا المعجز من تازمامارت، سعدت بسماع صوت نسوي لأول مرة بعد عشرين سنة وأرى أمامي جسد امرأة بعد أن ظل يراودني في الحلم أو في الخيال. في تلك اللحظة احسست بالفعل بمدى تحجري وعزلتي، الروحية والجسدية، واحسست أيضا بانبعاثي...

منذ السنة الأولى لإقبارنا فهمنا بأن القوانين في حالتنا وفي بلدنا تتغير حسب الظروف والأمزجة والمصالح المخزنية، فالمحكمة العسكرية لم تحكم علينا بالإقبار ولا بالنظام الجهنمي ولا الاعتقال اللامشروع بعد انقضاء الحكم الصادر. وهذا دليل على أن المخزن خرق القانون عمدا. لهذا أقسمنا ألا نثق في أحد. وبعد الإفراج عنا مافتىء هذا الحذر يتصاعد ويتزايد بسبب استمرار أساليب المخزن في مطاردتنا وتعجيزنا معنويا وماديا في الامتناع عن تعويضنا وفي تهميشنا. أما المجتمع، فأقول بصدق، إنه خيب ظننا، لأن الإحساس الإنساني طغت عليه المادة.

لقد اعتزلناه هروبا من الوصوليين الذين لطخوه من أجل المصالح ولو اقتضى الأمر المرور فوق الجثث. شخصيا، كنت أفضل الانزواء في غرفتي تؤنسني وحدتي، عوض الجلوس في المقاهي والإنصات لدردشات تثير الاشمئزاز.

اذكر انني قرأت قصة كبار متسلقي الجبال الذين وصلوا الى قمة ايفرست في الهمالايا بعد مجهودات جبارة، جعلت هؤلاء الابطال

يقهرون تلك الصخرة الموحشة اللافظة للمتطفلين الغرباء. واذا كانوا قد افلحوا فقد دفعوا الجزية المطلوبة ذلك انهم اضطروا الى قطع الاصابع التي تجمد الدم فيها بفعل البرودة وشلها. ونحن ايضا اشرفنا على عتبة الموت ولم ندلف بابه ونجونا من مقصلته في آخر لحظة. وللاسف دفعنا، مثل متسلقي الجبال، الثمن باهظا اكثر بكثير منهم. فاذا ما استثنينا الذين ماتوا والعدد الكبير من الحمقى المصابين بمس، عاد اغلب الناجين من تازمامارت مثخنين بالامراض النفسية والجسدية، والاقل تضررا مازالوا يحملون الى الآن اثار السجن المطول والرتيب والعزلة المملة مجسدة في اعراض التلف، ومازالت آفاتها تعاشرنا وتشكل جزءا منا، يطاردنا ويزعجنا في حياتنا اليوم. ولعل الآفة الاكثر وجودا هي الشرود او التيه في التفكير دون القدرة على التركيز والتعبير الدقيق عن افكارنا وسرعان ما نتيه في متاهات بلا منفذ تختلط فيها الافكار والرؤى وطلاسم التحليل. بل يحدث ما كنت اسميه بالانفلات العام.ويتعلق الامر بالشروع في مناقشة موضوع محدد سلفا يبدي كل واحد منا رأيه فيه لكن ما ان يطرأ طارئ تافه او تتضارب الآراء حتى يتخذ النقاش منحى آخر ونواصل الحديث دون ان نعي باننا غيرنا الموضوع. احيانا اخرى يتفرع الموضوع الى مواضيع جانبية مخالفة تماما للاصل وتتحدث كل مجموعة بمعزل عن الاخرى وتعم الفوضى العارمة.

شيء آخر كان يرعبني: خيالي المجنح الذي يستبد بي احيانا ويحملني الى آفاق بعيدة تتحقق فيها كل آمالي ورغباتي بكل بساطة، عالم ساحر بنيته شخصيا، كل طلباتي فيه اوامر، في وجود هادئ بلا ضجر ولا أحابيل. والحال ان الواقع شيء آخر لابد للمرء فيه من الكفاح لانقاذ جلده والتدافع بالمناكب للوصول الى الهدف، غير انني احس بالهشاشة ونوع من العجز عن المسايرة، لست في مستوى الذئاب الذين يحيطون بي من كل جانب.

كل الذين ماتوا نفثوا مرارتهم مع النفس الاخير بخصوص بعض الاحزاب السياسية التي لم تبذل مجهودا لانقاذنا. لقد خاطبني المرحوم بنعيسى رشدي بصوت اجش ومؤثر قبيل وفاته بأيام: «اذا كتب الله لك النجاة من هذا الجحيم. قل لهم بأنني برئ، قل لكل الاحزاب السياسية بانني لم اقترف شيئا وانا ضحية الظلم البشري، قل لكل الاشخاص الذين كان باستطاعتهم ان ينقذونا ولم يفعلوا، انني لن اغفر لهم ذلك

ابدا».

وغالبا ما كانت اصوات المشرفين على الموت تتوسل الينا بأن ننقل رسائلهم واشارات الاستغاثة التي لا تصل، بعد ان تمزق احشاءنا. السنوات الكئيبة وسمت روحنا، حتى المستقبل امامنا الآن غامض ومعتم.. وحتى بعد خروجنا صادفتنا الاحباطات والخيبات. فقد نسيتنا الاحزاب السياسية ولا سيما منها حزب و طني كبير كان يكرهنا. ومن حسن الحظ ان هناك منظمات انسانية اجنبية عضدتنا ماديا ومعنويا.. (...)

اذكر ان رفاقي الذين افرج عنهم قبلنا - انا وعاشور - قادهم المخزن الى عائلاتهم، فلم يتعرف عليهم اقرباؤهم ولم يتعرفوا على احد. وكم كانت قاسية تلك المشاهد التي لايتعرف فيها اخ على أخيه ولا أم على ابنها. ويصبح نحن «ماركة مسجلة» من تازمامات. واليوم يوجد من بين ماكانوا اصغر سنا في اعتقال تازمامارت من هم على اعتاب الخمسينيات من العمر ومازالوا عزابا نظرا لقلة ذات اليد وانعدام الدخل والسكن. البعض واجه - كما سبق ذكره - مشاكل زوجية وعائلته ودمر روحه مستوى تربية الابناء.

وشملت المأساة ايضا الزوجات اللواتي ترملن منذ زمان دون ان يعلمن بذلك. فقد قضين عقدين من العمر ينتظرن ويعانين بلا جدوى. في الاخير.. والآن، بعد ان جاءهم النبأ المشؤوم، زادت معاناتهم لان حياة بلا أمل ولا مثال سام تعد احتضارا بطيئا. ومن المحزن انني قضيت لحظات مؤلمة التقيت فيها هؤلاء الارامل كانت من اتعس لحظات حياتي. لقد جاءت السيدة عزيزة زوجة المرحوم ديك الجيلالي لزيارتي في السجن المركزي قبل اطلاق سراحي بأسبوع. عندما رأتني ارتمت في احضاني وهي تصرخ وصراخها رعب لا يقاس شل حركتي واحسست ان جسدي يتشنج كلما سمعتها تنتحب وتردد اسم زوجها. عندما كانت ترفع رأسها وتنظر الى بعينين احمرتا من حرقة البكاء.

كنت اخفض من بصري لأتحاشى نظرتها المكلومة. وقد حكت لي عن مآسيها التي عاشتها بعد غياب زوجها، حياة بئيسة اجبرت فيها علي العمل لاعالة ابنائها الخمسة، فعملت في الحقول والمعامل وفي البيوت وسكنت الاكواخ. همشتها عائلتها لنقص في الموارد وهمشها المجتمع لانها زوجة خائن. فعاشت في عزلة تامة بلا سند مادي او معنوي، هي التي سكنت قبل *1971* فيلا وسافرت في السيارة وملكت

الحلي والمجوهرات وخادمة تخدمها، لتتحول الى خادمة الآخرين بعد غياب زوجها.

الفقر ليس عيبا، وبفضل شجاعتها وإرادتها ومثابراتها افلحت في تربية ابنائها ورعايتهم.

مازالت الارامل ينتظرن، التعويضات مع المنتظرين وقد حدث ان التقيت بهن جميعا بمناسبة احد اللقاءات العائلية. وحكت لي كل واحدة منهن عن الماضي الكئيب. اندهشت من جهة لحكاياتهن المليئة بالخيبات والفشل والمعاناة ومن جهة اخرى اكبرت فيهن عنادهن ومواجهتهن للاستسلام. وكفاحهن ضد عوادي الزمان. وخلت في لحظة ما انني اعيش ذلك العصر الذي كان للتضحية فيه حضور كبير في وجود الانسان، عندما رأيت زوجات شابات وجميلات وفين لازواجهن الغائبين وانتظرن بلا كلل عودتهن. نساء مثل السيدة شمسي خديجة التي ظلت منذ 1972 وحيدة، الا من ابنتها البالغة من العمر سنتين. تنتظر عودة زوجها.

وبما أنها لم تكن تمتلك مورد رزق فقد شمرت عن ساعديها وضربت في مناكب الارض بحثا عن العمل، من شركات النسيج الى المعامل، وبعد بضع سنين استأجرت محلا واصبحت خياطة الحي. السيدة خديجة الشاوي ايضا واجهت عبئا اثقل لانها كانت تعيل 6 اطفال. وبعد ان ظلت ربة بيت منذ زواجها اجبرت بعد اعتقال زوجها على الخروج الي العمل، لان تربية 3 ابناء و 3 بنات ليس بالامر الهين، لكن شجاعتها وصبرها وعنادها مكنها من النجاح رغم تهميش المجتمع لها.

كثيرا ما يخطر ببالي أحد رفاقي القدامى الذي كان يحدثني طوال اعتقالنا عن عائلته التي كان يحبها حبا جما. وعندما اقتيد معصب العينين الى قريته تبين له أنه أسرف في الأوهام الضائعة، ذلك أنهم عندما رفعوا العصابة عن عينيه وجد نفسه أمام امرأة عمرها 40 سنة، هزيلة ومريضة، تنظر إليه بأسى وهي تنتحب. وضع أحد ما حدا لهذه العقدة قائلا: «هي ذي أختك «س»»، والتفت نحوها وقال نفس الكلام، لم يتعرفا على بعضهما لأنهما تغيرا كثيرا: هي بسبب الأحزان وعوادي الزمن والاحباطات وهو بسبب ظلم الناس بعد أن كان محكوما بـ 3 سنوات فقط. بعد عناق طويل يغمره البكاء والحنان معا، استفاق كمن لسعه عقرب وتساءل مفزوعا: «أين أبي؟ أين أمي؟» طأطأت أخته

الصغرى رأسها وأجابته بحشرجة نائحة «مات الجميع، بمن فيهم اخونا الأكبر واختنا، لقد بقيت وحيدة انتظرك بفارغ الصبر»، تاه العائد في دوخة منعته من سماع العبارات التالية لأخته، فقد هرب للتو من كابوس رهيب ليسقط في آخر أكثر رعبا، وبعد أن قضى 17 سنة إضافية في المعتقل، أضحى الآن وحيدا بلا معيل ولا عائلة، وعليه إن أراد له مكانا تحت الشمس أن يجابه الحياة بقوة.

كل الذين احتجزوا في تازمامارت بدون وجه حق، تبنتهم «امنستي» ومنحتهم بمجرد خروجهم مليون سنتيم لكل واحد منهم، كمنحة للاستجابة للطلبات الملحة والمستعجلة، اثنان منهما قضيا شهرين في الانتظار، ولم يتوصلا بشيء فكاتبا المنظمة الدولية ليخبراها بعدم توصلهما بالمنحة، بعد تحقيق دقيق تبين ان الحوالات صرفت من طرف ابني عمهما يحملان نفس الإسم واللقب، طالبهما المعتقلان السابقان برد المبلغ، لكنهما امتنعا عن ذلك في الحال، وطلبا مهلة سنة لدفع المبلغ أقساطا، هذان الرفيقان أدينا بـ 3 سنوات لكنهما قضيا 20 سنة سرق المخزن شبابهما وسرق ابن عميهما مالهما! ومن الواضح انهما لن يثيقا أبدا لا في العدالة ولا في الناس ومعاملتهم.

مقابل هذا، كان من المعتقلين من وجدوا بعد الاعتقال عائلاتهم ولاسيما زوجاتهم اللواتي انتظروهن رغم قسوة العيش والمشاكل اليومية وتهديدات المخزن الذي كان يدفعهن الى طلب الطلاق، لعل احسن مثال هو ماجرى لأحد الرفاق السابقين الذي لم يعد يامل بعد ترحيله الى تازمامارت في رؤية زوجته من جديد، لأنها كانت شابة وجميلة وبدون أطفال، كما انهما كانا حديثي العهد بالزواج، والأمل في هذه الحالة سيكون من باب الحمق، لأن للخيال حدودا حتى في القصص الخرافية، والحال أنه يوم الافراج عنه، وجد زوجته التي برت بقسمها يوم الزواج، حاضرة بمعية والديها لاستقبال حبيبها الغائب. ومازالا الى يومنا هذا مجتمعين في السراء والضراء، حتي العقم لم يؤثر في علاقتهما، وقد عمدا، ملأ لهذا الفراغ في حياتهما، الى تبني طفل يتيم لاشك انه سيجد مكانا أمنا وحنانا وكثيرا من الحب، من بين المعتقلين أيضا من كان على وشك الزواج وقت الاعتقال لكن الفراق الاجباري شوش على مشاريعهم وقتل أي أمل في غد أفضل، وبعد عقدين من الزمن وجد المعتقلون المعنيون خطيباتهم السابقات ربات بيوت وأمهات والأمر مفهوم على كل حال، لأن الانتظار طال، غير ان

الطرفين حافظا على علاقة صداقة طيبة وتحولت عواطف الأمس الى اخوة.

منذ خروجنا ألقي بنا في المجتمع ولفنا النسيان والتهميش وتركنا للقدر الخاص والازدراء الى حدود فبراير، وبالضبط يوم 94/02/ 17 أي شهرين قبل مؤتمر «الغات» بمراكش حيث استدعانا السيد عمر عزيمان وزير حقوق الإنسان وقتها واطلعنا على التعليمات الملكية الأخيرة ذات الصلة بحالتنا، والمتعلقة باجتماع لجنة خاصة في ظرف اسبوعين لدراسة وتسوية ملفنا تسوية نهائية قبل شهرين من ذلك التاريخ، وقد أكد لنا بأننا سنتلقى تعويضات عن الحجز غير القانوني والمعاملات اللاإنسانية وأخبرنا أيضا بالحق في العمل والسكن والتقاعد العسكري والتطبيب المجاني وجواز السفر وتعويض عائلاتنا عن المعاناة، وختم حديثه بالقول إننا سنتلقى شهريا مبلغا ماليا مسلما من طرف الأعمال الاجتماعية للقوات المسلحة الملكية. بعد «الغات» لم ينفذ شيء من هذا القبيل، مرت شهور وسنوات ولم يوف بأي وعد أو طلب باستثناء - حوالة الأعمال الاجتماعية. اقتصروا على مطالبتنا بالصبر والانتظار: انتظروا! انتظروا! ما عسانا ننتظره الطوفان؟ نهاية العالم؟ أم يوم الحساب ليلقى كل جزاءه، كلما طرقنا بابا كان صوت المخزن يجيبنا بجفاء أن تمهلوا! أما الخبر السار الذي أعلن عنه السيد الوزير في برنامج «وجه وحدث» فلم يتجاوز تسليم شهادات الوفاة لعائلة المتوفين، لقد تم ترحيلنا من القنيطرة الى تازمامارت بسرعة لكن، تسوية ملفنا تعثرت وطال أمدها!

أدان الجميع وجود المعتقل - لكن السيد روسي ميشيل صرح لجريدة «لوموند» (عدد 93/04/10) جوابا عن مقال حول تازمامارت كتبه الصحافي دوباران، بأن هذا الأخير نسي القول بأن نزلاء تازمامارت كانوا يدركون سبب وجودهم هناك، والحق أنني ذهلت عند قراءة المقال لأنني لم أكن أتوقع كلاما مثل هذا من لدن إنسان فرنسي وأستاذ للقانون مفروض فيه أن يدافع عن القانون ويقف ضد أي خرق لسير العدالة، إذ كنت ترى، ياسيدي بأننا نستحق عقابا فظيعا في معتقل الموت، وإذا قبلت فعلا بأن تنفذ حكم صادر عن المحكمة في مكان سري غير معترف به من طرف الدولة وفي شروط وحشية، فهذا معناه أن ضميرك فاسد وإنه لمن المؤسف أن شخصا مثلك يغير مبادئه مثلما يغير الآخرون منادلهم.

فوجئت أيضا بتصريح للمحامي زيان الذي نفى في جواب عن سؤال صحفي، نفيا قاطعا وجود الاختطافات، وأكد عدم وقوع أي اختطاف في المغرب. فما قولك أيها الأستاذ في محكومي قضيتي 71/7/ 10 و 72/8/16 الذين اختطفوا في الثانية صباحا من يوم 7 غشت 73 من زنازنهم في القنيطرة ورحلوا سرا الى تازمامارت المجهول، معصوبي الأعين ومصفدين وظلوا محتجزين 18 سنة وشهرين في الظلام محرومين من كل حقوق الإنسان ولو كان سجينا. هل ستجيبني بنظرة ساخرة مستهزئة قائلا بأن العملية مجرد ترحيل من سجن الى آخر؟ فما هو قولك في من قضى عقوبته وظل حبيس الجدران بدون حق؟ هل تعلم أن 30 منهم ماتوا وقد مضى على انقضاء العقوبة وقت طويل؟

بمجرد إنشاء المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، زارت عائلاتنا أمينه العام السيد ميكو لعرض حالة تازمامارت، بعد اللقاء اعتذر متعللا بأن القضية تتجاوزه، والحال أن المسألة تتعلق بحقوق الإنسان، سواء ما له صلة بالمغيبين أو بالمعذبين أو ضحايا الاختطاف القسري (...)، والأنكى من كل هذا أنكم كنتم على علم بتازمامارت وفظاعاته وسكتم...

كثيرون نسبوا ترحيلنا الى تازمامارت الى الملك الراحل رحمه الله، والحق أن الحقيقة مخالفة لهذا تماما، لأن الآخرين وما أكثرهم هم ساهموا في هذه المجزرة الرهيبة والمعاملة القروسطوية. لقد كانوا على علم بأن المرحوم أعطى أوامره بترحيلنا من سجن مدني الى سجن عسكري وحبسنا حتى إشعار آخر، فجنحوا الى «تازمامارت» الذي كان حديث البناء، وتكلف الجنرال أحمد الدليمي (الكولونيل ماجور وقتها) نفسه بعملية «فلورانسا» وحضر شخصيا عملية الترحيل، كما أكد لي ذلك أحد الحراس بالقنيطرة سنة 1997 وقد أخبرني أحدهم أنه كاد يتبول في سرواله، عندما رأى الدليمي يحادث المدير في الثانية صباحا، وعين الدليمي العفريت مديرا للمعتقل أحد أقاربه «القاضي» الذي كان الفاعل الثاني في هذه المأساة الإنسانية.

ما آلمني فعلا هي التصريحات الكاذبة لبعض المسؤولين حول وجود المعتقل، لقد نفى المخزن لكن الزمن والشهادات دفعته الى الاعتراف، لكن لماذا ادعى بعض المسؤولين أن تازمامارت لا وجود له، إلا في الأذهان والعقول الشريرة. وقد أدلى السيد امحند العنصر بذات

التصريحات للأسف، ومن المؤسف أيضا وغير المقبول أن تصرح السيدة حليمة الورزازي ممثلة المغرب في المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان «بأنه من المؤكد أن أغلب الأشخاص المفرج عنهم بعد انقضاء العقوبة يتمتعون بإمكانية عيش حياة جديدة». والحال أن هذا يكشف تجاوز الأحداث لهذه السيدة الفاضلة، لأن الناجين من الجحيم حين كانت تتلو تصريحها، لم يتوصلوا بتعويضات ولا سكن ولا علاج للأمراض الناجمة عن العذاب الجسدي والنفسي.

شاءت سخرية الأقدار أن يعود أحد الناجين الى بيته بعد غياب دام عقدين من الزمن فرح بلقاء زوجته التي تركها بعد سنتين من الزواج. من سوء حظه، فوجيء بنبأ غير سار ومذهل، إذ أن زوجته التي فقدت كل أمل في رؤيته مجددا، طلبت الطلاق، بموافقة والديه، ولما حصلت على ما تريد تزوجت شقيقه الأصغر!! فغر فاه أمام المشهد، عندما سارع أطفالها الي عناقه وهم يقولون: «مرحبا بك أعمّي!».

ابتسمت له الحياة مجددا فاستعاد ارثه وراجت تجارته واستعاد كل شيء لكنه فقد حبه الى الأبد. لقد استطاع الاندماج بسرعة في الحياة المجتمعية وثمّن المخزن نفسه سلوكه، لأنه لم يطالبه بشيء. أما أحد رفاقنا الآخرين، فقد أعياه الانتظار فيمم وجهه شطر والي المدينة، فاستقبله هذا الأخير في مكتب ومجموع مساعديه تقريبا. حاضرون بعد أن استمع حكايته المؤلمة، سأله هذا المسؤول بازدراء:

- ماذا تريد الآن؟

أجابه المعتقل السابق: «لقد كان الكولونيل «ف» قد أخبرنا بأننا سنستدعى من طرف الولاة والعمال بعد شهر من خروجنا حتى يتم إيجاد شغل لنا في البداية ثم تعويضنا من بعد».

- أنت تريد العمل إذن، وماذا تتقن؟ هل تجيد الفلاحة مثلا؟

- لا يا سعادة الوالي لم أتعاطاها قط.

- هل تجيد التنظيف؟ أو الرعي مثلا؟

- لا يا سعادة الوالي لقد كنت ضابطا حصلت على البكالوريا سنة 1967 غيّر المسؤول من لهجته، ورفع سبابته في وجهه وقرعه: «ألا تستحيي؟ هل نسيت ما فعلت أنت وزملاؤك؟ لقد مسستم بالمؤسسات وتجرأتم على المقدسات. لقد أردتم النيل من جلالة الملك، لكن الله حفظه ونجاه. اغرب عن وجهي ولا تعد مرة أخرى».

غادر المعتقل السابق المكان مُهانا مطأطأ الرأس. بعد أيام عاد الى

مكتب الوالي بمعية أمه العجوز شبه المشلولة. توسلت هذه الأخيرة الى المسؤول الولائي لتوظيف ابنها حتى يتسنى له تلبية حاجياتها وشراء دوائها. تحدث الوالي مطولا الى السيدة العجوز المسنة البشوشة، طرح خلال الحديث عدة أسئلة عن أصلها ونسبها وعائلتها، وتبين له بأنهما من نفس البلدة. فكان أن اعطى أمره في الحال بتوظيف الإبن بأجرة ألفي درهم 2000 مؤداة من الصندوق الخاص للولاية. وبعد مرور سنة، تم نقل الوالي الى الوزارة، فاستدعاه قبل سفره وأخبره بأنه سيحتفظ بمنصبه حتى ولو كانت وضعيته مؤقتة وطلب منه الاتصال كلما دعت الضرورة الى ذلك.

عاد أحد رفاقنا الى بيته فرحا بلقاء عائلته وأطفاله وزوجته التي أحبها كثيرا. غير أنها لم تكن حاضرة يومها لاستقبال زوجها لأنها طلبت الطلاق منذ مدة واقترنت بشخص آخر لم تكن له شخصية ولا ثقافة ولا ثروة الغائب. لم يدم الزواج الثاني طويلا فانفصل الزوجان. فكر العائد بعد أن ضرب صفحا عن الماضي. من سوء الحظ أن هذا الزواج كان مستحيلا، لأن الزوج ظل محافظا في تفكيره المستند الى الحشمة والاحترام المتبادل والحياة المشتركة الهادئة، في حين تغيرت الزوجة كثيرا ومالت الى اللهو والملذات والحياة العصرية. ذات مساء حضرا حفلة أحد الاصدقاء فلم تتردد في تدخين سجارة عرضها عليها أحد المدعوين. بعد أن عادا الى البيت طلب منها تفسير سلوكها فأجابته ببذاءة ووقاحة «أنا حرة ندير اللي يعجبني وماشي انت اللي تمنعني. ايلا ما رشقلكش طلقني» فطلقها في الحال، لينتهي بذلك حلم رواد طويلا مخيلة المعتقل الذي كان ينتظر الخروج من تازمامارت للعودة الى الحياة بجانب عائلته. وتنضاف بذلك مأساة جديدة سببها تازمامات الذي ما فتئ يدمر حياتنا وسعادتنا.

هناك أيضا قصة ناج آخر من تازمامارت الذي أثقلت كاهله المشاكل العائلية منذ خروجه، سببها في الأصل سوء تفاهم حصل بين الزوجة والأم منذ اللحظات الأولى لغيابه، قبل أن يتحول الى حقد متبادل، دامت المشاحنات والمماحكات بينهما الى أن جاء هو ولم يدر أي تصرف يتصرف واية جهة على حق.

زادت حدة المشاكل، لأن المعتقل رفض شروط زوجته وهي رفضت مطالبه، فبدأ التهديد بالطلاق. فرفعت الزوجة، دون علم زوجها دعوى تطالب فيها بالنفقة طوال مدة غيابه، عشرين سنة لفائدتها، وفائدة

طفليها، حكمت المحكمة لصالحها وطلب من المعتقل التعيس دفع 16 مليون سنتيم نقدا!! صعق المعني بالأمر بهذه العقوبة القاسية والظالمة التي كادت تفقده عقله. لأنه لم يكن يتوقع فعلة بمثل هذه الشناعة من طرف سيدة اعتقد أنها تحبه. استأنف الحكم لكن المحكمة زكت الحكم بالأداء لكنها استحضرت الظروف الخاصة للمعتقل وغيرت من طريقة الدفع إذ حولتها الى أقساط شهرية بقيمة 1500 درهم شهريا لمدة 9 سنوات. والحال أنه كان على وزارة العدل أن تعطل الحكم الى ان يتلقى المعتقل تعويضاته من طرف الدولة. لقد راح ضحية الظلم عند ما اعتقلته هذه الاخيرة مدة 15سنة، واليوم فرضت عليه قوانين البشر دفع نفقة أو السجن دون الأخذ بعين الاعتبار بأنه خسر كل شيء بسبب المخزن. لقد أجبروه على إعطاء الزوجة حقها في حين أغمطوه حقه. لم تسعف وزارة حقوق الانسان صديقنا الغارق في الديون لأن رائحة تازمامارت العفنة كانت لاتزال تفوح منه! هذه مأساة أخرى من ماسي المعتقل إذ لو أن السجين غادر المعتقل بعد قضاء المدة المحكوم بها عليه لما حصلت الأمور الى هذا الحد.

كل المعتقلين المفرج عنهم فرحوا بالعودة الى عائلاتهم أو ما تبقى منها أما الذي أصيب في مقتل يومها فهو ذاك المعتقل السابق الذي وصل قريته يرافقه دركيان وبعض رجال السلطة المحلية. وجدوا الدوار خاليا لأن الرجال توجهوا الى المقبرة ولم تبق سوى النساء النائحات اللواتي زدن من كآبة الأجواء وحزنها. عندما سألوا العائدين من المقبرة عن الطريق المؤدية الى منزل الأب، اجابوهم بأسى وحرقة: «إنه الميت الذي دفناه منذ قليل. فقد مات هذا الصباح، الله يرحمو» هذه الكلمات دمرت صاحبنا الذي كاد يجن، لأنه فقد أباه يوم عودته بعد أن فقد أمه منذ زمان بعيد. وها هو الآن وحيد كما لو يكن من قبل. ولولا تازمامارت لقضى سنوات طوال الى جانب أهله. بعد أن قضى العقوبة.

بالنسبة للمخزن تعتبر السنوات الكثيرة والشاقة التي قضيناها في معتقل الموت، شيئا عاديا، فالمخزن أعتقد أنه يتصرف حسب القانون، لأن العذاب الجسدي والنفسي والعقاب الشرس والمعاملة البشعة أشياء مألوفة لديه. كان انتقام المخزن شر انتقام... والآن اعتقد أنني حر والحال أنني لست كذلك، لأن الحرية تكون سجنا مادام هناك مغيبون ومقموعون وظلم اجتماعي فوق الأرض... لقد كان أول إحساس ينتابني

بعد أن أغلقت البوابة الحديدية لسجن القنيطرة خلفي هو أن أنني وحيد وضعيف وغريب في بلدي، عندما عبرت حيي القديم، فوجئت باستمرار البؤس وبقاء الأشياء على ما كانت عليه: نفس الأزقة الضيقة والوسخة، نفس المصابيح، والجدران المشروخة. لم أفاجأ وأنا أقطع «دوار الدبغ» الذي ظل على حاله: مئات البراريك والنوالات يسكنها العمال (قبل ولادتي) ومدن صفيح تغمرها التعاسة والبؤس والأوساخ.

وأنا أكتب الآن هذه الحكاية الدامية والمؤلمة احتفاء بذكرى رفاقي في العذاب والذين اختفوا الى الأبد، أحس بقلب مدمى وحزين، لأنهم ماتوا سُدى. قبل مغادرتنا لأهرمومو كان المخزن قد وعدنا عدة وعود لم يف بها قط، لأن رفاقنا المفرج عنهم انتظروا طويلا على أمل الاندماج الاجتماعي، لكن الأمل كان كاذبا، لأننا كنا مهمشين.

مرت سنتان على الحرية، وأعني انتظار الرفاق، فقرروا الخروج عن صمتهم والمطالبة بحقوقهم كالتعويض والسكن والعلاج وجواز السفر والحقوق الاجتماعية والسياسية. فتبين أننا كنا نعتبر الطابور الخامس ومأساة تازمامارت أن كل سجين في أي سجن غيره له الحق في لحظة شمس وهواء نقي، لكنهما كانا يتوقفان عند أبواب تازمامارت.. كل سجين كان له الحق في التعلم وتعلم المهن، أما نحن فما كان لنا سوى أن نحملق في الظلام ونتقوقع ونتكمش ضد البرد. وبعد أن نخرتنا تازمامارت رمى بنا الى مجتمع لا يرحم، بدون علم ولا شهادات، ومعناه أننا محكوم علينا بالبطالة خصوصا وأن الآلاف من ذوي الشهادات العالية عاطلون عن العمل، عاجزون عن تلبية حاجياتهم، وكان شباب آخرون مجبرين على السرقة للعيش والعديد من باعة الحشيش والديطاي مهددين بالسجن بسبب التهريب وترويجه ولكنهم، للأسف كانوا مجبرين على ذلك. وكما في العالم كله، كانت أقدم حرفة منتشرة بكثرة بين كل الفئات. والرشوة، هذا الداء العضال استبدت بكل العقول ونخرت كل الأفئدة وأفسدت الأرواح. فوجئت بانتشار الاحتيال والخديعة، مما دفعني الى الهروب من هذا العالم الذي أحس فيه بالغربة مفضلا العزلة والتأمل .

مرت ثلاث سنوات علي مغادرتنا للمعتقل الملعون، ومازال للأسف حاضرا في ذاكرتنا وأرواحنا ولغتنا. سجن الموت هذا يتراءى لنا دوما، في الكوابيس ونشم رائحته التي التصقت بجلدنا مثل الجذام.. الآثار ظلت موجودة دائما والندوب حفرت مكانها. بعد خروجنا أحيل الحراس

المسنون على التقاعد ونقل الشبان منهم الى أكادير وبدأت الأشغال على الفور لتحويل المكان الى خزان تموين وتم طلاء الجدران الكئيبة،و إخفاء لكل الآثار المدينة ثم غرس نخلات عمرها 15 سنة مكان القبور.. ومع ذلك، كان البعض الى الأمس القريب، يتساءل إن كانت تازمامارت قد وجدت فعلا أم تراه حكاية خرافية من حكايات ألف ليلة وليلة. أقول: لاشك أنها حكاية لا تصدق، لكنها ستة آلاف ليلة و610 ليالٍ من العذاب والإهانة والرعب. وأؤكد أن تازمامارت وجد ما بين 1973 و1991 وأنا أحد الناجين منه، لاشك أن الإشاعات تضخمت شفهيا من شخص الى آخر، لأن الكلمة كانت بمثابة طابو، ومن دوار الى دوار. ومع مرور الوقت زاد حجمها وتفرع واختلط الخيال بالواقع، لأن الناس كانوا يسألونني دوما: هل كان الطعام يلقي إليكم بواسطة الطائرات المروحية؟ وهل حقيقة أن الطعام كان يقدم بواسطة نظام كهربائي متحرك فوق سكة حديدية على طول نفق مظلم؟ كنت أجيبهم بكل صدق وصراحة وأحكي محنة تازمامارت بدون زيادة ولا نقصان. ومع ذلك فإن حكايتي المأساوية بلا مروحية ولا سكة أبكى الكثيرين وأحزن الآخرين.

وبخصوص الصخيرات نفسها أضيفت الى حكايتها العديد من الاختلاقات والأكاذيب فقد قيل إن اعبابو كان يمسك بلائحة يتلو أسماءها بصوت جهوري ويعين من يقتل منهم، والحال أنه لا وجود لأية لائحة لأن الانقلابي المتآمر كان يبحث بنفسه عن ضحاياه ويخرجهم من الصفوف.. ولعل من المؤكد هو أن اعبابو عنّت له في لحظة من اللحظات فكرة التصفية الجسدية لكل الرهائن، باستثناء السفراء والأجانب، لكنه تراجع عن تنفيذ مخططه بعد تدخل أخيه محمد ونصيحته وتوسلاته.

وبفضل محمد اعبابو عاد الرهائن الى منازلهم مساء ذلك اليوم الرهيب (...).

ان كل انقلاب في العالم الثالث لا يأتي سوى بالبؤس والأزمات والمحسوبية سواء ان تم هذا الانقلاب في امريكا اللاتينية، حيث يطبق الجيش ديكتاتورية سوداء، او بعض دول آسيا التي يفرض فيها الذين وصلوا الى السلطة ايديولوجياتهم بالقمع والاستبداد. او في افريقيا حيث تشبث الحكام بالحكم وارتكبوا من أجل ذلك ابادات رهيبة في حق مئات الالاف من الاشخاص (...).

وانا ارقب كل ما يحيط بي، بعد 23 سنة من الغياب، زاد الوضع صعوبة وتفاقما. واذاكان رأيي هذا شخصيا فاعتقد انه واقعي، لانه رأي

رجل كان مقبورا يستطيع وحده ان يرصد التغيير او الاستمرار.

فانا لست بالمتفائل الذي يدفعه تفاؤله الى اخفاء الحقيقة، ولا بالمتشائم الذي يضخم من الامر بهدف الانتقاد الذي يطال كل شيء، بما في ذلك الايجابيات. وما اثارني بعد خروجي كان العدد الهائل من السيارات المستوردة وألواحها الاجنبية، رؤية الاف الاشخاص عارضين سلعهم المهربة على قارعة الطريق، والشباب الضائع في كل مكان. لاحظت ايضا ان النساء الشابات يفرطن في وضع الحلي، منهم كثيرات ناقصات حشمة ووقار، والنزهة المختلطة الظاهرة للعيان لم تعد تصدم احدا.

وما لا يمكن التغاضي عنه، من جهة أخرى، الانجازات الجميلة والواضحة على المستوى التقني والهندسي، وعلى مستوى السدود، واندهشت للحواسيب والفضائيات والتلفزيون بالالوان. احسست بالفخر والاعتزاز بعمل منظماتنا المدافعة عن حقوق الانسان التي تكافح بكل صلابة من أجل حقوق المواطنين، لاحظت بإعجاب ايضا ان الناس يعبرون عن أرائهم ومطالبهم اكثر من السابق. ومامن شك ان المخزن بدوره قام بخطوات الى الامام. وان كانت هناك اشياء كثيرة مازالت مطلوبة.

كان معتقلو تازمامارت ينتظرون القرار الخاص بهم، في حين كان السجانون يعيشون حياتهم العادية. ولاسيما المدير الذي تابع مجرى حياته في مكناس، ومن سخرية الاقدار ان هذا السجان كان يلتقي مرار ثلاثة من المعتقلين في احد المقاهي دون ان يتعرف عليهم، كان رفاقنا يتعمدون الجلوس بالقرب منه لمعرفة رد فعله، لكنه كان يلقي بين الفينة والاخرى نظرة عابرة عليهم دون ان يتعرف عليهم، او يدرك بانهم ضحاياه.

وغالبا ما كان يبدو ثملا غارقا في مناقشات تافهة مع بنات الهوى والساقيات.

ان ما يجب ان يتغير، في شعب من الشعوب هو الذهنية وليس الشعارات، وانا شخصيا مقتنع ايما اقتناع بانبعاث الارواح الفاسدة وتحولها الى ارواح فاضلة، والاشخاص الانانيين وتحولهم الى اسخياء.

انتظر ان ينهض المستعبدون ليحرروا انفسهم والانسان عموما ليتخلص من التصنيفات اللاصقة بجسده التي تجعل منه «ماركة

مسجلة للاستهلاك».
ما اتمناه من كل قلبي، لبلدي وللعالم اجمع، ان تستعيد العقول رشدها والقلوب طيبوبتها حتى يتسنى لنا حل مشاكلنا بلا عنف وحقد. اتمنى ايضا ألا يعرف بلدنا عنفا او تازمامارت بل ديمقراطية ومؤسسات وعدالة واحتراما للقانون. ومادام هناك رجل واحد ووحيد تحت نير العبودية فوق الارض فلن تكون هناك حرية حقيقية!